أسلوب التباين في السرد القرآني

2023

أطروحة دكتوراه

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

Bikhtiyar Kheder AHMEDARSH

المشرف

Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN

أسلـوب التبـاين في السـرد القـرآني

Bikhtiyar Kheder AHMEDARSH

المشرف

Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN

بحث أُعدّ لنيل درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية بمعهد الدراسات العليا بجامعة كارابوك في تركيا

كارابوك

آذار/2023

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات 1

صفحة الحكم على الأطروحة (باللغة التركية).. 5

صفحة الحكم على الأطروحة 6

DOĞRULUK BEYANI 7

تعهد المصداقية.. 8

الإهداء 10

المقدمة 11

الملخص 17

ÖZET.. 19

ABSTRACT 20

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ 21

معلومات سجل الأرشيف 22

ARCHIVE RECORD INFORMATION 23

التمهيد.. 27

أولًا: التباين:.. 27

ثانيًا: السرد: 32

ثالثًا: السرد القرآني:.. 44

الفصل الأول: تقديم العناصر السردية: 56

المبحث الأول: تقديم الشخصيات السردية:.. 57

المطلب الأول: وظائف التباين ودلالاته بين ذكر الأسماء وإبهامها: 60

المطلب الثاني: مستويات التباين في كيفية ذكر أسماء الشخصيات:..73
المطلب الثالث: مستويات التباين بين الشخصيات الإيجابية والسلبية: 82
المبحث الثاني: تقديم الزمن السردي:..93
المطلب الأول: التباين بين تحديد الزمن وإبهامه:...95
المطلب الثاني: التباين بين صيغ تقديم الزمن: 103
المطلب الثالث: المحددات الزمنية ودلالاتها:...113
المبحث الثالث: تقديم المكان السردي:...124
المطلب الأول: دلالات المكان بين الذكر والإبهام: 127
المطلب الثاني: أعلام الأماكن بين التصريح والتلميح:...141
الفصل الثاني: التباين في بناء الزمن السردي: 154
المبحث الأول: الترتيب الزمني: 157
المطلب الأول: الاسترجاع:...158
المطلب الثاني: الاستباق: 172
المبحث الثاني: السرعات السردية: 183
المطلب الأول: الخلاصة: 184
المطلب الثاني: الحذف:...194
أولًا: الحذف الصريح: 195
ثانيًا: الحذف الضمني: 200
المطلب الثالث: المشهد:..209
المطلب الرابع: الوقفة:...219
المبحث الثالث: التواتر السردي:..223
المطلب الأول: التواتر الإفرادي: 224
المطلب الثاني: التواتر التعددي:..233

المطلب الثالث: التواتر التكراري: 240

المطلب الرابع: التواتر التأليفي: 250

الفصل الثالث: التباين في أساليب عرض القصص: 256

المبحث الأول: التباين في أحجام القصص وأشكالها الفنية: 257

المطلب الأول: القصة القصيرة جدًا: 257

أولًا: قصص قصيرة جدًا مستقلة: 258

ثانيًا: قصص قصيرة جدًا غير مستقلة: 264

المطلب الثاني: القصة القصيرة: 275

أولًا: قصص قصيرة غير مستقلة: 276

ثانيًا: قصص قصيرة مستقلة: 281

المطلب الثالث: القصة الطويلة: 290

أولًا: القصة الطويلة المغلقة: 290

ثانيًا: القصة الطويلة المفتوحة: 298

المبحث الثاني: التباين في مستويات السرد: 310

المطلب الأول: التباين في مستويات الضمائر السردية: 311

أولًا: التباين بين الخطاب والغياب: 312

ثانيًا: التباين بين التكلم والغياب: 319

ثالثًا: التباين بين التكلم والخطاب: 325

المطلب الثاني: التباين في مستوى زمن الأفعال السردية: 328

أولًا: التباين بين الماضي والمضارع: 329

ثانيًا: التباين بين الماضي والأمر: 336

ثالثًا: التباين بين المضارع والأمر: 340

المطلب الثالث: التباين في مستوى مسرح الأحداث: 341

التباين بين الدنيا والآخرة:.. 342
الخاتمة والنتائج 354
فهرس المصادر والمراجع.. 358
أولًا: الكتب: 358
ثانيًا: الرسائل والأطاريح: 375
ثالثًا: المجلات والدوريات:.. 377
رابعًا: المواقع الإلكترونية:.. 378
السيرة الذاتية.. 379

صفحة الحكم على الأطروحة (باللغة التركية)

Bıkhtıyar Kheder AHMEDARSH tarafından hazırlanan "KUR'AN ANLATIMINDA KONTRAST ÜSLUBU" başlıklı bu tezin Doktora Tezi olarak uygun olduğunu onaylarım.

Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN ....

Tez Danışmanı, Temel İslam Bilimleri.

Bu çalışma, jürimiz tarafından Oy Birliği ile Temel İslam Bilimleri Anabilim Dalınızı buraya yazınızında Doktora tezi olarak kabul edilmiştir.2023/3/20

Ünvanı, Adı SOYADI (Kurumu)	**İmzası**
Başkan: Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN (KBÜ)	....
Üye : Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ)	....
Üye : Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ (KBÜ)	....
Üye : Prof. Dr. Mehmet Şirin ÇIKAR (VYYÜ)	....
Üye : Prof. Dr. Amdy Bakhit Omaran MOHAMED (GÜ)	....

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu, bu tez ile, Doktora Tezi derecesini onamıştır.

Prof. Dr. Müslüm KUZU ....
Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdür

صفحة الحكم على الأطروحة

أصادق على أن هذه الأطروحة التي أُعدت من قبل الطالب بختيار خدر أحمده رش بعنوان "أسلوب التباين في السرد القرآني" في برنامج العلوم الإسلامية الاساسية هي مناسبة كأطروحة دكتوراه.

Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKIN ....

المشرف على الاطروحة، العلوم الإسلامية الأساسية

قبول

تم الحكم على أطروحة الدكتوراه هذه بالقبول من قيل لجنة المناقشة بالإجماع، بتاريخ

2023/3/20

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيع**
رئيس اللجنة: Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN (KBÜ)	....
عضوًا : Dr. Öğr. Üyesi Mustafa YILDIZ (KBÜ)	....
عضوًا : Dr. Öğr. Üyesi Salih DERŞEVİ (KBÜ)	....
عضوًا : Prof. Dr. Mehmet Şirin ÇIKAR (VYYÜ)	....
عضوًا : Prof. Dr. Amdy Bakhit Omaran MOHAMED (GÜ)	....

تم منح الطالب بهذه الأطروحة درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية من قبل مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك.

Prof. Dr. Müslüm KUZU ....

مدير معهد الدراسات العليا

DOĞRULUK BEYANI

Doktora tezi olarak sunduğum bu çalışmayı bilimsel ahlak ve geleneklere aykırı herhangi bir yola tevessül etmeden yazdığımı, araştırmamı yaparken hangi tür alıntıların intihal kusuru sayılacağını bildiğimi, intihal kusuru sayılabilecek herhangi bir bölüme araştırmamda yer vermediğimi, yararlandığım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluştuğunu ve bu eserlere metin içerisinde uygun şekilde atıf yapıldığını beyan ederim.

Enstitü tarafından belli bir zamana bağlı olmaksızın, tezimle ilgili yaptığım bu beyana aykırı bir durumun saptanması durumunda, ortaya çıkacak ahlaki ve hukuki tüm sonuçlara katlanmayı kabul ederim.

Adı Soyadı: Bıkhtıyar Kheder AHMEDARSH

İmza:

تعهد المصداقية

أقر بأنني التزمت بقوانين جامعة كارابوك، وأنظمتها، وتعليماتها، وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد أبحاث الماجستير والدكتوراه أثناء كتابتي هذه الأطروحة التي بعنوان:

"أسلوب التباين في السرد القرآني"

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث العلمية، كما أنني أعلن بأن أطروحتي هذه غير منقولة، أو مستلة من أطروحات أو كتب أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أية وسيلة إعلامية باستثناء ما تمت الاشارة اليه حيثما ورد.

اسم الطالب: بختيار خدر أحمده رش

التوقيع: ....

آية كريمة

بِسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[آل عمران: 62]

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي المتواضع إلى:

- روح والديّ الكريمين رحمهما الله تعالى وأسكنهما فسيح جناته.
- نبع المودة والحنان عنوان الوفاء والإخلاص، زوجتي العزيزة.
- فلذات كبدي أولادي الأعزاء: تيكوشان، ميهره بان، باداشت وشكودار.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق وحبيب الحق خاتم النبيين والمرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين إلى يوم الدين.

أما بعد...

فإن القرآن الكريم هو الرسالة الإلهية الخالدة والمنهج الرباني المتكامل للحياة، ختم الله ﷻ به الكتب السماوية، فأنزله من فوق السماوات السبع على قلب رسوله ﷺ ليكون الآية الكبرى على صدق نبوته، والنور المبين الذي يهتدي به الباحثون عن الحق من العالمين جميعًا، فيحقق لهم السعادة والأمان في الدنيا والآخرة، فشاء الله ﷻ أن يكون هذا القرآن معجزًا من حيث بناؤه الفني والدلالي، لتبقى معجزته خالدة يتحدى بها الكون كله تحديًا قائمًا إلى يوم الدين، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) ﴾ [البقرة: 23– 24].

وتناسبًا مع كون الخطاب القرآني يهدف إلى التأثير في عقل الإنسان ونفسه، فقد مثل السرد القرآني واحدًا من أقوى أساليبه الدعوية لتحقيق ذلك، إذ كان له الأثر الفعال في التأسيس لبناء عقيدة الإنسان المسلم وتربيته وفق منهج تربوي صحيح، متخذًا في ذلك أسلوبًا فنيًا وأدبيًا معجزًا مكنه من إثارة فكر المتلقي وخياله إلى جانب تحريك مشاعره وأحاسيسه.

فأصبح السرد القرآني من المواضيع القرآنية التي كانت ومازالت تفرض حضورها الدائم والمستمر في ذهن المتلقي وشعوره؛ لأنه يعدّ من أول المواضيع التي تلفت انتباهه وتثير فضوله المعرفي والعلمي والفني، سواءً على مستوى المتلقين العاديين أو النموذجيين من العلماء وأهلِ الاختصاص، ولا شك أن هذا الأمر

يأتي بالتناسب مع طبيعة الإنسان وفطرته في الميلِ نحو سماع أو قراءة القصص منذ قديم الزمان وإلى يومنا الحاضر، ولعل هذا يرشدنا إلى فهم تلك الحكمة الإلهية التي جعلت من السرد القرآني يشكّل ذلك البعد البارز والمحور الأساس داخل النسيج النصي للقرآن الكريم، وعلى هذا الأساس تحاول الأطروحة البحث في واحد من أساليبه الفنية وهو أسلوب التباين، وذلك انطلاقًا من أن القرآن الكريم يمثل الرافد الأبدي الذي كلما استسقينا منه ازداد تدفقًا وعطاءً.

وتهدف هذه الأطروحة في دراستها لأسلوب التباين في السرد القرآني إلى الربط بين جملة من الأهداف الدينية والفنية، فهي تحاول استخدام المفاهيم السردية وإخضاعها خدمة للخطاب القرآني ككل، بشكل يساعد في إدراك هذا الخطاب إدراكًا تامًا، وذلك عندما تقف الأطروحة عند الدلالات والإيحاءات المتشكلة عن تجليات أسلوب التباين داخل السرد القرآني وتحاول الكشف عنها، فيتحقق بذلك ما يلح عليه الخطاب القرآني من إقامة التواصل الدائم بين النصِ والمتلقي، وذلك عن طريق لفت انتباهه وإثارة ذهنه وخياله، ثم إشراكه في تحليل العملية السردية، إذ يجعله يجهد في فكّ تلك الرموز الإيحائية واستكشاف الدلالات والمعاني المرتبطة بها، فيشكّل هذا الأسلوب مصدرًا تنبثق منه انعكاسات إيجابية على فهم المتلقي في تعامله مع المواقف والأحداث المتعلقة بالكثير من شؤونه الحياتية من فكرية وثقافية وأدبية ومهنية واجتماعية، إذ يمكنه استخدام هذا الأسلوب بمثابة آلية إجرائية تساعده على الفهم الصحيح للأفكار والآراء وتقريبها إلى ذهنه بغية تصورها وإدراكها، وذلك لفاعلية هذا الأسلوب في خلق حالات فريدة تساعد في التعرف إلى مفاهيم الأشياء من خلال تباينها مع محيطها الذي يتضمنها.

وتأتي أهمية الأطروحة في أنها تحاول الكشف عن تلك الدلالات والإيحاءات التي كان لأسلوب التباين التأثير في تشكّلها وظهورها داخل السرد القرآني، وهذا ما أعطى موضوعَ الأطروحة سمة التميز والجدة والحداثة، فهو يمثل دراسة لمسألة فنية نستطيع القول إنها لم تعالَجْ من قبل معالجةً مستفيضة، فهي

جاءت على شكل محور فرعي صغير ضمن كتاب (جماليات التلقي في السرد القرآني) للأستاذ الدكتور يادكار لطيف الشهرزوري، حيث وقف عند مفهوم التباين وبحث من خلاله عن الشخصية السلبية وتباينها مع محيطها داخلَ السرد القرآني. هذا فضلًا عما يمكن أن تمتلكه هذه الأطروحة من إمكانيات ربما تسهم في تلبية شيءٍ يسير من الحاجة الآنية للدراسات السردية المتخصصة في السرد القرآني، والتي أصبحت من أولويات اهتمامات القراء والباحثين في زمننا المعاصر.

وتكمن مشكلة الأطروحة في أنها تحاول الوقوف عند أسلوب التباين الذي استخدمه السرد القرآني في عرض القصص وعناصرها السردية على أساس التباين والاختلاف بين الشيء ومحيطه، والذي سنحاول البحث في تجلياته بوصفه أسلوبًا فنيًا يكسب النص السردي دلالات مختلفةً تنبثق منها إيحاءات ومعاني متنوعة.

أمّا المنهج المتّبع في دراسة الأطروحة فهو نصي ينطلق من طبيعة الآيات القرآنية وخصوصيتها وفق أسلوب التباين، ثم يتوسع إلى آفاق أرحب بالاستفادة من جهود المفسرين والمشتغلين في مجال السرد القرآني، وهذا ما جعل من الدراسة أن تتعامل مع السرد القرآني تعاملًا نصيًا من خلال أدواته اللغوية ومعطياته الداخلية من دلائل السياقات النصية مدعومة بدلائل خارجية مستنبطة من كتب التفاسير القديمة والمعاصرة.

ارتكزت الأطروحة في دراستها على شواهد النصوص السردية في القرآن الكريم، ثم كتب التفاسير القديمة والحديثة التي شكلت أصولًا مرجعية استندت إليها في تحليلاتها لتلك النصوص، وبعدها تأتي كتب البلاغة والنقد، والكتب التي تناولت السرد القرآني بالبحث والتحليل، هذا فضلًا عن مصادر علم السرد التي شكلت ركائز أساسية تأسست عليها تنظيرات الأطروحة.

ومن الجدير بالذكرِ إن هذا العمل كأي بحث آخر واجهَ صعوبات عديدة، ولكنّ الصعوبة الأكبر هي التي تمثلت في كون النص القرآني نصًا مقدسًا، فكان من الصعب التعامل معه كأي نص آخر من صنع البشر، وهذا ما جعل من الباحث أن يكون في غاية الدقة والحذر عندما يكون في حضرة النصوص السردية القرآنية، فاحتاج إلى وقت وجهد كبيرين صرفهما في البحث والقراءة المتأنية.

تأسست خطة البحث في الأطروحة على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة بالنتائج المستخلصة. بدأ التمهيد بتسليط الضوء على المفاهيم والمصطلحات الرئيسة التي ارتكزت عليها الأطروحة، فبدأ بمصطلح التباين وتعريفه لغة واصطلاحًا، وبيان الحقل العلمي الذي ينتمي إليه، وكيفيةِ دخوله إلى مجال الأدب والنقد الأدبي، ثم دخل في الحديث عن مفهوم السرد وفصّل فيه القول بوصفه علمًا مستقلًا بذاته له منهجه وأصوله وقواعده واتجاهاته، ثم انتهى بالحديث عن السرد القرآني وماهيته وخصائصه وأهدافه.

أما الفصل الأول فتناول فيه الباحث العناصر السردية المتمثلة في الشخصيات السردية والمكان والزمان السرديين، وطريقة تقديم كل منها على أساسِ أسلوب التباين، بشكل استقل كل عنصر من العناصر الثلاثة في مبحث واحد. اشتمل المبحث الأول من الفصل على ثلاثة مطالب: الأول ركّز فيه الباحث على إبراز وظائف التباين ودلالاته بين ذكر أسماء الشخصيات وإبهامها، أما الثاني فأظهر فيه مستويات التباين في كيفية ذكر أسماء الشخصيات، وأما الثالث فوقف فيه عند مستويات التباين بين الشخصيات الإيجابية والسلبية. وكذلك المبحث الثاني فقد ضم ثلاثة مطالب بحثية أيضًا: جاء الأول لإظهار التباين بين تحديد الزمن وإبهامه. أما الثاني فكان للوقوف عند التباين بين صيغ تقديم الزمن، في حين خصص المطلب الثالث للبحث في المحددات الزمنية ودلالاتها. ثم جاء المبحث الثالث وانقسم إلى مطلبين: الأول جاء للكشف عن دلالات التباين في تقديم المكان بين الذكر والإبهام, والثاني للبحث في دلالات تباين أعلام المكان بين التصريح والتلميح.

وأما الفصل الثاني فقد خصص للتباين في البناء الزمني، وانقسم إلى ثلاثة مباحث: الأول كان للبحث في الترتيب الزمني على أساس التباين بين زمني الحكاية والسرد، وما ينتج عن ذلك من مفارقات زمنية تتمثل في تقنيتي الاسترجاع والاستباق الزمنيين، واللتينِ جرى البحث فيهما في مطلبين اثنين. في حين تناول المبحث الثاني الديمومة السردية التي تتعلق بالتباين في زمن دوام الحدث بين الحكاية والسرد، وما ينتج عن ذلك من سرعات سردية متباينة تتمثل بالحذف السردي، والخلاصة السردية، والمشهد السردي، والوقفة السردية، وجاء الحديث عن كل تقنية زمنية من هذه التقنيات في مطلب مستقل. أما المبحث الثالث فبحث في التواتر السردي الذي يعبر عن التباين في تكرار الحدث بين الحكاية والسرد، وما ينتج عن ذلك من أنماط التواتر السردي، والتي تتمثل في التواترات الإفرادية والتعددية والتكرارية والتأليفية، وقد أفرد لكل نمط من هذه التواترات الأربعة مطلب مستقل.

وأما الفصل الثالث والأخير فقد خصص للبحث عن التباين في أساليب عرض القصص، واشتمل على مبحثين اثنين، جاء أولهما للبحث في التباين على مستوى حجم القصص وأشكالها الفنية، والتي تمثلت في القصة القصيرةِ جدًا، والقصة القصيرة، والقصة الطويلة، وجاء الحديث عن كل واحدة منها في مطلب مستقل. وثانيهما جاءَ البحث فيه عن التباين في مستويات السرد، والتي تمثلت في مستويات الضمائر، والأفعال السردية ومسرح الأحداث الذي ركز فيه الباحث على التباين بين الدنيا والآخرة، وجاء البحث في كل واحد من هذه المستويات الثلاثة في مطلب مستقل. وأخيرًا انتهى البحث بخاتمة أجملت أهمَّ النتائج المستخلصة من الأطروحة.

وقبل الختام أود أن أعبّر عن جزيل شكري وامتناني وفائق تقديري واحترامي لأستاذي القدير المشرف على الأطروحة الدكتور (علاءالدين جولتكين) لسعة صدره وحرصه الشديد على متابعة مراحل كتابة الأطروجة واكتمالها، وأشكره على كل ما تفضل به من نصائح قيمة وإرشادات موجهة أسهمت في

إنجاح الأطروحة وإنجازها بالصورة المرجوة، كما أشكره من أعماق قلبي على تعامله الأخوي المطرز بالحب والمودة والتواضع، فأرجو له دوام الموفقية والنجاح وجزاه الله تعالى عني كل خير. كما أتقدم بالشكر والتقدير الخالصين إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على ما سيبذلونه من جهد في قراءة هذه الأطروحة وتقويمها، وعلى ما سيتفضلون به من نصائح وإرشادات، وأخص بالذكر أستاذي الكريم الدكتور (صالح ديرشوي)، فأتقدم له بالشكر والتقدير الفائقين على مساندته إياي، وعلى ما أبداه من الحرص الشديد في إنجاح الأطروحة، وأرجو من الله تعالى أن يبارك فيه ويجزيه عني كل خير، أكرر شكري وامتناني لكم جميعًا أساتذتي الكرام، وفقكم الله تعالى وبارك لكم في جهودكم العلمية.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى عمادة كلية العلوم الإسلامية وقسم العلوم الإسلامية الأساسية، ومعهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك أساتذة وموظفين على كل ما أبدوه من تعاون في سبيل إنجاح المشروع، وفقهم الله تعالى وبارك فيهم جميعًا.

ويحتّم عليّ واجب الوفاء والإخلاص أن أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى كل من مدّ إلي يد العون بالنصح والإرشاد والتوجيه، وأخص بالذكر أستاذي وصديقي العزيز الأستاذ الدكتور (يادكار لطيف الشهرزوري)، فبارك الله تعالى في علمه وعمله، وجزاه عني خير جزاء. والشكر موصول إلى أصدقاء العمر إخواني الأستاذ (عرفان عبدالجبار أحمد)، والأستاذ (عماد رشيد بيرداود) والأستاذ (بختيار إبراهيم عزيز) على ما قدموه لي من دعم ومساندة، بارك الله تعالى فيهم ووفقهم في دينهم ودنياهم.

وختامًا لا أدّعي الكمال لهذا البحث، فهو لا يشكل إلا جهدًا متواضعًا لا يمكن أن يخلو من أخطاء وهفوات، أسأل الله جل جلاله أن يغفرها لي، فإنه هو الغفور الرحيم. وأرجو أني وفقت بدراستي هذه إلى مسعاي في خدمة القرآن الكريم، داعيًا من الله جل جلاله أن يجزيني وكل من أسهم في إنجاح هذا البحث ثواب الدنيا والآخرة اللهم آمين، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: 88].

الملخص

تسعى هذه الأطروحة الموسومة بـ(**أسلوب التباين في السرد القرآني**) إلى البحث في الخطاب السردي القرآني، لتقف عند واحدٍ من أساليبه الفنية المتميزة، والذي يتمثل في أسلوب التباين بوصفه آلية إجرائية يسعى السرد القرآني من ورائها إلى إبراز عناصره وأشكاله ومستوياته السردية المتباينة، وذلك من خلال خلق حالة من التمايز والاختلاف في أساليب صياغتها وطرائق عرضها، والتي تؤدي إلى تشكيل رموز ودلالات متنوعة تحاول الأطروحة الوقوف عندها واستكشاف المعاني والإيحاءات المنبثقة منها. وبهذا يشكل أسلوب التباين وسيلة فعالة تسهم في تحقيق التواصلِ الدائم بين النصِ والمتلقي، وذلك عن طريق لفت انتباهه وإثارة فكره وعواطفه وأحاسيسه، ثم دفعه إلى الاشتراك في تحليل العملية السردية، وتمتد آثار هذا الأسلوب إلى حدود أبعد من ذلك، إذ يمكن أن يشكل مصدرًا تنبثق منه انعكاسات إيجابية على المتلقي في تعامله مع المواقف والأحداث المتعلقة بالكثير من شؤونه الحياتية التي تتمثل في ممارساته الفكرية والثقافية والأدبية والمهنية والاجتماعية، إذ يمكنه استخدام هذا الأسلوب بمثابة آلية إجرائية تساعده على الفهم الصحيح للأفكار والآراء وتقريبها إلى الأذهان، فيتسنى بذلك تصوّرها وإدراكها، وذلك بما لديه من فاعلية في خلق حالات فريدة تساعد في التعرف إلى المفاهيم من خلال تباينها مع محيطها الذي يتضمنها.

بدأت الأطروحة بتمهيد سلط الضوء على المفاهيم الأساسية التي شكلت العنوان، ثم انقسمت إلى ثلاثة فصول: الأول خصص للبحث في العناصر السردية التي تمثلت في الشخصيات والزمان والمكان، والوقوف عند فاعلية أسلوب التباين في طرائق عرضها، أما الثاني فخصص للبحث في التباين في البناء

الزمني، وما نتج عنه من تباينات زمنية، وأما الثالث فخصص للبحث في أساليب عرض القصص من حيث أشكالها الخارجية ومستوياتها الداخلية، واختتمت الأطروحة بمجموعة من النتائج والتوصيات أدرجها الباحث على شكل نقاط.

الكلمات المفتاحية: التباين، السرد، السرد القرآني، العناصر السردية، الأشكال السردية، المستويات السردية.

ÖZET

Kur'an anlatı söyleminde araştırma yapmak için "Kur'an Anlatımındaki Çeşitleme (Varyasyon) Tarzı" adı ile isimlendirilen, kendine özgü sanatsal yöntemlerinden birinde durmak ,Kur'an anlatısının arkasında çeşitli anlatı unsurlarını, biçimlerini ve düzeylerini vurgulamaya çalıştığı usule ilişkin bir mekanizma olarak çeşitleme tarzında temsil edilir

Bu, tezin dayanmaya çalıştığı çeşitli sembollerin ve çağrışımların oluşumuna ve bunlardan kaynaklanan anlam ve vahiylerin keşfedilmesine yol açan, formülasyon ve sunum yöntemlerinde bir farklılaşma ve farklılık durumu yaratarak yapılmaktadır . Dolayısıyla varyasyon (Çeşitleme) yöntemi, onun dikkatini çekerek onun düşünce, duygu ve hislerini harekete geçirerek ve ardından onu anlatı sürecinin analizine katılmaya sevk ederek metin ile alıcı arasında kalıcı bir iletişim kurulmasına katkıda bulunan etkili bir araç oluşturur. Entelektüel, kültürel, edebi, mesleki ve sosyal uygulamalarında temsil edilen, yaşamıyla ilgili pek çok olayla ilgili durum ve olaylarla ilişkilerinde alıcı üzerinde olumlu yansımaları vardır.

Bu yöntemi, fikir ve görüşleri doğru bir şekilde anlamasına ve zihnine yaklaştırmasına, böylece onları görselleştirmesine ve gerçekleştirmesine yardımcı olan prosedürel bir mekanizma olarak kullanabilir. Bunun nedeni, kavramları çevreleriyle karşılaştırarak tanımlamaya yardımcı olan benzersiz durumlar yaratmadaki etkinliğidir.

Tez, başlığı oluşturan temel kavramlara ışık tutan bir önsöz ile başlamış, ardından üç bölüme ayrılmıştır: Birincisi, karakterlerde, zamanda ve yerde temsil edilen anlatı öğelerini araştırmaya ve bunları sunma biçimlerinde varyasyon tarzının etkilerini incelemeye ayrılmış, İkinci bölümde ise, zamansal yapıdaki varyasyonu ve bunun sonucunda ortaya çıkan zamansal tutarsızlıkları bahsedilmektedir. Üçüncüsü ise öyküleri sunma yöntemlerinin dış biçimleri ve içsel düzeyleri açısından araştırılmasına ayrılmış ve ardından araştırmacının maddeler halinde yer verdiği bir dizi sonuç ve öneri ile tez sonlandırılmıştır.

Anahtar Kelimeler: Varyasyon, Anlatı, Kur'an Anlatısı, Anlatı Öğeleri, Anlatı Çeşitlemeleri

ABSTRACT

This dissertation which is entitled (The Contrastive Style in Koranic Narrative) aims at examining the Koranic narrative discourse to point out an outstanding artistic style, known as the contrastive style. Contrastive style is an implemented mechanism of Koranic narrative that tries to highlight various elements, forms, and narrative levels of Koranic narrative discourse. This is fulfilled through creating a case of contrast and difference in its formative style and the ways of presentation.

This, in turn, has led to diverse symbols and styles that this study tries to examine and discover the meanings and signified senses emanating from them. Thus, contrastive style becomes an effective tool contributing to continuous communication between the text and the recipient by drawing the attention and storming the ideas, emotions, and feelings of the recipient and pushing him/her to participate in the narrative process analysis. The effect of this style goes even behind this; it can create a source from which positive reflections will be stimulated in the recipient when dealing with many situations and events related to his/her life on the intellectual, cultural, literary, professional, and social levels. The recipient can use this style as a tool that will help him/her to understand various thoughts and ideas and bring them close to the mind which will lead to closer conceptualization and perception. Hence, this style is powerful in creating unique cases that assist recognizing the concepts through its contrast with its contextual environment.

The dissertation starts with shedding light on the main concepts of the title and then it is divided into three chapters. Chapter one is dedicated to the narrative elements, represented by characters, time and place and it deals with the effects of contrastive style and the ways of its presentation. Chapter two examines the temporal structure of contrast and the consequences resulting from temporal contrast. Chapter three is dedicated to examine the styles of exposing the outward forms and inward levels of the stories. The last part of the study sums up a number of conclusions and a list of recommendations, arranged in bullets.

Keywords: Contrast, Narrative, Koranic Narrative, Narrative Elements, Narrative Forms, Narrative Levels.

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	Kur'an Anlatiminda Kontrast Üslubu
Tezin Yazarı	Bikhtiyar Kheder AHMEDARSH
Tezin Danışmanı	Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKIN
Tezin Derecesi	Doktora
Tezin Tarihi	20.03.2023
Tezin Alanı	Temel Islam Bilimleri
Tezin Yeri	KBÜ/LEE
TezinSayfa Sayısı	379
Anahtar Kelimeler	Zıtlık, Anlatı, Kur'an Anlatısı, Anlatı Öğeleri, Anlatım Biçimleri, Anlatı Düzeyleri

معلومات سجل الأرشيف

إسم الأطروحة	"أسلوب التباين في السرد القرآني"
كاتب الأطروحة	بختيار خدر أحمده رش
مشرف الأطروحة	أ.م. الدكتور علاءالدين جولتكين
حالة الأطروحة	دكتوراه
تاريخ الأطروحة	20.03.2023
مجال الأطروحة	العلوم الإسلامية الأساسية
مكان الأطروحة	جامعة كارابوك – معهد الدراسات العليا
عدد الصفحات	379
الكلمات المفتاحية	التباين، السرد، السرد القرآني، العناصر السردية، الأشكال السردية، المستويات السردية.

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Title of the Thesis	Contrasting Style İn The Quranic Narration
Author of the Thesis	Bıkhtıyar Kheder AHMEDARSH
Advisor of the Thesis	Assoc. Prof. Dr. Aladdin GÜLTEKİN
Status of the Thesis	Doktora
Date of the Thesis	20.03.2023
Field of the Thesis	Basic Islamic Sciences
Place of the Thesis	UNIKA/IGP
Total Page Number	379
Keywords	Contrast, Narrative, Koranic Narrative, Narrative Elements, Narrative Forms, Narrative Levels.

التمهيد

أولًا: التباين:

للوقوف عند معنى التباين لغةً لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية، فقد نجد معنى التباين في الصحاح بأن "(المباينة) المفارقة و(تباين) القوم تهاجروا وتباعدوا"[(1)]، ويذهب لسان العرب في التوجه ذاته إذ جاء فيه أن "المباينة المفارقة، وتباين القوم: تهاجروا، وتباين الرجلان بان كل واحد منهما عن صاحبه وكذلك في الشركة إذا انفصلا"[(2)]. والمعنى ذاته نجده في القاموس المحيط، إذ جاء فيه أن التباين يعني التهاجر[(3)]. وقد فصل الجرجاني القول في كتابه معجم التعريفات، إذ عرف التباين بأنه "إذا نسب أحد الشيئين إلى الآخر لم يصدق أحدهما على شيء مما صدق عليه الآخر، فإن لم يتصادقا على شيء أصلًا فبينهما تباين الكلي: (كالإنسان والفرس)، ومرجعهما إلى سالبتين كليتين، وإن صدقا في الجملة فبينهما التباين الجزئي: (كالحيوان والأبيض)، وبينهما العموم من وجه ومرجعهما إلى سالبتين جزئيتين"[(4)]، ويتضح مما سبق أن المعاجم اللغوية متفقة على المعنى اللغوي لمصطلح التباين، وأنها ترى فيه معاني التباعد والتخالف والتغاير والتهاجر.

أما من حيث الاصطلاح فإن لمفهوم التباين جذورًا تاريخية نتلمسها في كتب البلاغة العربية، ولكن تحت تسميات أخرى، مثل المقابلة والطباق والمغايرة والتفريق، إذ جاء في تعريف هذه المصطلحات ما يشير

---

(1) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، **صحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تح: محمد محمد تامر، (القاهرة: دار الحديث، 2009م)، 126.

(2) محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، (القاهرة: دار الحديث ، 2003م)، باب الباء [ب ي ن].

(3) مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، (القاهرة: دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، 2008م)، حرف الباء.

(4) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، **معجم التعريفات**، تح: محمد صديق المنشاوي، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، دط، دت)، باب التاء.

إلى معنى التباين، فالمقابلة هي أن يؤتى بألفاظ تدل على معاني متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، والطباق هو الجمع بين المعنى وضده والتقابل بينهما في الكلام، والمغايرة فهي الجمع بين معنيين متباينين في موقع واحد، أما التفريق فهو أن يعمد المتكلم إلى إيقاع التباين بين شيئين من نوع واحد(5).

ومن أبرز ما كتب عن مفهوم التباين في البلاغة العربية هو ما تطرق إليه الجرجاني في فصل التشبيه، إذ يرى أن القاعدة الجمالية تقوم على الاختلاف الذي يثير متعة القراءة ويحركها، ويكون السبب في جمال النص ولذته، فغاية التشبيه عنده تتجه نحو التباين والأضداد والمختلفات(6)، إذ يرى شدة إثارة التشبيه لأحاسيس المتلقي وإمتاع فكره في شدة التباعد والتباين بين المشبه والمشبه به(7). وهكذا جاء استخدام النقد العربي القديم لهذه المفاهيم والمصطلحات معبرًا عن المفهوم المعاصر لمصطلح التباين، والذي نلحظه تحت تسميات الاختلاف والتضاد والتقابل كعلامة فعالة في النصوص الأدبية، وقد يتاوارى في البنية العميقة للنص بشكل يتطلب قراءة متفحصة كاشفة تساعد في التفسير والتحليل الدقيقين(8).

يرى الدكتور عبدالملك مرتاض أن مصطلح التباين مأخوذ بالأساس من أصل إغريقي للفظين هما (Heteros) ومعناه (غير)، أو (الآخر)، و (topos) ومعناه المكان، لذلك يكون (Hetorotopie) هو (المكان الآخر)(9)، إلا إننا عندما نقارن بين هذه المصطلحات جميعًا نرى أن مصطلحات البلاغة العربية هي الأقرب إلى الدلالة على معنى التباين ومفهومه.

---

(5) السيد علي صدرالدين بن معصوم المدني، **أنوار الربيع في أنواع البديع**، تح: شاكر هادي شكر, (النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ط1، 1968م)، 298/1، 31/2, 371/2, 259/4. عبد الملك مرتاض، **التحليل السيميائي للخطاب الشعري**، (دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، ، 2005م)، 23-24.

(6) عبدالله محمد الغذامي، **المشاكلة والاختلاف**،(الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1994م)، 66-65.

(7) أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، **أسرار البلاغة**، تح:محمود محمد شاكر، (جدة: دار المدني، دت)، 130.

(8) مريم بن عمر، **التشاكل والتباين في ديوان "النبية تتجلى في وضح الليل"** لربيعة جلطي، رسالة ماجستير، (سكرة: جامعة محمد خيضر، 2015-2016م)، 40.

(9) مرتاض، **التحليل السيميائي للخطاب الشعري**، 23.

أما دخوله بهذه التسمية إلى مجال الخطاب الأدبي والنقدي المعاصر فكان في الثمانينات من القرن الماضي عن طريق غريماس (J. Greimas) الذي استعاره بدوره من حقل الفيزياء والكيمياء[10].

تنوعت معاني التباين بحسب الحقل العلمي والمعرفي الذي جاء فيه استخدام المصطلح، فهو يأتي في الدراسات النفسية للدلالة على اختلاف منبه عما يحيط به من منبهات أخرى منسجمة مع بعضها، فنحن نتنبه إلى بقعة حمراء على ثوب أبيض مبقع كله ببقع سوداء، أو نتنبه إلى امرأة وحيدة بين حشد من الرجال[11]، أما في مجال الفنون فيظهر مصطلح التباين من بين مصطلحات الفن التشكيلي، للتعبير عن تباين الألوان وبقع الضوء والظل في الصورة أو اللوحة أو التمثال. أما في الأدب فيُحدّد التباين على أنه يدل على اشتمال الموقف على حالات متعارضة، تؤدي إلى مغايرة تحدد أبعاد الصراع الدرامي، لذلك يعرف التباين بأنه تمايز الأشياء بأضدادها[12]، ونتلمس من تعريف التباين في الأدب أنه يعني الجمع بين مواقف متمايزة في النص، بشكل يسهم ذلك في تولد الدلالات والإيحاءات، مما يحفز القارىء على الوقوف عندها واستنتاجها. إذًا التباين هو الآلية الإجرائية التي يمكن من خلالها رصد العلاقات المتنافرة والمتناقضة التي تفضي إلى تحديد الدلالات التي تشير إلى معاني معينة، والتي نجدها داخل النص الأدبي عبر التحليل والبحث[13].

ربما يتوسع مفهوم التباين أكثر، بحيث يرى فيه البعض أنه ظاهرة لغوية عامة تعبر عن التنوع الثقافي الاجتماعي في المجتمع اللغوي الواحد[14]، فمن خلال تلك التباينات التي نلحظها بين الألفاظ تظهر

---

(10) محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري– استراتيجية التناص**،(الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م)، 19. مرتاض، **التحليل السيميائي للخطاب الشعري**، 21.

(11) حكمت درو الحلو، زريمق خليفة العكروتي، **مدخل إلى علم النفس**، (القاهرة: المكتب المصري، 2004م)، 100.

(12) سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء، سوشبريس، ط1، 1985م)، 55.

(13) عبد الملك مرتاض، **مقامات السيوطي**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996م)، 45.

(14) وليد أحمد محمود العناتي، **التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية**، أطروحة دكتورا، (الأردن: الجامعة الأردنية، 2000م)، 10.

الأهمية الكبرى للتباين في إثراء التعدد الثقافي ضمن حدود اللغة الواحدة، فتتولد عنها الدلالات التعبيرية المتعددة والمختلفة من حيث الشكل والمعنى.

ويتضح مما سبق أن مفهوم التباين واسع ومتشعب، ويصعب حصره[15]، إذ يرى الدكتور محمد مفتاح أنه يشكل أحد المكونات الأساسية لكل ظاهرة إنسانية ومنها اللغوية، وقد يكون من الدقة والخفاء بحيث يحتاج إلى التمعن والنظر الدقيق بشكل يساعد على الولوج إلى البنية العميقة للنص، وقد يكون واضحًا بما فيه الكفاية، وذلك عندما نتلمس الصراع والتوتر بين طرفين أو أطراف متعددة[16].

لقد ارتبط وجود مفهوم التباين في المباحث النقدية بوجود مفهوم التشاكل، فهما أساسيان وشموليان داخل الخطاب الأدبي[17]. ولكن على الرغم من اقتران المصطلحين معًا، وعدم إمكانية فصل أحدهما عن الآخر[18]، فإن ما ناله التباين من التنظير يعد ضئيلا جدًا بالمقارنة مع التشاكل[19]، وأنّ الدراسات النقدية قد تراوحت في تسميته بين مصطلحات مختلفة، مثل الاختلاف (Difference) الذي يدل على الشيء المغاير المختلف. وجدير بالذكر أن مفهوم الاختلاف ينتمي إلى المصطلحات التي جاءت نتيجة لجهود فرديناند دي سوسير (F. de Saussure) في مجال اللسانيات، إذ يقوم مبدأ الاختلاف عنده مقام رابط لتحديد بعض العلاقات الثنائية[20]، مما يدل عل أن استعماله لدى دي سوسير يأتي "للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرّفَةً ليس بشكل إيجابي من مضمونها، وإنما بشكل

---

(15) مرتاض، **التحليل السيميائي للخطاب الشعري**، 23.

(16) مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري–استراتيجية التناص**، 71.

(17) مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري–استراتيجية التناص**، 79.

(18) فيصل الأحمر، **معجم السيميائيات**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، 2010م)، 238.

(19) فردينان دي سوسور، **علم اللغة العام**، ت: يوئيل يوسف عزيز, (بغداد: دار آفاق عربية، سلسلة 3, 1985م)، 37. مريم مكي، **بنية الخطاب الشعري الجزائري المعاصر–دراسة تحليلية–**، رسالة ماجستير، (الجزائر، جامعة وهران، 2013-2014م)، 71.

(20) ج. هيو سلفرمان، **نصيات بين الهرمنوطيقا والتفكيكية**، ت: حسن ناظم وحاكم علي صالح، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 2002م) 45.

سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام"(21)، هذا يعني أن الاختلاف هو أساس تشكل المعنى وإدراكه، وإن هذا الاختلاف هو الذي يعطي الألفاظ قيمتها الدلالية من خلال العلاقة التي تربطها مع الألفاظ المجاورة لها. وهكذا فقد أصبح الاختلاف من مقومات التفرد والتميز للنص الأدبي، كما يرى ذلك الدكتور عبد العزيز حمودة، إذ يقول: إن أساس التعبير لأي دالة أو مدلول عن معنى هو وجوب أختلافه عما يحيط به من دلالات ومدلولات، لذلك نجد الاختلاف عنصرًا مؤثرًا وفعّالًا داخل النصوص الأدبية على جميع الأصعدو والمستويات؛ ليكسبها خاصية نصية تتشكل من خلالها الإيحاءات والدلالات(22)، إذًا فهو يعد عنصرًا حيويًا في عملية بناء النصوص الأدبية، على المستويين: الشكل والمضمون، إذ يتجلى الاختلاف في كل الحقول الدلالية والأنساق اللفظية، فإن ما يكسب النص شاعرية أكثر هو الجمع بين المتنافرات والمتباينات(23).

وإن الاختلاف يولّد عملية ذهنية تتمثل في الحضور والغياب، فالطرف الحاضر يعادل بالضرورة طرفًا غائبًا، فيكوّنان تأثيرًا دلاليًا ازدواجيًا، ففي الوقت الذي يؤدي الحاضر الدور التعبيري، يتبعه الغائب بأداء دوره عن طريق حركة الذهن، ليسهم هذا الأداء في إثراء النص الأدبي وإغنائه، وذلك جراء تولد معنيين نتيجة لهذا الاختلاف: معنى ظاهر وسطحي، ومعنى آخر غائب وعميق يتشكل بين الدوال ومدلولاتها والعلاقات التجاورية بينها(24).

هناك مصطلحات نقدية يستخدمها المتخصصون للإشارة إلى مفهوم التباين، مثل مصطلح (اللاتشاكل) الذي جاء التعبير عنه في حديث الدكتور محمد مفتاح عن الاستعارة وماهيتها بقوله "إن الأمر

---

(21) رشيد بن مالك، **مقدمة في السيميائية السردية**، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2000م)، 10.

(22) عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة– من البنوية إلى التفكيك**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م)، 377.

(23) الغذامي، **المشاكلة والاختلاف**، 18.

(24) محمد عبدالمطلب، **بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي**، (مصر: دار المعارف، ط3، 1995م)، 234.

أكثر صعوبة من الاستعارة الكثيفة والمتنوعة، فقد يظهر الكلام إذا كانت الاستعارات الكثيفة منقطعة الصلات بين أجزائه فيصير اللاتشاكل (Allotopie) هو المهيمن"[(25)]، وقد عبَّر عنه بمصطلح التقابل أيضًا، إذ يقول: إن التقابل هو جوهر الفكر الأسطوري وعمده الذي يقوم عليه، فيتناول الثنائيات الموجودة في النص ويصنفها إلى التقابلات التناقضية والتضادية، والتقابلات التكاملية، والتقابلات المرتبية، والتراكم، وتكرار الكلمة، وتكرار التركيب، والترادف[(26)]، كما ويصطلح عليه في مكان آخر بالتناقض، وذلك عندما يقول إنّ هناك نصوصًا تريد تحقيق الانسجام في الكون بجمعها بين التناقضات[(27)].

ونستنتج مما سبق إنّ التباين مفهوم لصيق الصلة بالنشاط اللساني وغير اللساني، وقد وظّف الأدب والنتاج الإبداعي الأدبي هذا الأسلوب الفعّال في صياغة الأفكار والتعبير عنها، من خلال الجمع بين مواقف متمايزة، بشكل يسهم في إشراك القارىء عن طريق التأويل وإنتاج المعنى.

أما التباين في السرد القرآني فيعد أسلوبًا سرديًا معتمدًا يقصد به إيجاد أرضية للمتلقي تمكنه من إدراك العناصر السردية إدراكًا تامًّا، وذلك عن طريق عقد المقارنات من خلال التقابل غير المباشر، وذلك بإدراج العنصر السردي في حالة متباينة مع محيط يتكون من حالات متشاكلة بعضها مع بعض، وينطبق هذا القول على العناصر السردية من شخصيات، وزمان، ومكان[(28)].

ثانيًا: السرد:

السرد يعني التوالي والتتابع، قال ابن فارس(ت395هـ): "السين والراء والدال أصل مطّرد منقاس، وهو يدل على توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض؛ من ذلك السَّرد: اسم جامع للدروع وما أشبهها من

---

(25) مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري**، 29.

(26) محمد مفتاح، **دينامية النص –تنظير وإنجاز–** (الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006م)، 163-164.

(27) مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري**، 29.

(28) يادطار لطيف الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، (دمشق: دار الزمان، ط1، 2010م)، 153-154.

عمل الحِلَق، قال الله جل جلاله في شأن داود عليه السلام: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ:11]، قالوا: معناه ليكن ذلك مُقدَّرًا، لا يكون الثّقب ضيّقًا المسمار غليظا، ولا يكون المسمار دقيقا والثقب واسعا، بل يكون على تقدير"[29]، فهو أمر بالاتقان في صنعة الدروع، أي "اجعله على القصد وقدر الحاجة"[30]، ولذلك جاء على أنه "خرزُ ما يخشن ويغلظ كنسج الدرع وخرز الجلد"[31]. وفي اللسان: السرد لغة "تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقًا بعضه في إثر بعض متتابعًا"[32]، ومن هنا انتقلت المفردة في استعمالها للدلالة على الكلام الجيد الذي يحتاج إلى السبك الجيد والتتابع والتناسق، إذ يقال سرد الحديث، وسرد القرآن إذا تابع قراءته في حَدْر منه، وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه[33]، ولذلك نسمع أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تستخدم المفردة في وصف أسلوب الرسول ﷺ في الكلام، إذ تقول "لم يكن يسرد الحديث كسردكم"[34]، فانتقل معنى السرد من الارتباط بالصنعة وإتقانها إلى الارتباط بأساليب الإتقان في الكلام فنقول: "سرد الحديث يسردُه سردًا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردًا إذا كان جيد السياق له"[35].

يفهم من الكلام السابق أن السرد هو تتابع أجزاء الحديث، يشد بعضه البعض في ترابط وتناسق، بشكل يؤمّن فهم السامع له وإدراكه، وبهذا لا يشد الحديث بعضه بعضًا فقط، بل يشد انتباه المتلقي

---

(29) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1979م)، كتاب السين، [س ر د].

(30) ابن منظور، **لسان العرب**، باب السين، [س ر د].

(31) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، **المفردات في ألفاظ القرآن**، تح: صفوان عدنان داودي, (دمشق: دار القلم، بيروت: دار الشامية، ط4، 2009م)، 406.

(32) ابن منظور، **لسان العرب**، باب السين، [س ر د].

(33) ابن منظور، **لسان العرب**، باب السين، [س ر د].

(34) أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري، **صحيح البخاري**، (دمشق: دار ابن كثير، ط1، 2002م)، كتاب المناقب، باب صفة النبي، حديث رقم (3568)، 879.

(35) ابن منظور، **لسان العرب**، باب السين، [س ر د].

أيضًا. ويفهم من هذا التعريف أن التركيز يكون على الخطاب السردي وكيفية عرض المسرود وبنائه أكثر مما يركز على مادته[36].

وهكذا نرى اقتران "دلالة السرد، في اللغة العربية، بالنسج، وجودة السبك، وحسن الصوغ، والبراعة في إيراد الأخبار، وفي تركيبها، ورددت هذه المعاني مجتمعة، أو متفرقة في المعاجم العربية، وفي مصادر الأدب العربي"[37]، فمن هذه المعاني اللغوية تحول استعمال السرد في الكلام إلى الدلالة على الإجادة في حبك الكلام، وتوخي الدقة في بنائه، فالسرد تقدمة شيء إلى شيء في الحديث بشكل يأتي متتابعًا من غير خلل[38].

وجاء السرد في الاصطلاح على أنه النشاط الذي هو من اختصاص السارد، من خلال صياغته لخطاب ينقل حكاية معينة[39]، أي إنّه يعني "نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورتها اللغوية"[40]، ويتم ذلك عن طريق نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور وجعله قابلا للتداول سواءً كان الفعل واقعيًا أم تخييليًا وسواءً تم التداول شفويًا أم كتابةً[41]، ويمكننا القول كذلك إن السرد يعبر عن مجموعة من الخيارات التقنية والإبداعية التي تسهم في تحويل الحكاية إلى نص إبداعي يمتلك مقومات فنية، مثل اختيار السارد والمنظور السردي وترتيب الأحداث[42]. إذًا السرد إجراءٌ يساعد في صناعة الخطاب السردي متجاوزًا حدود اللغة التي نتكلم بها إلى حيز اللغة الإنسانية الشاملة التي يتخذها السرد وسيلة للتعبير عن السلوك الإنساني والحركات والأفعال والأماكن، وهي أدوات ذات دلالات عالمية اكتسب معها أهمية كبيرة،

---

[36] إبراهيم صحراوي، **السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ،ط1، 2008م)، 32.

[37] عبدالله إبراهيم، **موسوعة السرد العربي**، (دبي: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، -الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2016م)، 11/1.

[38] إبراهيم، موسوعة السرد العربي، 11/1.

[39] محمد القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، (تونس: دار محمد علي للنشر، ط1، 2010م)، 243.

[40] عزالدين اسماعيل، **الأدب وفنونه**، (القاهرة: دار الفكر العربي، 2013م)، 104.

[41] سعيد يقطين، **السرد العربي مفاهيم وتجليات**،(القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ، ط1، 2006م)، 72.

[42] لطيف زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، ط1، 2002م)، 105.

وذلك في كونه يمثل وسيلة من وسائل التعبير الانساني[43]؛ لأنه فعل لا تحده حدود، بل يتسع ليشمل الخطابات الأدبية وغير الأدبية، تعبر عن إبداع الإنسان في كل عصر ومكان[44].

وهكذا يشمل السرد على سبيل التوسع مجمل الظروف المكانية والزمانية الواقعية والخيالية التي تحيط به، فهو إذًا عملية إنتاجية متكاملة الأطراف، من سارد منتِج، وخطاب سردي منتَج، ومسرود له مستقبِل، وربما يتنازل السارد عن دوره في السرد إلى الشخصيات السردية، فيجعلنا نتلقى أجزاءً من الخطاب السردي عبر تلك الشخصيات، مثل (شهادة، رسالة، حكاية فرعية)، وقد يتعمّد السارد حصر معلوماته السردية بما تعرفه شخصياته، أو بما يلحظه منها، أو ربما تتسع حدود معلوماته السردية إلى ما لا نهاية. إذًا يمكن القول بأنّ السرد هو إمكانية استخدام آليات تقنية تساعد في تحويل الحكاية من كونها المادة الخام إلى خطاب سردي يتم فيه اختيار نوع السارد والمنظور وترتيب الأحداث[45].

إذًا السرد هو تمثيل للكيفية والطريقة التي يتوجه بها السارد بمسروده نحو المسرود له، ولذلك أصبحت مكونات هذه القناة الثلاثية هي الأركان الثلاثة الرئيسة للسرد:-

1- السارد (Narrator)، وهو المرسِل الذي ينقل المسرود إلى المسرود له، أو المتلقي، بالكيفية التي يختارها، وهو شخصية سردية من صنع الكاتب[46]، وبهذا يمكننا التمييز بين السارد والكاتب، إذ إن الأخير هو شخص واقعي أوجد العالم المتخيل، وتخيل شخصية السارد كما تخيل الأحداث، والشخصيات السردية، والمكان والزمان السرديين، ليتستر خلفه، ويعبر من خلاله عن

(43) عبدالرحيم الكردي، **البنية السردية للقصة القصيرة**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط3، 2005م)، 13.

(44) سعيد يقطين، **الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، -المغرب، ط1، 1997م)، 19.

(45) لطيف زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 105.

(46) يمنى العيد، **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، (بيروت: دار الفارابي، ط3، 2010م)، 90.

مواقفه وآرائه[47]. ويأتي السارد على أشكال وصور متعددة، وذلك حسبما يقتضيه الحدث، أو كما يراه الروائي مناسبًا. ومهما تعددت صور السارد وأنواعه، فإنه يظل الأداة أو التقنية التي يستخدمها الروائي لتقديم عالمه المتخيل[48].

2- المسرود (Narration)، أي العمل السردي الذي يسرده السارد بوصفه مرسَلًا إلى المسرود له الذي هو مرسَلٌ إليه. وتبرز مع المسرود ثنائية (المبنى/المتن) الحكائي حسب اصطلاح الشكلانيين الروس، في حين يطلق عليها السردانيون اللسانيون أمثال تزفيتان تودوروف (T. Todorov)، جيرار جينيت (G. Genette)، وريكاردو (J. Rikard...) ثنائية (الخطاب/الحكاية) أو (السرد/الحكاية)، ويقصد بذلك أن السرد هو المبنى والشكل، أما الحكاية فهي المتن والمضمون[49]، والذي يتطلب الحرص الشديد في إظهاره من خلال السارد بأفضل شكل وأمتن أسلوب. وليس بالضرورة أن يتطابق المبنى الحكائي مع المتن الحكائي من حيث التفاصيل والتسلسل الطبيعي للأحداث.

3- المسرود له (Narratee)، وهو الذي يتوجه إليه السارد بالمسرود، وقد يكون المسرود له اسمًا محددًا داخل النص السردي، أي أن يكون شخصية من شخصياته السردية، أو ربما يكون كائنًا مجهولًا[50]، أو أن يكون المسرود له هو القارىء أو المتلقي ذاته، أو قد يكون المجتمع بأسره، وقد يكون قضية أو فكرة ما، يتخيلها السارد ليتوجه إليها بالخطاب[51]، فبناء أي عمل سردي يكون بالأساس من أجل التوجه إلى مسرود له. ولم ينل المسرود له ذلك الاهتمام المنهجي العلمي إلا من خلال جهود الباحث جيرالد برنس (G. Princ) بعد أن ألف كتابه (قاموس السرديات)، إذ أحدث من خلاله تطورًا

---

(47) سيزا قاسم، **بناء الرواية–دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ**، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1985م)، 177.

(48) عبدالرحيم الكردي، **الراوي والنص القصصي**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2006م)، 18.

(49) آمنة يوسف، **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 1997م)، 29.

(50) إبراهيم، **موسوعة السرد العربي**، 13/1.

(51) إبراهيم، **موسوعة السرد العربي**، 30/1.

ملحوظًا على المفهوم، بشكل أصبح المسرود له مرتكزًا أساسيًا في تناول الأعمال السردية بالبحث والتحليل(52).

إذًا السرد هو طريقة عرض الحكاية، ففضلًا عن مجموع الأحداث السردية التي تتكون منها الحكاية، هناك أيضًا اختيار للطريقة التي تسرد بها تلك الحكاية، وتلك الطريقة تسمى سردًا، وعليه لا يمكن الحكم على الحكاية بما تتضمنها من أحداث فقط، وإنما بالشكل والطريقة التي يقدم بها ذلك المضمون أيضًا(53)، بشكل نصل معه إلى قناعة أن السمة الفنية لأية حكاية تكمن في طريقة سردها(54)؛ وذلك لأن تأثير السرد يكون بحسب ما يمتلكه القاص من قدرة يتمكن بها إخراج المتلقي من حدود نفسه واستدراجه إلى جوّه، ثم إدماجه في حوادثه ليعيش مع الشخصيات السردية حياتها وتجاربها(55).

وخلاصة القول هي أن كل مسرود لا بدّ أن يمر بقناة ثلاثية مكونة من (السارد–المسرود–المسرود له)، ويكمن دور السرد في الكيفية التي تسرد بها الحكاية، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالسارد والمسرود له، والبعض الآخر متعلق بالحكاية ذاتها(56).

ويتميز السرد بأنه يعتمد في بنائه على مبدأ التخلخل في زمن الأحداث، أي يكون الزمن فيه مختلفًا عما هو في الحكاية، فيقدم السارد أحداثًا ويؤخر أخرى، فلا تسير الأحداث حسب تسلسلها المنطقي، وقد سمى جيرار جينيت (G. Genette) زمن السرد بالمفارقات الزمنية، أو الزمن الكاذب(57).

---

(52) يادطار الشهرزوري، **السرديات المعاصرة من قبل الحداثة إلى مابعد الحداثة ثورة الخيال السردي**، (دمشق: دار الزمان، ط1، 2019م)، 98-99.

(53) حميد لحمداني، **بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي**، (الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2000م)، 45-46.

(54) الكردي، **الراوي والنص القصصي**، 10.

(55) التهامي نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1974م)، 6.

(56) لحمداني، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، 45.

(57) جيرار جينيت، **خطاب الحكاية – بحث في المنهج**، ت: محمد معتصم و عبدالجليل الأزدي و عمر حلي، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط2، 1997م)، 46-47.

وهناك أيضًا مبدأ السببية، والذي يعدّ أحد المقومات الأساسية التي يبنى عليها السرد، ويجب مراعاته، إذ لا بدّ من وجود رابط يربط بين الأحداث، ألا وهو الرابط السببي[58].

تسهم علاقة السارد بمسروده، والتي تقف عليها تجليات سلطته داخل النص السردي في أن ينقسم السرد إلى نمطين رئيسين هما:-

1- السرد الموضوعي (Objectif): وهو الذي يكون السارد فيه عليمًا بكل حيثيات مسروده، فهو يخترق الأزمنة والأماكن المختلفة، ويطّلع على أحوال شخصياته السردية المختلفة، ويدخل إلى عقولهم وقلوبهم ليتعرف على أفكارهم ومشاعرهم وأحاسيسهم.

2- السرد الذاتي(Subjectif): وهو الذي نتلقى فيه السرد من خلال شخصية ساردة، وبذلك يستدعي تفسيرًا لكل خبر سردي وكيفية معرفة الشخصية الساردة له[59]، "وعن هذين الأسلوبين السرديين تنشأ جملة من التقنيات المختلفة، كتقنية الراوي بضمير الأنا أو الهو أو الأنت، وكوجهات النظر الأحادية والثنائية والمتعددة، وما إلى ذلك"[60].

وانطلاقًا مما سبق فإن الاهتمام بدراسة السرد وتشكلاته يرجع إلى كونه أكثر العناصر السردية حيوية في النص السردي، وذلك لما يملكه من قوة التأثير في خلق القيمة الدلالية؛ لهذا نجد في دراسة أشكاله وكيفياته، وأدواته طريقًا للولوج إلى أعماق النص السردي من أجل استكناه الكثير مما يخبئه النص من تلك الدلالات الإيحائية التي تتشكل من خلالها المعاني، مما يؤدي إلى خلق حالة من التفاعل المنتج بين النص والمتلقي.

---

[58] إ.م. فورستر، **أركان الرواية**، ت: موسى عاصي، (طرابلس-لبنان: جروس برس، ، ط1، 1994م)، 69.

[59] توماشفسكي، **نظرية الأغراض، ضمن نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس**، ت: إبراهيم خطيب، (بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1982م)، 189.

[60] يوسف، **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، 30.

إنّ الحديث عن السرد بوصفه مفهومًا أدبيًا ونقديًا، يحتم علينا البحث في النظرية السردية أو علم السرد الذي يعنى بدراسة السرد من حيث المقومات والأسس، بدءًا بالانتاج وانتهاءً بالتلقي. وعلم السرد حديث النشاة، إذ خرج وتأسس على هدى مبادىء المدرسة البنيوية[61]، ولكن وعلى الرغم من حداثته فإننا نتلمس له جذورًا تاريخية قديمة متصلة بقدم الملاحم والأساطير، أو ما نفهمه من تلك المفاهيم التي ظهرت في كتب الفلاسفة اليونانيين القدماء، إذ إن بعض الباحثين في علم السرد يستندون في آرائهم إلى ثنائية أفلاطون وأرسطو في السرد والمحاكاة[62]، إذ ذهب أرسطو -بوصفه أحد أقطاب الفلسفة اليونانية- إلى التمييز بين الشاعر المسرحي والشاعر الملحمي، وذلك عند تصنيفه للأجناس الأدبية إلى الملحمي والتراجيدي والكوميدي، فالأول عنده يحاكي أفعال الناس بطريقة مباشرة، بينما الثاني يحاكي تلك الأفعال بطريقة غير مباشرة أي بأسلوب سردي[63]، كما وأنه يؤكد على البناء الجيد للشعر؛ كي يكون مؤثرًا في المتلقي، فنطلاقًا منه يمكن الحكم على ذلك العمل الأدبي[64].

ولعلنا نجد في المصنفات البلاغية الأوربية إشارات يفهم منها ما يدل على السرد، ولكن التفكير فيه قد بدأ عند الروائيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل جوستاف فلوبير (G. Flaubert) في مراسلاته، وهنري جيمس (H. James) في مقدمات رواياته عند إعادة نشرها سنة 1884م، وكانت تلك المقدمات منطلق البحث عند لوبوك (Lubbock) سنة 1921م في طرائق تقديم الأحداث في الرواية، والتمييز بين وجهات النظر، ثم طوره بعد ذلك باحثون آخرون في إطار اللغة الإنكليزية مثل فورستر (Forster) سنة 1927م، وكان للألمان أيضًا دور في تطور مفهوم السرد، وذلك

---

(61) جيرالد برنس، **المصطلح السردي-معجم مصطلحات-**، ت: عابد خزندار، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2003م)، 157.

(62) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 249.

(63) أرسطو، **فن الشعر**، ت:د. إبراهيم حمادة، (مصر: مكتبة الانجلو مصرية، دط، دت)، 24.

(64) أرسطو، **فن الشعر**، 24.

منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث عنوا بدور السارد على حساب دور المؤلف، وتناولوا أساليب عرض الأحداث، والزمنية، وأشكال التركيب القصصي. وتزامنًا مع تلك الفترة ظهرت أعمال الشكلانيين الروس، حول أصناف السرد وعلاقة المتن الحكائي بالمبنى الحكائي والوقوف عند الخصائص المميزة لهذا الجنس الأدبي[65]. وقد أثمرت هذه الجهود انبثاق علم جديد في أواسط القرن العشرين يدرس السرد وفق منهج يقوم على أسس وقواعد معينة، وقد سمي هذا العلم بعلم السرد (Naratology)[66]، ويذهب البعض إلى أن أول من استعمل هذا المصطلح هو تزفيتان تودوروف (T. Todorov)[67]. إلا أن صدور كتاب (خطاب الحكاية 1972) لجيرار جينيت (G. Genette) يعد محاولة متميزة في تاريخ السرديات، إذ قام بإعادة تنظيم التصورات السابقة في دراسة السرد، وأوجد نظرية للسرد يمكن تطبيقها عمليًا على الأعمال السردية، وقد أولى جينيت الاهتمام الأكبر بعملية السرد نفسها، أي الخطاب السردي دون المحتوى السردي، فأصبح لدينا علم السرد الذي يعنى بدراسة طبيعة السرد وشكله ووظيفته، كما يحاول تحديد القدرة السردية، وبصفة خاصة فإنه يقوم بتحديد السمة المشتركة بين أشكال السرد كلها[68]. وهذا يعني أن علم السرد لا يتوقف عند الاهتمام بالنصوص الأدبية التي يكون قوامها القص بمفهومه التقليدي فحسب، وإنما يتعدى إلى دراسة كافة الأشكال المختلفة التي تتضمن السرد.

وبناءً على ما سبق، يمكننا القول إنّ علم السرد يعنى بأنماط السرديات كلها، الأدبية منها وغير الأدبية، والتخييلية وغير التخييلية. وهنا يطرح سؤال نفسه وهو ما الفرق بين السرديات التخييلية وغير التخييلية؟ والجواب هو أن السرد التخييلي هو السرد الذي يكون كل شيء فيه متخيلًا، حتى السارد،

---

(65) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 249-250.

(66) سعيد يقطين، **قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1997م)، 13.

(67) ميجان الرويلي، سعد البازغي، **دليل الناقد الأدبي**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2002م)، 174.

(68) برنس، **المصطلح السردي**، 157.

وهدف هذا النوع من السرود هو خلق المتعة والتسلية والسعي إلى التثقيف. أما السرد غير المتخيل، أو ما يسمى بالسرد الحقيقي أو الواقعي، فيكون كل شيء فيه حقيقيًا ينتمي إلى العالم الواقعي، من أحداث وشخصيات وزمان ومكان[69]. وانطلاقًا من هذا المبدأ نستطيع القول بأن السرد القرآني هو التعبير الأمثل عن السرد غير المتخيل الواقعي الحقيقي الذي يستند إلى عناصر سردية حقيقية وواقعية. ونتيجة لهذا التنوع في أشكال الخطاب السردي برز إتجاهان سرديان أساسيان هما:

1- السرديات السيميائية، أو ما يسمى بالسردية الدلالية والتي يمثلها كل من فلاديمير بروب (V. Propp)، وبريمون (C. Bremond)، وغريماس (J. Greimas)، ويعنى هذا الاتجاه بالمضمون السردي، من أجل الوصول إلى بنيته العميقة، دون الاهتمام بالوسيلة التي يعرض من خلالها ذلك المضمون[70]، أي إنه يعنى بسردية الخطاب من خلال عنايته بدلالاته، قاصدًا الوقوف على البنى العميقة التي تتحكم به، ومتجاوزًا المستوى اللساني المباشر، أي الشكل، ليبني على أساس ذلك قواعده الوظائفية للسرد[71]؛ لأن السيميائيين وهم يركزون على المضمون يريدون الإمساك بالعنصر الثابت في أي عمل سردي؛ لأنهم يعنون بشكل خاص بالمعنى، أو الدلالة، ولا يمكن بروز هذا العنصر الثابت إلا من خلال المضمون الذي هو أساس السرد لديهم. وهذا ما نتلمسه من تعاريف أصحاب هذا الاتجاه للسرد، حيث اعتمادهم الكلي على المحتوى، والمضمون السردي في تحليلاتهم السردية، فهم يعرّفون السرد بأنه مظهر تتابع الحالات والتحولات المسجّل في الخطاب، والضامن لإنتاج المعنى، وتأكيدًا لهذا التعريف نجد كورتيس (J.Courtes) قائلًا إن

---

[69] يان مانفريد، **علم السرد مدخل إلى نظرية السرد**، ت: أماني أبو رحمة، (دمشق: دار نينوى، 2011م)، 57.

[70] كريستيان أنجليت ويان هيرمان، **السرديات، ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، ت: ناجي مصطفى، (اللاذقية: منشوارت الحوار، ط1، 1989م)، 97.

[71] عبدالله إبراهيم، **المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م)، 146.

السرد يتعلق بالانتقال من حالة إلى حالة أخرى، حتى وصل الحال بالسيميائيين وبعض الفلاسفة أمثال بول ريكور (P. Ricoeur) للذهاب إلى حصر مفهوم السردية بالمضمون، فالسرديات في نظره حقل عام يدخل ضمنه كل من السرد التاريخي، والسرد التخييلي، ولما كانت التاريخيات تهتم بالأفعال فهي تعدّ أيضًا من السرديات[72].

وللسردية السيميائية جذور تعود إلى نظرية غريماس (J. Greimas) الدلالية، إذ يندرج لديه التحليل السردي للخطاب مما تشتمل عليه السيميائية التي توفر جهازًا علائقيًا للقصة يحل محل تعريف فلاديمير بروب (V. Propp) للخرافة، الذي يرى فيها تتابعًا للوظائف.

ومن أهم الأهداف التي ينفرد بها هذا الاتجاه السردي هو الوقوف على تجليات السردية ودلالاتها. ذلك أن السيميائية انطلاقًا من سائر الأشكال الخطابية الممكنة، كالقصص المكتوبة، والشفوية، والأقاصيص، ووقائع الحياة اليومية، والأفلام، تسعى إلى تحديد مجمل القوانين التي تفسر جزئيًا هذا العنصر المركزي في حياتنا وهو فعل الحكاية. وقد لقي هذا الاتجاه رواجًا في الساحة النقدية وأصبح محط إقبال الباحثين الساعين إلى اتخاذ آليات الدلالة الأولية وفق منهجية علمية، والابتعاد عن النقد الانطباعي المبني على الميول، دون الاستناد إلى قواعد وأصول منهجية[73].

2- السرديات اللسانية، هي الاتجاه الثاني الذي يبتعد عن اتخاذ المضمون موضوعًا له، بل إنه يهتم بالمسرود بوصفه خطابًا سرديًا في شكله اللفظي، أي في مستواه البنائي، والذي يكون متناولًا للتحليل مباشرة. ويرتكز محور دراسات البحث السردي عند هذا الاتجاه على العلاقات التي تربط السارد بالعالم المتخيل. ويمثل هذا الاتجاه كل من رولان بارت (R. Barthes)، وتزفيتان

---

[72] يقطين، **قال الراوي**، 14-15.

[73] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 268.

تودوروف (T. Todorov)، جيرار جينيت (G. Genette)، ومن ينتهج بنهجهم ممن استفادوا من البحث اللساني الحديث والمعاصر[74]. وهذا الاهتمام بالسرد في مستواه الخطابي أدى بهذا الاتجاه إلى أن يتخذ من أدبية النص السردي وبلاغيته وجماليته منطلقات يبنون عليها مقارباتهم السردية[75]، فالأساس الذي يعتمد عليه هذا الاتجاه السردي هو فنية النصوص السردية التي تظهر في استخدام التقانات السردية مثل السارد؛ لذلك نراه يهمل "النصوص السردية التي تفتقر إلى صوت روائي أو شخصية تقوم بالسرد"[76].

وينصبّ عملُ أصحابِ هذا الاتجاه السردي على الاختلاف المتعلق بالعمل السردي، والذي يكون في الخطاب، فيرون أنه يمكن تقديم المحتوى الواحد عبر خطابات متعددة، ومتنوعة، مع احتفاظ كل خطاب بخصوصيته التي تميزه عن الخطابات الأخرى، والعنصر الجمالي لديهم يكمن في هذا الاختلاف، وهذا هو مدار بحوثهم السردية[77].

وهكذا فقد عمل هذان الاتجاهان السرديان على جعل "الخطاب السردي حقلًا لاستنباط القواعد العامة، في محاولة لوضع تصور يحدد آلية عمل مكونات ذلك الخطاب، واستقامت السردية على الجهود التي تمخضت عن هذين الاتجاهين، سواء في مجال اللسانيات، أو البحث الدلالي، ولما كانت السردية تعنى بمكونات الخطاب السردي لكشف أنظمته الداخلية، فقد اتجهت عنايتها إلى الخواص الأدبية لذلك

---

(74) إبراهيم، **المتخيل السردي**، 146.

(75) يقطين، **الكلام والخبر**، 30.

(76) الرويلي والبازغي، **دليل الناقد الأدبي**، 175.

(77) يقطين، **قال الراوي**، 16.

الخطاب على مستوى الأقوال والأفعال، فالمادة الحكائية متن مصوغ صوغًا سرديًا، وهي خلاصة تمازج العناصر الفنية الأساسية: الحدث، والشخصية، والخلفية الزمانية والمكانية، بواسطة السرد"[78].

فكانت جهودهم مثمرة في هذا المجال "فعلى الرغم من عناية كل تيار بمستوى محدد من مستويات الخطاب السردي، فإن كلا الاتجاهين يجهدان من أجل تقديم مقاربة معرفية للخطاب السردي في مستوياته التركيبية والدلالية، تاركين أمر التأويل إلى القراءة الذاتية للنص الأدبي، حيث تتشابك المعرفة بالأيديولوجيا، وتتداخلان تبعًا لنزوع المتلقي المؤول"[79].

إن الاختلافات الواضحة التي نلحظها بين الاتجاهين لم تمنع بعض السرديين أمثال شلتمان (A. Sheltman)، جيرالد برنس (G. Princ)، من الاجتهاد في المحاولة للجمع بينهما، والتوفيق بين منطلقات الاتجاهين، والعمل على دراسة الخطاب السردي بصورته الكلية، وذلك انطلاقًا من دراسة الخطاب السردي بوصفه وسيلة لإنتاج الأفعال السردية التي هي مكونات متداخلة من الحوادث والوقائع والشخصيات يبحث عنها لكونها تنطوي على معنى، فالسرد نوع من وسائل التعبير، والمسرود هو محتوى ذلك التعبير[80].

ثالثًا: السرد القرآني:

نزل القرآن الكريم في بيئة ثقافية يسود فيها الأدب، فجاء الخطاب القرآني بأسلوب أدبي فاق كل أنواع الأدب في تلك البيئة، فأصيبوا بالاندهاش والانبهار تجاه ذلك الأسلوب الفريد وتلك اللغة المتميزة، وقد جاء تحدي القرآن الكريم للعرب بشكله ومضمونه، بلغته وأسلوبه، والسرد بوصفه مكونًا أساسيًا

---

(78) إبراهيم، **موسوعة السرد العربي**، 14/1.

(79) إبراهيم، **المتخيل السردي**، 146.

(80) كريستيان أنجليت ويان هيرمان، **السرديات، ضمن نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، 97، إبراهيم، **موسوعة السرد العربي**، 13/1.

للخطاب القرآني، فإنه يشكل وسيلة فعّالة من وسائل ذلك التحدي، لما عرف عن العرب شغفهم واهتمامهم بالقصص وأخبار الملوك والأمم السابقة، بشكل لا يقل عن اهتمامهم بالشعر والشعراء[81]، فالقصة في كونها تتضمن حادثة يكون تأثيرها أقوى؛ لأن "الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سردًا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغى إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فنًا خاصًا من فنون اللغة وآدابها، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويصوره في أبلغ صورة قصص القرآن الكريم"[82]، والذي جاء ليحقق أهدافه الدينية، فهو يتوخى الموعظة والتربية والتوجيه بأسلوب مشوق يفي بقواعد الفن القصصي الخالص وأصوله[83]. كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾ [يوسف: 3].

والسرد القرآني ليس عملًا فنيًا مستقلًا في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي عند بعض الاتجاهات الفنية إلى أداء غرض فني مجرد، وإنما يعدّ وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التي تهدف إلى تحقيق أغراضه الدينية وغاياته الأصيلة، والقرآن الكريم كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة هي إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة، وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن كل ما جاء في القرآن الكريم من مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على حقيقة

---

[81] فاروق خورشيد، **في الرواية العربية عصر التجميع**، (بيروت: دار الشروق، ط3، 1982م)، 25-27.

[82] مناع خليل القطان، **مباحث في علوم القرآن**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط7، 1995م)، 300.

[83] محمد قطب، **منهج الفن الاسلامي**، (بيروت: دار الشروق، ، ط6، 1983م)، 156.

البعث والحساب، وعلى قدرة الله المطلقة في خلقه، وشأن الشرائع التي يسنّها، والأمثال التي يضربها... [84]، وذلك نظرًا لما للقصة من مقبولية أكبر من بين أجناس الأدب الأخرى، إذ تمتلك قوة التأثير في المشاعر والأفكار على اختلافها، فضلًا عن أن فهم القصة لا يستدعي جهدًا كبيرًا قياسًا بما يحتاجه الشعر، فكانت القصة الوسيلة الأنجع لبث العقائد ونشرها[85].

ويعدّ الجمع بين المضمون والشكل، وتقديمهما كوحدة واحدة، من أبرز سمات القصة القرآنية التي يمتاز أسلوبها بانسيابية طبيعية داخل نسيج الخطاب القرآني ككل، وموضوعاتها لاتخرج عن موضوعاته، فضلًا عن ذلك فقد غلب على أسلوب عرضها وتقديمها طابع الإعجاز القرآني، سواء في معناه بما تضمنته هذه القصص من موضوعات، أو في مبناه الذي اتسم بالفنية والدقة في التصوير والبلاغة في اللفظ وغيرها من صنوف اللغة، إذًا كان القرآن الكريم معجزًا في تقديمه الفني للسرد القصصي، كما هو معجز في مضمونه، فجاء السرد القرآني في هيئة فنية متكاملة فاقت كل السرود البشرية[86].

شكّل السرد القصصي نصيبًا وافرًا ضمن الخطاب القرآني، ليحقق بذلك الهدف الذي يرمي إلى تربية إنسان سوي إيجابي له الدور الفعّال في بناء مجتمع متكامل، يعتمد التكافل والتعاون، ويعيش في سلم وأمان يرفض العبودية والظلم والاستبداد. فجاء الأداء معبرًا عن تلك الأغراض الدينية خير تعبير، ومن خلال الوسائل والأدوات الفنية، بقصد مخاطبة عقول البشر ونفسياتهم وأحاسيسهم، والتأثير فيها، فصيغ السرد القرآني صياغة محكمة ودقيقة كمال الدقة، ليحقق الأهداف التي سيق من أجلها، وفي المواضع التي أوجده الله تعالى فيها داخل نسيج الخطاب القرآني ككل.

---

[84] سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ، ط17، 2004م)، 143.

[85] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 10-11.

[86] سعيد عطية مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ، ط1، 2006م)، 35.

يتضمن السرد القرآني تجارب وأحداث الأمم السابقة، لتصبح تلك التجارب الماضية خبرات متراكمة يستفيد منها الإنسان في كل عصر ومكان، يستقي منها الوسائل والأسباب التي تساعده في اتخاذ القرارات والمواقف المناسبة لتذليل العقبات التي تعيق مسيرة حياته، وذلك ليوفر على نفسه الجهد والوقت الكبيرين، فالفرق شاسع بين أن يبدأ الإنسان عملًا من نقطة البداية وبين أن يبدأه من حيث انتهى من قبله من أمم وجماعات سابقة[87]، لذلك نرى الصياغة الأسلوبية والبناء السردي للقصة القرآنية قد جاءا "وفق مبنى تعبيري مفتوح الإمكانات؛ لاستخلاص النتائج المتعلقة بواقع كل قارىء حسب تجربته وبقدر وعيه"[88].

لقد نزل القرآن الكريم حسب الأحداث والوقائع المعيشة في زمن الرسول ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم خلال ثلاثة وعشرين عامًا، وذلك لحِكَم إلهية، ربما يكون الهدف منها هو تواصل الوحي الدائم مع الرسول ﷺ خلال فترة الدعوة النبوية، من أجل تثبيت فؤاده الكريم مع كل حادثة، وكذلك من أجل تيسير حفظ القرآن الكريم عليه، فضلًا عن أن المرحلة كانت مرحلة بناء مجتمع جديد بكل معطياته، وحيثياته فكان لا بدّ من مراعاة حال المخاطَبين النفسية والاجتماعية، وأن ينزل القرآن الكريم تدريجيًا وحسب ما تمليه المواقف من حاجات آنية؛ لأن الأمر يتعلق بالتغيير الجذري لكل ما يتعلق بالمجتمع من تشريعات وعادات وتقاليد وأخلاق، فكان الوحي متجاوبًا مع أحوال المؤمنين طيلة فترة النبوة، مما جعل الخطاب يتجسد في صور متنوعة وألوان متباينة[89].

والجدير بالملاحظة والاهتمام هو أن القرآن الكريم لم يُنزَّل مكتوبًا كما نراه اليوم، وإنما تلقاه الرسول ﷺ سماعًا، وتنقل بين المؤمنين عن طريق المشافهة، وترك الله جل جلاله أمر كتابة الوحي إلى المؤمنين

---

[87] عمادالدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط3، 1981م)، 5-6.

[88] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 25.

[89] صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط10، 1977م)، 49-56.

أنفسهم، وما يفهم من هذا الأمر هو إعطاء الإنسان دورًا حيويًا في حمل أمانة كتابة القرآن الكريم، مما يؤكد ذلك على دور الكتابة في إبقاء النص المقدس ثابتًا، ليكون استجابة لما حكم الله ﷻ في أمر حفظ القرآن، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾ [الحجر: 9]، فالتعامل مع النص القرآني المكتوب كان عاملًا مساعدًا في إثراء الفهم، وتوسيع الآفاق المعرفية، وذلك تبعًا لتعدد المتلقين، إذ نجد أثر ذلك في ظهور التفسيرات المتنوعة للقرآن الكريم[90]، مثل "تفسير الرواية، والتفسير في ضوء الاعتقاد، والتفسير الصوفي، والتفسير التشيعي، وتفسير التجديد الاسلامي، وإلى جانب ذلك تفسيرات لغوية ونحوية وأدبية وفقهية وتاريخية"[91]، لذلك نرى أن السردية القرآنية التي تشكل جزءًا كبيرًا من النص القرآني "هي بالأساس سردية نصية أزلية مفتوحة، الشيء الذي جعل الدراسة التي تنشأ من حولها مفتوحة مطلقة تلامس نواحي في النص متنوعة، إن على مستوى البناء أم على مستوى المضمون"[92].

لقد حرص السرد القرآني على تعميق الوعي التاريخي للإنسان؛ لتتشكل لديه من خلال ذلك أصولٌ معرفية ينتهج بها سبل العمل في التعاطي مع مجريات الواقع المعيش، وذلك دون إهمال الجانب الجمالي، الذي عمل على "توظيف أدوات الإثارة الفنية بأنواعها المختلفة لإثارة المتلقي، وشد انتباهه، وتعميق التواصل بينه وبين النص القرآني، إذ يستخدم الأسلوب القرآني عنصر التكرار حينًا، وعنصر المفاجأة حينًا آخر، وأسلوب الفرز لظاهرة ما بين الظواهر حينًا ثالثًا، ناهيك عن أساليب المسكوت عنه، والحذف، وإشراك المتلقي بوصفه عنصرًا أساسًا في الخطاب عبر توجيه الخطاب إليه مباشرة، فضلًا عن أسلوب التنوع الموضوعي في الأداء، وغيرها كثير من الأساليب"[93].

---

(90) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 24.

(91) مصطفى ناصيف، **مسؤولية التأويل**، (مصر: دار السلام، ط1، 1999م)، 141.

(92) شارف مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القرآن الكريم**، (دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، 2001م)، 75.

(93) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 26.

هناك من الباحثين من يرى في السرد القرآني الطابع التاريخي، وذلك لكونه يتضمن أحداثًا تاريخية واقعية وحقيقية، وإن السرد—في نظرهم- لا بد أن يقوم على التخييل[94]. صحيح أن السرد القرآني يبدو قريبًا من السرد التاريخي في بعض الأحيان، ولكنه سرد انتقائي بعيد عن التفصيل والغوص في التفاصيل الدقيقة، ويميل إلى الإضمار والاختزال؛ لأن الغرض من السرد القرآني هو توجيه المتلقي نحو العبر والمواعظ التي سيقت من أجلها تلك الأحداث التاريخية في شكل سردي، وذلك لأن الغوص في التفاصيل التاريخية الدقيقة سواء كانت على مستوى الأشخاص أو الزمان والمكان "ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن، لأن قرب الحادثة أو بعدها في الزمان والمكان، لايؤثر فيما تحمل من عبر"[95]. يقوم السرد القرآني بتناول التاريخ تناولًا مميزًا، وذلك من خلال "اختيار بعض الأحداث التاريخية دون بعض، وإهمال مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث"[96]. ليأتي التقديم لتلك الأحداث بصيغة فنية تثير الأفكار، والعواطف لدى المتلقي، وقد أثبتت الدراسات السردية أنه بالإمكان الاعتماد على السرد الاستقرائي الذي هو بعيد عن الخيال في تقديم الأحداث والوقائع التاريخية[97]، فحقيقة الأحداث التاريخية وواقعيتها في السرد لا تعني الابتعاد عن الأدبية، فكثير من الأدباء العالميين اتخذوا قضايا تاريخية كبرى مادة لأعمالهم الأدبية والفنية، وذلك كما فعل (ليو تولستوي) بعد أن اطّلع على الوثائق المتعلقة بهزيمة نابليون، فألف على إثرها روايته الشهيرة (الحرب والسلام)، أو كما فعل الكاتب الياباني (ماسوجي أيبوسي)، إذ أرّخ فاجعة هيروشيما في قالب رواية سماها (المطر الأسود)، أو ما نجده في الأدب العربي، مثل رواية (المرصد) لـ(حنا مينه) التي رصدت ملامح من حرب تشرين التحررية، أو مثلما فعله الروائي (يحيى يخلف) في روايته (نشيد

---

(94) رياض بن يوسف، **أدبية السرد القرآني مقاربة من منظور علم السرد**، أطروحة دكتوراه، (الجزائر: جامعة منتوري-قسنطينة، 2009-2010م)، 23.

(95) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 45.

(96) محمد أحمد خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، (بيروت: الجامعة الأمريكية، ط1، 1951م)، 77.

(97) مالكوم برادي، **الرواية اليوم**، ت: أحمد عمر شاهين، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م)، 83.

الحياة) التي أرخ فيها جانبًا من النضال الفلسطيني ضد القوات الإسرائيلية المحتلة[98]. وعليه فإن امتلاك الأحداث التاريخية للبنية السردية أعطى الحق للمؤرخين في النظر إلى القصص كتمثيلات صادقة على هذه الأحداث[99].

إذا تتبعنا الطريقة التي اتبعها السرد القرآني في تقديم الأحداث، وكيف أنه راعى فيها الجوانب الفنية والأدبية، لتوصلنا إلى أن تسمية (القصص) التي أطلقها القرآن الكريم على هذه الأحداث جاءت لتشير بذلك إلى الجانب الفني من التسمية، لا إلى الجانب اللغوي الذي يعني تتبع الأثر؛ ولذلك لم يسمّ تلك الأحداث السابقة بالأخبار والحكايات، لأن القصص يأتي تعبيرًا عن الجانب الفني الذي يتضمنه، أما الأخبار والحكايات فإنها تعبر عن عرض متسلسل للأحداث يخلو من الإبداع الفني المثير للنفس[100]. وبهذا فإن السرد القرآني يتخذ من حوادث وشخصيات تاريخية واقعية يشكلها ويقدمها في قالب فني وأدبي، ليؤسس من خلالها لدروس من الهداية والموعظة؛ لذلك نرى أنه يستند إلى ركائز وقواعد وآليات معينة، ويتسم بسمات تميزه عن السرود الأخرى، بشكل يتفرد معها بالمنهج السردي الخاص به، ومن تلك السمات والخصائص:-

1- إسناد السرد القرآني إلى الله جل جلاله أحيانًا، فـ(الله) جل جلاله، هو الذي يقوم بالقص على رسوله ﷺ قصص الأنبياء والأمم السابقة، فهو المتتبع لأحداثهم وساردها، وأحيانًا أخرى يكون الرسول ﷺ هو السارد، ويؤمر بالسرد على الناس، وفي بعض الأحيان يكون القرآن الكريم ساردًا، وكثيرة هي الآيات القرآنية الكريمة التي تقول لنا ذلك[101]، منها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ

---

(98) عادل فريجات، **مرايا الرواية دراسة تطبيقية في الفن الروائي**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م)، 21.

(99) بول ريكور، **الوجود الزمان السرد**، ت: سعيد الغانمي، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ، ط1، 1999م)، 189.

(100) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 86.

(101) صلاح الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، (دمشق: دار القلم، ط1، 1998م)، 23/1.

قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...(78) ﴾ [غافر: 78]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) ﴾ [هود: 120]. وقال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ... (130) ﴾ [الأنعام: 130]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) ﴾ [النمل: 76]. فهو منهج ربّاني ثابت ومستقر لا يتغير بتغير الظروف الحياتية، وهو شمولي يشمل جميع شؤون الحياة، ومتوازن في الحث على طلب الحياتين الأولى والآخرة، وذلك عن طريق الإيجابية المطلقة التي يرسم لها ويدعو إليها.

2- الصدق والواقعية، فالسرد القرآني ليس نتاجًا للتخيل إنما "هو في موضوعه نسيج من الصدق الخالص، وعصارة من الحقيقة المصفاة، لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال، إنه يبنى من لبنات الواقع، بلا تزويق ولا تمويه، وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز في ذلك الأسلوب القرآني الرائع"[(102)]، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) ﴾ [يوسف: 111]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) ﴾ [آل عمران: 62]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾ [الكهف: 13]. فإن القصص الواقعية تخلق الانطباع بطبيعية الأحداث والشخصيات، وإمكانية تكرارها في أي زمان ومكان، فيكون الاعتبار بها أشد وأكبر.

---

(102) عبدالكريم الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، (بيروت: دار المعرفة، ط2، 1975م)، 9.

3- الانتقائية في العرض، لا شك أن السرد القرآني يسرد لنا تاريخ البشرية منذ بداية الخلق، مرورًا بالأزمنة والأماكن المختلفة، مخترقًا حدود الزمان، ليسرد لنا الوقائع الأخروية، وأحداث ما بعد البعث، وأحوال الناس في الجنة والنار، فيقوم على انتقاء واختيار ما يراه مناسبًا وذا أهمية للإنسان، دون الدخول في التفاصيل؛ لأنه آت من لدن الله العليم الخبير، فنقل حادثة سردية لا يستوجب نقل جميع ملابساتها، مما حواه زمانها، واشتمل عليه مكانها من قريب وبعيد، فإن ذلك لا يخدم في التعرف على الحادثة، ويكفي الأخذ منها ما يصور الملامح الواضحة للحادثة ويشخصها(103). فلم يسرد القرآن قصص الكثير من الأنبياء، بل حتى في سرده لقصص الذين ذكرهم نراه لم يذكر جميع التفاصيل الدقيقة، وإنما اكتفى بمشاهد مختارة تحقق الهدف والعبرة(104)، فأسلوب القرآن في القصة هو أن يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يثقلها بما هو غير مفيد من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار، فبعمله هذا يبعث الحياة في الأحداث التي يعرضها، إذ يتخطى القرون ليقدم أحداث الماضي السحيق ماثلة أمام أنظار المتلقي(105).

4- تنوع طريقة العرض، إذ يعتمد منهج السرد القرآني على تنوع طريقة العرض، فهناك طريقة يبدأ السرد فيها بملخص يسبق القصة، ثم يلي ذلك عرض للوقائع من البداية إلى النهاية، مثل قصة أصحاب الكهف، وأخرى يبدأ السرد فيها من نقطة النهاية وغايتها، ثم العودة إلى البداية والاستمرار في عرض الوقائع السردية، مثل قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، وثالثة نجد فيها السرد يقدم القصة مباشرة بدون أية مقدمة أو تلخيص، والذي يتميز بمفاجآته، مثل قصة مريم عليها السلام عند مولد عيسى عليه السلام، وأما السرد التمثيلي فهو الطريقة التي تذكر فيها إشارات تنبه إلى ابتداء

(103) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 51.
(104) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 27/1.
(105) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 87.

العرض، ثم يترك الدور للأبطال لتتحدث عن نفسها[106]، وذلك مثلما نرى في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) ﴾ [البقرة: 127 – 129].

5- تنوع طريقة المفاجأة، إذ يقوم السرد أحيانًا على إخفاء سر المفاجأة عن الشخصية والمتلقي إلى حين اللحظة التي تنكشف فيها للإثنين معًا، مثل قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام في سورة الكهف، أو ربما يقدم السرد الحدث مكشوفًا لدى المتلقي، في حين يكون مستورًا عن الشخصية، فهي تجهل ما تنتظره من أحداث، في الوقت الذي يعلم المتلقي بذلك، فيجعل السرد هذا النوع من الشخصية في محل سخرية، مثل قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، أو يمكن أن يكشف السرد في القصة الواحدة بعضًا من الأحداث للمتلقي، ويخفيها عن الشخصية في موضع، بينما يخفيها عن الشخصية والمتلقي في موضع آخر، مثل قصة النبي سليمان عليه السلام في سورة النمل مع بلقيس، في مسألة العرش وتنكيره، ومسألة الصرح الممرد الذي كان قد أحدث مفاجاة للكل. أو لا يقوم على وجود سر معين، بل يتفاجأ المتلقي والشخصية في وقت واحد[107].

6- الفجوات السردية، وهي تلك الفراغات السردية التي يتركها السرد بين المشاهد والحلقات السردية، والكتم عن الأحداث الواقعة بينها، ليتيح للعقل الاستدلال عليها عن طريق إشارات كلامية واردة، ومقتضى الحال الذي يستوجب ذلك، ثم يقوم الخيال استنادًا إلى ذلك بملء تلك الفراغات

---

[106] محمد قطب، **منهج الفن الاسلامي**، 162.

[107] محمد قطب، **منهج الفن الاسلامي**، 162.

والربط بين المشاهد المتباينة، وهذه ميزة نكاد نلحظها في جميع القصص القرآنية[108]. وتسهم الفجوات السردية في بناء علاقة بين المتلقي والنص، فتستثير الذهن وتحركه ليمارس فاعليته في محاولة استكناه الدلالات المخبوءة داخل النص[109]. إذ تحدث الفراغات السردية نتيجة تطبيق آلية الحذف الذي يفوق الذكر والتصريح بلاغة، وذلك لما له من قوة التأثير في جعل باب التأويل مفتوحًا أمام تعدد المعاني[110].

7- التصوير، تلك الميزة التي نلحظها في السرد القرآني عندما يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها، لتصبح الأحداث السردية واقعة تجري أمام أعيننا، ونعيشها لحظة بلحظة. ولهذا التصوير في السرد القرآني ألوان: لون يظهر في قوة العرض والإحياء، ولون يظهر في تخييل العواطف والانفعالات، وآخر يظهر في رسم الشخصيات. وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف، ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه، ولكن الواقع أن هذه اللمسات الفنية تظهر كلها في المشاهد السردية جميعًا[111].

لقد أسهمت هذه الخصائص كلها في أن يمتاز السرد القرآني بالحيوية الفائقة والفاعلية القوية، بصورة تسهم في تحريك العقول والأحاسيس والعواطف وإثارتها، وجلب انتباه المتلقي نحو الأحداث السردية والشخصيات والمشاهد، ووضعه في حالة من الترقب والانتظار والتركيز حسيًا وعقليًا، بحيث يتفاعل مع تلك الأحداث السردية وشخصياتها، ويقوم بعقد مقارنات ذهنية بين واقعه المعيش وبين واقع الشخصيات السردية؛ ليتأسى ويحاول الاقتداء بمن يعدّهم من المثل العليا، ويعتبر ويتعظ بمصائر الذين ظلموا أنفسهم،

---

(108) سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 187-188.

(109) الشهرزوري، **السرديات المعاصرة**، 312.

(110) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ت: السيد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1954م)، 262.

(111) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 190.

فمن أجل ذلك كان السرد القرآني "ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على الإقناع العقلي والاطمئنان القلبي، بما تدعو إليه من الإيمان بالله جل جلاله، ورسله عليهم السلام، وكتبه، واليوم الآخر، وبما تحمل من مثل في مجال الجهاد والكفاح والبذل والتضحية والفداء، في سبيل الدعوة إلى الحق، والتوجيه إلى الخير والهدى، والتنكير للباطل والضلال، والصمود بوجه الظلم والطغيان"[112]، وذلك لما له من قوة التأثير في النفس وخلق الانطباع في الذهن والفكر، فضلًا عما يحمله من الحجج المنطقية والبراهين العقلية، ذلك لأن السرد القرآني جزء لا يتجزأ من القرآن الكريم، ويتصف بما يتصف به القرآن ككل من أنه كلام الله ﷻ المعجز شكلًا ومضمونًا.

---

[112] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 8.

الفصل الأول: تقديم العناصر السردية:

يعد النص السردي خطابًا لغويًا –شفويًا كان أو مكتوبًا– يسرد حكاية واقعية، أو تخييلية، فهو يصور عالمًا تتحرك فيه الشخصيات السردية، عبر تحولات وتنقلات زمانية ومكانية(113)، فأصبحت الشخصيات والزمان والمكان من جملة العناصر التي يقوم عليها السرد(114)، ولا يمكن لأي خطاب سردي أن يتشكل من دونها، ذلك لما لها من قيم مادية ودلالية تساعد في عملية التشكيل السردي نموًا وتطورًا؛ وذلك لكون السرد يقوم بالأساس على العلاقات المتشكلة بين تلك العناصر السردية، فالأحداث السردية هي نتاج "علاقة الاستقطاب والدفع التي تتحرك عبرها شخصية أو شخصيات القصة ضمن شروط السياق الزماني والمكاني"(115)، مع إمكانية الاختلاف في طريقة العرض وكيفية التقديم.

يختلف السرد القرآني تمام الاختلاف عن السرود البشرية من حيث تقديمه للعناصر السردية، فعلى الرغم من أنه يستند إلى العناصر السردية نفسها التي نجدها في السرد البشري فإن الاختلاف يكمن في كيفية التقديم وأسلوب العرض، إذ ينفرد السرد القرآني بطريقته المميزة، وأسلوبه الخاص، فمن سمات السرد القرآني أنه لا يتقيد بالترتيب والتوازن في تقديم العناصر السردية، وذلك لأنه لا يحتفي بها لذاتها، بل إن الأغراض والمقاصد الدينية هي التي توجه أسلوب التقديم وطريقته، وهي التي تتحكم في كيفية ترتيب الأحداث، أو تسليط الأضواء على العنصر المراد إبرازه، فيمكن أن يبرز عنصر معين على حساب العناصر الأخرى، دون أن يحدث هناك أي اختلال في توازن القصة ومسارها(116). "ولو حاولنا تحليل كل من هذه العناصر لألفينا تنوعًا في رسم كل منها، وقد يصل هذا التنوع إلى حد التباين البعيد"(117)، فمن هنا أصبح

---

(113) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 457.

(114) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 99.

(115) سليمان عشراتي، **الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي**، (دمشق: دار العرب، 2012م)، 90.

(116) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 93.

(117) بكري شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ط1، 1973م)، 219.

التباين واحدًا من الأساليب التي يعتمدها السرد القرآني في تقديمه للعناصر السردية، ومنها الشخصيات والزمان والمكان، وبناءً على ذلك قُسّم هذا الفصل تقسيمًا ثلاثيًا، فأصبح يتكون من ثلاثة مباحث، بحيث يختص كل مبحث منها بدراسة واحد من العناصر السردية الثلاثة، وذلك من خلال إبراز آثار التباين في كيفية التقديم لهذا العنصر وأسلوب عرضه.

المبحث الأول: تقديم الشخصيات السردية:

الشخصية مأخوذة من الشخص، والذي يعني في اللغة سواد الإنسان وغيره، وكل ما تراه من بعيد، فالشخص لغة هو كل جسم له ارتفاع وظهور، والمراد به إثبات الذات[118]، وأما اصطلاحًا فالشخص (Person) هو "تعبير عن شخص أو إنسان بجسده ونفسه، أو هو المظهر الخارجي للإنسان"[119]، وهو الفرد الذي يتكون من لحم ودم والموجود حقًا، بحيث نجد اسمه مسجلًا في الأوراق الرسمية في البلد الذي يعيش فيه، وله حالة مدنية وتاريخ ولادة وحيز في هذه الحياة قبل أن يموت فعلًا[120].

أما الشخصية فهي "مجموعة من الخصائص الذاتية المميزة للفرد أو الجماعة، وتضم الصفات والنزعات السلوكية والانفعالية للشخص في حياته اليومية في الأحوال المعتادة بصورة مستقرة ومتوقعة"[121]، و"قد تكون الشخصية فردية (Individuelle)، أو جمعية (Collective)، وقد تكون حقيقية (Realle)، أو معنوية أو اعتبارية (Morale)، كشخصية المؤسسات والشركات"[122].

---

(118) ابن منظور، **لسان العرب**، باب الشين، [ش خ ص].

(119) لطفي الشربيني، **موسوعة شرح المصطلحات النفسية**، (بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 2001م)، 270.

(120) مرتاض، **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، 1998م)، 75.

(121) الشربيني، **موسوعة شرح المصطلحات النفسية، 271.**

(122) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م)، 693.

وأما الشخصية السردية فهي "كل مشارك في أحداث الحكاية سلبًا أو إيجابًا"[123]، وهي تعد أحد العناصر السردية إلى جانب الزمان والمكان، يقدمها العمل السردي لتمثل دور الإنسان الواقعي[124]. وتكتسب الشخصية السردية دورها الحيوي والأساس في الأعمال السردية من كونها هي التي تولّد الحبكة وتسببها، فالحبكة تنتج عنها وترتكز عليها[125]، فهي "فاعل يؤثر في الحدث، تدور حوله بعض أجزاء السرد، وتتحدد ملامحه عن طريق وصف سلوكه ووظيفته الاجتماعية، وخصائصه النفسية والجسمانية، ذلك من خلال حديثه، أو من خلال الوصف"[126]. وتأتي الشخصيات السردية من أولى اهتمامات المتلقي، إذ يتناسب ذلك مع طبيعته كإنسان، وذلك من حيث الاهتمام بالناس وأمورهم، محكومًا بطبيعة الحياة المبنية على أساس التأثير والتأثر فيما بين البشر.

تباينت النظرات إلى الشخصية السردية مع تباين المذاهب السردية، ومناهجها النقدية، فهي تتخذ في النقد النفسي "بعدًا سيكولوجيًا، فتصير فردًا، شخصًا، أي ببساطة تمثل كائنًا إنسانيًا، أما في النقد الاجتماعي فتتحول الشخصية إلى نمط اجتماعي يعبر عن واقع طبقي، ويعكس وعيًا أيديولوجيًا"[127]، في حين يتعامل النقد التاريخي مع الشخصية السردية على أنها معطى جاهز، الأمر الذي شكل لديهم التباسًا بين الشخص والشخصية، إلى أن جاءت السرديات لتنبه إلى التمييز بينهما، وذلك استنادًا إلى نظرة

---

(123) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 114.

(124) إسماعيل، **الأدب وفنونه دراسة ونقد**، 107.

(125) إبراهيم فتحي، **معجم المصطلحات الأدبية**، (تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1986م)، 85-86.

(126) سمير سعيد حجازي، **قاموس مصطلحات النقد الأدب المعاصر**، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ط1، 2001م)، 103.

(127) محمد بوعزة، **طرائق تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م)، 99.

البنيويين والسيميائيين إليها[128]، فكان (رولان بارت) ينظر إلى الشخصية السردية على أنها كائن ورقي متخيل يصنعه الكاتب[129].

بقيت الشخصية السردية من الإشكاليات التي وقف عندها النقاد والباحثون طويلًا، وكثرت الاختلافات والتوجهات التي ترصدها، حتى وصل الحال إلى أن نجد داخل التوجه البنيوي نفسه اختلافات في دراسة الشخصية وطرائق تحليلها، فبينما يرى فلاديمير بروب (V. Propp) أن الشخصيات على اختلافها تمثل أدوارًا ووظائف محددة، نجد غريماس (J. Greimas) يراها على أنها فواعل[130]، فيما حاول تزفيتان تودوروف (T. Todorov) والسرديون معالجتها من حيث كونها صوتًا[131]، أما (فيليب هامون) فعمل على بلورة تصور سيمولوجي دلالي للشخصية، وذلك عندما تحدث عمّا أسماه أثر الشخصية، فيرى أن الشخصية السردية ليست معطى جاهزًا بل هي بناء يتم إنشاؤه تدريجيًا عبر عملية تواصلية[132].

يجري تقديم الشخصية السردية عبر عملية بناء متعدد الجوانب، إذ يتم ذلك من خلال وصفها وتسميتها وإطلاق الأحكام عليها، وتصويرها نفسيًا واجتماعيًا وبيئيًا. وتقديم الشخصية إما أن يكون مباشرًا يقوم به السارد نفسه، أو غير مباشر وبصورة تدريجية يكون عبر حوارات ذاتية، أو خارجية للشخصيات، وكذلك عبر صورة المكان سواء كان مكان إقامة أو تردد، وكذلك من خلال العلاقات التي

---

(128) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 270.

(129) رولان بارت، **مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة**، ت: منذر عياشي، (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1993م)، 72.

(130) قاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 270-271.

(131) يقطين، **قال الراوي**، 90.

(132) فيليب هامون، **سيمولوجية الشخصيات الروائية**، ت: سعيد بنكراد، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2013م), 39-40.

تربط بين الشخصيات، فضلًا عن وظيفة الشخصية وسلوكها وأفعالها وأفكارها[133]. وكلما كانت الشخصيات السردية متباينة في تجلياتها داخل العمل السردي، كلما كان الأسلوب السردي أجود وأمتن[134].

أما السرد القرآني فإنه يعتمد على الأسلوب غير المباشر في تقديمه للشخصية السردية، بحيث لا يقدمها جاهزة، وإنما يعرضها عبر تفكيرها، وأفعالها، وحركاتها، وحديثها[135]، فيترك للقارىء أمر استخلاص الخصائص والمميزات المرتبطة بها، سواء كان ذلك من خلال الأحداث التي تشارك فيها، أو من خلال الطريقة التي تتعامل بها مع الشخصيات الأخرى، من أقوال وأفعال[136].

المطلب الأول: وظائف التباين ودلالاته بين ذكر الأسماء وإبهامها:

أول ما يلحظه المتلقي في الشخصية هو اسمها، فنجد أن الشخصية السردية تخضع إلى نظام تسمية يتألف من مجموعة استراتيجيات توظف للإحالة عليها، ومنها الاسم. يعد الاسم سمة من مجموع سمات تحملها الشخصية وتدل عليها، وهو خاصة الشخصية ومحددها.

تسمية الشخصية السردية إجراء يسهم في وصفها، ومن ثم إدخالها في ذاكرة المتلقي، ليدعوه إلى التفاعل معها؛ لذلك أولت الدراسات السردية الاهتمام بالأسماء السردية بوصفها دوالاً تتعلق بمدلولات

---

(133) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 55.

(134) أحمد الشايب، **أصول النقد الأدبي**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط10، 1994م)، 340-341.

(135) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 92-93.

(136) حسن بحراوي، **بنية الشكل الروائي (الفضاء– الزمن– الشخصية)**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م)، 223.

معينة، وعلامة يمكن أن تخضع للتحليل، فتنبثق منها المعاني والإيحاءات[137]، ويعد الاسم من أهم الدوالّ في العمل السردي، إلى درجة وصفه فيها رولان بارت بأمير الدوال[138].

يحرص الروائيون على تسمية شخصياتهم السردية محاولة منهم في خلق حالة من الإيهام بواقعية تلك الشخصيات لدى القارىء، ومن خلالها الإيهام بواقعية القصة كلها، ولكن العملية هذه مختلفة في السرد القرآني، فإنه ملتزم بمبدأ أساس في منهجه السردي، ألا وهو الصدق والواقعية، فهو يأخذ مواده وعناصره السردية من الواقع المصفى، دون خداع أو وهم[139].

يقدم السرد القرآني الشخصيات السردية متباينة من حيث التسمية، فيذكر أسماءً ويبهم أخرى، وذلك من أجل إبراز شخصيات دون أخرى، وذلك على أساس أن إبهام بعض الشخصيات السردية إجراء يسهم في تحديد جوانب من شخصية البطل وإبرازها، وهو ما ينتج عن طريق المغايرة والتباين[140]، وذلك مثلما هو كائن في قصة الخلق، فأول ما يلفت الانتباه فيما يخص شخصيات القصة هو التباين في تسميتها ما بين الذكر والإبهام، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ

---

[137] فيليب هامون، **سيمولوجية الشخصيات الروائية**، 58.

[138] زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 54.

[139] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 96.

[140] مانفريد، **علم السرد مدخل إلى نظرية السرد**، 141.

أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) ﴾ [البقرة: 30-36]، فتواجهنا في هذه القصة أربع شخصيات هي: آدم عليه السلام، وزوجه حواء، والملائكة وإبليس، وما يثير الانتباه هو أن آدم عليه السلام وإبليس هما فقط اللذان صرح السرد باسميهما من دون الشخصيات الأخرى، فالملائكة ذكروا باسم الجنس، وحواء ذكرت بالنعت (زوج) وبمعية آدم عليه السلام (أنت وزوجك)، وكأن السرد يريد بذلك تسليط الضوء على شخصيتي آدم عليه السلام وإبليس، ويظهرهما متباينتين عن الشخصيات الأخرى، لتتشكل من خلال ذلك دلالات متعددة، يمكن أن يشير بعضها إلى المواجهة المرتقبة بين هاتين الشخصيتين، حيث إنهما ستمثلان طرفي الصراع الأبدي والمعركة الخالدة، تلك المعركة بين خليفة الشر إبليس، وخليفة الله في الأرض[141]. ومن الدلالات الأخرى التي يمكن أن نجدها في التصريح بالاسمين هي تناسبه مع خطورة وعظمة الحدث الكبير وهو المولد البشري، والاهتمام بالمهمة الكبرى التي ستناط إلى آدم عليه السلام في المستقبل، وما ينتظره من صراع أبدي مع إبليس الذي جاء التصريح باسمه أيضًا ليتناسب مع خطورة دوره السلبي[142]، فمن رحمة الله ﷻ إنه لم يدع الإنسان أمام عدو غامض مبهم، لا يعرف عنه شيئًا، إنما هو عدو واضح الملامح ومكشوف عن هويته، مما يسهل على الإنسان معرفته، والتمكن من تجنبه.

أما الملائكة فقد أبهم السرد القرآني أسماءهم، فجاء ذكرهم باسم جنسهم من دون تحديد، وذلك تناسبًا مع المهمة التي أنيطت إليهم، والمواقف الصادرة عنهم، فهي مهام ومواقف جماعية غير محددة، بدأوا

---

(141) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط32، 2003م)، 30/1.

(142) محمود البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، (إيران، مؤسسة السبطين العالمية، ط1، 1425هـ)، 30/1.

بالتساؤل، ثم الإقرار بعدم المعرفة والتسليم لأمر الله ﷻ، والسجود لآدم عليه السلام، بصورة جماعية[143]، فهم مخلوقات منزهة يشكلون نموذجًا خاصًا لخلق الله ﷻ، لا يتجاذبهم طرفا الصراع[144].

أما حواء فقد أبهم السرد القرآني اسمها كذلك، وجاء ذلك كإجراء يساعد في الاستدلال على أنها محكومة بطابع آدم عليه السلام نفسه[145]، فعلى الرغم من كونها أم البشر فإن القرآن عدل عن تسميتها وجاءت مقترنة باسم آدم عليه السلام وبمعيته بوصفها زوجًا له (أسكن أنت وزوجك الجنة)، وهذا يعني نفي التنافر والصراع بين الزوجين[146]، وهو دليل على الشراكة الأبدية التي تربط بينهما في كل شيء، إذ هما متساويان في التكليف والتشريف، ويربط بينهما مصير واحد، كونهما سيواجهان شر إبليس ومكائده معًا، فتلك حالة الإزلال قد أصابت الاثنين معًا[147]. فنتلمس من خلال هذا التباين في ذكر أسماء وإبهام أخرى وظائف متعددة منها فنية تتعلق بكيفية تقديم الشخصيات، إذ يبرز السرد القرآني شخصية البطل من خلال التصريح باسمها مقابل إبهام أسماء الشخصيات المحيطة بها، ومنها تعليمية تتعلق ببيان علم الله ﷻ المطلق، ومنها تنبيهية وتوجيهية تتعلق بالتمييز بين الخير والشر.

ويمكن أن نتلمس تلك الدلالات الرمزية في التصريح باسم شخصية دون أخرى في قصة الرحلة التعلمية لموسى عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) ﴾ [الكهف: 65 – 66]، فلم يذكر السرد القرآني اسم العبد الصالح واكتفى بالإشارة إليه بوصفه عبدًا، ليتناسب ذلك مع

---

(143) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 1/36-37.

(144) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/22.

(145) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/30.

(146) فضل حسن عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، (عمان: دار الفرقان، ط1، 1987م)، 62.

(147) خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 317.

الدلالة الرمزية التي تشير إلى العلم الباطن، وفي المقابل نجد ذكر موسى عليه السلام باسمه الصريح الذي يتناسب مع دلالته الرمزية التي تشير إلى العلم الظاهر[148].

التصريح باسم شخصية دون أخرى إجراء يهدف إلى غايات دلالية يشير السرد القرآني من خلالها إلى معاني معينة، فالسرد -بشكل عام- هو انتقاء لمجموعة من العناصر السردية دون أخرى، بشكل يتسق مع الأغراض والغايات المستهدفة، فذكر أسماء أو إبهامها إجراء يأتي لخدمة هذا الهدف المنشود[149]، وهذا ما نتلمسه في قصة بني إسرائيل مع نبي لهم من بعد موسى عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ... (247) ... وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ... (251) ﴾ [البقرة: 246 – 251]، فنرى في سرد القصة إبهام اسم ذلك النبي الذي لجأ إليه بنو إسرائيل، وفي المقابل هناك ذكر لأسماء بعض الشخصيات، ولا بد أن تكون لهذا الإبهام في بداية القصة أغراض ودلالات، منها ما يشير إلى إبراز أهمية الحدث على الشخصية، وذلك لغرض الاعتبار والتأسي بأحداث تلك القصة، فليس المقصود هنا ذكر اسم ذلك النبي لأنه ليس محل العبرة، وإنما العبرة في حال القوم، الذين اشتهروا بكثرة الأنبياء الذين تتابعوا في تاريخهم الطويل[150]، ذلك التاريخ المليء بالكذب والتردد الذي طبع على سلوك اليهود في ادعائهم الاستعداد للقتال في سبيل الله جل

---

[148] عماد عبد يحيى، **البنى والدلالات في لغة القصص القرآني دراسة فنية**، أطروحة دكتوراه، (العراق: جامعة الموصل–كلية الآداب، 1992م)، 297.

[149] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 43/1.

[150] قطب، **في ظلال القرآن**، 266/2.

جلاله، ومن أجل الكشف عن هذا الادعاء الكاذب كان لا بد من وجود شخصية دينية استثنائية تكون حلقة وصل بينهم وبين السماء في تحقيق طلبهم، فتمثلت في هذا النبي الذي لم يذكر السرد اسمه، لعدم الحاجة إلى ذلك فنيًا[151]، أو قد يراد بذلك تسليط الضوء وتوجيه الأنظار تجاه شخصية أخرى يريد السرد القرآني إبرازها وهي شخصية داود عليه السلام الذي جاء ذكر اسمه مفاجئًا في نهاية القصة، لنستدل بذلك على أنه هو المقصود من القصة، وأنه سيمثل الشخصية البطلة في قادم الأحداث[152]، وستجتمع لديه السلطات السياسية والعسكرية والدينية بوصفه ملكًا وقائدًا عسكريًا ونبيًا مختارًا[153]. فمعلوم أنه "لم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة قبله، إلا له، بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط"[154]. وقد شكل ذكر اسم داود عليه السلام في خاتمة القصة مبدءًا فنيًا في بناء السرد، وهذا الشيء نلحظه في النصوص السردية الحداثية كثيرًا، فهي تتعمد إثارة الإشكاليات من خلال خواتيمها، وذلك بهدف التشويق وخلق حالة من الترقب لدى المتلقي[155]، لأن بدايات ونهايات النصوص هي مواقع استراتيجية تتمركز فيها المعاني، وخصوصًا الخاتمة التي تأتي حصيلة لتطور الأحداث وصراع القوى، أو نتيجة حدث مفاجىء، أو موت أحد أطراف الصراع، أو تخليه عن الصراع، فالتدخل المفاجىء من شخصية قادرة في نهاية القصة جعل من الخاتمة مفتوحة، وأثار التشويق وفتح باب الخيال على احتمالات متعددة، دعت إلى انتظار ما ستؤول إليه الأحداث مع وجود هذه الشخصية الجديدة[156]، وأحدث هذا الإجراء الفني حالة من القلق لدى المتلقي نشأت من عدم يقين جزئي يتعلق بتطور أو نتيجة الحدث، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بشخصية إيجابية

---

(151) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/44-45.

(152) محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)، 2/483-500.

(153) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 3/407.

(154) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت)، 1/244.

(155) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 165.

(156) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 85-86.

ظهرت للتو[157]، إذ كسر السرد بذكرها أفق توقع المتلقي من خلال مفاجأته بغير ما كان يتوقعه[158]، فكان تقلبًا للتوقعات وحدوثًا لشيء لم يكن في الحسبان[159]، فسياق السرد قبل ذلك أدخل المتلقي في حالة ترقب ينتظر فيها أن تكون شخصية طالوت هي التي يمكن أن تتولى مهمة قتل جالوت، لأنه هو الذي مثل الشخصية الرئيسة التي وقفت وراء جميع الأحداث السردية، بدءًا من اختيارها ملكًا وقائدًا من عند الله ﷻ لبني إسرائيل استجابة لطلبهم عن طريق نبيهم، مرورًا بحادثة النهر وانتهاءً بإشرافه المباشر على الجيش وعمليات المواجهة العسكرية، ولكنه يختفي عن مسرح الأحداث تمامًا، لتظهر فجأة شخصية النبي داود عليه السلام دون أن يكون له سابق ذكر، ويحدد السرد اسمه بوصفه بطلًا جديدًا، يتولى قتل جالوت بنفسه[160]، ليشير السرد القرآني من خلال ذلك إلى حكمة إلهية تتمثل في الإظهار لأمر الله ﷻ بأن النصر هو من عنده وحده، فهو القادر على أن يجعل النصر على يد فئة قليلة، أو شخص واحد. فجاء ذكر اسم داود عليه السلام خدمة لهذه الأغراض العقدية، مثلما جاء خدمة لكثير من الأغراض الفنية، فكان هذا الإجراء السردي كفيلًا بأن يسهم في الإيحاء بدلالات تضفي على الشخصية خاصية التمايز والتفرد، بشكل تتباين مع الشخصيات المذكورة في القصة، فكان لذلك الأثر الفعال في إدخال هذه الشخصية الجديدة إلى ذاكرة المتلقي وإبقائها عالقة بها بقوة، خصوصًا إنها جاءت في نهاية القصة التي لها النصيب الأكبر في ذلك، ليتكون من خلاله انطباع لدى المتلقي عن إمكانية تطور الأحداث السردية وتوجهها باتجاهات أخرى، لأن انتهاء شريط الأحداث عند شخصية جديدة تظهر فجأة دون أن يكون لها دور سابق في أحداث القصة، يمكن أن يعبر عن إمكانية أن تكون نهاية المشهد هذه بداية لمرحلة جديدة وقصة جديدة ستبدأ أحداثها مع هذه الشخصية الجديدة، وبذلك تكون هذه القصة القصيرة بمثابة

---

[157] برنس، **المصطلح السردي**، 227.

[158] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 167.

[159] برنس، **المصطلح السردي**، 227.

[160] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 79/1.

جزءٍ من قصة أطول تبدأ أحداثها عند انتهاء الأولى، وظهور هذا البطل الجديد(161)، ولذلك نرى اقتران ذكر اسم النبي داود عليه السلام في سياق هذه القصة مع بدء أمره حين قتل قائد أعدائه جالوت(162).

وفي ذكر أسماء شخصيات هذه القصة –عمومًا- دلالات تاريخية تشير إلى واقعية تلك الحادثة المعروفة في تاريخ بني إسرائيل، فالخطاب هنا موجه إلى اليهود المعاصرين لزمن الرسول ﷺ يناقشهم في مواقفهم التي يؤرخها ماضيهم وحاضرهم مع إلزامهم بالحجة في كل موقف، وذلك تثبيتًا لدعائم الرسالة الإسلامية(163)، كما إن في القصة تعليمًا للأمة بعبر التاريخ، وخصوصًا ما هو من تاريخ أهل الكتاب(164). فمن هنا جاءت أهمية ذكر أسماء طالوت وجالوت وداود عليه السلام لأنها شخصيات تاريخية معروفة، يذكرها السرد القرآني كما ذكرتها الكتب المقدسة من قبل، أو حفظها تاريخ الجماعة التي عاشت فيها تلك الشخصيات، أو قد يذكر منها التي ضاعت من حافظة التاريخ وبقي علمها عند العليم الخبير(165). فيكون التباين هنا على مستوى ذكر الأسماء وإبهامها قد أدى وظائف عدة منها فنية جمالية تتعلق بالسرد من حيث الأسلوب، ومنها دينية وتربوية تتعلق بالعظة والعبرة، ومنها تاريخية توثيقية تتعلق بذكر شخصيات تاريخية واقعية صنعت الأحداث بوصفها دلائل تاريخية لا تقبل الشك تسهم في توثيق الأحداث.

يمثل أسلوب التباين في ذكر أسماء الشخصيات وإبهامها إجراءً خاضعًا لأهداف فكرية(166)، فنرى في قصة إبراهيم عليه السلام مع الطاغية الذي حاجه في ربه أن السرد قد أبهم اسم ذلك الطاغوت وأشار

---

(161) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 27.

(162) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 403/3.

(163) محمد محمود الحجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، (الزقايق: دار التفسير للطبع والنشر، ط2، 2004م)، 98.

(164) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 487/2.

(165) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 97.

(166) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 298.

أليه باسم الموصول (الذي)، وذلك تقليلًا من شأنه(167)، في حين عظّم السرد من شأن إبراهيم عليه السلام وأعلاه من خلال إبراز اسمه، وذلك لكونه "شخصية فذة متميزة بسمات خاصة لا تتوفر عند سواه، ويكفي أنه خليل الله جل جلاله، وأنه صاحب الحنيفية السمحاء"(168)، وفي إضافة (رب) إلى الضمير العائد إلى إبراهيم عليه السلام دلالة تشريف له وإشارة مسبقة إلى تأييده في المحاجة(169)، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) ﴾ [البقرة: 258]. وهذا ما فعله السرد القرآني مع الكثير من الشخصيات المحورية المنتمية إلى السماء، إذ ركز على إبرازها من خلال تحديد أسمائها ومنطلقاتها الفكرية والعقائدية، مقابل إبهام الشخصيات الثانوية المحيطة بها، من خلال تسميتها بمسميات عامة غير محددة (إخوته، أخوانه، كبيرهم، فتاه، عبدًا من عبادنا، رجل، رجلين، الملأ من قومه...)، فيخلق في ذهن المتلقي تصورًا إيجابيًا تجاه الشخصية المحورية، يصل إلى حد الإعجاب والتعاطف، ومن ثم خلق حالة من الشعور بالانتماء إلى العالم الفكري للشخصية(170)، وهذا ما يتناسب مع أهداف السرد القرآني المتمثلة في خلق الانتماء والهوية لدى المتلقي.

ومن خلال الإجراء نفسه يعمل السرد القرآني على إظهار الجوانب السلوكية والعقلية والنفسية لدى الشخصيات، فنرى أنه مايز بين فرعون وبين الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، رغم كونهما ملكين يشتركان في امتلاك قوة النفوذ والسلطة، إذ صرح باسم الأول في كثير من المواضع السردية،في حين

(167) أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبو بكر السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1988م)، 367/1.

(168) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 85/1.

(169) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 251/1.

(170) الشهرزوري، **السرديات المعاصرة**، 329.

أبهم هذا الأخير، وذلك بقصد المقارنة بينهما، فأظهر السرد نمرود بليدًا في قوله وفعله[171]، إذ كان يحاول أن يحاجج إبراهيم عليه السلام بحجج غير منطقية أدت إلى فضح عقليته الضيقة وتدني مستواه الفكري.

أما فرعون فيظهره السرد متمتعًا بدهاء ومكر نلحظهما من خلال حواره مع موسى عليه السلام، إذ لم يُدخل نفسه في دوامة المحاججة العقيمة، إنما كان يستخدم في حواره شتى وسائل المناورة السياسية، بشكل يحاول لفت الأنظار إلى غير ما جاء به موسى عليه السلام، وذلك من أجل صرفه عن مهمته الحقيقية، وإشغاله بمناقشات شخصية وجانبية، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) ﴾ [الشعراء: 23 – 27]، وبعد أن تأكد فرعون من انهزامه أمام منطق موسى عليه السلام، ذلك المنطق المبني على أساس فكري وعقائدي متين، حوّل مجرى الحوار، ووجه الأنظار إلى قضية السحر، ليتخلى هو عن مهمة المواجهة المباشرة ويلقيها على عاتق أهل الاختصاص وهم السحرة[172]، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) ﴾ [الشعراء: 34 – 37]. وبهذا فقد أنصف السرد القرآني في حق الشخصيتين، وأعطى كلًا منهما حقها من خلال التصريح باسم هذا وإبهام اسم ذاك، وساعد ذلك في التعرف على التكوين العقلي والفكري للشخصيتين، وعلى أسلوبهما وسلوكهما الاجتماعي.

---

[171] السيوطي، **معترك الاقران**، 367/1.

[172] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 132-133.

يهدف السرد القرآني من ذكر أسماء شخصيات دون أخرى إلى خلق حالة من التناسب مع ما تدعو إليه حاجة السرد، ومع ما يمثله هذا التصريح من أثر بعيد في الأحداث المرتبطة بهذه الشخصيات[173]، وذلك ما نجده في ذكر اسم (مريم) عليها السلام، فهي الوحيدة التي صرح السرد القرآني باسمها من بين جميع الشخصيات النسوية اللائي جاء ذكرهن في القرآن الكريم[174]، فضلًا عن تسمية سورة كريمة باسمها، والتي جاءت فيها قصتها كاملة مفصلة، وذلك تكريمًا لها، وإمعانًا في إبراز خصوصيتها وأهميتها وتأكيدًا على مكانتها المتميزة بين الشخصيات النسوية[175]، والقصد من هذا التصريح باسم مريم عليها السلام هو اصطفاؤها بالذات، وذلك لأن قصتها ارتبطت بقصة الولادة المعجزة لابنها المبارك من دون أب، فهي معجزة متفردة غير مسبوقة، وغير متكررة لدى أية امرأة أخرى من نساء العالمين أبدًا[176]، فهي تتميز بهذا عن نساء الإنس والجن والمخلوقات جميعًا[177]. فجاء التصريح باسمها أمرًا لا بد منه، وذلك تناسبًا مع تلك الخصوصية ومقتضى الحال الذي لا ينفع معه التعميم والإبهام.

وهذا الأسلوب نجده في التصريح باسم زيد رضي الله عنه، والذي ارتبط اسمه بحادثة معينة أسهمت في أن يكتسب سمة خاصة، إذ أراد الله ﷻ تصحيح الفهم تجاه ظاهرة اجتماعية كانت سائدة آنذاك، وهي ظاهرة التبني وكل ما يترتب عنها من آثار، فبدأ بابن الرسول ﷺ بالتبني، فزيد رضي الله عنه متميز عن أي زيد من الرجال، لأن اسمه ارتبط بشريعة من شرائع الدين[178]، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ

---

(173) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 97.
(174) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 178/4.
(175) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 234.
(176) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 107-108.
(177) محمد متولي الشعراوي، **معجزة القرآن**، (القاهرة: أخبار اليوم، 1981م)، 104/3.
(178) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 116-118.

أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) ﴾ [الأحزاب: 37]. فجاء التصريح باسم زيد رضي الله عنه متناسبًا مع مقتضى حاله والخصوصية التي يتميز بها.

يعدّ التوقيت الذي يختاره السرد القرآني لذكر أسماء الشخصيات أو إبهامها من الإجراءات السردية التي يهدف من خلالها إلى التأليف بين الأغراض الدينية والفنية[179]، فنراه يذكر أسماء جميع الأنبياء عليهم السلام تقريبًا، ولكنه لا يذكر إلا القليل من أسماء الشخصيات المحيطة بهم، سواء كانوا مؤيدين لهم أم معارضين، وذلك لأن الغرض لا يتعلق بهذه الشخصيات لذاتها ولا بالوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها، وإنما الغرض يكمن فيما تحمله هذه الشخصيات من قوى تسهم في تسيير مجرى الأحداث[180]، وتتميز قصة موسى عليه السلام من بين قصص الأنبياء عليهم السلام بأن ألقى السرد الضوء على العديد من الشخصيات المشاركة في الأحداث، مثل (هارون، فرعون، هامان، قارون، السامري)، وذلك من خلال ذكر أسمائها، ليجعل منها رموزًا واقعية تمثل محورين متضادين: محور الخير الذي يمثله موسى وهارون عليهما السلام ومحور الشر الذي يمثله كل من فرعون وهامان وقارون والسامري[181]، ولأنها تمثل شواهد تاريخية ذكرتها الكتب المقدسة ويشهد التاريخ على وجودها، وذلك تحديًا لإنكار المعاندين المكابرين وجهلهم[182].

---

(179) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 143.

(180) الشهرزوري، **السرديات المعاصرة**، 327.

(181) الشهرزوري، **السرديات المعاصرة**، 327-328.

(182) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 97.

ولقد تكرر ذكر أسماء كل من فرعون وهامان وقارون بوصفها شخصيات معادية، أو ذوات مضادة كما تسميها النظرية السردية الحديثة[183]، في كثير من السياقات السردية للقصة. ولكن اللافت للانتباه هو أن شخصية مضادة بالغة التأثير أجّل السرد القرآني ذكر اسمها إلى مرحلة متأخرة من الأحداث السردية في القصة، وتحديدًا إلى ما بعد الهجرة الجماعية والخروج من مصر، وهي شخصية السامري، الذي لم يذكر اسمه في غير سورة طه، دون أن يذكر له دور من قبل إلى حين التعرف عليه عند صناعة العجل، فلا نعرف له بداية، ولكن الذي نعرفه هو أن وجوده مع بني إسرائيل بعد الخروج دليل على أنه واحد منهم[184]، وما يلفت الانتباه أكثر هو أن ذكر الاسم جاء من عند الله ﷻ، حين أخبر موسى عليه السلام أن السامري قد أضل القوم، فجاء ذلك مفاجئًا للمتلقي والقارىء على حد سواء، مما يشير إلى أن السامري قد بلغ غايته الدنيئة بضربة واحدة وجهها من الخلف، إذ قال تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) ﴾ [طه: 85]، وهذا دأب المنافقين في كل زمان ومكان، الذين لا يعلمهم إلا الله ﷻ، لذلك كان تأثر موسى عليه السلام تجاه الحدث هو أقوى وأشد ما يكون، فاجتمع عنده الغضب والأسف على ما وقع في أمته من ضلال غير متوقع، فانكسر خاطره[185]، إذ قال تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... (86) ﴾ [طه: 86]، تلك الحالة النفسية التي لم نلحظها عنده خلال مواجهته فرعون وهامان وقارون، وإنما كان حينها متمالكًا لنفسه ومسيطرًا على انفعالاته، وهذا يدل على أن تأثير المنافقين المتخفين هو أقوى بكثير من تأثير الكافرين المعادين الذين يلازمون جبهة معادية صريحة، فالذي استطاع أن يفعله السامري في ثني المؤمنين عن إيمانهم، وإحداث أعظم فتنة في بني

---

[183] برنس، **المصطلح السردي**، 28.

[184] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 159/3-160.

[185] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 281/17-282.

إسرائيل[186]، وبكل سهولة ويسر، لم يقدر عليه لا فرعون ولا قارون ولا هامان، على الرغم من استخدامهم لكافة الوسائل المتاحة لديهم من قوة ومال وعلم وإدارة، إذ من معلوم أن مقاتلة عدو واضح المعالم أسهل بكثير من مقاتلة عدو غامض يعمل في الخفاء.

والأهم من هذا كله هو أن التصريح باسم السامري كان أمرًا لا بد منه، وذلك للمواجهة بالدليل القاطع لما يفتريه اليهود في كتبهم من زور وبهتان على هارون عليه السلام، إذ يتهمونه هو بصناعة العجل، والدعوة إلى الشرك، وبذلك جاء التصريح بالاسم هنا ليؤدي وظيفة تصحيحية لحدث تاريخي شديد الخطورة وقع في حياة بني إسرائيل[187].

المطلب الثاني: مستويات التباين في كيفية ذكر أسماء الشخصيات:

يسلك السرد القرآني في عملية التسمية طرقًا عديدة، يعنى فيها بالكيفية التي يشير بها إلى الشخصيات، فيمكن أن يسميها بأسمائها الأولى، أو اسم الشهرة، أو الاسم الأخير، أو اللقب، أو تعبيرات وصفية أخرى[188]، وذلك للدور الكبير الذي تقوم به التسمية في تقديم الشخصية، فهي التي تعطيها الخصوصية والأهمية وتسهم في تعيين موقعها من محيطها وبيئتها، أو تضفي عليها طابع التميز من بين مجموعة من الشخصيات[189].

ومن صيغ التسمية التي تثير الانتباه هي ما نجده في تقديم شخصية آدم عليه السلام في بداية قصة الخلق، إذ نكّر السرد القرآني الشخصية في البداية ﴿ ... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ [البقرة: 30]، هذا قبل أن يعلن عنها ويعرفها باسمها ﴿ ... وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴾ [البقرة: 31]فجاء

---

(186) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 189/3.

(187) بن ذهيبة لطروش، **إشكالية الزمن في القصص القرآني**، أطروحة دكتورا، (الجزائر: جامعة جيلالي إلليابس- سيدي بلعباس، 2016-2017)، 439.

(188) يان مانفريد، **علم السرد مدخل إلى نظرية السرد**، 142.

(189) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 54.

تنكيره متناسبًا مع صفة الخليفة التي تدل على شموليتها للبشر جميعًا، في حين جاء التعريف باسم (آدم) عليه السلام متناسبًا مع وجوب التعريف بالأصل الذي ينتسب إليه البشر(190). فضلًا عما لهذه الكيفية المتباينة من دور في إضفاء الأهمية على هذا المخلوق الجديد، ضمن بيئته، وخلق حالة من التمايز والتباين بينه وبين الشخصيات المحيطة به.

يقدم السرد القرآني بعض الأسماء متباينة عن المألوف، مما يعطيها التفرد والتميز من بين الشخصيات الأخرى التي تشترك معها في كثير من الخصوصيات(191)، وذلك مثلما نجد في تقديمه لشخصية عيسى ابن مريم عليه السلام، من حيث كيفية التسمية، فقد حرص القرآن الكريم على نسبته إلى أمه واقتران اسمه باسمها، إذ يسميه بـ(عيسى بن مريم) أو (المسيح ابن مريم)*، فتباين اسمه من حيث كيفية التقديم عن جميع أسماء الأنبياء والرسل عليهم السلام بلا استثناء، إذ لا نرى في القرآن الكريم ذكرًا لاسم أي نبي أو رسول منسوبًا إلى والده أو والدته، فكلهم ذكروا بأسمائهم الأولى، إلا عيسى عليه السلام الذي خصه الله ﷻ بحدث ميلاده المعجز، وإنطاقه في المهد، ثم تأييده بالمعجزات الفريدة الخارقة(192)، فكان هذا الحادث العجيب والمعجز هو الأول الذي شهدته البشرية في تاريخها(193)، وبذلك ناسب السرد القرآني بين البتاين في تسمية الشخصية وبين التباين في الحدث المتعلق بها. وقد جاء تأكيد السرد القرآني على تكرار

---

(190) محمود البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، (مشهد: مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، 1422هـ)، 36/1.

(191) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 54.

* لقد صرح السرد القرآني باسم هذا الرسول عليه السلام مقترنًا باسم أمه في اثنين وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، وقد جاء ذلك في صيغ مختلفة: منها في صيغة العلَم والكنية (عيسى ابن مريم)، التي جاءت في ثلاثة عشر موضعًا: [البقرة 87، 253]، [المائدة 46، 78، 110، 112، 114، 116]، [مريم 34]، [الأحزاب 7]، [الصف 6، 14]، [الحديد 27]، أو في صيغة اللقب والكنية (المسيح ابن مريم)، التي جاءت في أربعة مواضع: [المائدة 17، 72، 75]، [التوبة 31]، أو في صيغة التسمية الكاملة لقبًا وعلَمًا وكنيةً، والتي جاءت في ثلاثة مواضع: [آل عمران 45]، [النساء 157، 171]، أو في صيغة الكنية فقط (ابن مريم)، والتي جاءت في موضعين: [المؤمنون 50]، [الزخرف 57].

(192) الشعراوي، **معجزة القرآن**، 123/3.

(193) قطب، **في ظلال القرآن**، 2304/8.

اسم عيسى عليه السلام متباينًا في كونه منسوبًا إلى مريم، ليحمّله بهذا التباين دلالات تشير إلى معاني الفخر والاعتزاز بهذا النسب[194] من جهة، ومحاولة للقضاء على العقيدة الباطلة للنصارى الذين يدّعون أن عيسى عليه السلام ابن الله جل جلاله[195]، فإننا لو تأملنا سياق الآيات التي ورد فيها اسم عيسى عليه السلام بهذه الكيفية سنجد أنها جميعا وردت في سياق قصص اليهود وأهل الكتاب عامة، مما يتناسب مع الأغراض التي سيقت من أجلها، فاليهود قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا، إذ قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) ﴾ [النساء: 156]، والنصارى تمادوا كثيرًا فيما قالوا في عيسى عليه السلام، فبعضهم ادعى له الألوهية، وبعضهم ادعى له بنوة الله جل جلاله، وبعضهم قال: ثالث ثلاثة، فجاء في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) ﴾ [المائدة: 73]، فكان ذكره بنسبه الحقيقي دفعا لأباطيل هؤلاء وافتراءات أولئك.

يسمي السرد القرآني بعض الشخصيات السردية بغير أسمائها الحقيقية أحيانًا، فيسميها من خلال الألقاب أو النعوت، ولا بد أن يكون لهذه الكيفية من التسمية تأويل معين يرتبط بما لهذه التسمية من أسباب، فلعلها تأتي نتيجة عن علاقة سببية بين اسم الشخصية وحدث معين مرتبط بتاريخ حياتها[196]، وذلك مثل التباين الذي نلحظه في مجيء اسم كل من ذي الكفل وذي النون عليهما السلام بهذه الكيفية مع أسماء مجموعة من الأنبياء عليهم السلام ذكروا بأسمائهم الصريحة في سياق سردي واحد في سورة الأنبياء، فقد جاءت تسميتهما بالصفة التي اشتهر بها كل منهما، فالأول يعني ذا العهد، والثاني يعني ذا الحوت. فعندما نتقصى سيرة النبيين عليهما السلام نجد أن تسمية كل منهما مرتبطة بحدث سردي متعلق

---

[194] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 246/3.

[195] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 318.

[196] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 254-256.

بحياتهما الخاصة. أما ذو الكفل عليه السلام الذي ذكره القرآن الكريم مرتين اثنتين، فهو نبي كريم ورد اسمه ضمن سياق الحديث عن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وإدريس واليسع عليهم السلام، ولعل ورود اسمه بعد هؤلاء الأنبياء عليهم السلام هو لكونه يأتي بعدهم في الزمان والله أعلم[197]، وقد ورد ذكر اسمه بالصيغة نفسها في السياقين، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) ﴾ [الأنبياء: 85]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) ﴾ [ص: 48]، ويبدو أن وراء تلك التسمية حدث مرتبط بحياة هذا النبي الكريم، إذ يقول بن عاشور في تفسيره، إنه لقب بهذا اللقب لأنه تعهد بأمر بني إسرائيل لليسع عليه السلام، والكفل مشتق من كفل إذا تعهد، وذلك إن اليسع عليه السلام لما كبر في السن أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل، فقال: من يتكفل لي بثلاث أستخلفه: أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فلم يتكفل له بذلك إلا شاب اسمه (عوبديا)، وإنه ثبت على ما تكفل به، فكان من أفضل الصابرين[198]، فجاء الاسم متناسبًا مع الحدث ومرتبطًا به.

وأما ذو النون، فهو يونس عليه السلام، ووصف بهذا الوصف أي صاحب الحوت عندما هاجر عن قومه غاضبًا عليهم، وذلك قبل أن يؤمر بوحي من الله ﷻ، فلم يتحمل تمادي قومه في إصرارهم على الكفر[199]. إذ قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) ﴾ [الأنبياء: 87]. فلم يكن ذهابه ذهابًا طبيعيًا، ولهذا نرى أن الله ﷻ يصف فعله بـ(أبق) الذي يأتي بمعنى (هرب)، إذ "يقال أبق العبد يأبق إباقًا، وأبق

---

(197) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث**، 4/95-96.

(198) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 17/129.

(199) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 17/130. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 6/82.

يأبقُ: إذا هرب"[200]، وقد يستعمل للخروج سرًا والابتعاد عن الناس[201]، فجاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) ﴾ [الصافات: 139 – 240]، لنتعرف من خلال كلا المعنيين على أن صيغة الاسم جاءت متناسبة مع الكيفية المتباينة لذهاب يونس عليه السلام وخروجه، إذ كان ذلك دون إذن من الله ﷻ ودون إنجاز لمهمته في تبليغ الرسالة الإلهية[202].

واستنتاجًا لما سبق من القول فإن النبيين عليهما السلام يشتركان في شيء يميزهما عن الأنبياء الآخرين عليهم السلام، بشكل يتباينان عنهم جميعًا، وهو أن ما حدث لهما كان نتيجة لقرار ذاتي اتخذاه من دون أن يكون هناك وحي بذلك، فذو الكفل قرر التكفل بالعهد، وحفظه وأخلص الوعد وصبر على ذلك، فأصبح مثالًا لكل إنسان يصبر على مشقة الوفاء بما يقطع على نفسه من عهد. وأما يونس عليه السلام فأتخاذه لقراره الذاتي أدخله في مأزق كبير، وهو أنه ابتلعه الحوت، ثم ندم ودعا وأنجاه الله ﷻ، ولعل في ذلك دلالة التذكير بعاقبة عدم الصبر والتسرع في اتخاذ القرارات.

ومثل هذه الكيفية في التسمية نجدها في قصة ذي القرنين عندما يكتفي السرد القرآني بذكر لقبه دون اسمه الصريح، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) ﴾ [الكهف: 83]. فتلك هي التسمية التي سماه الله ﷻ بها في القرآن الكريم، ولا يوجد في الحديث ما هو محقق مرفوع إلى رسول الله ﷺ بشأن ذلك[203]، فلعل التسمية بذي القرنين جاءت من باب التشبيه، فالأرجح أنه كان له ذؤابتان من شعر الرأس متدليتان، وقيل هما قرنان من نحاس يشبهان قرني الكبش، كانا

---

[200] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 59.

[201] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث**، 44/4.

[202] محمد عبدالإله عبده دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، أطروحة دكتورا، (مصر: جامعة الأزهر، 1996م)، 214.

[203] سعيد عبدالعظيم، **قصص القرآن عظات وعبر**، (الاسكندرية: دار العقيدة للتراث، ط1، 2001م)، 211.

في خوذة هذا الملك، فنعت بهما[204]، وهكذا ارتبطت التسمية بسمة خارجية اتسمت بها الشخصية، وكانت معروفة بها في ذلك الزمن. ولعل عدول السرد القرآني عن تسمية الشخصية باسمها الحقيقي، جاء من أجل أن يجعل منها نموذجًا ممكنًا لكل قائد يريد أن يؤدي دوره الدعوي الإصلاحي إلى جانب تأدية أدواره السياسية والعسكرية والإدارية، فالغاية الحقيقية من القصة لا تكمن في إبراز شخصية ذي القرنين لذاتها، وإنما لما قام به من جهاد وما حققه من إنجازات على جميع المستويات.

يعمد السرد القرآني في تقديم بعض الشخصيات النسوية إلى إسنادهن إلى أسماء أزواجهن، فيعرفنا بذلك على الطابع السلوكي والنفسي لديهن وتعيين مواقعهن ضمن محيطهن وبيئتهن[205]، وذلك مثل امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز اللائي يمثلن الجانب السلبي من النساء، وفي الطرف المقابل نجد امرأة فرعون التي تمثل الجانب الإيجابي، إذ قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) ﴾ [التحريم: 10]، فهذه الكيفية في تقديم أسماء الشخصيات هي من الأدوات التي تسهم في تشكل الدلالات المتباينة، والتي تفتح معها أبواب التأويل، ومن ثم تفعيل مشاركة المتلقي في إنتاج المعنى[206]، فاقتران ذكرهما مع اسمي زوجيهما يحمل دلالة تشير إلى ما وصلت إليه هاتان الشخصيتان من أقصى درجات السلبية التي تسيطر على سلوكهما؛ لأنهما على الرغم من كونهما امرأتين لنبيين كريمين، فإنهما خانتاهما، ولم تهتديا بنور النبوة المشرق في بيتيهما، فكان من الأولى بهما أن تسانداهما وتكونا في مقدمة من يؤمن بهما، وأن تسهم تلك العلاقة الأسرية والاجتماعية المميزة في أن تكونا شريكتين حقيقيتين

---

(204) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 19/16.

(205) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 54.

(206) فوفغانغ آيزر، **فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب**، ت: حميد لحمداني والجلالي الكدية، (فاس: مكتبة المناهل، 1987م)، 16.

لزوجيهما، فالزوجة هي أعلم الناس بأحوال زوجها، وأقرب الناس منه[207]. وبذلك تمثل كل من المرأتين النموذج المنحرف من النساء في كل المجتمعات البشرية، وفي كل زمان ومكان[208].

وأما امرأة العزيز التي اقترن ذكرها بالصفة الرسمية لزوجها، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) ﴾ [يوسف: 30]، فإن اللافت للانتباه في كيفية تسميتها أنها جاءت على لسان نسوة المدينة من خلال صيغة (امرأة العزيز)، فلم يسمينها باسمها، وذلك تناسبًا مع التعبير عن شدة التعجب من أمرها، أو ما يمكن أن يخفينه وراء ذلك من مكر وكيد تجاهها، فكأنهن يردن إيصال فكرة مفادها أن هذه المرأة على رغم من كونها زوجة لصاحب أكبر منصب في البلاد بعد الملك، فإنها لم تحترم مكانتها ولا مكانة زوجها واستهترت بالقيم الاجتماعية والأخلاقية[209]، هذا فضلًا عما يوحين به من أن صدور الفاحشة من امرأة متزوجة هو أقبح من صدورها من فتاة عزباء[210]، فأردن بذلك تهويل فضيحتها من كافة جوانبها، وتبرير استحقاقها لعقوبة تتناسب مع بشاعة جريمتها.

وفي المقابل توجد امرأة فرعون، إذ قدمها السرد القرآني من خلال اقترانها باسم زوجها، ليحمل ذلك دلالات تشير إلى معاني الشجاعة وصدق الإيمان التي تتحلى بها هذه المرأة، إذ قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) ﴾ [التحريم: 11]، فوجودها في بيئة يسودها الظلم والاستبداد، وكونها امرأة

---

(207) أحمد محمد الشرقاوي، **المرأة في القصص القرآني**، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2001م)، 143/1.

(208) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 108.

(209) الشرقاوي، **المرأة في القصص القرآني**، 304/1-305.

(210) محمد إبن القيم الجوزية، **التفسير القيم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1948م)، 314.

لأظلم حاكم، وأعتى كافر ادّعى الألوهية والربوبية[211]، لم يمنعها من اتخاذ قرارها الصائب، واستطاعت أن تتحرر فكريًا ووجدانيًا من كل الأواصر والمؤثرات والقيود وأسباب الخوف، وأن تعلن عن موقفها بكل شجاعة وثبات وإيمان[212]، فكان التعرف على شخصيتها وما تحمل من مزايا إيجابية من خلال هذه الكيفية في تقديمها أدق وأبلغ مما لو صرح باسمها.

وقريبًا من هذا الأسلوب يقدم السرد القرآني بعض الشخصيات من خلال صفاتها دون ذكر أسمائها، وذلك مثل شخصية (مؤمن آل فرعون)، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) ﴾ [غافر: 28]. فقد ركز السرد على صفة الرجولة فيه، والتي تدل على تكريمه وتشريفه، بمعنييه المادي والمعنوي، فيكفيه الانتساب إلى آل فرعون ليجعله يمتلك هذه الصفة بكل جدارة واستحقاق، فلم يخوفه جبروت فرعون وشراسته وبطشه[213]. وأما صفة الإيمان التي وصف بها الرجل فتدل على تلك القيمة المعنوية التي تفوق كل القيم المادية التي يمثلها كل من فرعون وهامان وقارون، لأن الإيمان وحده هو الذي يفيد الإنسان، فنال أصحاب السلطة والجاه من الكفار عقابهم أما هو ففي حفظ الله تعالى ورعايته، إذ قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) ﴾ [غافر: 45]. فضرب لنا السرد القرآني بإيمان هذا الرجل مثلًا عظيمًا للجهاد الأعظم الذي قال عنه الرسول ﷺ "إن أعظم الجهاد كلمة عدل عند

---

(211) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث**، 194/4.

(212) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 401.

(213) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 490/2.

سلطان جائر"[214]، لذلك نال حوار هذا الرجل المؤمن الخلود في ضمير الزمان، وأصبح درسًا يستمد منه دعاة الحق عبر العصور حرارة الإيمان، وبراعة المنطق وقوة الحجة[215].

والشيء نفسه نجده في الكيفية التي قدم بها أصحاب الكهف، إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ... نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾ [الكهف: 9 – 13]. فانتسابهم إلى الكهف دليل على معاني التحرر ونبذ كل ما يتعلق بالدنيا وزينتها، تلك المعاني التي يقررها السرد القرآني من خلال التركيز على وظيفتهم المتمثلة بالحفاظ على دينهم[216]، وأما الفتوة فهي صفة يستدل بها على الإيمان الصادق لدى هؤلاء الفتية[217]، وقد أكد السرد القرآني على إظهار هذا الوصف في ذكر أصحاب الكهف وذلك "للإيماء إلى ما فيهم من اكتمال خلق الرجولة المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحق[218]، فلا عجب أن نجد الشباب دومًا يمثلون القاعدة الأساسية لكل حركة ثورية تصحيحية في تاريخ البشرية. وأسهم إبهام أسماء أصحاب الكهف في إبراز الغرض المرجو من القصة، وذلك في أن هؤلاء الفتية يمثلون حالة يمكن أن تتكرر عند الشباب في كل زمان ومكان[219]. وهذا ما فعله الشباب في عهد النبوة، إذ كانوا سباقين في الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ إلى دين الحق في الوقت الذي رفض فيه الشيوخ الهداية.

---

[214] ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **الجامع الكبير**، تح: د. بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1996)، أبواب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، (2174)، 45/4.

[215] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 225.

[216] والاس مارتن، **نظريات السرد الحديثة**، ت: حياة جاسم محمد، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998م)، 119.

[217] دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، 202.

[218] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 266/15.

[219] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8867/14.

المطلب الثالث: مستويات التباين بين الشخصيات الإيجابية والسلبية:

لايقدم السرد القرآني شخصياته تقديمًا مباشرًا ومن خلال أوصافها المادية الحسية، وإنما يكون ذلك بصورة غير مباشرة، وعن طريق التركيز على الجانب المعنوي فيها، وهذا الشيء نجده في الأبحاث السردية الحديثة أيضًا، وعند نقاد الرواية، إذ يفضلون الإظهار على الإخبار كوسيلة للكشف عن الشخصية، لأن ذلك يولد لدى المتلقي الشعور بأن قراره على تقييم الشخصية جاء نتيجة مراقبته لها وهي تتصرف أمامه، وأنه استخدم في ذلك نظرته النقدية، ومعرفته العامة بالبشر، بينما في حالة إخباره بأمر ما فإنه ربما يقبل به أو يرفضه، فضلًا عن أن الشيء الذي يستقر في الأذهان ويبقى عالقًا به هو ما تقوم به الشخصيات من أفعال ووظائف، وليس ما نُخبَر عنها[220]. ولا يريد السرد القرآني إبراز الشخصية لذاتها، وإنما لما تقوم به من وظائف وأدوار تنطلق وفق منطلقات إيجابية أو سلبية، مبنية على أسس فكرية وعقائدية[221]، فيؤسس بذلك لنماذج حية من الشخصيات، نتلمس أبعادها في كافة المجتمعات وفي كل زمان ومكان، وذلك عبر الكشف عن طبائع الشخصيات ودوافعها وانفعالاتها وسلوكها، والتي نتلمسها من خلال ما يرتبط بها من أقوال وأفعال وأحداث، بشكل يسهم في مساعدة المتلقي وتوجيهه إلى التأسي بالشخصيات الإيجابية الخيرة، والنفور من الشخصيات السلبية الشريرة[222].

ومن بين الأساليب السردية التي يعتمد عليها السرد القرآني لتحقيق ذلك، هو أسلوب التباين في تقديم الشخصيات على مستوى الإيجابية والسلبية، إذ يجد المتلقي نفسه يتنبه إلى شخصية مختلفة في دورها ووظيفتها داخل مجموعة من الشخصيات المتوافقة فيما بينها، فتثير انتباهه وتحرك ذهنه، ليحاول استخلاص ما في ذلك من معاني وإيحاءات.

---

[220] جيريمي هوثورن، **مدخل لدراسة الرواية**، ت: غازي درويش عطية. (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1996م)، 74.

[221] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 62.

[222] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 360.

يقدم السرد القرآني الشخصية الإيجابية من خلال تباينها الذي تزداد نسبة قوة بروزها كلما ازدادت نسبة قوة السلبية التي تتصف بها الشخصيات المحيطة بها، فنتنبه إلى إيجابيتها دون أن تكون لها مساحة سردية كبيرة، وإنما يأتي ذلك عبر التضاد القوي الذي يتشكل بينها وبين الشخصيات السلبية المحيطة بها، فمثل تلك الشخصية الإيجابية نسبة إلى الشخصيات السلبية كمثل النجوم التي تزداد شدة لمعانها مع تزايد شدة الظلام.

وتأسيسًا على هذه القاعدة يقوم السرد القرآني بإبراز قوة إيجابية لوط عليه السلام من خلال التركيز على المدى الخطير من السلبية التي توغل فيها الطرف المعادي، بشكل يسهم في تشخيص معاني الإيجابية في شخصية لوط عليه السلام بكل دقة ووضوح، فمعلوم أن قوم لوط عليه السلام كانوا أشد الأقوام سلبية على مر التاريخ البشري، فإذا كان الانحراف عند الأقوام الأخرى إنحرافًا فكريًا وعقائديًا، فإن الانحراف الذي واجهه لوط عليه السلام عند قومه هو انحراف من نوع آخر، خاص بهم، وهو الانحراف الأخلاقي والسلوكي، فضلًا عن كونهم مشركين ضالين، وما زاد في أمرهم شناعة أنهم كانوا يجاهرون بجريمتهم وشذوذهم معلنين وغير مكترثين لأي شيء[223]، إذ قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) ﴾ [العنكبوت: 28-29]، فهي صفات خاصة بهم قد لا تجتمع كلها في غيرهم من الأقوام، والتي تتمثل في التكذيب والجدل وإتيان الفواحش الشاذة والاعتداء والإجرام والإسراف وعمل السيئات والخبائث وإتيان المنكر وقطع السبيل والجهل والفسق والظلم، وهي أسوأ ما يجتمع عليه قوم من صفات[224]، فما كان على

---

[223] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 1/482-484.

[224] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 205.

المتلقي إلا أن يتعاطف مع لوط عليه السلام وقضيته، ولذلك كانت لقصته الفاعلية في تسلية قلب النبي ﷺ وتثبيته أمام مواقف أعدائه من المشركين(225).

يمكن أن تتباين شخصية إيجابية مميزة بالمقارنة مع مجموعة من شخصيات إيجابية أخرى تحيط بها، وذلك مثلما نرى في شخصية مريم عليها السلام التي وضعها السرد القرآني في سياق سورة مريم بين حشد من الأنبياء والرسل عليهم السلام رغم كونها امرأة، وإنها ليست نبية، ليجعل من المتلقي أن يتنبه إلى وجودها كامرأة بين هذا الحشد من الأنبياء(226). وكان جمع قصتها مع قصصهم في سورة تحمل اسمها دليلًا على أن هذه الشخصية لها أهمية اشتثنائية(227)، إذ قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾ [مريم: 16]، ونراها قد ذكرت بالصيغة التي ذكر بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، إذ جاء بعد التذكير(228)، فجاء إبرازها بسمات إيجابية بين هذا الجمع الإيجابي المتصل بالسماء ليضفي عليها إيجابية أقوى مما لو ظهرت من بين شخصيات سلبية، أو حتى لو ظهرت بين شخصيات إيجابية غير الأنبياء، فالقوي الذي يستطيع الظهور بين الأقوياء هو أكثر بروزًا من الذي يظهر بين الضعفاء، لذلك فإن التباين الذي نتج عن إفراد مريم عليها السلام بالذكر في هذا السياق يسهم في تمايز إيجابيتها وتباينها، ودليل على امتلاكها المكانة العالية التي تجعلها قرينة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام(229).

تبرز الشخصية الإيجابية من خلال تباين موقفها مع مواقف الشخصيات المحيطة بها، فيكسبها سمة التمايز والتفرد، بشكل يسهم في التمكين لتأسيس المبدأ الفكري الذي يتوخاه السرد من خلال تلك

---

(225) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 95.

(226) الحلو، **مدخل إلى علم النفس**، 100.

(227) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/471-472.

(228) [مريم: 2-58].

(229) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 107.

القصة[230]، وذلك مثل موقف الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) ﴾ [يس: 20 – 27]، فنحن إذ نعلم أن الدور الإيجابي الوحيد الذي كان يؤديه أنصار الحق إلى حين مجيء هذا الرجل هو الإيمان بما جاء به الرسل عليهم السلام فحسب، دون أن يكون لهؤلاء التابعين تدخل في الصراع القائم بين الأنبياء عليهم السلام وبين أقوامهم، فلا نجد أية مواجهة حقيقية بين المؤمنين والكافرين، وكأن الرسول كان عليه أن يمضي وحده حاملًا الرسالة الإلهية بين يديه وليس هناك صوت آخر يقوم إلى جانبه، ويدعو بدعوته[231]، ولكن هذا الرجل قد كسر تلك الرتابة التي استمرت مع الناس قبله، وصنع موقفًا متباينًا عمن سبقه من المؤمنين، ليكون هو المؤسس لمرحلة متباينة في تحدي الكفر والظلم، ونصرة النور والحق، ليكتسب بموقفه هذا الدور الريادي بين قومه[232]، وذلك لأنه لم يكتف يالإيجابية الصامتة وإنما اختار الصائتة بل المدوية ليخترق صداها الأزمان والأماكن فيخلّدها الله ﷻ في الحياتين[233].

يقدم السرد القرآني شخصية البطل الإيجابية من خلال الإلمام بالملامح النفسية والفكرية والاجتماعية المتعلقة بالشخصيات المحيطة بها، والتي يسخرها السرد من أجل بناء تلك الشخصية المحورية، وذلك عندما نرى أن أهميتها داخل النسيج السردي لا تكمن في ذواتها، وإنما في فاعليتها وعلاقاتها مع

---

(230) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 243/2.

(231) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 194.

(232) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 255/2.

(233) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 251/2-252.

شخصية البطل[234]، فعندما ننظر إلى قصة موسى عليه السلام نراها تتباين عن قصص الأنبياء الآخرين عليهم السلام[235] بأن ركز فيها السرد القرآني على إبراز السمات المعنوية لشخصيات نسوية من خلال مواقفهن، حتى أصبحن ركيزة أساسية في الأحداث السردية المرتبطة بحياة موسى عليه السلام، والشخصيات هنّ: أمه وأخته وامرأة فرعون وزوجته، هؤلاء النسوة اللاتي كن من بين الأسباب التي هيأها الله ﷻ، ليكون لهن الدور والتأثير في صنع شخصية موسى عليه السلام على عين الله ﷻ، وأن تكون لهن الفاعلية في نجاح دعوته، فنرى انعكاس تلك السمات الإيجابية التي تحلين بها على شخصية موسى عليه السلام، مثل الإيمان واليقين والامتثال لأمر الله ﷻ عند الأم، والطيبة والمحبة والذكاء والحكمة وسرعة البديهة عند الأخت، والجرأة والشجاعة والحب والحنان ونبذ الحياة الدنيا عند امرأة فرعون، والحياء والفطنة في معرفة الناس وتقديرهم عند الزوجة[236].

يقدم السرد القرآني الصورة المناقضة للشخصية الإيجابية، وهي الشخصية السلبية، والتي تمثل الجانب المقابل والمضاد. والسلبية هي السلوك الذي يقوم على الميل إلى رفض ما يصدر عن الآخرين، من أقوال وأفعال، أو الميل إلى القيام بأعمال مضادة لأعمالهم، وقد تصل السلبية إلى حد المرض[237]. ولاتكتفي الشخصية السلبية كما تسميها النظرية السردية الحديثة بأن تكون مجرد عقبة أو عارض في وجه الشخصية الإيجابية، وإنما لها غاية في تحركها المضاد، مما يتولد عن ذلك التصادم والتصارع[238].

الإيجابية والسلبية أمران متزامنان في الوجود منذ الأزل، منذ أن خلق الله ﷻ آدم وعلمه الأسماء كلها ثم عرضه على الملائكة، وكرمه بأن أمر الملائكة بالسجود له سجود التحية والاحترام، ولكن إبليس

---

[234] مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية**، 32.

[235] سورة القصص.

[236] الشرقاوي، **المرأة في القصص القرآني**، 1/385-427.

[237] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م)، 1/668.

[238] برنس، **المصطلح السردي**، 28.

عارض ذلك وأبى أن ينفذ أمر الله جل جلاله، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) ﴾ [الأعراف: 12]؛ لأنه قاس الأمور بمقياسه، وأنساه استكباره مقاييس الله ﷻ، فظهرت السلبية متمثلة في ذلك الموقف، ومنذ ذلك الوقت أقسم إبليس على غواية بني آدم، وزرع الشر في نفوسهم مع استثناء للعباد المخلصين، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) ﴾ [ص: 82 – 83].

لقد وجد الإنسان على الأرض وهو يمتلك قوتين في داخله، هما قوة الخير وقوة الشر، وهما الأساس في طبيعته، التي هي ذات تكوين مزدوج، من مادة وروح، لذلك فهو مخير بين السمو نحو الرفعة وعالم الملكوت الذي يتحكم في العقل والمنطق، وبين الانحطاط نحو عالم المادة الذي تتحكم فيه الغرائز والشهوات[239]، وهذا هو الأساس والمنطلق الفكري الذي يعتمده السرد القرآني في تقديمه للشخصيات السردية سواءً الإيجابية منها أو السلبية، ولكن بنسب متفاوتة، إذ تقدَّم الشخصية السلبية في نطاق محدود، فلا نجدها تتسم بالتنوع الذي اتسمت به الشخصية الإيجابية، وذلك لأن الهدف الأساس من القصة القرآنية هو بناء شخصية مؤمنة قوية متماسكة، فكان لا بد من تقديم الشخصيات الإيجابية على هذا التنوع الذي يسهم في تقديم نماذج شاخصة يقتدى بهم في سبيل الاستهداء وتتبع خطاهم، وتقديم الشخصيات السلبية لا يأتي إلا بالقدر الذي يخدم هذا التوجه[240].

يركز السرد القرآني على إبراز سلبية شخصية ما عن طريق تقديمها ضمن مجموعة من الشخصيات الإيجابية، فتكون شاخصة مثل النقطة السوداء التي نتنبه إليها على صحيفة بيضاء، وذلك مثلما نجد في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، الذي اغتر بماله وولده، ضمن نسيج من القصص يحمل أصحابها

---

[239] خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، 158.

[240] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 127-128.

السمات الإيجابية، مثل صاحبه الذي يحاوره، وأصحاب الكهف، وموسى عليه السلام والعبد الصالح، وذي القرنين، الذين نجحوا في الامتحان الإلهي بعد أن تيقنوا أن زينة الحياة الدنيا مجرد اختبار وامتحان لكل إنسان، وأن مصيرها الزوال، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾ [الكهف: 7 – 8].

إن قصة صاحب الجنتين من حيث البناء الهندسي تأتي بعد قصة أصحاب الكهف، ثم تأتي بعدها قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، ثم قصة ذي القرنين، لتمثل كل قصة قسمًا مستقلًا ومتداخلًا مع الأقسام الأخرى، فتقدم لنا بمجموعها نماذج إنسانية مختلفة نستدل بها على أن الناس فريقان: فريق ينبذ زينة الحياة الدنيا، وفريق يتمسك بها[241]، ففي مقابل هذه الشخصيات الإيجابية التي نبذت الحياة الدنيا وكل ما يتعلق بها من زينة رغم امتلاكها لها[242]، نجد السرد يركز على صاحب الجنتين الذي اغتر بالقدر القليل من زينة الحياة الدنيا والمتمثل بمزرعتين وبعض من الأفراد، فوصل به الحال إلى أن يتناسى نعم الله ﷻ، ويتشكك باليوم الآخر[243]، إذ قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) ﴾ [الكهف: 34 – 36]، فكان هو الشخصية السلبية الوحيدة والمتباينة من بين شخصيات إيجابية عديدة، ليوحي السرد من خلال ذلك إلى غلبة الجانب الإيجابي منها، وذلك لـ"أن نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة متفائلة تغلب جانب الخير دائمًا، وتجعل له العاقبة في كل حال"[244]. كما إن لذكر موقف هذا الرجل وما آل إليه مصيره غاية وعظية تهدف

---

[241] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 381/1.

[242] قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين، في سورة الكهف.

[243] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 402/1-403.

[244] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 203.

إلى نبذ التكبر والاستعلاء، وخصوصًا عندما نعلم أن السرد ذكر هذا الموقف بعد حادثة استنكاف مشركي قريش من مجالسة الفقراء والمساكين، وتكبرهم وافتخارهم عليهم بحسبهم ونسبهم[245]، مما جعل المتلقي يقارن بين هذا الموقف السلبي وبين مجاهدة الأبطال الحقيقيين في التخلي عن صفات التكبر والاستعلاء ونبذها، على الرغم مما يمتلكون من المكانات الرفيعة المميزة، سواء كانت اجتماعية أو دينية أو سياسية وعسكرية.

يركز السرد القرآني على إبراز تباين موقف شخصية سلبية هي منتمية بالأصل إلى مجتمع إيجابي، وذلك للكشف عن الجوانب السلبية لدى هذه الشخصية الخارجة مثل النتوءات المكروهة التي تشوّه الأسطح الملساء، فتظهر حركة هذه الشخصية المضادة شاذة عما يحيط بها من شخصيات متآلفة ومتجانسة مع ذواتها من جهة ومع محيطها من جهة ثانية، الشيء الذي يكون مثار الانتباه إلى الشخصية السلبية وتمييزها بكل سهولة ويسر[246]. وهذا ما يتوخاه السرد القرآني في قصة قارون، إذ ينتبه المتلقي إلى الدور السلبي الذي تلعبه هذه الشخصية، ذلك الدور الذي يتباين مع دور المجتمع الذي بناه موسى عليه السلام على الأسس والمبادىء الإيجابية، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... (76) ﴾ [القصص: 76]. فإن ما يزيد من سلبية قارون ويجعله شخصية لافتة للانتباه هو عدم تقديره لتلك الآصرة الاجتماعية والنسبية التي تربطه بموسى عليه السلام وقومه، فبغى عليهم[247]، فأمره مثير للاهتمام، وهو أغرب من أمر فرعون[248]، إذ يمكن أن نستدل من خلال هذه الشخصية على إمكانية

---

(245) أبو الفداء إسماعيل إبن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م)، 1155.

(246) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 155.

(247) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 162/2.

(248) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 176/20.

بروز مثل هذه النماذج المنحرفة في المجتمعات السوية، وذلك محاولة لإيصال حقائق معينة تفيد المتلقي في تعديل السلوك[249].

يمكن عدّ التفاوت بين المساحات السردية بعدًا آخر لإظهار التباين على مستوى الشخصيات الإيجابية والسلبية، وذلك عندما يعمد السرد القرآني إلى إعطاء الشخصيات السلبية مساحات سردية أضيق بكثير من المساحات السردية التي يعطيها للشخصيات الإيجابية، فيجد المتلقي تلك المساحة السردية الصغيرة، محاطة بمساحة سردية إيجابية أكبر، وهكذا تبدو الشخصية السلبية متباينة بالنسبة إلى الشخصية الإيجابية. ومن خلال هذا التباين في الحجم والنوع تبرز الشخصية السلبية، ويمكننا أن نشخص الجانب السلبي فيها ونحدده بكل يسر وسهولة[250]، ويحدث هذا عندما يقابل السرد القرآني شخصيات إيجابية بأخرى سلبية ينحصر دورها في عبارات قصيرة يجريها السرد على ألسنتها تكفي للكشف عن جوانبها السلبية التي تتعلق بأفكارها وسلوكها ونفسيتها، ومثال ذلك نجده في تقديم شخصية قابيل السلبية التي يعرفنا السرد القرآني عليها من خلال عبارتها الموجزة (لأقتلنك) حيث يركز على إبرازها، ليقابل بها جميع السمات الإيجابية الكائنة في شخصية هابيل من إيمان وتقوى، فتلك العبارة كافية لأن تكشف عن أن جريمة صاحبها لم تأت عن موقف آني، وإنما جاءت نتيجة لتراكمات سلبية أثقلت نفسية القاتل وفكره، والمتمثلة في النزعة العدوانية والحسد والأنانية التي تبدو أنها كانت متجذرة في أعماقه النفسية والعقلية وأنه كان يحتقنها قبل الحادث بزمن طويل، فعندما نسمع هابيل يقول (إن الله يتقبل من المتقين) نفهم أنه كان يشكك في تقوى أخيه وصلته بالسماء، في إشارة إلى أنها كانت ضعيفة منذ البداية[251].

---

(249) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 163/2.

(250) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 156.

(251) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 170/1.

والشيء نفسه نجده في عبارة (إنما أوتيته على علم عندي) التي قابل بها قارون نصيحة قومه له، تلك العبارة التي أكدت على ما جاء في بداية القصة من وصف سلبي لهذه الشخصية بالبغي[252]، فهي عبارة تجسد سلبية الشخصية المتمثلة في كفرها بنعم الله ﷻ، إذ نراها حريصة على إرجاع مصدر النعم إلى علمها الذاتي، وذلك عبر أسلوب التعبير بـ(إنما) التي تفيد الحصر و(على) التي تفيد الاستعلاء المجازي بمعنى التمكن والتحقق[253]، وكذلك الفعل المبني للمجهول (أوتيته) الذي نتلمس فيه الإصرار في عدم إرجاع النعم إلى الله ﷻ، ثم يختم العبارة بـ(عندي)، فكأنه يريد القول إن العلم شيء كائن ومتجذر فيه أصلًا من دون مصدر خارجي، هذا فضلًا عن التجاوب الصوتي بين الظرف (عند) المضاف إلى ياء المتكلم مع صفة العند الملازمة للشخصية، ليسهم ذلك في خلق متعة فنية تعكس لدى المتلقي دلالة توحي بالتشديد على صفة العند السلبية لدى الشخصية، والتي تأتي بمعاني العجب والتباهي والعدول عن صواب الطريق[254].

لقد أشار السرد القرآني إلى مثل هذا النوع من التباين في قصة إبراهيم عليه السلام كذلك، وتحديدًا في حواره مع أبيه آزر، وذلك عندما قابل هذا الأخير ابنه بعبارة موجزة، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾ [مريم: 46]، فنراه يجابه دعوة إبراهيم عليه السلام اللطيفة وألفاظه الجميلة الرقيقة بالاستنكار والتهديد والوعيد[255]، "فدل النظم في هذه الآية على أن الأب ينكر على إبراهيم عليه السلام تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنه موضع عجب"[256] لديه، فجاء موقفه المعبر عن القسوة المفرطة غير متوقع وصادمًا للمتلقي.

---

[252] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 166/2.

[253] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 181/20.

[254] الأصفهاني، **المفردات في ألفاظ القرآن**، 590.

[255] قطب، **في ظلال القرآن**، 2312/4.

[256] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 119/16.

وكذلك الحال مع شخصية نمرود في محاججته لإبراهيم عليه السلام عندما كشفت عبارته الموجزة (أنا أحيي وأميت) اللثام عن سلبيته وأظهرتها بارزة المعالم ومشخصة الأبعاد، لنتبين أن هؤلاء الحكام الذين لا ينتسبون إلى الله ﷻ، ويرون قمة المتعة الدنيوية في الملك أو السيطرة على الرقاب، ويعدّونها قمة لما يسمى في اللغة النفسية بـ(التقدير الاجتماعي)، هم أغبياء وبلهاء ومنغلقون فكريًا، ولا يستطيعون الصمود للحظات أمام أول مناقشة عقلية تواجههم[257]، وذلك مثل هذا الكافر الذي بهت وعجز عن المعارضة عندما عدل إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض على حججه الواهية وانتقل إلى ما لا يستطيع انتحاله[258].

وشبيهة لتلك العبارات هي عبارة (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء) التي جاءت تعبيرًا عن رفض ابن نوح للنداء الأخير الذي أطلقه الأب لركوب السفينة، تلك العبارة التي مثلت مساحة سردية صغيرة كانت كفيلة بالكشف عن السلبية المتجذرة في شخصية ذلك الابن العاق، لأن السرد القرآني عندما يُنطق شخصية من الشخصيات فإنما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها، ليفضحها ويكشف عن أمرها، ويعلن عما أخفته وأضمرته في نفسها من مراوغة وخداع ونفاق[259]، ويريد السرد القرآني من خلال التركيز على هذا الموقف المتشدد العنيف من الابن، وإظهاره، أن يشير إلى أن هذا الحدث هو الأخطر من بين جميع الأحداث السردية في قصة نوح عليه السلام[260]، لكونه يتصل بالعلاقة بين الوالد وولده في لحظة مصيرية مليئة بالتوتر والانفعال النفسي والوجداني.

---

(257) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 88/1.

(258) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 33/3.

(259) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 121.

(260) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 73.

المبحث الثاني: تقديم الزمن السردي:

يلف مفهوم الزمن الكثير من الغموض، بشكل أصبح محط خلاف واختلاف بين المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والنقاد ومازال، مما يجعل تحديد ماهيته شيئًا مستعصيًا على الجميع، حتى أصبح الزمن إشكالية كبيرة في ذاته[261]، الشيء الذي جعل القديس (أغسطين) في حيرة من أمره تجاهه، وذلك عندما يجيب على تساؤله ما الزمن؟ بقوله: إنني لأعرف معرفة جيدة ما هو بشرط أن لا يسألني أحد عنه، لكن لو سألني أحد ما هو؟ وحاولت أن أفسره لارتبكت[262]، وذلك لأن مفهوم الزمن مفهوم مجرد، وتلمسّه حسيًا شيء يستحيل على الإنسان، وإنما يأتي الإحساس به من خلال فعله في الطبيعة والإنسان، إذ نرى تأثيره ونشاطه فيما يحيط بنا من أحياء وأشياء، مثل الإنسان حين يهرم، والبناء حين يبلى، والحديد حين يصدأ، والأرض حين تتخدد، والشجر حين تتساقط أوراقه، والزهر حين يذبل، والفاكهة حين تتعفن، وفي كثير من التغيرات البيولوجية والكيميائية والفيزيائية التي يحدثها الزمن[263].

لقد بدأ اهتمام الإنسان بمفهوم الزمن منذ بداية وعيه وإحساسه به، إذ أدرك تأثيره فيه وفي البيئة المحيطة به، ونتيجة للرقي الفكري المتصاعد لدى الإنسان، وتحديث وعيه الدائم بالكون والوجود والأشياء تطور فهمه للزمن، وتعمق في مدلوله[264].

والزمن "مبحث لغوي يتصل بكفاءة اللغة في التعبير عنه، وهو مبحث أدبي يتصل بانشغال الكثير من الأدباء من الثقافات المختلفة والأجناس الأدبية به وبتأثيره في حياة الإنسان"[265]، لذا أصبح يمثل من أهم أولويات البحث في مجال الأدب ونقده، فعلى أساس تصنيف الفنون إلى زمانية ومكانية يعد الأدب فنًا

---

[261] عبدالملك مرتاض، **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**، 173.

[262] بول ريكور، **الزمان والسرد**، ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2006م)، 27/1.

[263] مرتاض، **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد** ، 173.

[264] عبدالرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1984م)، 556/1.

[265] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 240.

زمنيًا، ويأتي السرد أكثر الأجناس الأدبية التصاقًا بالزمن، ويكمن ذلك في كونه عنصرًا بنائيًا داخل العمل السردي، إذ ينعكس تأثيره على العناصر السردية الأخرى، بشكل يولد فينا الإحساس بوجوده على الرغم من كونه حقيقة مجردة[266].

وتأتي أهمية دراسة الزمن داخل الأعمال السردية "من كون هذا النوع من البحث يفيد في التعرف على القرائن التي تدلنا على كيفية اشتغال الزمن في العمل الأدبي، وذلك لأن النص يشكل في جوهره، وباعتراف الجميع، بؤرة زمنية متعددة المحاور والاتجاهات. وللوصول إلى تحديد دقيق، قدر الإمكان، للبنية الزمنية المزمع وصفها لا بد من إيلاء الأهمية لكل المظاهر المؤشرة على النسق الزمني الذي ينتظم النص"[267].

إذًا يعد الزمن من أهم العناصر السردية التي يرتكز عليها بناء السرد، بشكل لا يمكن الاستغناء عنه، إلى درجة لا يمكن معها افتراض سرد حكاية من دون تعيين زمن أحداثها، فهي إما أن تسرد بزمن الحاضر أو الماضي أو المستقبل، وإذا قارننا بينه وبين المكان السردي من حيث الأهمية كان تعيينه أهم من تعيين المكان[268]؛ لأن عملية السرد تنتظم بواسطة الزمن[269]، فهو الذي يحدد طبيعة السرد وطرائق تقديمه؛ وذلك لأن السرد مرتبط ارتباطًا وثيقًا بطريقة الروائي في تقديم الزمن وكيفية توظيفه[270].

وينفرد السرد القرآني في تقديمه للزمن بأسلوبه الذي يميزه عن السرود البشرية، وذهب الباحثون في هذا المجال باتجاه ينظرون فيه إلى الزمن نظرة تاريخية، وكان تركيزهم هو على التفكير في الزمن الطبيعي، فانعكس ذلك على أفكارهم تجاه الزمن في السرد القرآني، إذ ذهب الكثيرون منهم إلى انعدام الزمن فيه،

---

[266] قاسم، **بناء الرواية**، 32-33.

[267] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 113.

[268] زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 103.

[269] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 117.

[270] إبراهيم خليل، **بنية النص الروائي**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م)، 97.

وذلك استنادًا إلى أن الأحداث السردية في القصة القرآنية لا تأتي مرتبة ترتيبًا منطقيًا، وليس فيه ذكر لزمن وقوع الحدث إلا عبر إشارات زمنية في حدود الحاجة، فليس في القرآن قصة واحدة عني فيها بالزمن، فضلًا عن أن السرد القرآني ينتقي الأحداث ويختار بعضها دون بعض ولا يعنى بترتيبها الزمني أو الطبيعي عند تصويرها، لذا جاءت أفكارهم محصورة في هذه الزاوية الضيقة(271)، فلم ينتبهوا إلى أن القرآن الكريم هو رسالة إلهية هدفها الدعوة إلى دين الحق، ومن ضمنه السرد القرآني، فهو سرد إلهي متميز عن السرود البشرية شكلًا ومضمونًا، وأن توظيفه للعناصر السردية توظيف فريد من نوعه، يتوخى من خلاله تحقيق الأهداف الدينية، فالسرد القرآني وإن عرض وقائع تاريخية إلا أنه سرد مغاير عن السرد التاريخي، إذ لا نجد فيه تفاصيل التاريخ ودقائقه، فهو سرد أدبي وعمل فني معجز ينتظم على أساس من الوجدان والعاطفة(272). وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتلمس أسلوب التباين في تقديم السرد القرآني لعنصر الزمن، وذلك من حيث التحديد والإبهام، أو الصيغة المعتمدة في التقديم وما يحمل ذلك من دلالات.

المطلب الأول: التباين بين تحديد الزمن وإبهامه:

لم يعتن السرد القرآني في مسألة الزمن بتحديد تواريخ الأحداث ولا مدتها، إلا إذا كان في تحديدها أبعاد لقيمة الحادثة نفسها، ولم يلتزم بمراعاة الترتيب الزمني في ذكر الوقائع التاريخية(273)، وذلك لأن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ليسرد لنا الوقائع التاريخية بتفاصيلها ودقائقها(274). وعليه جاء اهتمام السرد القرآني بالزمن متفاوتًا، فهناك من القصص ما يحتفل بالزمن، بشكل يكون هو المحور المحرك للأحداث، وهناك قصص أخرى تتباين في استخدام عنصر الزمن بين التصريح والتلميح، وذلك حسب السياق وإيجاز

---

(271) خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 51.

(272) خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 150-151.

(273) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 97.

(274) كاظم الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991م)، 41.

القصة، ولكن الأمر المؤكد هو أن الزمن في السرد القرآني ماض مطلق، فلا نجد بدايات محددة لأية قصة، لأن الحكمة الإلهية لا ترى في ذلك مجالًا للعبرة[275]. ووفقًا لهذه الحكمة يقدم السرد القرآني الزمن في تباين من حيث التحديد وعدمه، فهو يقدمه بالقدر الذي يتطلبه الحدث، ليصل به إلى أهدافه التربوية الاعتبارية[276].

يستخدم السرد القرآني الأسلوب الغيبي في السرد، إذ إن الأحداث السردية تنبثق من آفاق القرون الماضية والأزمان الخالية، ليعطي المتلقي إحساسًا متميزًا بالزمن، بوصفه يشكل الماضي البعيد[277]، فأصبح إبهام نقطة انطلاق زمن الأحداث وعدم تحديدها وسيلة أسهمت في إشراك المتلقي وإدخاله في عالم القصة، وخضم الأحداث[278]، فالسرد القرآني يعتمد على مطلقية الزمن السردي، إذ يتحرر الزمن من كل قيد إلا قيد الماضي، فليست هناك حدود معينة تحدّ زمن الأحداث السردية مع زمننا، فلا يمكننا معرفة عدد السنين والقرون التي تفصلنا عن تلك الأحداث، أو حتى فيما بين الأحداث السردية نفسها، لأن ذلك لا يؤثر فيما يحمل الحدث من مواعظ وعبر تتعلق بالإنسان ونوازعه الثابتة من خير وشر عبر الأجيال والأزمنة المختلفة[279]، وهذا هو الهدف الذي يتوخى السرد القرآني تحقيقه، الشيء الذي لم يكن ليحدث إن ارتبطت الأحداث بمحددات زمنية وتاريخية، وهذا الأسلوب يتبعه السرد القرآني "بدءًا من قصة الخلق، وانتهاءً بالأقصوصات الواردة في سياق السور القصار، كأقصوصة أصحاب الفيل، وأبي لهب"[280]، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... (30) ﴾ [البقرة: 30]، وقال

---

(275) سليمان الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، (الجزائر: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط1، 1992م)، 233-234.

(276) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 116.

(277) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 83.

(278) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 293.

(279) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 91.

(280) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 294.

تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) ﴾ [الشعراء: 105 – 106]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) ﴾ [الأعراف: 65]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (73) ﴾ [الأعراف: 73]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) ﴾ [الكهف: 9]، وقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) ﴾ [مريم: 2]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾ [مريم: 16]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) ﴾ [مريم: 41]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) ﴾ [النازعات: 15]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾ [الفيل: 1]، فالشيء المشترك بين القصص كلها هو عدم تحديد نقطة الانطلاق الزمنية، وبني السرد فيها على الانفتاح الزمني الذي أسهم في إدخال المتلقي في خضم الأحداث مباشرة، فلا وجود لتواريخ محددة تبدأ عندها الحوادث، وبذلك مكّنت مطلقية الزمن السردي هذه السرد القرآني من مخاطبة الكيان الإنساني في كل عصر وزمان، دون التقيد بأي بعد زماني من أجل الربط بين الأزمان، ماض سحيق، وحاضر معيش، ومستقبل آت[281].

يقدم السرد القرآني عنصر الزمن إما مصرحًا به ومحددًا، أو ملمحًا إليه وغير محدد، وهو إجراء متقصد تمامًا، لتتشكل من خلاله دلالات توحي بما فيها من مجال للعبرة والموعظة[282]. فهناك مبهمات مقصودة في السرد القرآني تسمى مبهمات القرآن، وهي تتعلق بالزمان كما تتعلق بأسماء الشخصيات والأماكن[283]، فهذه هي قصة الخلق نجد فيها الزمن مبهمًا وغير محدد بدليل (إذ) التي هي من أسماء

---

[281] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 294.

[282] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 234.

[283] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 41/1.

الزمان المبهمة، تدل على الزمن الماضي، وجاء تخصيص اسم الزمان هنا لأن الحديث هو عن حادثة تاريخية، فكان لا بد من إسنادها إلى زمن وقوعها ولكن دون تحديد(284)، فيبدأ السرد القرآني قصة الخلق بالحديث عن خلافة الإنسان في الأرض، ويستهل القصة وفق التسلسل الزمني الذي يبدأ من لحظة إيجاد الخليفة في الأرض. وإن لهذه البداية السردية المبهمة دلالات تشير إلى إبراز علم الله ﷻ، فالإشارة إلى تلك اللحظة التاريخية الغيبية تدل على إثبات العلم الكلي المطلق عند الله ﷻ وعدمه عند الملائكة مرورًا بتعليم آدم عليه السلام، فإن الله ﷻ يعلم ما لا يعلمه الآخرون(285). يطلعنا السرد القرآني على تلك اللحظة الفاصلة بين الزمان الأرضي الذي نقيم عليه حساباتنا من الأيام وأقسامها ومضاعفاتها وبين ما قبل الزمان الأرضي، أي زمن خلق السماوات والأرض(286)، إذ حدثت قصة الخلق في الزمان الغيبي الذي يغيب الحس الزمني فيه، وهو خارج الحيز الزماني الأرضي ومرتبط بحياة آدم عليه السلام قبل الخطيئة والهبوط الذي انتقل معه الزمن إلى حسي(287). إلا أن السرد القرآني قد اعتمد في قصة الخلق الأول على الزمن الحسي الممثل بالأيام المتعارف عليها عندنا، ويواجهنا بتحديد زمني حسي يرجعه إلى ما قبل الزمن الأرضي، وذلك عندما يحدد مدة خلق السماوات والأرض بستة أيام، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) ﴾ [ق: 38]، فهذا حدث غيبي وقع قبل الزمن الحسي الذي نعرفه، يقدمه السرد القرآني على أنه حدث زماني حسي، وذلك انسجامًا للمبدأ التربوي والتوجيهي في الخطاب القرآني الذي يراعي ذهنية المتلقي، ويتعامل معه بما هو مدرك لديه من خلال تجسيد وتشخيص ما هو غيبي في صورة المحسوسات العينية، فجاء الزمن الغيبي غير المحسوس هنا مجسدًا ومحسوسًا ومحددًا بستة أيام مشخصًا بذلك القدرة الإلهية المطلقة على نحو تقريبي، وكذلك للدلالة على عظمة فعل الخلق

---

(284) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 1/396-397.

(285) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 1/36.

(286) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 75.

(287) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 141.

وجسامته[288]، فجاء ظاهر الآيات أن الأيام هي تلك المعروفة للإنسان، بالمفهوم الذي تحقق عنده بعد تمام خلق السماء والأرض، فاليوم يعني تلك المدة المقدرة من طلوع الشمس ثم غروبها ثم ظهورها مرة أخرى من المكان نفسه، فأسهم التحديد الزمني هنا في تمكين الناس على تقدير المدة وساعدهم على استيعاب هذا الأمر العظيم[289]، فضلًا عما تحمله هذه الأيام الستة من دلالات تتعلق بفهم الإنسان لكيفية الخلق، وهو "أن الشيء إذا أُحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الأحداث فيمكن أن يخطر ببال بعضهم أن ذاك ربما وقع على سبيل الاتفاق، أما إذا حدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة، كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث قديم حكيم، وقادر عليم رحيم"[290]. أو ربما كان في تصوير الخلق بهذا الشكل التدريجي مع إمكانية خلقه دفعة واحدة دلالات اعتبارية تحمل معاني تتعلق بحثّ الإنسان ودفعه إلى التأني في التدبر والتأمل[291].

يقدم السرد القرآني الزمن متباينًا ما بين التحديد والإبهام، بشكل يتلاءم وينسجم مع سياق الحدث بهدف الإيحاء بدلالات معينة تحمل من المعاني التي تخدم الفكرة المراد توصيلها، وتوضح الأسباب الكامنة وراء الأحداث، وذلك مثلما نجد في حادثة مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، ونعلم أنه قد ثبتت براءته بشهادة شاهد من أهلها وبحضور العزيز نفسه، ولكن عدم ارتداع امرأة العزيز ومواصلتها في محاولاتها الإغوائية أدت إلى انتشار الخبر في المدينة وخصوصًا بين نسائها، فرأوا أن يسجنوا يوسف عليه السلام إلى حين، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾ [يوسف: 35]، فدخل يوسف عليه السلام السجن من دون أسباب موجبة، وفي السجن تقع الحادثة

---

(288) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 138-145.

(289) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 162/8.

(290) فخرالدين الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981م)، 105/14.

(291) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 232/3.

المرتبطة برؤيا صاحبيه، وتأويل يوسف عليه السلام لهما، وكيف أنه بعد تحققهما يوصي الناجي منهما أن يذكره عند ربه، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) ﴾ [يوسف: 42]، فشاء الله ﷻ أن ينسى الرجل ذلك، فبقي يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، فنلحظ هنا زمنين مبهمين، الأول هو (حتى حين) فهو زمن غير محدد نستدل به على جور القرار وظلمه، ذلك القرار الذي أصدر حسب الأهواء والميول، ووفق أسس وأعراف جاهلية لا تستند إلى نص قانوني يحدد مدة السجن، فيودَع البريء في السجن إلى أجل غير مسمى، فكان لإبهام الزمن هنا دور في إظهار مظلومية يوسف عليه السلام وبراءته من جهة، وفي إظهار مدى ما وصل إليه النظام السياسي آنذاك من فساد إداري يمتلك فيه أصحاب السلطة المتنفذين الحرية الكاملة في ظلم الناس والاستهتار بمصائرهم والعبث بحياتهم وأوقاتهم من جهة مقابلة، ويعطون الحق لأنفسهم في ممارسة الظلم ضد من لا ظهر لهم ولا دفاع. وعندما ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى نجد أن إبهام الزمن هنا أسهم في استشعار المتلقي بما قاساه يوسف عليه السلام من آلام الاضطهاد؛ لأن عدم تحديد مدة محكومية السجين تزيد من شدة معاناته وآلامه النفسية في السجن[292]، والزمن الثاني غير المحدد هو (بضع سنين) والتي تتراوح بين ثلاث إلى تسع سنوات، فهي مدة مبهمة وغير محددة، نتلمس منها دلالات تشير إلى مدى الظلم والفساد المتفشي في الحكم، فالزمن المبهم يُنبئنا أن السجون لم تكن لها سجلات القيد بأسماء السجناء، وأسباب سجنهم، ومدة مسجونيتهم، وليس هناك تفقد من قبل المسؤولين على السجون وأحوال السجناء الذين وضعوا في السجون دون أن يسأل أحد عن أحوالهم[293]، وهذا ما يوحي بزيادة الإحساس بمظلومية يوسف عليه السلام من جهة، والكشف عن معدن هذا النبي الكريم وقوة إيمانه من جهة ثانية، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

---

[292] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 140-141.

[293] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 279/12.

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) ﴾ [يوسف: 33]، فإن غموض الزمن هنا فيه التوضيح والبيان بحق يوسف عليه السلام؛ لأن فيه دلالة تشير إلى التقليل من شأن المدة وتهوينه من قبل يوسف عليه السلام، فهو يرى في دخوله السجن نجاة وحرية من كيد امرأة العزيز وقيودها، فالمدة مع امتدادها لم تؤثر عليه سلبًا، بل على العكس من ذلك، فهي أصبحت فرصة سانحة لأن يقوم بدوره داعيًا إلى الله جل جلاله[294].

ولكن عندما يأتي الحديث عن أزمة اقتصادية مرتقبة ويتعلق الأمر بحياة الناس وأقواتهم، ويقتضي الأمر اتخاذ التدابير الوقائية على أكمل وجه، والتدقيق في تفاصيل الأمور كلها، نرى يوسف عليه السلام المقدّر لقيمة عامل الزمن يضع خطة دقيقة محكمة مبنية على توقيت زمني محدد ذي تفاصيل دقيقة، حيث لا مجال للتخمينات والمواعيد المؤجلة، وهي خطته السبعية التي نظم على أساسها العمل لمواجهة تلك الأزمة الاقتصادية التي كانت تؤدي إلى مجاعة مهلكة لولا تلك الخطة وذلك الاحتساب الدقيق للزمن، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) ﴾ [يوسف: 47 – 49]، فنستدل بذلك على امتلاك يوسف عليه السلام لخبرات متعددة: اقتصادية وزراعية ومالية وتموينية وتخطيطية، فضلًا عن خبرته في تأويل الأحاديث وتعبير الرؤى، إذ قسم خطته إلى ثلاث مراحل زمنية محددة: السبع الأولى زيادة في الانتاج وترشيد في الاستهلاك، والسبع الثانية العدالة في توزيع المخزون وتجنب التبذير، ثم يبشرهم بما لم يره الملك في رؤياه، وهو العام الخامس عشر الذي هو أول الأعوام من الدورة السبعية الثالثة، وهو عام الغوث والعودة إلى الحياة الطبيعية، وذلك لكي لا يصيبهم اليأس والقنوط، وأن يعملوا على أمل انتظار ذلك العام، فيتمكنوا من تجاوز هذه

---

[294] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 85.

الشدة نحو الرخاء، وكان في الاستخدام المعجمي المتباين بين العام والسنة دلالة تعبر عن هذا التباين في الأحوال المعيشية، فالعام يدل على السعة والرخاء، أما السنة فتدل على القحط والشدة[295].

فنرى في إبهام الزمن في (حتى حين) و (بضع سنين) معاني الظلم وسوء الاستفادة من السلطة، وفي المقابل نجد في تحديد الزمان وتقسيمه إلى مراحل زمنية محددة معاني العدالة والعمل وفق النظام والتخطيط، فجاء التباين من حيث تقديم الزمن على أساس من التحديد والإبهام عاملًا مساعدًا يسهم في إبراز أهداف السرد القرآني من إرشاد ومواعظ وعبر[296].

وكذلك الحال عندما يعرفنا السرد القرآني على المدة الزمنية المحددة التي مكث فيها موسى عليه السلام في مدين، ولو معرفة ترجيحية من ثمان إلى عشر سنوات[297]، وعلى الأرجح أنها كانت عشر سنوات، لـ"أن طبيعة موسى عليه السلام القائمة على الشهامة والمروءة والكرم والأريحية لا تقبل إلا الكرم والفضل، ولهذا لم يكتف بالمطلوب منه، وإنما زاد السنتين الأخريين فضلًا وكرمًا"[298]، ولعلنا نستطيع الاستدلال على المدة الحقيقية من خلال المرات العشر التي تكرر فيها ذكر اسم مدين صراحة في القرآن*. ويحمل تقديم الزمن محددًا هنا أبعادًا دلالية تشير إلى معاني تتعلق بإبرام العقود التي لا بد من تثبيت التواريخ والمدد الزمنية فيها بدقة وتفصيل؛ وذلك "لأن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها"[299]، هذا فضلًا عما تمثلها هذه السنين من تعبير عن مرحلة تأهيلية أخيرة في تهيئة موسى عليه السلام للمهمة العظيمة التي تنتظره، فهي سنوات التعود على المشقة والصبر والمعاناة جراء العمل ورعي الأغنام، وهي على

---

[295] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 598.

[296] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/160-162.

[297] **الطراونة، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 242.

[298] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/346.

* تكرر ذكر اسم مدين في [الأعراف: 85]، [التوبة: 70]، [هود: 84، 95]، [طه: 40]، [الحج: 44]، [القصص: 22، 23، 45]، [العنكبوت: 36].

[299] قطب، **في ظلال القرآن**، 5/2689.

النقيض من السنوات الأولى من حياته التي كانت تمثل مرحلة الرفاه والتعرف على عادات وتقاليد القصر وساكنيه، وبذلك يكون موسى عليه السلام قد تكونت لديه خبرات متعددة نتيجة العيش في بيئتين متباينتين[300].

المطلب الثاني: التباين بين صيغ تقديم الزمن:

تشكل الصيغة السردية أحد الأسس التي تسهم في تشكيل الخطاب السردي، والتي تعطي التميز والتفرد لأي خطاب. والصيغة السردية أو نمط السرد كما جاء في مقولات تزفيتان تودوروف T. (Todorov) للسرد الأدبي هو عبارة عن الكيفية التي يُقدَّم لنا المسرود من خلاله[301]، أي إن البحث في النمط السردي هو بحث يحيل إلى التساؤل: كيف يسرد السارد ما يرى، أو ما لديه من معلومات سردية، لذلك فإن الكلام عن النمط السردي يتحدد على أساس مستوى الصياغة كأسلوب، فيمكن أن يعني دراسة التركيب اللغوي للخطاب السردي[302].

إن الصيغة السردية التي تتخذ من الصيغ النحوية أساسًا لها تشير إلى درجات تقديم الخبر السردي متفاوتة، إذ يمكن أن يزود السرد المتلقي بالتفاصيل السردية، أو يكتفي بالقليل وبطريقة أكثر مباشرة أو أقل، وهو بذلك يتخذ مسافة بعيدة أو قريبة مما يسرده[303]، فتتشكل من خلال ذلك دلالات توحي إلى معاني يحاول المتلقي اكتشافها عن طريق القراءة والتأويل.

---

(300) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 346/2.

(301) تزفيطان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ضمن كتاب **طرائق تحليل السرد الأدبي**، ت: الحسين سحبان وفؤاد صفا، (الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، 1992م)، 61.

(302) العيد، **تقنيات السرد الروائي**، 162.

(303) جينيت، **خطاب الحكاية**، 177.

يراعي السرد القرآني في اختيار الصيغة السردية أمورًا كثيرة وجوانب متنوعة، مثل مراعاة السياق الذي جاء فيه ذلك التعبير أو السورة التي ورد فيها الحدث[304]، فقد يأتي الحدث السردي الواحد بتعابير متباينة، وذلك تساوقًا مع الجو العام للسورة والمناسبة التي سيق من أجلها، فيتراءى للمتلقي وكأن القصة تتكرر، والحقيقة أنها ليست كذلك، ولكن السرد القرآني يقوم في كل موضع بإبراز الجانب الذي يتناسب مع السياق، وحسب ما يهدف إليه من الاعتبار والاتعاظ[305].

لقد ذكر السرد يوم العذاب في قصة هلاك قوم عاد بالريح بصيغ متباينة وفي سور مختلفة، فنجد في سورة القمر يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) ﴾ [القمر: 19]، فهو يوم مبهم نكرة وغير مفصل فيه، وفي سورة فصلت يقول تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ... (16) ﴾ [فصلت: 16]، فهي أيام مبهمة العدد من دون تفصيل أيضًا، وأما في سورة الحاقة فيقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) ﴾ [الحاقة: 6 – 7]، فقد فصّل السرد في مدة العذاب، وجاء أن هبوب تلك الرياح بدأ في صبيحة أحد الأيام منذ الشروق ليستمر ثمانية أيام متتابعة بلياليها[306].

إن الهدف المشترك بين السور الثلاث هو بيان عاقبة تكذيب قوم عاد لهود عليه السلام، ووقت إهلاكهم بريح صرصر، لذلك لا نجد ذكرًا لهود عليه السلام في هذه السور الثلاث، لنستدل بذلك على أن مهمته قد انتهت وأنه قد أبلغ الرسالة على أتم وجه، وهذا ما فيه إنذار لمشركي مكة من عاقبة مماثلة[307]،

---

[304] فاضل صالح السامرائي، **التعبير القرآني**، (عمان: دار عمار، ط4، 2006م)، 252.

[305] السامرائي، **التعبير القرآني**، 283.

[306] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 256/1.

[307] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 248/1.

ولكن الشيء الذي يثير الانتباه هو التباين في صيغ تقديم الزمن في السور الثلاث حسب ترتيبها في النزول، فأول ما جاء الذكر لوقت هلاك قوم عاد كان في سورة القمر، إذ ذكر فيها أنه كان يومًا، ووصف ذلك اليوم بـ(يوم نحس مستمر) ثم جاء في سورة فصلت بصيغة الجمع (أيام) ووصفت بـ(أيام نحسات)، وهي أيضًا أيام مبهمات، ولكن في سورة الحاقة التي هي آخر سورة ذكرت فيها حادثة هلاك قوم عاد فقد حدد السرد المدة بدقة وتفصيل، إذ جاء فيها أنها كانت (سبع ليال وثمانية أيام حسومًا)[308]، وكأن السرد القرآني يتدرج في التفصيل في تلك الأيام، فيبدأ بيوم من تلك الأيام النحسات التي مجموعها ثمانية أيام بلياليها[309]، ليعبر في كل سورة بالصيغة السردية التي تتناسب مع السياق، فنجد هناك تساوقًا بين مواضيع السور وبنائها الفني، فسورة القمر ذات الآيات القصار والنبرة القوية جاءت تحدث عن المكذبين، ونستدل على ذلك بالبداية التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) ﴾ [القمر: 1 – 2] فإنها تتوخى السرعة والحسم في الرد على المعرضين[310]، ويلاحظ أيضًا تكرار الظرف (يوم) في كثير من آيات السورة، مثل ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) ... مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8) ... يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ(48) ﴾ [القمر:6،8،48]، فجاء ذكر يوم هلاك قوم عاد ليتناسب مع هذا التكرار ومع الجو العام للسورة الذي يقتضي السرعة وعدم التفصيل.

أما سورة فصلت فموضوعها بيان قوة الله ﷻ وقدرته التي تفوق كل قوة وقدرة، فجاءت كيفية عرض قصة هلاك قوم عاد متناسبة مع الموضوع الذي تتحدث عنه آيات السورة الكريمة، فيحدثنا السرد

---

(308) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 93-103.

(309) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 255/1.

(310) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 84.

القرآني فيها عن استكبار قوم عاد واغترارهم بقوتهم[311]، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16) ﴾ [فصلت: 15 – 16]، ليريهم الله ﷻ أنه الأشد قوة وأنه يضع القوة في الشيء الهين مثل الريح ليحمل لهم عذابًا وخزيًا، وذلك تحقيرًا لهم، لذلك جاءت الأيام على صيغة جمع القلة ووصفت بالجمع المؤنث (نحسات) على أنه صفة لجمع غير عاقل وهو (أيام)، لنستدل بذلك على علامات التهوين والتحقير لقوم مستكبرين ومغترين بقوتهم، فأذاقهم الله ﷻ عذاب الخزي الذي نرى في صياغته الزيادة في التحقير، إذ جاء الوصف بالمصدر وأضيف الموصوف إلى الصفة للمبالغة، وأي خزي أشد من أن تترامى الريح أجسادهم الضخمة كأنهم ريش في الجو، وتلقي بهم على الأرض جثثًا هامدة[312]، لذلك جاء الزمن في السورة بصيغة (أيام نحسات) مبهمة ونكرة للزيادة في التهوين والتحقير لقوم عاد[313].

ولكن السرد قد فصّل في سورة الحاقة مدة العذاب تفصيلًا دقيقًا في عدد الأيام، وأزالت الإبهام عنها، ونجد في ذلك تناسبًا فنيًا مع السياق العام، إذ تتضمن السورة أمورًا تفصيلية يتساوق معها التفصيل والدقة في وصف الأيام، فعندما نلحظ بداية السورة نراها قد بدأت بالأسئلة المتكررة حول شيء واحد وهو الحاقة إشارة إلى يوم القيامة، ليشير التكرار هنا إلى فائدة التأكيد على هول شأن ذلك اليوم وفظاعته وشدته وعظمته[314]، فاجتمع الإستفهام والتعظيم؛ لأن ما الاستفهامية المتكررة هنا مستعملة في التهويل

---

(311) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 99.

(312) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 24/258-261.

(313) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 1/253.

(314) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 9/21.

والتعظيم، فالأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه بإلحاح[315]، كما وإن في لفظ (الحاقة) الدقة والتفصيل في المعنى، فهي واجبة الوقوع ثابتة المجيء لاريب فيها، وتعرف الأمور فيها على حقيقتها[316]، وسمي يوم القيامة بالحاقة لأنه يُحقُّ فيه الجزاء[317]، فالحاقة وصف خاص ليوم القيامة، حتى أن القرآن لم يشر إلى أن عادًا كذبوا بالحاقة في حين أشار من قبل إلى أنهم كذبوا بالقارعة مع أن اللفظين يرمزان إلى يوم القيامة، وذلك لأن لفظ الحاقة يعبر عن تصوير ذلك اليوم تصويرًا دقيقًا ومفصلًا، كما وأن الحاقة ترمز إلى واقع ذهني، أي إن الحق سيتجسد حتمًا، ثم يأتي الناس ليواجهوا حدثًا يقرع أفئدتهم بالخوف والريب، بينما ترمز القارعة إلى واقع حسي[318]، فلذلك جاءت صيغة الثمانية أيام بلياليها متباينة في هذا السياق من حيث التحديد والتفصيل مع الصيغ السابقة في سياقاتها، وذلك لتتناسب مع تلك الاستفهامات المتكررة في بداية السورة، والتي تستوجب الدقة والتفصيل في الإجابة من جهة، وتعبر عن التعظيم والتهويل الذي من شأنه أن يخوف كفار مكة المكذبين من جهة أخرى، فزاد في مدة التدمير والعذاب، التي من شأنها أن تؤدي إلى دمار أكبر واستشعار أقوى بالعذاب، إذ إن مجرد التفكير في تلك الأيام المتتابعة بساعاتها ودقائقها وما تحتوي من العذاب يؤدي إلى بيان مدى الرعب الكبير الذي عاشه القوم أثناء تلك الفترة فيخلق لدى المتلقي شعورًا مماثلًا لشعورهم[319]، كما جاء تحديد عدد الأيام ليعبر عن تكرار حالة واحدة واستمراريتها طيلة ثمانية أيام ليناسب ذلك مع حالات التكرار الموجودة في الأسئلة. وفي التكرار الصوتي الموجود في الوصف (صرصر) ما يشير إلى ذلك أيضًا، كما إن المعاني المنبثقة من دلالات الزيادة في وصف الريح بـ(عاتية) التي تعني منتهى القوة في القلع والتدمير، وكذلك وصف الأيام بالحسوم سواء دلت على معنى

---

(315) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 114/29.

(316) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 1134.

(317) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 166.

(318) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 95/5.

(319) فاضل صالح السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، (القاهرة: العاتك لصناعة الكتاب، ط2، 2006م)، 86.

التتابع أو الحسم والقطع والاستئصال[320]، جاءت لتتناسب مع معاني الدقة والتفصيل التي يتوخاها السرد في هذا السياق السردي، ونلحظ المعاني نفسها في وصف أجساد القوم وتشبيهها بأعجاز نخل خاوية، ذلك الوصف الذي يشمل النخل المنقعر وزيادة، فالخاوي أكثر من المنقعر، فجاء الوصف متناسبًا مع شدة الدمار التي نتلمسها في التفصيل في عدد الأيام، وخصوصًا مع كونه جاء مؤنثًا في صيغة (خاوية) ليدل معها على الكثرة والمبالغة، وهكذا لما ازدادت الريح عتوًا وأمدًا في الحاقة كانت أكثر فعالية في استئصال القوم كلهم، فلم تبق منهم أحدًا إذ قال تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) ﴾ [الحاقة: 8]، ولم يأت ذلك في السياقات الأخرى[321].

وهناك سر فني آخر في اختيار الصيغة حين يخبرنا السرد أن تلك الريح الصرصر العاتية استمرت على القوم (سبع ليال وثمانية أيام حسومًا)، إذ يعني أن هبوب الريح بدأ من صباح أحد الأيام منذ الشروق واستمر إلى نهاية اليوم الثامن بغروب الشمس فيه[322]، واليوم في هذا الموقف السردي يعني النهار وحتى تكون النهارات ثمانية فلا بد أن يبدأ هبوب الريح في نهار، ولكن السرد قدم الليالي على النهارات، ولعل السبب يكمن في أن الليل هو ابتداء اليوم العربي لا النهار[323]، لأن العرب غلبت الليالي على الأيام في تحديد التواريخ، وذلك لأن الأهلة لليالي دون الأيام، وفيها دخول الشهر، ولذلك يأتي الليل أولًا في الحاقة[324]، أو قد يكون في ذلك ما يوحي إلى الدلالات النفسية السلبية التي يحملها الليل مثل الظلمة والطول والتخبط والشعور بالوحدة والعزلة، فيكون وقع الليل وتأثيره أشد على النفس، ومن شأن ذلك أن

---

(320) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 29/ 117.

(321) السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، 86-87.

(322) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 256/1.

(323) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 239.

(324) أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، **كتاب الأزمنة والأماكن**، (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف، ط1، 1332هـ)، 274/2.

يخوف كفار قريش ويرهبهم أكثر؛ لأن الأصل في سرد قصص المكذبين لرسلهم وما نزل بهم من أنواع العقاب هو من أجل إحداث الخوف في المتلقي من عاقبة العصيان والتكذيب[325].

ونتلمس هذا النوع من التباين أيضًا في الكيفية التي حددت بها مدة لقاء موسى عليه السلام مع ربه، إذ جاءت بصيغتين مختلفتين، لتتناسب كل صيغة مع السياق والموضع الذي سيقت فيه، فقدمت الليالي الأربعون في سورة الأعراف مقسمة، إذ قال تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) ﴾ [الأعراف: 142]، فجاءت ثلاثون ليلة لوحدها ثم أضيفت إليها عشر أخر، أما في سورة البقرة فقد جاءت الليالي مجتمعة، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ﴾ [البقرة: 51]، فجاء ذلك متناسبًا مع ما في سورة الأعراف من تفصيل للأحداث السردية المتعلقة بقصة موسى عليه السلام، ففصل السرد في تلك الليالي بين ثلاثين وعشر، أو لعلها جاءت متناسبة مع توزيعها في الواقع الذي جاء من أجل التيسير على موسى عليه السلام[326]، أو لعل الزيادة في المدة بعشر ليال أخر جاءت استجابة لما في نفس موسى الزكية عليه السلام من ازدياد الشوق والتعلق والرغبة في مناجاة الله ﷻ وعبادته، فأرادها الله ﷻ عبادة مميزة عن الليالي الثلاثين، فتكون مميزة بثواب مميز، وليوافق اليوم الأخير من الأربعين يومًا يوم النحر الذي أنزل فيه قوله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... (3) ﴾ [المائدة: 3]، فيدل تمام الميقات (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) على معاني النماء والتفوق، فكان أكمل وأفضل ميقات[327]، والتوافق بين الميقاتين جاء ليكشف عن البعد العقائدي الذي يتخذ التوحيد نقطة الالتقاء بين الأديان

---

(325) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 460.

(326) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 1/ 499.

(327) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 9/ 86.

السماوية. أما إجمال الليالي في سورة البقرة بأربعين ليلة فيأتي متناسبًا مع الإجمال المتبع في سرد الأحداث ضمن سياق سورة البقرة المدنية، فضلًا عن أن آيات سورة البقرة قد نزلت بعد آيات سورة الأعراف المكية، فكانت الليالي فيها معروفة ومعلومة من قبل(328).

يستخدم السرد القرآني صيغة متميزة في تحديد زمن أحداث قصة الملأ من بني إسرائيل مع نبي لهم وتقديمه بشكل تسهم الصيغة المستخدمة في إظهار ذلك الزمن بصورة متباينة تلفت انتباه المتلقي وتثير ذهنه وتحفزه إلى المشاركة في الكشف عن كثير من الأمور المسكوت عنها(329)، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ... (246) ﴾ [البقرة: 246]، فكان لتقديم الزمن بهذه الصيغة والكيفية دور في توصيل الحاضر بالماضي، وإظهاره بوصفه نتيجة حتمية له، ليشير السرد القرآني من خلال ذلك إلى أن مسألة القتال عند بني إسرائيل مازالت محط نقاش وأخذ وردّ منذ عهد موسى عليه السلام وإلى وقت الحدث، وأن بني إسرائيل كانوا يعانون من تأنيب الضمير والتحسر على ما فرطوا فيه عندما كان موسى عليه السلام يعيش بينهم، وذلك بعدم استغلالهم الفرصة التي أتيحت لهم للنصر مع رسولهم واختاروا التخاذل، وخيبوا ظن موسى عليه السلام فيهم حين قالوا له: ﴿ ... يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) ﴾ [المائدة: 24]، مع أن موسى عليه السلام قد بشرهم بالنصر، فـ"وقعوا في حالة (التبرير) للنفس كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسبابًا معقولة"(330)، فأسهم تحديد الزمن بهذه الصيغة السردية في استرجاع هذا الحدث الأبرز في حياة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام ونبوته، والذي كان السبب المباشر في ضياعهم وتيههم، إذ تخاذلوا في اللحظة التي كان من الممكن حسم المعركة فيها لصالحهم فولوا الأدبار

(328) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 136/3.
(329) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 153.
(330) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 517.

ووضعوا موسى عليه السلام في حالة من الإحباط، فجاء العقاب عليهم بالتيه، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) ﴾ [المائدة: 26]. والآن ومع أنهم يعيشون في حالات من الذل والهوان نراهم يستمرون على سلوكهم الملتوي المعتمد على المراوغة والمماطلة، فكأنهم هم كما كانوا في السابق لم يتغيروا، إذ يريدون التستر على تخاذلهم وربط هزيمتهم وتسلط العدو عليهم بأنهم ليس لهم ملك يقودهم كما هو موجود للعدو، فخرجوا بهذا الاقتراح الذي لم يكونوا جادّين فيه أيضًا، وإنما أرادوا أن يواجهوا به نبيهم للتعجيز، وأن يبرروا لأنفسهم تقاعسهم وتخاذلهم مرة أخرى، والدليل على ذلك هو كثرة الاعتراضات التي واجهوا بها نبيهم وحاولوا وضع العراقيل في طريق تنصيب طالوت ملكًا عليهم، ثم خروج أكثريتهم عن طاعته وتخاذلهم مرة أخرى عند اللحظة الحاسمة وانسحابهم من أرض المعركة، فلم يبق مع طالوت إلا عدد قليل[331]، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) ﴾ [البقرة: 249]، وكأن التاريخ يعيد نفسه من خلال المقارنة بين ما يحدث الآن وبين ما حدث في عهد موسى عليه السلام من قبل، فكان في تحديد الزمن بهذه الصيغة دلالة تشير إلى استمرارية الطابع السلوكي السلبي لدى بني إسرائيل، والمبني على الإلتواء والتمرد والكذب والتردد والنفاق والخداع والمراوغة، وإن الشخصية اليهودية تظل كما هي مريضة في كل زمان ومكان، سواء في عهد موسى عليه السلام الذي أتعبوه كثيرًا، أم من بعده، فهم مازالوا يتجهون نحو الأسوأ ولا سبيل إلى إصلاح شأنهم[332]. ولعلنا نجد في

(331) البستاني، **قصص القرآن الكريم جماليًا ودلاليًا**، 1/47-50.

(332) البستاني، **قصص القرآن الكريم جماليًا ودلاليًا**، 1/45.

هذا الأسلوب تعريضًا بتحذير المسلمين من الاختلاف على رسولهم وتفويت الفرصة على أنفسهم كما فعله بنو إسرائيل من قبل، إذ أضاعوا الانتفاع من الزمن الذي كان فيه رسولهم بين ظهرانيهم[333].

تسهم الصيغة النحوية التي يستخدمها السرد القرآني في إضفاء سمة التباين على زمن حدث معين عند تقديمه، لتتشكل من خلالها دلالات يكون الهدف من ورائها الوصول إلى معاني معينة، وذلك مثل ما نجد في صيغة تقديم المدة التي مكث فيها نوح عليه السلام بين قومه، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) ﴾ [العنكبوت: 14]، إذ يمكن من خلال لفظة الـ(ألف) الدالة على الكثرة والتضخيم أن نستشعر معاني التعظيم والتهويل، تلك المعاني التي لم نكن لنستشعرها لو بدأ الكلام بصيغة (تسعمئة وخمسين سنة)، هذا فضلًا عن أن مجيء الـ(ألف) كان من باب اختصار اللفظ الذي هو أخصر من الـ(تسعمئة وخمسين)، وأن صيغة الحصر هنا تفيد نفي احتمالية الزيادة والنقصان على العدد[334].

كما نجد في التباين المعجمي بين السنة والعام هنا ملمحًا فنيًا يحمل معه دلالات تشير إلى المعاناة الطويلة التي قاساها نوح عليه السلام خلال تلك السنين الطويلة، وذلك لأن (السنة) أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الشدة والجذب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ﴾ [يوسف: 47-48]، أما (العام) فيعبر به عن الحول الذي فيه الرخاء والخصب[335]، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) ﴾ [يوسف: 49]. فكان لتحديد الزمن بهذه الصيغة الدور والفاعلية في بيان عظمة الأمر الذي قام به نوح

---

[333] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 485/2.

[334] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 49/3.

[335] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 598.

عليه السلام، وقوة الإرادة التي كان يمتلكها، ومدى صبره الطويل على ما قاساه من معاناة ماديًا كان أم معنويًا، ولعل ذلك يدعو المتلقي إلى التعاطف مع قضيته إلى مدى بعيد، ويجد فيه السبب الذي يبرر دعاءه على قومه، فـ"ما وسعه إلا أن يلتجىء إلى ربه؛ لينزل عليهم من السماء عذابًا يستأصلهم"[336]، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) ﴾ [نوح: 26]. ومن اللافت للانتباه إن هذا التحديد الزمني يتباين في كونه جاء ضمن سياق سورة العنكبوت دون غيرها، لنستدل بذلك على قيمة فنية أخرى يتسم بها سرد هذه القصة، وذلك عندما نعلم أن هذه السورة الكريمة هي آخر سورة تسرد فيها قصة نوح عليه السلام، فكأنها جاءت بمثابة تلخيص لما مر من أحداث القصة في السور السابقة، فاستوجبت الإشارة فيها إلى تحديد تلك المدة دون أي سورة قبلها[337].

المطلب الثالث: المحددات الزمنية ودلالاتها:

يقدم السرد القرآني الزمن السردي من دون تحديد للمدة الزمنية التي شغلتها الأحداث، إلا إذا كان لذلك التحديد أبعاد دلالية تضفي على الحدث السردي قيمًا رمزية ومعنوية[338]، فيكون الزمن السردي غالبًا ذا منطلقات حيوية، بحيث يضعنا وسط الحدث السردي ضمن شروط موضوعية مكتملة، ومعطيات جدلية جاهزة، فنجد الشخصيات في زمن النضج والاكتمال[339]، فإذا ما دققنا في السور التي جاء فيها سرد قصة نوح عليه السلام سواء تلك التي قدم فيها السرد إشارات خاطفة مثل سورة النجم، و(ص)، والفرقان والذاريات، والأنبياء والحاقة، أو تلك التي قدمت موضوعات القصة وجزئياتها ومشاهدها بشيء من التفصيل مثل سورة القمر، والأعراف، والشعراء، ويونس، وهود، والصافات، ونوح، والمؤمنون،

---

(336) الحجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، 100.

(337) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 83.

(338) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 97.

(339) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 116.

والعنكبوت[340]، سنلحظ أنه يبدأ من حيث عدم التحديد الزمني، فكل الذي نعلمه عن زمن الأحداث هو أنه ينتمي إلى الماضي الغابر دون تعيين لنقطة الانطلاق الزمنية.

وتباينًا مع عدم التحديد الزمني هذا يحدد السرد القرآني بعض جزئيات زمنه السردي، بصورة يجعل منها بارزة ومتميزة عن الزمن السردي غير المحدد للقصة بشكل عام، فيشير بذلك إلى دلالات توحي بمعاني يكتشفها المتلقي عبر القراءة المتأنية والمتفحصة، ومن هذه المحددات الزمنية (الليل والنهار) إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) ﴾ [نوح: 5]، أو تحديد المدة التي قضاها نوح عليه السلام في دعوته لقومه بألف سنة إلا خمسين عامًا، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) ﴾ [العنكبوت: 14]، فمن خلال تعيين (الليل والنهار) الذي جاء من خلال الحوار الانفرادي مع السماء، يكشف السرد عن المرارة والمعاناة التي كابدها نوح عليه السلام في دعوته إلى الرسالة السماوية، إذ يدل على أنه لم يتقيد بوقت معين من الزمن لأداء المهمة، وإنما وظف الزمن كله بساعاته ودقائقه ولحظاته للهدف المنشود متمثلًا بـ(الليل والنهار)، فأفقده السهر ليلًا طعم الراحة والطمأنينة، على عكس الناس الذين يرون في الليل ملاذًا لنشدان الراحة، وأشغلته الدعوة نهارًا عن كل عمل دنيوي، ففي عبارة (الليل والنهار) بيان تام لعدم القصور من قبل المتكلم، وفيها دلالة على إصرار نوح عليه السلام في تبليغ الرسالة في كل الأوقات[341].

أما تحديد المدة التي مكث فيها نوح عليه السلام بين قومه وهو يدعوهم إلى دين الحق، فيفيد للدلالة على قوة مصابرة نوح عليه السلام ودوامه على دعوته وتبليغ الرسالة رغم الأذى الطويل الذي لاقاه من قومه، ليأتي ذلك تثبيتًا للنبي ﷺ، لأنه كان يمر بالحالة نفسها مع قومه، كما جاء التصريح بذلك في

---

(340) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 66-67.

(341) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 2/441-446.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) ﴾ [العنكبوت: 18][342].

يتعامل السرد القرآني مع عنصر الزمن تعاملًا دقيقًا، إذ يمسك بكل أبعاده وحركاته فيبرزه أو يبهمه حسب المواقف السردية، فهو يتعامل مع الزمن على أنه الأداة التي تسهم في حركة الأحداث ودفعها، فعلى الرغم من أن السرد القرآني يعطي المتلقي إحساسًا خاصًا بالزمن يتمثل في صورة الماضي البعيد، فإنه يبدو أكثر دقةً في تقديم الزمن، بحيث نستطيع القول إن لكل قصة زمنها الخاص بها من حيث الجزئيات، فيظهر الزمن هنا ويختفي هناك، ويحدد هنا ويبهم هناك[343]، وذلك مثلما نجد في قصة لوط عليه السلام، إذ يقدم السرد فيها تقسيمًا زمنيًا محددًا على غير ما عهده السرد القرآني من عدم التحديد الزمني، فهناك التوقيت المحدد لحادثة العذاب الذي حل بقوم لوط عليه السلام في أكثر من موقع سردي[344]، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) ﴾ [الحجر: 65]، والقطع هو الجزء الأخير من الليل[345]، فجاء تعيين السرد القرآني لهذه الجزئية من الزمن موعدًا "للخروج كيلا يلاقي ممانعة من قومه أو من زوجه فيشق عليه دفاعهم"[346]، وقد حدد وقت نجاة آل لوط عليه السلام وهو السَحر، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) ﴾ [القمر: 34]، فعرفنا في أي وقت من الليل تمكنوا من الخروج والنجاة، والسحر هو آخر الليل، أي وقت ماقبل الصبح، والأصل الاشتقاقي للفظ (سحر) مرتبط بالسحر الذي يعني الخفاء، أو الطرف، مثل سحر الشيء أي طرفه، وكأن السحر هنا يدل على طرف الليل أو الخفاء الناتج عن

---

[342] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 222/20.

[343] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 82-84.

[344] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 240.

[345] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 64/14.

[346] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 132/12.

ظلامه[347]، ولعل إبراز هذا الجزء من الزمن وتحديده يرتبط بكونه يحمل دلالات خاصة لدى المؤمنين المقبلين المتوجهين إلى الله ﷻ، فهو من الأوقات المخصوصة بالذكر في القرآن الكريم، وذلك تأكيدًا على فضله وفضل العبادة فيه، إذ قال تعالى: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) ﴾ [آل عمران: 17]، وقال تعالى: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) ﴾ [الذاريات: 18]، فالليل بأجزائه هو الوقت المحبب لدى المؤمنين، إذ يتقربون فيه إلى الله ﷻ بالعبادة والدعاء والاستغفار، فهو فترة الصفاء والرقة والسكن التي تسمو فيها النفس ويصحو الضمير عندما تتلاقى روح الإنسان مع روح الكون في التوجه نحو خالق الأكوان والإنسان[348]، وقد اختار الله ﷻ هذا الجزء من الليل موعدًا لخروج نبيه لوط عليه السلام والمؤمنين من آله، فيعطي السرد هذا الزمن فاعلية في سير الأحداث، ليمثل جنديًا من جنود الله ﷻ يجعله وسيلة لإنقاذ أوليائه، فها هو لوط عليه السلام أسرى بأهله ليلًا، وموسى عليه السلام أسرى بقومه ليلًا، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) ﴾ [الدخان: 23]، والرسول ﷺ أسرى بالصديق رضي الله عنه ليلًا يوم هاجرا من مكة إلى المدينة[349]، فتوقيت النجاة وافق توقيت المؤمنين المحبب للعبادة والتقرب إلى الله ﷻ، بينما الباقون غارقون في نوم الغفلة.

وقد حدد السرد القرآني زمن حلول العذاب على القوم، إذ قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) ﴾ [هود: 81]، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾ [الحجر: 66]، أي داخلين في أول وقت الصباح، ويبدأ

---

(347) كريم زكي حسام الدين، **الزمن الدلالي**، (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2002م)، 176.

(348) قطب، **في ظلال القرآن**، 376/1.

(349) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 78/3.

الصباح عند شروق الشمس[350]، لذلك جاء قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) ﴾ [الحجر: 73]، وقد جاء التأكيد على زمن عذاب القوم في سورة القمر، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) ﴾ [القمر: 38]. فكان الصبح موعدًا للعذاب الواقع بالقوم وتدميرهم، وهذا الصبح قريب، فجاء ذلك من باب المبالغة في تبشير لوط عليه السلام وتطمينه بأن الشيء الذي يتمناه حاصل دون شك[351]. وفي تحديد الصبح توقيتًا للعذاب دلالات تشير إلى معاني مفاجأة القوم بالعذاب ومباغتتهم؛ "لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالًا"[352] عليهم. وزيادة في تخصيص الزمن وتحديده نجد أنه أتبع الصبح بـ(بكرة)، والبكرة هي أول النهار وتأتي للتعبير عن معنى التعجيل؛ لأنها تتقدم سائر أوقات النهار[353]، وقد وردت لفظة (بكرة) في كثير من المواضع في القرآن الكريم، فجاء في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾ [مريم: 11]، وجاء في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) ﴾ [مريم: 62]، كما جاء ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) ﴾ [الفرقان: 5]، وجاء﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) ﴾ [الفتح: 9]، وجاء ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) ﴾ [الإنسان: 25]، ولكننا نلحظ أن لفظة (بكرة) قد جاءت في سياق سورة (القمر) منفردة على اختلاف السياقات الأخرى التي جاءت فيها مقابلة بالأصيل أو العشي، وذلك لنستدل بها على أن لا وقت للقوم بعد ذلك، كما نستدل بها على الزيادة في التأكيد على التعجيل في

[350] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 65/14.

[351] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 512/1.

[352] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 6584/11.

[353] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 140.

عذابهم، وأنه آتيهم في أقرب أوقات النهار، فتكون في ذلك زيادة في التطمين لسيدنا لوط عليه السلام وزيادة في التخويف لمشركي قريش المكذبين[354].

وقد يرتبط تحديد الصباح موعدًا لعذاب القوم بدلالات رمزية توحي بأن يكون لذلك علاقة بكون الشمس تمثل إله الحياة والموت عند الأعرابيين، أو قد يكون في الصباح رمز يدل على انكشاف فحشاء القوم[355]، كما ويمكن أن نتلمس من ذلك دلالة تشير إلى مفارقة تهكمية مبنية على أساس العلاقة المتباينة بين الصبح والشروق من جهة، وبين عذاب القوم من جهة أخرى، فـ"كما يدلنا استقراء هذا النوع من أنواع المفارقة في الخطاب القرآني، أن نجعله وفقًا على تغير مجال الاستعمال اللفظي إلى الضد تهكمًا؛ بمعنى انتقال اللفظ من حقله الدلالي المعروف له في أصل الاستخدام، إلى حقل دلالي آخر، بحيث يقيم مع لفظ آخر، داخل الاستعمال اللغوي القرآني الخاص، علاقة دلالية جديدة، من نوع التضاد أو التخالف، لغاية انتقادية"[356]، فمن المعلوم أن الإصباح والإشراق يوحيان بمعاني إيجابية مثل النور والأمل والتفاؤل والحركة والعمل والجد والتطلع، ولكنهما جاءا في قصة قوم لوط عليه السلام مقترنين ومتلازمين مع عذابهم، فمثلا لهم نهاية تلك الحياة التي كانوا يأملونها بجميع ما تحمله من المعاني الإيجابية، وذلك من باب التهكم والتيئيس للمكذبين. كما إن هذا التقابل بين جزئيتي الليل والصبح المحددتين من الزمن ينم عن المفارقة بين ليل المؤمنين الذي أصبح سبب نجاتهم وفوزهم، وبين صبح المكذبين الذي أمسى سببًا لهلاكهم وقطعهم وانتهائهم.

يستخدم السرد القرآني التحديد الزمني لجزئية معينة من الزمن ليساعد المتلقي في الكشف عن أفكار الشخصيات ونفسياتها والدوافع الكامنة وراء سلوكياتها، وذلك عندما يرتبط تحديد هذه الجزئية

---

(354) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 207/27.

(355) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 241.

(356) محمد العبد، **المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة**، (القاهرة: دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1994م)، 73.

بمواقف الشخصيات تجاه حدث سردي معين، فيبتعد السرد عن المباشرة ليفسح المجال أمام المتلقي كي يكشف عن تلك الأمور المسكوت عنها من خلال التتبع والتمعن الدقيقين[357]، ومثال ذلك نجده في قصة يوسف عليه السلام، حيث يحدد السرد القرآني بعضًا من أجزاء الزمن، وذلك مثل إلحاح إخوة يوسف عليه السلام على أبيهم لأن يرسل معهم أخاهم يوسف عليه السلام معهم غدًا، إذ قال تعالى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) ﴾ [يوسف: 12]، ليحمل هذا التحديد الزمني دلالات تشير إلى حرصهم الشديد على تنفيذ ما يبيتون فعله تجاه أخيهم، وإنهم عازمون على التعجيل في تنفيذ مخططهم الإجرامي، ويريدونه في اليوم التالي الذي يخرجون فيه إلى الرعي كعادتهم اليومية[358]، وذلك خشية أن يدب فيهم التهاون أو التردد مع طول الزمن[359]، إذ عندما يحددون الزمن ويقولون (غدًا) فهذا يعني أن وقت الحديث كان في الليل وقت جلوس الأبناء مع أبيهم، حيث يتبادلون أطراف الحديث حول كيفية سير أمور العمل والرعي وماشابه، فإنهم يقصدون من (غدًا) الغد الذي يلي ليلتهم تلك[360]، وهذا يعني أن الكلام قد حصل في الليل الذي هو قبل الحادثة، إذًا جاء تحديد الزمن ليعبر عن أن اختيارهم لهذا التوقيت كان مقصودًا، وذلك ليخفوا في ظلمة الليل ما قد يبدو على وجوههم من انفعالات تكشف عما يبيتونه من تدبير لجريمتهم[361]، فكانوا خائفين من أن تفضحهم ملامحهم العدائية ويلحظ فيها أبوهم عدم التوافق مع لهجتهم الحنونة التي كانوا يمثلونها لاستعطافه من أجل الإقناع لأن يرسل معهم يوسف عليه السلام.

---

[357] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 152-153.

[358] الطراونة، **دراسة نصية أدبية للقصة القرآنية**، 241.

[359] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 414.

[360] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 603.

[361] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 122.

وكذلك الحال بعد الحادثة وتحديدًا عندما رجعوا إلى أبيهم في العشاء بعد أن فعلوا فعلتهم الشنيعة بأخيهم، فقد شدد السرد على إبراز توقيت العودة من خلال لفظة (عشاء) حيث دخول الليل، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) ﴾ [يوسف: 16]، ليشير بذلك إلى أن اختيار الإخوة لهذا التوقيت من اليوم للعودة إلى أبيهم وإخباره بقصتهم المزعومة اختيار مقصود ناتج عن تفكيرهم الإجرامي، فقولهم المزعوم إنهم كانوا يلعبون وقت حدوث الحادثة، والذي نجده في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) ﴾ [يوسف: 17]، يدل على أنه كان الوقت مبكرًا آنذاك، وكان بإمكانهم الإبكار بالمجيء إلى أبيهم وإخباره بالحادثة كما يزعمون، ولكنهم تقصّدوا التباطؤ في العودة إلى الديار حتى العشاء، فهو وقت يعم فيه الظلام وتحجب الرؤية، ومن ثم يصعب فيه البحث عن يوسف عليه السلام في تلك البيئة البرية الصعبة، وهذا ما ينم عن مدى سلوكهم الإجرامي الذي سيطر على تصرفاتهم وتفكيرهم[362]، ذلك السلوك المخادع الذي يتعاملون به مع الحدث، كما إنهم يريدون إخفاء ملامحهم المتناقضة مع ما يدّعون، وستر انفعالاتهم الكاذبة خلف ظلام الليل، فربما لو كان الوقت نهارًا لانكشفت حقيقتهم من خلال لغة الجسد التي تخالف ما يدعون، خصوصًا وإنهم يواجهون أباهم نبي الله ﷺ يعقوب عليه السلام ذا التجارب الغنية في معرفة خفايا الرجال من خلال فن الحوار، والذي قلبه منور بنور الله ﷻ، فكان بالإمكان أن يكتشف حقيقة الأمر على وجوه أولاده[363]، فكان للتحديد الزمني فاعلية في الكشف عن البواطن الداخلية لدى الإخوة ودوافعهم النفسية المتمثلة بالحقد والحسد والغش والخداع، والتي كانت تقف وراء سلوكهم وتصرفاتهم. وفي مقابل ذلك فقد كان لهذا التحديد الزمني أثره في إثارة الشكوك عند يعقوب عليه السلام، وعدم تصديقه لمزاعم أبنائه، إذ لو أنهم كانوا صادقين في ادعائهم لما انتظروا كل هذه المدة للمجيء، ولأسرعوا إليه ليخبروه بما حدث في

---

[362] فضل حسن عباس، **قصص القرآن الكريم**، (الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط3، 2010م)، 485.

[363] محمد متولي الشعراوي، **قصص الأنبياء**، (القاهر دار القدس للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، 172.

وقته، لأن مثل هذا الحدث لا يحتمل الانتظار، بل يقتضي العجلة في الإخبار[364]، فجاء الرد من عنده بتكذيبهم إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) ﴾ [يوسف: 18].

يمكن أن يعبر التحديد الزمني عن عقلية الشخصية وثقافته في التعامل مع الأحداث، وكيفية حرصه على تسخير الطبيعة ومكوناتها لصالح قضيته ومنها الزمن، والمثال على ذلك هو تحديد موسى عليه السلام ليوم المبارزة مع سحرة فرعون واختياره ليوم معين معروف يتميز عن الأيام الأخرى في السنة وهو يوم الزينة، فجاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) ﴾ [طه: 59]، ويبدو إنه يوم عيد مشهور عندهم يتزين فيه الناس ويتفرغون فيه عن أعمالهم ويخرجون للاحتفال بعيدهم[365]، فاستثمر موسى عليه السلام الزمن خير استثمار حيث قدّر أن تكون هذه المدة التي تفصل بينهم وبين ذلك اليوم كافية لأن ينتشر الخبر انتشارًا واسعًا، إذ تصبح ألسنة الناس في هذه المدة آلة إعلامية للدعاية لذلك اليوم، فتصبح تلك المواجهة المرتقبة الشغل الشاغل بين الناس، وحديثهم الوحيد في بيوتهم ومجالسهم، ينتظرونها حتى ذلك اليوم بلهفة وشوق[366]، فكان اختيار موسى عليه السلام لهذا التوقيت يدل على حسن تصرفه ورجاحة عقله في التعامل مع الزمن والأحداث، لأنه يعلم أن هذا اليوم هو يوم تجمع كبير، وسيتمكن أكثر الناس من مشاهدة المبارزة، فيعاينوا إظهار الحق على الباطل بأعينهم، فيصبح ذلك اليوم يوم زينة عن حق[367]. وتظهر حكمة موسى عليه السلام مرة أخرى في تحديده الدقيق لوقت المبارزة من ذلك اليوم، إذ حدده بوقت الضحى الذي هو أوضح فترة من النهار وأنسبها، فهو وقت يحس

---

(364) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 84.

(365) إبن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 1218.

(366) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 439/2.

(367) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 237.

فيه الإنسان بكامل نشاطه الفكري والحركي، بعد أن أخذ في الليل قسطًا كافيًا من الراحة والنوم، مما يساعد ذلك في تمكين أكبر عدد من الناس من الحضور ورؤية ما يجري على أتم وجه من الدقة والوضوح[368]، فيشاهدوا الأحداث على حقيقتها دون أي خداع أو تشويه كما اعتاد عليه السحرة، إذ يستغلون ظلام الليل للتخفي والغش والخداع[369]، إذًا كان لهذا التحديد الزمني الدور في تأزم الأحداث وتفجيرها، ذلك أنه جعل كلًا من طرفي الصراع يبذل قصارى جهده في تحقيق النصر والغلبة، فهو لم يكن بزائد ولا حشو في السرد، وإنما جاء عنصرًا فعالًا له قيمته وتأثيره في مجرى الأحداث[370].

يمثل الزمن والآثار المترتبة عن جريانه وسيلة تسهم في بلورة فكرة ما وترسيخها في الذهن والشعور، وذلك مثلما كان لتحديد الزمن الدور البارز في ترسيخ فكرة الإماتة والإحياء من خلال المئة عام التي مات فيها المار على القرية، والثلاثمئة سنة التي مات فيها أصحاب الكهف[371]، إذ قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) ﴾ [البقرة: 259]، وقال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) ﴾ [الكهف: 25]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ... (19) ﴾ [الكهف: 19]، إذ نرى الشعور الموحد بين كل من يبعث بعد موته، فالذي مات مئة عام يقول (لبثت يومًا أو بعض يوم)

---

(368) قطب، **في ظلال القرآن**، 2340/4.

(369) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 438/2.

(370) محمد طول، **أسلوب السرد القصصي في القرآن**، رسالة ماجستير، (تلمسان: جامعة بوبكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، 1988م)، 38.

(371) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 121/1.

وأصحاب الكهف الذين ماتوا ثلاثمئة وتسع سنوات يقولون (لبثنا يومًا أو بعض يوم)، لأنهم فقدوا الإحساس بالزمن، فكان للتحديد الزمني الأثر في إضفاء سمة الإعجاز على الزمن(372)، ومن ثم إقناع المتلقي بتلك الظاهرة الإعجازية(373)، فيسهم تحديد الزمن بذلك إسهامًا فاعلًا في إبراز حقيقة الموت والحياة، وردهما إلى الله ﷻ، وبيان مطلقية مشيئته سبحانه، ثم تقرير ذلك كله في عقول المسلمين وضمائرهم من خلال التجربة الحسية المجسدة، فنقر بهذه الحقيقة الثابتة كما أقر بها الذي أماته الله ﷻ مئة عام عندما قال: (أعلم أن الله على كل شيء قدير)(374).

كما يمكن أن نجد في الحرص على إثبات السنوات التسع في قصة أصحاب الكهف دلالة على قيمة الزمن عند الله ﷻ، إذ إنه يذكره بجزئياته وتفاصيله الدقيقة، وإنه لا يتابعه بمئاته فحسب وإنما يحصيه بمفرداته الصغيرة(375). واللافت للانتباه هو أن السرد القرآني استخدم (رقود) للدلالة على النوم الطويل، رغم أن اللفظ يفيد للتعبير عن المستطاب من النوم القليل، فأحدث بذلك مفارقة نصية مبنية على أساس التباين بين الاستخدامين المعجمي والدلالي للكلمة، لنتلمس من ذلك إشارة أسلوبية تدل على قصر مدة نومهم قياسًا مع عمر الزمن، وبهذا لا يعبر الرقود عن مدة النوم بل عن حالته من عمق أم غير ذلك(376).

يستخدم السرد القرآني بعض التحديدات الزمنية التي تحمل معها دلالات نفسية تهدف إلى الوصول لغايات توجيهية وتربوية، وذلك مثل العقاب الزمني الذي يستشعرنا به السرد القرآني من خلال تحديده لمدة التيه التي عاقب الله ﷻ بها بني إسرائيل في الصحراء، والمتمثلة بأربعين سنة، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) ﴾

---

(372) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/94-98.

(373) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/373.

(374) قطب، **في ظلال القرآن**، 1/300-301.

(375) محمد طول، **أسلوب السرد القصصي في القرآن**، 40.

(376) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 123.

[المائدة: 26]، فبعد تخاذل بني إسرائيل عن الجهاد، فرض الله ﷻ عليهم هذا العقاب النفسي الذي كان الزمن أداته، إذ أسهم التحديد الزمني هنا في التأكيد على فاعلية الزمن ودوره بوصفه عقابًا علاجيًا يساعد في تربية الجيل الجديد الناشىء في صحراء التيه[377]، فتكون هذه المدة كافية لبناء هذا الجيل تحت وطأة ظروف الصحراء القاسية وشدة العيش وخشونته، فيكتسبون المؤهلات المادية والمعنوية التي تساعدهم في مهمة الجهاد، وفي الوقت ذاته يحرم الجبناء من الجيل القديم من اكتساب هذا الشرف، فيُحرموا من ثواب الدنيا والآخرة[378]، إذ "قيل لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قالوا: إنا لن ندخلها وهلكوا في التيه"[379]، وقد يكون هذا العقاب الزمني المحدد بأربعين سنة جزاءً على الجرم الذي اقترفوه بعبادة العجل عندما غاب عنهم موسى عليه السلام أربعين ليلة، ولم يصبروا، فقوبلت كل ليلة بسنة[380].

المبحث الثالث: تقديم المكان السردي:

تعددت آراء الفلاسفة القدماء وتباينت نظراتهم بخصوص المكان وأهميته، وذلك لما له من علاقات تربطه بالأشياء والإنسان، ولكن الشيء المتفق عليه بينهم هو أن الأشياء تشغل مكانًا، أي إنها ذات امتداد ثلاثي الأبعاد: طول، عرض، وعمق، وتفصل بينها مسافات، دون تداخل بعضها في بعض، وهذا يعني أن المكان هو ما يحوي الجسم[381].

يتلخص مفهوم المكان في "أنه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا كان شأنه شأن أي إنتاج اجتماعي آخر يحمل جزءًا من أخلاقية وأفكار ووعي

---

(377) لطروش، **إشكالية الزمن في القصص القرآني**، 413.

(378) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 3/288-289.

(379) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 286.

(380) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 5/3066.

(381) بدوي، **الموسوعة الفلسفية**، 2/460-463.

ساكنيه"[382]، فيعد المكان معبرًا عن الإنسان في كثير من النواحي الفكرية والثقافية والاجتماعية والنفسية، فـ"من خلال الأماكن نستطيع قراءة سيكولوجية ساكنيه، وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة"[383]، وهذا ما أعطى "للمكان في حياة الإنسان قيمته الكبرى، وميزته التي تشده إلى الأرض"[384]، لذلك نرى أنه قد احتل دورًا بارزًا وحيويًا في الأعمال السردية بحيث يصعب تصور حكاية بدون مكان، وأن نجد أحداثًا خارج المكان، وذلك لأن كل حدث يأخذ وجوده من مكان محدود وزمان معين[385]، و"إذا كان دور الزمان أبرز من دور المكان لأن الفعل في اللغة لا ينفك عن الزمن، فإن المكان يتلبس الفعل أيضًا ولو ضمنيًا، ومن دونه يبقى المعنى ناقصًا"[386].

يشكل المكان السردي عنصرًا فاعلًا من عناصر السرد، وبنية أساسية يقوم عليها بناؤه الفني، إذ إن حضور المكان في السرد ليس حضورًا شكليًا، فقيمته أكبر من أن يكون خلفية ديكورية؛ لأن "المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مباليًا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز"[387]، لذلك تتجاوز أهمية المكان من كونه عنصرًا مهمًا من عناصر السرد ليصل إلى أن "يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله"[388]، وذلك مثلما نجد في السرد الواقعي الذي يحتم دائمًا السعي من خلال الوصف إلى عملية الإيهام بالواقع، فيحضر المكان ليؤدي هذا الغرض، وذلك إما عن طريق تحديد الأماكن وتصويرها كما هي

---

[382] ياسين النصير، **الرواية والمكان**، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1986م)، 16-17.

[383] ياسين النصير، **الرواية والمكان**، 17.

[384] أحمد طاهر حسنين ومجموعة مؤلفين، **ظرف المكان في النحو العربي وطرق توظيفه في الشعر ضمن كتاب جماليات المكان**، (الدار البيضاء: دار قرطبة، ط2، 1988م)، 5.

[385] محمد بوعزة، **طرائق تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)**، 99.

[386] زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 28.

[387] غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ت: غالب هلسا، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، ط2، 1984م)، 31.

[388] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 33.

في الواقع، وإما عن طريق خلق أماكن متخيلة تؤدي الغرض نفسه، في حين نرى أن هذه الأهمية تقل عندما يتعلق الحديث عن أشكال سردية أخرى لا نجد فيها تصوير الأحداث والحركة، مثل روايات تيار الوعي، إذ يمكن أن تنطلق دون تحديد للإطار المكاني[389].

ويمكن القول إن المكان في الخطاب السردي "يكتسب تعقيدًا متزايدًا، لأنه مكان مبني باللغة، أي إنه مكان متلبس بالدلالة"[390]، فهو يرتبط بالعناصر السردية الأخرى بعلاقات متعددة بشكل يحتم على النظر إليه ضمن تلك العلاقات والصلات القائمة، مما يسهل فهم الدور الوظيفي الذي يقوم به المكان السردي داخل الخطاب السردي الذي تكون اللغة هي أداتها المعبرة عن المشاعر والتصورات المكانية التي يتضمنها المكان السردي المتشكل أساسًا من الكلمات، ولذلك أصبح المكان مكونًا أساسيًا من مكونات السرد له حضوره الفعال على مستوى التحليل والبحث[391]، فوظيفة المكان السردي لا تتمثل في تقديم إطار واقعي للأحداث فحسب، بل تتعدى إلى توفير إطار تمثيلي وتصويري لها، وعلى أساس العلاقة القائمة بين المكان والعناصر السردية الأخرى يأتي حضوره الدلالي، فيمكن أن يستخدم المكان السردي في خلق عالم معين، أو إحاطة الحدث بجو خاص، أو تسليط الضوء عليه، أو في الكشف عن طبائع الشخصيات، أو في بيان القوى المتصارعة في الحكاية[392].

---

[389] لحمداني، **بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي**، 66.

[390] هاشم ميرغني، **بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة**، (الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ط1، 2008م)، 198.

[391] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 26-27.

[392] زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 128.

وإذا كان للمكان الدور البارز في السرود البشرية سواء كان مكانًا واقعيًا أو متخيلًا، فإن له حضوره المتميز في السرد القرآني، وذلك في كونه يمثل مكانًا واقعيًا و"حمّال دلالات تمتلك أبعادًا رمزية تتجاوز المفاهيم الضيقة للحيز الجغرافي"[393].

يؤثر السرد القرآني –غالبًا– عدم تعيين المكان، فلا يذكره إلا إذا كان لهذا المكان دور مؤثر في سير الأحداث السردية أو مضمونها[394]، وعدم تحديد السرد القرآني للمكان يسهم في توسيع دلالاته ويحوله إلى رمز عام يوسع في أفق التلقي، وبذلك يكون عدم تعيين المكان هذا هو أعمق تعيين له، بمعنى إنه يمنحه طابعًا إنسانيًا عامًا، فهو يمثل عدة أماكن في وقت واحد، والذي يمكن أن نسميه بالمكان المتراكب[395].

المطلب الأول: دلالات المكان بين الذكر والإبهام:

غاية السرد القرآني في تقديم عنصر المكان تتجاوز الحدود الجغرافية نحو الشمولية المكانية[396]، فلا يحدد السرد القرآني المكان ولا يذكره إلا قليلًا، وذلك عندما يكون لذكره وتعيينه دور حيوي يتعلق بمضمون الحدث السردي وتشكله، وقد يكون إبهام العناصر السردية ومنها المكان في كثير من المواقف السردية من أجل إبراز عنصر الحدث الذي يشكل موضع العبرة والعظة، فضلًا عما لهذا الإبهام من سمات فنية وجمالية تهدف إلى إشراك المتلقي في الكشف عن الدلالات والمعاني المتوارية خلف ذلك[397]، فلا يحدد السرد القرآني المكان الذي خلق فيه آدم عليه السلام، وأين جرت مراسيم تقديمه بوصفه خليفة في

---

[393] بن يوسف، **أدبية السرد القرآني**، 141.

[394] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 247.

[395] ميرغني، **بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة**، 201.

[396] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 157.

[397] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/169-171.

الأرض، ولا يخبرنا أيضًا عن الجنة التي كان يعيش فيها مع حواء قبل إزلالهما من قبل الشيطان، والأمر بهبوطهما منها، ولا حتى المكان الذي هبطا إليه[398]، إذ قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) ﴾ [البقرة:35-36]، فإبهام المكان أسهم في إبراز الأحداث؛ لأنها هي المقصودة في تأدية الوظائف التربوية والتعليمية المرجوة، والتي تكون غايتها اتعاظ البشر بوجوب الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية، وتنشيط الرغبة لديهم للسعي من أجل الرجوع إلى تلك الجنة، وتحذيرهم من عدوهم الأبدي وما يكيد لهم من مكائد كما فعل مع أبويهم[399].

ولكن السرد القرآني وضمن هذه البيئة المبهمة من حيث التفاصيل يأتي ويذكر الشجرة التي هي أحد مكونات المكان ويشدد على إبرازها، فعلى الرغم من عدم تحديدها أو تسميتها فإنها كانت معلومة لدى آدم وحواء عليهما السلام، وقد ذكرها السرد القرآني من دون أي مكوّن آخر من مكونات تلك الجنة، ولعل الحكمة تكمن في أن الله ﷻ شاء أن يُهيِء آدم وحواء عليهما السلام لمهمة الخلافة، فكان ذلك اختبارًا لقوة إرادتهما، وتجربة عملية يتعلمان منها معاني التكليف والالتزام تمهيدًا لاستخلاف آدم عليه السلام في الأرض وتطبيق شرع الله ﷻ فيها[400]، فالشجرة هنا ليست بمثابة الوعاء أو الإطار العرضي التكميلي، بل هي ترتبط مع الإنسان بعلاقة جوهرية تلزم ذات الإنسان وكيانه[401]، وذلك من خلال طابع التجدد في الشجرة، والذي يدل على بعد رمزي متجدد في حياة الإنسان على الأرض، فتمثل

---

(398) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 247.

(399) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 434/1.

(400) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 126/1.

(401) سمير المرزوقي وجميل شاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م)، 60.

الشجرة أداة اختبار لإرادة الإنسان التي تميزه عن المخلوقات الأخرى، إذًا هو امتحان أبدي لصبر الإنسان ومدى التزامه وتقيده[402]، وتحديد جنس الشجرة لا يزيد من حكمة حظرها، ففي ذلك إشارة إلى أن الحظر في ذاته هو المقصود[403]، وبذلك "لم يكتف المكان بأن يكون لحظة في آنية التفاعل مع الشخصية بل صنع له -امتداد- مصيري معها، من حيث كونه القيمة التي تعبر عن نمطها الحياتي بوجهي المعيار — الثواب/ العقاب"[404]، فتميزت الشجرة بالفاعلية في إظهار الإرادة المتباينة في الإنسان بين الطاعة والمعصية.

هناك أحداث لا ترتبط بمكان معين، ولها قابلية التكرار في أي عصر وفي أي بقعة من هذه الدنيا، وهي على أساس هذا المبدأ تتجاوز الحدود الجغرافية وتتغلغل عبر المكانية المطلقة[405]، فمسألة الإماتة والإحياء التي تفضي إلى التصديق بيوم البعث والحساب لا ترتبط بمكان معين أو محدد، لذلك أبهم السرد القرآني اسم القرية الخاوية على عروشها، إذ قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... (259) ﴾ [البقرة: 259]، وحتى القرية فقد نكرها السرد ليضفي عليها طابع العمومية، وتمثل المعمورة بأجمعها، فكان لإبهام المكان دور في إيصال تلك المفاهيم المنبثقة من عرض أهم مسألة في حياة الإنسان وهي مسألة الموت والحياة.

ومثل ذلك ما نراه في اقتران أسماء الأنبياء بذكر القرى والمدن دون تحديد لأسمائها، فحركتهم الدعوية حدثت داخل القرى والمدن، أي في وسط عمراني وبشري تسود فيه علاقات المواطنة

---

[402] قطب، **في ظلال القرآن**، 58/1.

[403] قطب، **في ظلال القرآن**، 1268/3.

[404] عبدالرسول عدّاي، **المكان الشعري في قصة الخلق–النص القرآني**، (مجلة علامات، العدد 814، 2000م) المتاحة عبر موقع سعيد بنكراد الإلكتروني، 39-40.

[405] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 147.

والتعايش[406]، فنرى في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) ﴾ [الأعراف: 101]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ﴾ [الأعراف: 94]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) ﴾ [سبأ: 34]، فلا يحدد السرد القرآني أسماء القرى التي أرسل إليها المرسلون، ليكتسب المكان بذلك قيمة دلالية شاملة ومطلقة تخدم الأهداف والغايات الأبدية التي تتوخاها الرسالة الإلهية الموجهة إلى المتلقين في جميع العصور والأماكن.

يميز السرد القرآني بعض الأماكن بالذكر، وذلك لما لها من تأثيرات مباشرة وغير مباشرة في تسيير الأحداث السردية وتطورها، أو إبراز الملامح المادية والمعنوية للشخصية، فيكتسب المكان قيمة دلالية يتخذ أشكالًا متعددة، تتشكل من خلاله معاني متنوعة[407]، ويحدث هذا من خلال ارتباطه بالأحداث والشخصيات، فلا يكون مكانًا جامدًا بل فاعلًا ينبض بالدلالات[408]، وذلك مثلما نجده في تلك الأماكن التي يميزها السرد القرآني بالذكر في قصة يوسف عليه السلام، مثل (الجب، وبيت العزيز، والسجن)، فإنها تمثل دور المنعطفات المفصلية في القصة، ونقاط تحول كبرى في المسار السردي لها[409]، وتكون المفاهيم والدلالات التي يريد السرد القرآني إيصالها إلى المتلقي مرتبطة بهذه الأماكن ارتباطًا وثيقًا، فكان لا بد من الوقوف عندها وإبرازها من دون الأماكن الأخرى التي تعمد السرد القرآني في عدم ذكرها، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا

---

[406] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 183.

[407] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 33.

[408] سمر روحي الفيصل، **الرواية العربية بناء ورؤيا** (مقاربات نقدية)، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2003م)، 89.

[409] رولان بورنوف و ريال أوئيلية، **عالم الرواية**، ت: نهاد التكريتي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1991م)، 92.

يَشْعُرُونَ (15) ﴾ [يوسف: 15]، فإبراز السرد القرآني للجب جاء لكونه يمثل نقطة التحول الأولى في حياة يوسف عليه السلام، فمنه تلتقطه السيارة وينتقلون به إلى مصر ليباع هناك، فتنتقل معه الأحداث انتقالة نوعية، فضلًا عن أن ذكر الجب الذي يحمل دلالات الإقصاء والتهجير القسري غير الإرادي(410) يسهم في إشراك المتلقي في تخيل واستشعار الآلام الجسدية والنفسية التي لاقاها يوسف الطفل في ظل ذلك المكان.

وميز السرد القرآني كذلك بيت امرأة العزيز بالذكر، إذ قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ... (23) ﴾ [يوسف: 23]، وذلك لارتباط ذكره بأخطر حادثة في حياة يوسف عليه السلام، وهي حادثة المراودة وما ترتب عليها من آثار لاحقة، فاقتران الحدث بهذا المكان هو الذي أوصل حبكة السرد إلى ذروة التأزم، وكشف عن دلالات نفسية وسلوكية تخص الشخصيات وترتبط بهذا المكان بالذات.

وأما السجن فقد شدد السرد القرآني على ذكره، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) ﴾ [يوسف: 33]، ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ... (36) ﴾ [يوسف: 36]، وذلك لأنه يمثل المحطة المكانية الأخيرة التي تعبر عن الانعطافة السردية الأكبر في أحداث القصة، فمنه انطلقت دعوة يوسف عليه السلام الدينية، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ

---

(410) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 161.

الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) ﴾ [يوسف: 37 – 40]، ومن السجن تتوالى الأحداث السردية التي كانت كفيلة بتغيير مجرى حياة يوسف عليه السلام، ومن ثم تغيير حياة أمة بأسرها، وجاء ذكر المكان هنا ليسهم في إظهار قوة إيمان يوسف عليه السلام وصبره وعزيمته، فعلى الرغم من كون السجن يمثل مكانًا معاديًا للسجين، فإنه أصبح ليوسف عليه السلام ملاذًا آمنًا تحصّن به من مراودة النساء له، ورأى في السجن مكانًا أليفًا لم يشعر فيه بوطأة السنوات التي عاشها فيه، لذلك نراه متأنيًا في الخروج منه إلا بعد أن تظهر براءته على العلن، فارتبط ذكر السجن في هذا السياق بنمو الأحداث وتطورها، وكذلك بالتطور في ملامح الشخصية، حيث اكتسبت معه المزيد من القوة والعلم والصبر[411].

إن التشديد على ذكر هذه المحطات المكانية من دون غيرها له علاقة بارتباط تلك الأماكن بالأحداث السردية وانتقالات الشخصية ارتباطًا وثيقًا، فطبع البعد المكاني على القصة طابعًا بيوغرافيًا خاصًا متعلقًا بحياة يوسف عليه السلام، وذلك من خلال تمثيل الأماكن السردية فيها لمحطات انعطافية كبرى، فمع ذكر كل مكان نلحظ معه تحولًا في سير الأحداث، وتطورًا في نمو الشخصية[412].

يهدف السرد القرآني إلى تسليط الضوء على الشخصيات ومنطلقاتها الثقافية من خلال ذكر الأماكن التي لها علاقات متداخلة مع حياة تلك الشخصيات ونشاطاتها[413]، مثل ذكر المحراب المرتبط بحياة كل من زكريا ومريم عليهما السلام، إذ قال تعالى: ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ... (37) ﴾ [آل عمران: 37]، فالمحراب يمثل صدر المسجد وهو أشرف موضع فيه[414]، فيذكره السرد القرآني من دون جميع أجزاء المسجد، وكأنه يلقي عليه ضوءًا كاشفًا ويبرزه، وذلك في إشارة إلى البعد

---

[411] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 144/2.

[412] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 170.

[413] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 170.

[414] ابن منظور، **لسان العرب**، باب الحاء، [ح ر ب].

الثقافي والعقدي الذي يتعلق بالخلفية التعبدية لدى الشخصية(415)، فجاء ارتباط تخصيص المحراب بالذكر، متناسبًا مع خصوصية الشخصية وتكريمًا لها(416).

وكذلك الحال مع زكريا عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) ﴾ [آل عمران: 38 – 39]، وقال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) ﴾ [مريم: 11]، فيعكس ذكر المحراب عمق العلاقة بين الشخصية وبين الله ﷻ، فمع كل حدث مهم في حياة الشخصية نجد ذكرًا للمحراب، مثل ارتباط ذكره بميلاد ابنه يحيى عليه السلام، والذي يعد حدثًا خارقًا للعادة نظرًا للمدى الذهني الذي يشمل تصور الإنسان للأمور، والذي يستوعب إنجاب امرأة عاقر من شيخ هرم، ففي المحراب دعا زكريا عليه السلام ربه أن يهبه غلامًا، وفيه بُشّر بالمولود، ومنه خرج إلى الناس ليخبرهم بالحدث المعجز، لنستدل بذلك على ما يمثله المحراب من أبعاد ثقافية وعقدية واجتماعية ترتبط بحياة هذه الشخصية وهذا المجتمع(417). فإبراز المحراب جاء ليسهم في إبراز تلك الأبعاد.

ونتلمس الشيء نفسه في ذكر المكان الذي اتخذته مريم عليها السلام من دون الناس، ووصفه بالشرقي، إذ قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) ﴾ [مريم: 16]، فلعل في ذلك دلالة تشير إلى أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم(418)، فذكر "المكان هنا يعكس النمط الثقافي السائد لدى النصارى، وهو يلفت النظر إلى الجانب التعبدي لديهم، ويشير إلى

---

(415) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 171.

(416) الشرقاوي، **المرأة في القصص القرآني**، 613/2.

(417) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 171-172.

(418) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 80/16.

قدسية هذا الاتجاه في ديانتهم"[419]. هذا فضلًا عما يؤديه ذكر المكان هنا من وظيفة معنوية من خلال محتوياته المعجزة من المياه المتدفقة والإمداد الغذائي من جذع النخلة، ليخفف ذلك من آثار الحالة النفسية الصعبة التي مرت بها مريم عليها السلام في تلك الأثناء[420].

يعتمد السرد القرآني على منظور الشخصية في إبهام مكان دون آخر، وذلك تعبيرًا عن الحالة النفسية والسلوكية لتلك الشخصية، ونجد مثال ذلك في عدم ذكر يوسف عليه السلام للجب حين كان يستذكر منن الله ﷻ بحضور أهله بعد أن جمع الله ﷻ شملهم في مصر، إذ قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) ﴾ [يوسف: 100]، فنراه يذكر منة إخراجه من السجن من دون الجب، وكأنه يريد أن يتناسى ذكر المكان الأخير، لنستشعر مع ذلك حالته النفسية التي دفعته إلى ذلك، والتي قد تشير دلالاتها إلى تلك الآلام النفسية المرتبطة بحادثة إلقائه في الجب، أو أنها تشير إلى أن خروجه من السجن كان بداية التحول المفصلي الأهم في حياته[421]، ذلك لأن خروجه من الجب كان خروجًا من الظلم إلى الرق، ولكن خروجه من السجن كان خروجًا إلى الحرية، وسببًا في تقلده منصبًا رفيعًا في سلطة الدولة وامتلاكه لخزائنها، فالحدث المرتبط بالسجن نعمته أعظم[422]، أو قد تكون هناك أسباب ترتبط

[419] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 172.
[420] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 92.
[421] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 185.
[422] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 61/4.

بسلوك شخصية يوسف عليه السلام وتقديره للمقام، فلم يذكر الجب مراعاة لشعور إخوته وعدم إحراجهم، ولم يرد أن يكدّر أجواء الصفاء والسعادة التي كانت تعيشها العائلة من بعد طول فراق[423].

وعلى أساس العلاقة الوثيقة التي تربط المكان بالأبعاد النفسية والسلوكية للشخصية نتلمس تباينًا في تقديم التفاصيل المكانية المتعلقة بأماكن مختلفة في قصة يوسف عليه السلام، ففي الوقت الذي يسكت فيه السرد القرآني عن دقائق التفاصيل المكانية المتعلقة بالجب والسجن في قصة يوسف عليه السلام، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿... وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... (15) ﴾ [يوسف: 15]، ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ... (36) ﴾ [يوسف: 36]، نراه يفصل في تقديم بيت امرأة العزيز من حيث المكونات والتفاصيل المكانية من الأبواب والمتكآت الكثيرة، والسكاكين، إذ قال تعالى: ﴿... وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) ... وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ... (31) ﴾ [يوسف: 23،31]، ففضلًا عما يحمله هذا التباين في ذكر تلك الإشارات المكانية من دلالات مادية تشير إلى اتساع مساحة البيت وهيئته، وكذلك إلى نمط عيش معين يوحي بالبذخ والترف، فإنه يكشف عن دلالات نفسية تشير إلى طول الزمن النفسي الذي قاسى فيه يوسف عليه السلام آلام محنة المراودة قياسًا بالزمن النفسي المرتبط بمحنة إلقائه في الجب، أو دخوله السجن مظلومًا، فيدل على أن وقع الأولى كان أشد تأثيرًا على نفسه.

يشير السرد القرآني من خلال ذكر المكان إلى نمط العيش والمستوى الحضاري الذي يتمتع به قوم دون آخر، وذلك مثلما نجده في قصص عاد وثمود من ذكر المصانع والقصور ونحت البيوت من الجبال، والتي لا نجد ذكرًا لمثلها في قصص الذين من قبلهم[424]، إذ قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

---

(423) الشعراوي، **تفسير الشعراوي،** 7081/11.

(424) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني،** 172.

(128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) ﴾ [الشعراء: 128 – 129]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) ﴾ [الأعراف: 74]، فنستدل بذلك على أنهم كانوا على مستوى حضاري متقدم، وذلك من خلال ما كان لديهم من خبرات في تشييد المصانع وبناء القصور والتفنن في نحت البيوت من الجبال[425].

يشدد السرد القرآني على اختيار صيغة معينة لذكر المكان، بحيث تكسبه قيمة إيحائية تثير ذهن المتلقي وتحفزه لأن يتصور معاني معينة تتعلق بالمكان المذكور، وذلك مثل المفارقة المكانية[426] التي نتصورها في اختيار (اليم) صيغة مشتركة لذكر المكان المرتبط بالمصير المتباين لكل من فرعون وموسى عليه السلام، فنجد أن (اليم) الذي كان سببًا في نجاة موسى عليه السلام في طفولته وكذلك عند قيادته لبني إسرائيل هو اليم نفسه الذي أصبح سببًا في غرق فرعون وهلاكه[427]، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) ﴾ [القصص: 7]، وقال تعالى: ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) ﴾ [الأعراف: 136]، فاللافت للانتباه هو أن السرد القرآني يستعمل صيغة (اليم) في كل السياقات التي تتحدث عن غرق فرعون وجنوده*، مع أنه يقصد بها البحر، ليثير بذلك ذهن المتلقي ويجعله يقارن بين الأحداث المرتبطة بالمكان المذكور، ويقف مندهشًا أمام مشيئة الله ﷻ وقدرته المطلقة في جعل اليم مكانًا مشتركًا لحدثين متباينين[428] يتعلق أحدهما بالنجاة والآخر بالهلاك. أو مثلما نجده في صيغة

---

(425) حامد صادق قنيبي، **المشاهد في القرآن الكريم –دراسة تحليلية وصفية**، (الزرقاء–الأردن: مكتبة المنار، ط1، 1984م)، 71.

(426) مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية**، 67.

(427) رنا أحمد عبدالحليم، **جماليات المفارقة في القصص القرآني**، (عمان: وزارة الثقافة، 2014م)، 97-98.

* لقد تكرر ذلك في [الأعراف: 136]، [طه: 78]، [القصص: 40]، [الذاريات: 40].

(428) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 178.

التابوت التي شدد السرد القرآني على إبرازها عند ذكر الصندوق الذي وضع فيه موسى عليه السلام وألقي في اليم، فعلى الرغم من كون التابوت يمثل مكونًا مكانيًا يرمز إلى الموت ومعانيه، فإنه أصبح رمزًا للحياة، وذلك من خلال دوره في نجاة موسى عليه السلام وإنقاذه من الغرق(429)، فقال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) ﴾ [طه: 38-39]، وبذلك اكتسب المكان المذكور بهذه الصيغة قيمة دلالية تتناقض مع قيمتها الدلالية الحقيقية التي تتمثل في احتواء الأموات، ليضفي على طفولة موسى عليه السلام الخصوصية الفائقة، ويظهره بطلًا منقذًا متفردًا(430).

يشدد السرد القرآني على صيغة معينة في ذكر بيت امرأة العزيز، وهو إضافة البيت إلى الضمير العائد إليها، فنراه يختار صيغة (بيتها)، التي تمثل إشارة مكانية غير مباشرة تحمل معها دلالات محددة تكمن وراءها إيحاءات مقصودة(431) يتعلق بعضها بوضع يوسف عليه السلام، "فكونه في بيتها يجعله يعاني من مراودة مستمرة منها، فكل الظروف كانت إلى جانبها لفعل ذلك قبل أن تصل إلى درجة اليأس لتندفع اندفاعة عنيفة، بعدما فشلت محاولاتها السابقة كلها"(432)، أو لعل في ذلك دلالة تكشف عن الصلة المادية البحتة التي أسست عليها تلك المرأة علاقتها مع بيتها، بعيدًا عن المعاني الروحية السامية، إذ لم يبق في شعورها تجاه بيتها سوى الجانب الذي يعبر عنه الأصل في معنى البيت، والذي يرتبط بكونه يمثل المأوى الليلي للإنسان(433)، فكانت الدوافع المادية هي التي توجهها تجاه بيتها ومن فيه، وأصبحت تتصرف تحت تأثير غرائزها العدوانية التي تبيح لها امتلاك القلوب والعقول والإرادات كامتلاكها للبيت، وهذا ما يثير ذهن

(429) قطب، **في ظلال القرآن**، 1911/3.
(430) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 40.
(431) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 118.
(432) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 275.
(433) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 151.

المتلقي ويدفعه إلى تصور أوجه الشبه بين بيتها وبيت العنكبوت*، فالبيتان كلاهما يعدان مكان النزول عند إرضاء النزوات والغرائز، واصطياد الفرائس، وإنهما مبنيان على أساس الغدر والخيانة، حيث تكون العلاقات والروابط الأسرية واهنة وغير متماسكة، لأنها علاقات وحشية مبنية بقصد الافتراس والعدوان، فكأن لذكر البيت بهذه الصيغة دلالة توحي بتشبيه تصرف امرأة العزيز بتصرف أنثى العنكبوت في الافتراس والغدر والخيانة، فمعلوم أن من مميزات هذه الحشرة أنها تفترس الذكر بعد التلقيح، وتلتهم أولادها عند الفقس(434). أو لعل وراء ذكر البيت هنا غاية فنية أخرى، وذلك بما يحمله البيت من دلالات تشير إلى الحرمة والقدسية، فذكر البيت ولا سيما البيت الزوجية وقد انتُهكت حرمته ودُنّست قدسيته فيه وخزة أسلوبية لاذعة تخلق الإثارة والتشويق لدى المتلقي، وتشغل خياله فنيًا(435).

وبناءً على ما سبق نكتشف أنه فضلًا عما تقوم به كيفية ذكر الأماكن من دور في تحقيق الأهداف الدينية التي يتوخاها السرد القرآني، فإنها تحمل قيمًا فنية وجمالية تخلق لدى المتلقي حالة من الإمتاع الفكري والإثارة النفسية من خلال إشراكه في الكشف عن الدلالات المشيرة إلى المعاني الخفية(436). فتُبقيه نشطًا ومتجاوبًا مع النص من خلال التعمق في المعاني غير المتوقعة التي تخالف تلك التي تظهر على السطح(437).

---

* حقيقة علمية كشفها العلم الحديث هي أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج خيوط البيت وليس الذكر، لذلك جاء في قوله تعالى: ﴿... كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ...(41) ﴾ [العنكبوت: 41]، عبدالسلام حمدان اللوح، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، (غزة: آفاق للطبع والنشر والتوزيع، ط2، 2002م)، 197.

(434) اللوح، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، 201.

(435) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 275.

(436) عبدالحليم، **جماليات المفارقة في القصص القرآني**، 51.

(437) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 279.

يقيم السرد القرآني علاقات وثيقة بين ذكر المكان والحدث السردي أو الشخصية السردية، وذلك استنادًا إلى المقولة التي تشير إلى أن التطابق بين الشخصية والمكان يمثل تعبيرًا مجازيًا عن الشخصية(438)، ومثال ذلك نجده في صيغة ذكر قرى قوم لوط عليه السلام وتسميتها بالمؤتفكات، إذ قال تعالى: ﴿... وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) ﴾ [التوبة: 70]، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) ﴾ [النجم: 53]، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) ﴾ [الحاقة: 9]، والمؤتفكة اسم فاعل ائتفك، والإفك "كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه"(439)، ومن هنا سميت القرية الكبيرة بالمؤتفكة وما حولها من القرى بالمؤتفكات لأنها مصروفات مقلوبات، وإفك القوم يتمثل في قلب الفطرة والمنطق، إذ تحولوا من الفطرة التي خلقها الله ﷻ فيهم في طلب النساء إلى الشذوذ الجنسي، بشكل تطبعت عليه شخصيتهم الجماعية، فجاء عذابهم بتدمير بيوتهم رأسًا على عقب، فسميت قراهم بالمؤتفكات(440)، فكان لصيغة اسم المكان بعد مجازي يعبر عن تناسب بين التباين الذي يتسم به المكان من حيث ذكره باسمه وبين تباين شخصية القوم والحدث معًا.

يشكل ذكر الظل الذي تولى إليه موسى عليه السلام تعبيرًا مجازيًا عن الحدث والحالة النفسية للشخصية، فذكر السرد القرآني هذا المكون المكاني من دون كثير من المكونات المكانية الأخرى، ودون أن يخبرنا عن مصدره، إذ لا نعلم إذا ما كان الظل ظل شجرة، أم ظل صخرة كبيرة، أو أي شيء آخر، وذلك للدلالة على أن الظل هو المقصود بالذكر والإبراز من دون أي شيء آخر، لنستشعر مع ذلك بدلالات نفسية تشير إلى دخول موسى عليه السلام في جو من الاستقرار والأمان وإبعاد مصادر الخوف عنه(441)،

(438) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 31.
(439) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 79.
(440) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 520/1-521.
(441) البستاني، **قصص القرآن الكريم جماليًا ودلاليًا**، 148/2.

إذ قال تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) ﴾ [القصص: 24]، فكان لذكر الظل قوة إيحائية ساعدت المتلقي في تصور تلك المعاني التي ما كانت لتظهر مع أي صيغة أخرى؛ لأن "الظل ضد الضِّحّ، وهو أعم من الفيء، فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة، ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العزة والمنعة وعن الرفاهة[442]، وفضلًا عما يعبر عنه الظل من إيواء مادي للراحة الجسمية، فإنه تعبير معنوي عن الظل العريض الممدود، ظل الله الكريم المنان الذي أوى إليه موسى عليه السلام بروحه وقلبه[443].

إن في اختيار السرد القرآني للصيغة التي يعبر بها عن ذكر المكان إيحاء يكشف عن أبعاد أخرى يحملها المكان المذكور، مثل البعد الرمزي الذي نتلمسه في ذكر مجمع البحرين حيث لقاء موسى عليه السلام مع العبد الصالح، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) ﴾ [الكهف: 60]، فنرى تركيز السرد القرآني على إبراز المكان وذكره بهذه الصيغة دون أن يصف له أية معالم أخرى، وذلك ليخبرنا بأن المكان فضلًا عن بعده الماديّ الجغرافيّ بوصفه مكان اللقاء المقرر، والذي من المرجح أن يكون عند ملتقى خليج العقبة بخليج السويس[444]، فإنه يحمل بعدًا آخر رمزيًا يعبر عن الجمع بين علمي العبدين، لنكتشف من خلاله دلالات العبرة والعظة[445] التي تشير إلى أهداف تربوية وتعليمية تؤكد أن العلم هو رحمة من عند الله ﷻ يؤتيه من يشاء من عباده[446].

---

(442) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 409.

(443) قطب، **في ظلال القرآن**، 2686/5.

(444) عباس، **قصص القرآن الكريم**، 609.

(445) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 94.

(446) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 317.

المطلب الثاني: أعلام الأماكن بين التصريح والتلميح:

لا يصرح السرد القرآني باسماء الأماكن السردية -في الأغلب- لأنه لا يجد في ذلك قيمة تعبيرية إلا ضمن السياق التوجيهي الذي يخضع لما تقره الأهداف الدينية(447)، فلا يكون هذا إلا نادرًا، وذلك عندما يرتبط الحدث بالتصريح باسم المكان بشكل يخدم الغرض المنشود في إقامة شواهد العظة والعبرة، فيضفي على الحدث قيمة معنوية كبرى ما كان ليكتسبها لو لم يأت مقترنًا مع تلك الأماكن المحددة والمسماة(448)، إذ تتشكل معها دلالات تحمل معها إيحاءات خاصة.

فيقدم السرد القرآني بعض الأماكن مبهمة الأسماء، مثل إبهام اسم مكة في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) ﴾ [النحل: 112 – 113]، فعلى الرغم من إجماع المفسرين على أن القرية التي نزلت بحقها هذه الآية هي مكة(449)، فإن الحكم هنا سارٍ على كل قرية تكفر بأنعم الله ﷻ سواء كانت مكة أو أي قرية أخرى، فأفاد الإبهام عموم القصد ومطلقه.

ومثل ذلك إبهام القرية التي جاءها المرسلون في سورة يس، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾ [يس: 13]، فعلى الرغم من أن كثيرًا من المفسرين نقلوا عن ابن عباس أن هذه القرية هي أنطاكية، وهي مدينة بالشام متاخمة لبلاد اليونان(450)، فإن السرد

---

(447) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 147.

(448) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 95-96.

(449) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، ت)، 242/14. الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8249/13. ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 305/16.

(450) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 358/22.

القرآني قد اختار لها الإبهام ولم يسمها؛ لأن دلالات القصة وإيحاءاتها تكمن في إبهام اسم القرية لا في تسميتها، ولأن الإبهام هو الذي يمضي بالمتلقي إلى صميم العبرة والاتعاظ من الحدث في كل الأزمنة والأماكن(451)، وهكذا الحال مع كل الأماكن التي تعمد السرد القرآني إبهامها، من أجل أن يكسبها سمة التجدد التي تشترك في امتلاكها كل الأماكن.

وفي المقابل نجد السرد القرآني يشدد على التصريح بأسماء بعض الأماكن، وذلك لما لهذا التصريح من أهمية قصوى ترتبط بدور تلك الأسماء في اكتمال دلالات الحدث، مثل الأماكن التاريخية التي ترتبط بالعهود الماضية، والتي تشكل علامة مميزة في سياق التاريخ(452)، فهي التي تفوح منها رائحة القرون والأجيال السالفة، وتشير بخصوصيتها إلى جذور تاريخية، لأنها تحمل تاريخًا للتحولات الاجتماعية التي طرأت على مجتمعاتها(453)، ونجد مثل ذلك في تصريح السرد القرآني باسم مصر مكانًا انتقل إليه يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... (21) ﴾ [يوسف: 21]، ففي ذلك دلالات الاستشعار ببعد المسافة التي تفصل يوسف عليه السلام عن بلده وصحبة أبيه، وما يترتب عن ذلك البعد من مآسي الغربة التي سيعيشها لسنوات طويلة، ومن ثم يسهم في تشخيص التغيرات التي ستطرأ على حياة يوسف عليه السلام وطريقة عيشه، إذ ينتقل من حياة العز والحنان والدلال عند والده إلى حياة الاسترقاق والعبودية في مصر، فكان التصريح باسم مصر في هذا السياق ضرورة سردية لكونها تمثل انعطافة سردية كبرى تؤثر في نمو الأحداث وتطورها، والسير بها في إتجاهات جديدة(454)، فهي التي ستمثل فضاءً واسعًا يشتمل على تلك الأماكن التي ترتبط بالأحداث

---

(451) قطب، **في ظلال القرآن**، 2961/23.

(452) خالدة سعيد، **حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1986م)، 26.

(453) إبراهيم الجنداري، **الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، (دمشق: دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2013م)، 256.

(454) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 109/2.

اللاحقة في القصة[455]، مثل حادثة المراودة ودخول يوسف عليه السلام السجن مظلومًا، ثم خروجه منه على إثر تأويله لرؤيا الملك، ثم تقلده لمنصب العزيز هناك، ثم انتقال أبيه وإخوته مع أهله من كنعان إلى مصر، حيث شكلوا فيها النواة الأولى لمجتمع بني إسرائيل الذين أصبحوا فيما بعد مضطهدين على يد فرعون، حتى انتهى بهم الحال أن أرسل الله ﷻ إليهم موسى وهارون عليهما السلام لينقذاهم من بطش فرعون، فكانت النتيجة خلاص بني إسرائيل وموت فرعون. فكان لذكر مصر في سياق القصة دلالات تشير إلى وظيفة تفسيرية تتعلق بكونها تشكل وثيقة تاريخية من وثائق تاريخ بني إسرائيل تفسر هذا التحول الذي طرأ في حياتهم البيئية والاجتماعية، بعد أن انتقلوا إلى مصر واستقروا فيها.

ونلحظ الشيء نفسه في ارتباط اسم مصر بالأبعاد التاريخية للأحداث السردية التي وقعت في قصة موسى عليه السلام، وذلك على مستوى التحولات الكبيرة والمهمة لتلك الأحداث[456]، إذ قال تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) ﴾ [الزخرف: 51]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) ﴾ [يونس: 87]، فاحتضنت مصر أهم الأحداث المتعلقة بقصة موسى عليه السلام، ففيها ولد وفيها ألقي في اليم، ونجا من القتل، ومنها خرج خائفًا بعد قتله للقبطي، وإليها رجع بالرسالة الإلهية وما ترتب عليها من توالي الأحداث المرتبطة بالمواجهة مع فرعون والسحرة[457]، فشكلت مصر علامة مشخصة في سياق تلك الحقبة التاريخية المرتبطة بعهد فرعون، وكانت دلالة تاريخية وثقت تلك الأحداث المرتبطة بذلك المكان.

---

(455) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 94.

(456) إبراهيم الجنداري، **الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، 304.

(457) سورة [القصص: 7-40].

وهناك مكان آخر قام السرد القرآني بإبرازه من خلال ذكره باسمه الصريح، وهو (مدين) التي توجه إليها موسى عليه السلام هربًا على إثر حادثة قتل القبطي، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) ﴾ [القصص: 22 – 23]، وقال تعالى: ﴿ ... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) ﴾ [طه: 40]، فذكرت مدين باسمها الصريح، وذلك لما لها من دور في تغيير مجرى الأحداث، بحيث أصبحت نقطة تحول كبرى في مسار السرد، كما يفسر التصريح باسمها سبب نجاة موسى عليه السلام من بطش فرعون بعد أن وصل إليها، وكيف أنه زال عنه الخوف من ملاحقة رجال فرعون الذين كانت لديهم الصلاحية للقبض عليه، فقول والد الفتاتين لموسى عليه السلام ﴿ ... لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) ﴾ [القصص: 25] هو بيان منه أن مدين لا تقع ضمن نفوذ فرعون وسلطته آنذاك، ولا حكم له عليها[458]، وبذلك نتمكن من تصور الحدود السياسية لمملكة مصر من جهة الشرق آنذاك. فتلك هي مفاهيم كان للتصريح باسم المكان إسهامٌ في إقرارها في ذهن المتلقي ووعيه. هذا فضلًا عن الجوانب الفنية المتعلقة بالبناء الهندسي للقصة، والتي نتلمسها من خلال ما يقيمه السرد القرآني من تناسب بين التشديد على تحديد المسميات وبين الطابع التفصيلي الذي تتميز به قصة موسى عليه السلام، أو من خلال ما يحمله تكرار اسم مدين من بعد إعجازي عددي يرتبط بتحديد المدة التي قضاها موسى عليه السلام في مدين بعشر سنوات، والتي دل عليها عدد المرات العشر التي تكرر فيها اسم مدين في القرآن كما أسلفنا القول في المبحث السابق.

---

[458] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 336/2.

ونتلمس الشيء نفسه في ذكر سبأ المملكة المجاورة لمملكة سليمان عليه السلام والتي كانت تملكها امرأة، وقد جاء ذكرها على لسان الهدهد، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) ﴾ [النمل: 22]، فمن خلال تحديد اسم تلك المملكة يتمكن المتلقي من التعرف على الحدود السياسية لمملكة سليمان عليه السلام التي تجاورها سبأ من الجنوب، وفيه كذلك دلالات تشير إلى بعد إعجازي، فعندما نقيس المسافة بين بيت المقدس وسبأ ونعلم أنها تصل إلى أكثر من ألفي كيلومتر نعرف أن رحلة الهدهد هذه كانت رحلة معجزة ترعاها مشيئة الله ﷻ وقدرته، بدليل أن الهدهد لم يمكث طويلًا ليأتي بالنبأ، هذا فضلًا عما يشير إليه ذكر سبأ على لسان الهدهد من تنبيه لسليمان عليه السلام الذي قال ﴿ ... عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) ﴾ [النمل: 16]، بعجزه عن العلم بمملكة ليست ببعيدة عن مملكته، وفي ذلك بيان بأن العلم كله من عند الله ﷻ يعطيه من يشاء، وأنه حتى الأنبياء والرسل عليهم السلام لا يعلمون كل شيء، وهذا مظهر من مظاهر بشريتهم، التي تقوم على الضعف والعجز[(459)].

يصرح السرد القرآني بأسماء بلدان الأمم السابقة، لتمثل شواهد تاريخية على حوادث وقعت لتلك الأمم، وذلك في محاولة للربط بين الماضي والحاضر، وبيان إمكانية تشبيه أمة بأمة وبلاد بأخرى، وما يمكن أن تصيبها من تقلبات[(460)]، وذلك مثل تحديد بلاد كل من عاد وثمود والتصريح باسمي الأحقاف والحجر، الشيء الذي لا نجده عند ذكر الأقوام الأخرى، وذلك عندما يقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ... (21) ﴾ [الأحقاف: 21]، و"الأحقاف هي منازل عاد تطل على البحر الأحمر بين عمان وعدن وتنتهي إلى أرض حضرموت"[(461)]، ومكان قوم ثمود هو الحجر، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ

(459) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 528/3.

(460) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 165/22.

(461) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 45/26.

أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾ [الحجر: 80]، و"الحجر هو المعروف بوادي القرى وهو بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم مدائن صالح على طريق خيبر إلى تبوك"[462]، فيدل الاسمان على موقعين جغرافيين محددين مرتبطين بأحداث منبثقة من عمق التاريخ، ليمثل حضورهما باسميهما شاهدًا حسيًا يستدعي التأمل والتدبر، خصوصًا عندما نرى اختيار كل منها اسمًا لسورة كريمة، فإن هذه البلاد بحكم وجودها في منطقة العرب كانت أخبارها معروفة عندهم، أو عند أهل الكتاب ممن هم موجودون في هذه المنطقة، لذلك جاء ذكرها بأسمائها المعروفة من دون البلدان الأخرى مثالًا أقوى في إقامة الحجة على من يسكنون المنطقة العربية، ليتعظوا بما حدث لها، فكانت كفيلة بالكشف عن دلالات التنبيه والتحذير لمشركي مكة الذين كانوا يعرفون تلك الأماكن حق المعرفة، إذ كانوا يمرون بها في رحلاتهم التجارية، وذلك تخويفًا لهم من عاقبة مماثلة لعاقبة هؤلاء الأقوام، فتلك هي بيوت أصحاب الحجر المنحوتة من الجبال لم تغن عنهم شيئًا ولم تحمهم من الدمار الذي أحل بهم[463]، مما أسهم ذلك في إثارة فكر المتلقي ونفسه، فمجرد سماع تلك الأسماء يحيل إلى تخيل تلك البيوت الخاوية وبقايا الآثار، مما يخلق لديه حالة من الاقتران النفسي الذي هو من قوانين التداعي الذي يأتي من الشعور بحالتين نفسيتين في آن واحد، فاسم المكان هنا يذكّر بتلك الأقوام البائدة، ويذكر بقوة الله ﷻ، إذ أهلكهم وأبادهم على الرغم من كل ما كانوا يمتلكونه من قوة[464]. فأسهم التصريح باسم المكان فنيًا في بناء الحدث وصياغته، والتمكين له، ولسيره في تسلسله نحو تبرير نتائجه في النهاية[465].

---

[462] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 73/14.

[463] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 7/14-26.

[464] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 466-467.

[465] طول، **أسلوب السرد القصصي في القرآن**، 44.

يصرح السرد القرآني باسم المكان ويحدده عندما تكون لهذا المكان ارتباطات علائقية بالأحداث والشخصيات[466]، تُكسبه دلالات مميزة توحي بمعاني تخص هذا المكان بذاته، وذلك مثل تحديد مكان هبوط سفينة نوح عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) ﴾ [هود: 44]، فقد حدد السرد القرآني المكان الذي استوت واستقرت عليه السفينة، وهو جبل معروف لا يزال يحمل الاسم نفسه[467]، ويقع تحديدًا "قبالة جزيرة ابن عمر عند ملتقى الحدود السورية التركية حاليًا، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، ويُرى الجبل بوضوح من بلدة (عين الدوار) السورية"[468]، وفضلًا عن تعيين الجبل باسمه فقد بين السرد القرآني ما أنيط إليه من دور في احتواء السفينة التي استوت عليه بعد رحلة الطوفان العظيم[469]، فأصبح الجودي الحد الفاصل بين مرحلة ما قبل الطوفان وما بعده لقصة البشرية، إذ لا نجد تحديدًا لأي مكان باسمه الصريح منذ أحداث قصة الخلق إلى أن يصل بنا السرد القرآني إلى حادثة الطوفان حيث يصادفنا المكان الأول محددًا ومعينًا باسمه الصريح وهو جبل الجودي الذي رست فوقه سفينة نوح عليه السلام، فمن هناك فقط يبدأ التحديد المكاني لبعض الأماكن بأسمائها التي تعرف بها[470]، ليسهم هذا التحديد المميز بالاسم في إظهار تباين الجودي مع ما قبله من أماكن، فكسر بذلك السرد القرآني النمطية التي كان يتوخاها من خلال إبهام الأماكن من قبل. ويكشف التصريح باسم الجودي عن دلالات خاصة تشير إلى علاقة هذا المكان المحدد بعينه ببركة الله ﷻ وعلمه وحكمته، لأن الاستواء عليه جاء بعد أن أمر الله ﷻ نوحًا بالدعاء من أجل مباركة منزله، إذ قال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ

---

(466) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 99.

(467) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 201/1.

(468) شوقي أبو خليل، **أطلس القرآن (أماكن–أقوام–أعلام)**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، 2003م)، 25.

(469) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م)، 217/5.

(470) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 87.

الْمُنْزِلِينَ (29) ﴾ [المؤمنون: 29]، فقد ميز الله ﷻ الجبل بالاختيار والتحديد كي يكون مهبطًا للسفينة، وفضله على الأماكن الأخرى بالخير والبركة والسلام إلى حين، إذ قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾ [هود: 48]. فضمن هذا الفضاء غير المحدود من السماء والأرض الدال على عظمة الحدث وضخامته يُبرز السرد القرآني مكانًا محددًا ومشخصًا باسمه الصريح وهو (الجودي)، ليمثل نقطة مفصلية في تاريخ البشرية، وشاهدًا تاريخيًا على ذلك الحدث الجلل، حيث كان المنطلق للبداية الثانية في حياة الإنسان على الأرض. هذا فضلًا عن التناسب اللفظي المقصود في ذكر إسم الجبل (جودي)، إذ يدل ذلك على ما حصل فوقه من إجادة وجود رباني أنجا به الله ﷻ البشرية بأن أمر باستواء السفينة عليه في نهاية المطاف[471].

هناك أماكن تقترن بالأحداث التي تقع فيها، وتكتسب أهميتها من خلال أهمية تلك الأحداث، فتضفي عليها طابع الخصوصية والتميز. لذا يمكن أن نجد إسهام أسماء الأماكن بين التصريح والإبهام في الكشف عن مدى اعتناء السرد القرآني بالأحداث المرتبطة بها، وذلك مثلما نجد في قصة إبراهيم عليه السلام، إذ إن السرد القرآني قد سكت عن أسماء الأماكن المرتبطة بتلك الأحداث التي وقعت في المراحل الأولى من حياته وبدايات دعوته الدينية ومواجهته ذلك الذي آتاه الله ﷻ الملك، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ... (258) ﴾ [البقرة: 258]، فلا نجد في السياق أي إشارة إلى تحديد مملكة الحاكم أو تسمية عاصمتها، فكل ذلك كان من مبهمات السرد القرآني، ليأتي تنكير المكان وعدم تسميته إسهامًا في زيادة تنكير شخصية الحاكم المغتر بملكه وتحقيرًا لها، والتقليل من شأنها، لأن ملكها أعمى بصيرتها وحجب عنها رؤية الحقيقة. ويظل مكان أحداث قصة إبراهيم عليه السلام مبهمًا، إذ لم يحدد السرد القرآني أماكن تنقلاته حتى في الأرض المباركة التي هاجر إليها،

---

[471] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 102.

وبقيت التفاصيل المكانية المتعلقة بأحداث قصته غير مشخصة[472]، إذ قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) ﴾ [الأنبياء: 71]. إلى أن يصل إلى تلك الأماكن التي وقعت فيها أحداث استثنائية ومصيرية ذات ارتباطات وثيقة بحياة البشرية فيما بعد، وخصوصًا عند البيت الحرام، فهناك يقترن اسم إبراهيم عليه السلام والأحداث الواقعة بمحددات مكانية ذات تسميات تشير إلى معالم مشخصة، فنرى في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (37) ﴾ [إبراهيم: 37]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (127) ﴾ [البقرة: 127]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾ [آل عمران: 96 – 97]، ليكشف السرد القرآني بذلك عن دلالات روحية وعقائدية تشير إلى أحادية مصدر الأديان السماوية ومركزيته، و"الأصل المشترك بين دين محمد ﷺ ودين إبراهيم عليه السلام بصفة خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان"[473]، فإن كل الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين جاؤوا من بعد إبراهيم عليه السلام هم ينتسبون إليه، وأولاهم به هو نبينا محمد ﷺ، فقال تعالى:﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) ﴾ [آل عمران: 68]، ومن هنا جاء تحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام ليكون دليلًا على أحقية المسلمين في وراثة دين إبراهيم عليه السلام وعهده مع ربه. وفضلًا عن تلك الدلالات المعنوية فإن لهذه التحديدات المكانية وأسمائها دلالات مادية وحسية تشير إلى موقع مكة في كونها تتوسط الكرة الأرضية من جميع اتجاهاتها، ومنها خرجت الدعوة إلى دين الله ﷻ

---

[472] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 1/374-340.

[473] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 151.

لكافة أهل الأرض، إذ لم تقتصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها من القرى فحسب[474]، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ... (92) ﴾ [الأنعام: 92]. ولذلك نجد ارتباط هذا المكان رغم ضيق مساحته بأكبر عدد من أسماء الأماكن مجتمعة: البيت، مكة، مقام إبراهيم، الصفا، المروة، عرفات، المشعر الحرام، ذلك لأنه يعد منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الإنساني، ومازال هذا المكان يمثل القلب النابض للعالم الإسلامي بالأمر الإلهي لإبراهيم الذي ارتبطت قصصه بمناسك الحج بقوة[475]، فقال تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) ﴾ [الحج: 27]، وهذا ما لا نجده بهذه القوة في قصص الأنبياء الآخرين عليهم السلام، إذ لا يعتني السرد القرآني فيها بذكر المعالم المكانية المشخصة إلا نادرًا.

لقد حرص السرد القرآني على تحديد المكان المرتبط بأهم حدث في حياة موسى عليه السلام، والتفصيل في تحديد أبعاده ومكوناته من خلال تسمية المعالم المكانية بمسمياتها، وهو المكان الذي نودي فيه وكُلّف بالرسالة، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) ﴾ [القصص: 29 – 30]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) ﴾ [النازعات: 15 – 16]، وقال تعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) ﴾ [طه: 12]، فهو مكان محدد ومختار من الله ﷻ لأن يكون مسرحًا لأهم حدث في حياة موسى عليه السلام وهو اللقاء مع الله ﷻ وتكليفه بالرسالة، واللافت للانتباه أن الله ﷻ هو الذي أخبر بقدسية

---

[474] قطب، **في ظلال القرآن**، 1/127-131.

[475] مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 84-86.

المكان، وسماها بالبقعة المباركة، تلك القدسية التي أعطته الخصوصية والتميز، فكان لا بد من التأكيد على تحديده وتسميته بمسماه الخاص به، وتلك هي سمة فنية في التصوير ساعدت المتلقي في القدرة على استحضار صورة موسى عليه السلام والحدث المرتبط بتلك البقعة المباركة التي سماها السرد القرآني بوادي طوى وجبل طور، وما يشتملان عليه من شاطىء الوادي الأيمن والشجرة المباركة التي هي على الشاطىء والجانب الأيمن[476].

يرتكز السرد القرآني من خلال التصريح بأسماء الأماكن على قيمة إيحائية تنشأ عنها دلالات مطلقة، وذلك مثلما نجد في تحديد السرد القرآني لمكان واقعتي بدر وحنين والتصريح باسميهما، فجاء ذلك ضمن الاستراتيجية الأدائية التي تربط الخطاب بحيثيته الظرفية كمكان، وبأبعاده البيانية العامة المطلقة التي يظل أثرها مقررًا على المتلقي في أي مكان وزمان[477]، فقد خص السرد القرآني المكانين بالذكر والتصريح باسميهما من دون جميع المواقع التي خاض فيها المسلمون الجهاد في سبيل الله ﷻ، والتي جاء الحديث عن جميعها إجمالًا[478]، الشيء الذي جعل كلًا من بدر وحنين يتباينان عنها جميعًا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) ﴾ [آل عمران: 123]، وقال تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(26) ﴾ [التوبة: 25 – 26]، فبدر مكان مميز، إذ هو موقع أول نصر عظيم للمسلمين، حيث قتل فيه زعماء الشرك أمثال أبي جهل[479]، وأما حنين فهي مكان موقعة كبرى

---

[476] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/252-255.

[477] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 158.

[478] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8/4994.

[479] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 4/72.

تتميز بالخصوصية، لأن المسلمين على الرغم من كثرة عددهم وعُددهم فقد انهزموا أثناء المعركة، ثم عاد النصر إليهم، فخصوصية المعركتين أضفت الخصوصية على المكانين، لذلك جاء ذكرهما متباينًا عن ذكر أماكن المعارك الأخرى من حيث التصريح باسميهما، وما يحملان من معاني العظة والعبرة، بحيث نستدل بها على أن النصر من عند الله ﷻ وحده، فهو الذي يمددكم ويرعاكم، وإياكم الاعتماد على عددكم وعدتكم[480]، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) ﴾ [آل عمران: 126]، وأن تحقيقه لا يأتي إلا بالامتثال لأوامر الله ﷻ، ورسوله ﷺ، والاعتماد على ما دون ذلك يؤدي بهم إلى الهزيمة[481]، فأسهم التصريح باسمي المكانين في التأسيس لقاعدة إيمانية تربوية وتعليمية يرجع إليها المسلمون في كل العصور.

قد يكون لأسماء الأماكن والتصريح بها الأثر الكبير في سرد الأحداث، ذلك إذا كانت لهذه الأماكن طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث، بحيث لا نجد هذا التأثر مع أماكن آخرى، مما يجعل من التصريح باسم المكان أمرًا لا بد منه لأنه هو الذي يبرز ملامح الحدث، ويقيم فيه شواهد العبرة والعظة[482]، فالتعرف على المكان باسمه تكون له أهمية كبرى تتعلق بدلالات الحدث، بشكل لا نجد أثرًا لتلك الدلالات من دونه. وخير مثال على ذلك هو ما نجده في سورة الإسراء، حيث التصريح باسم كل من المسجد الحرام والمسجد الأقصى اللذين اقترن ذكر حدث الإسراء باسمهما، سواء الذي ابتدأ منه أو الذي انتهى إليه، إذ قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ﴾ [الإسراء: 1]، فاكتسب الحدث من اسم المسجدين قيمًا نفسية وروحية كان يفتقدها إن لم يقدم في صحبتهما، فما كان بالإمكان الاستغناء هنا عن التصريح باسم

---

(480) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 1733/3.

(481) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 155/10.

(482) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 92.

المكان وتحديده، فإن لوقع ذكر اسم المسجدين دور كبير في إثارة عقل المتلقي وقلبه، إذ يخلق لديه الإحساس بأهمية الحدث، ويدعوه إلى التفكر والتأمل فيه، كما ويبث في نفسه مشاعر الإجلال والتعظيم التي كانت تفتقدها الصورة من دون التصريح باسمهما[483]، هذا فضلًا عما يكشف عنه اسم المسجدين من دلالات عقائدية تشير إلى أن "الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعًا وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة آخر الرسل صلى الله عليه وسلم لمقدسات الرسل عليهم السلام قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعًا، فهي رحلة ترمز إلى ما هو أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آمادًا وآفاقًا أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف عنها للنظرة الأولى"[484]. كما إن في ذكر المكانين هنا دلالة على إعجازية الحدث، فهو حدث لا يمكن أن يقع بفعل البشر في ذلك العصر والزمان، إذًا هو حدث إعجازي ينسب إلى الله ﷻ، لأنه هو الذي "لاتحده حدود ولا قيود، ولا تنطبق عليه قوانين البشر، وليس عنده زمان ولا مكان"[485].

هناك أماكن غير محددة اكتسبت علميتها من خلال إثبات السياق القرآني لها مثل الكهف[486]، فعلى الرغم من عدم تسميته فإن السرد القرآني عمل على إبرازه بشكل ألقى بظلاله على الأحداث السردية[487]، فتمييزه بالذكر أظهر فاعليته في تجسيد الفكرة التي تحملها السورة الكريمة التي اختير اسم

(483) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 92.

(484) قطب، **في ظلال القرآن**، 2212/3.

(485) الشعراوي، **معجزة القرآن**، 120/2.

(486) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 157.

(487) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 93.

الكهف عنوانًا لها، وهي التنبيه إلى نبذ زينة الحياة الدنيا[488]، وربما كان تكرار ذكر اسم الكهف ست مرات مقابل ذكر المدينة مرة واحدة دليلًا على ذلك. إذًا استطاع الكهف ببعده الجغرافي الدال على الانعزال من أن يمثل عزلة هؤلاء الفتية بجميع مستوياتها المادية والمعنوية[489] خير تمثيل، فحتى الصيغة التي ذكر بها الكهف تشير إلى أن حروفها المهموسة أسهمت في أداء وظيفة دلالية أيضًا، وأثرت في تكوين المعاني وتحديدها[490]، فكان لموسيقى اللفظ وجرسه دور في إضفاء قيم دلالية إضافية على المكان، وجعلنا نتصور فيه معاني[491] البساطة والهدوء والطمأنينة والستر والأمان والتضرع إلى الله ﷻ ومناجاته، أو ما شابه من المعاني التي تتعلق بكهف يتوخى الإنسان فيه العزلة.

الفصل الثاني: التباين في بناء الزمن السردي:

يعد الزمن السردي العنصر الأساس والمميز الذي يقوم عليه البناء السردي عمومًا، وذلك ليس لكونه الشكل التعبيري الذي يقوم على سرد الأحداث الواقعة في الزمن فحسب، ولا لأنه فعل تلفظي يُخضِع الأحداث والوقائع المسرودة لتوال زمني، وإنما لكونه فضلًا عن هذا وذاك تداخلًا وتفاعلًا بين مستويات زمنية متعددة ومتباينة، منها ما هو خارجي extern، ومنها ما هو داخلي interne نصي محض[492].

يستند التحليل السردي للزمن إلى العلاقات القائمة على أساس التباين بين زمن الحكاية المقيس بالقرون والسنوات والأيام والساعات، إلخ، وبين زمن السرد المقيس بعدد السطور والصفحات[493]. وزمن

---

(488) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 204.

(489) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 339/1.

(490) محمد المبارك، **فقه اللغة دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية**، (دمشق: مطبعة جامعة دمشق، 1960م)، 149.

(491) قطب، **في ظلال القرآن**، 2260/4.

(492) عبدالعالي بو طيب، **إشكالية الزمن في النص السردي**، (مجلة فصول، دراسة الرواية، العدد/2, المجلد/12, **1993م**)، **129**.

(493) فانسون جوف، **شعرية الرواية**، ت: لحسن أحمامة، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، 2012م)، 68.

الحكاية هو زمن الحوادث المسرودة، الواقعية أو المتخيلة، أما زمن السرد فهو الزمن الذي يعتمده الخطاب السردي[(494)]، ونتيجة لهذا التباين بين الزمنين تتولد المفارقات الزمنية[(495)].

لقد كان للشكلانيين الروس الدور السبّاق في إدراج مبحث دراسة الزمن في نظرية الأدب، وذلك من خلال القيام بممارسة بعض تحديداته على الأعمال السردية المختلفة، ولم يرتكزوا في ذلك على طبيعة الأحداث، وإنما على العلاقات التي تجمع بينها، وتربط أجزاءها[(496)]، وجاءت جهودهم هذه ضمن سياق تمييزهم بين المتن الحكائي (fable) وبين المبنى الحكائي (subject) الذي اتخذوه أساسًا لبحوثهم السردية، إذ تتمحور دراسة المتن الحكائي لديهم حول "مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل، وهو ما يمكن أن يعرض بطريقة عملية (pragmatic) حسب النظام الطبيعي، بمعنى النظام الوقتي والسببي للأحداث"[(497)]، أما المبنى الحكائي فهو يمثل الأحداث السردية نفسها، ولكن مع مراعاة نظام ظهورها في العمل. ويخضع الخطاب السردي لمبدأ السببية، فيراعي نظامًا وقتيًا معينًا، وهو يمثل الصياغة الفنية للمتن الحكائي، بشكل يجعله متميزًا[(498)]، فصار المبنى الحكائي مدار البحث السردي لدى الشكلانيين الروس، وشددوا على أسبقيته على المتن الحكائي، وبهذا أعطوا الدراسة الأدبية بعدًا جديدًا؛ لأن كل الذين عملوا على تطوير أعمال الشكلانيين قد حددوا المبنى الحكائي المتمثل في الخطاب موضوعًا لبحوثهم السردية[(499)].

[(494)] أوزو الد ديكرو و جان ماري سشايفر، ت: منذر عياشي، **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان**، (بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 2007م)، 630.

[(495)] لحمداني، **بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي**، 74.

[(496)] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 107.

[(497)] توماشفسكي، **نظرية الأغراض، ضمن كتاب نظرية المنهج الشكلي –نصوص الشكلانيين الروس**، 180.

[(498)] توماشفسكي، **نظرية الأغراض، ضمن كتاب نظرية المنهج الشكلي –نصوص الشكلانيين الروس**، 179-180.

[(499)] يقطين، **بنية الخطاب الروائي**، 29.

ومن بين أهم الدراسات التي اتخذت هذا المبدأ أساسًا لدراسة الأعمال السردية، هي التي بحث فيها جيرار جينيت (G. Genette) في كتابه (خطاب الحكاية – بحث في المنهج) الصادر سنة 1972، والذي أصبح علامة فارقة في تاريخ السرديات، وكان تتويجًا لجهود الباحثين السابقين في مجال دراسة السرد والتحليل السردي، فقد أرسيت فيه القواعد المنهجية للبحث في هذا المجال، وكان مبحث دراسة الزمن السردي أول مباحث هذا الكتاب إلى جانب مبحثي دراسة الصيغة السردية والصوت السردي[500].

وقد ارتكز جينيت في بناء منهجه السردي في دراسة الزمن على أساس مبدأ التمييز بين الحكاية والسرد، فهو يرى أن السرد مقطوعة زمنية مرتين، فهناك زمن الشيء المروي وزمن السرد، أي زمن المدلول وزمن الدال[501]. واستنادًا إلى العلاقات المتباينة بين الزمنين حدد جينيت تحديدات أساسية ثلاثة هي: أولًا الترتيب الذي يرتبط بالصلات بين الترتيب الزمني لتتابع الأحداث في الحكاية والترتيب الزمني الكاذب الذي تنتظم الأحداث على أساسه. وثانيًا المدة التي ترتبط بصلات السرعة بين المدة الحقيقية لجريان الأحداث، وبين المدة الكاذبة المستغرقة في السرد، وأخيرًا التواتر الذي يرتبط بقدرات تكرار الأحداث بين الحكاية والسرد[502]. واستنادًا إلى تلك التحديدات سيحاول الباحث تشخيص تقنيات الزمن وما ينتج عن تمظهراتها من تباينات زمنية داخل السرد القرآني، والبحث عن أبعادها الدلالية والفنية، وذلك في ثلاثة مباحث، بحيث يدرس في كل مبحث واحدًا من التحديدات الثلاثة.

---

(500) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 251.

(501) جينيت، **خطاب الحكاية**، 45.

(502) جينيت، **خطاب الحكاية**، 46-47.

المبحث الأول: الترتيب الزمني:

تقوم دراسة الترتيب الزمني على أساس التباين في ترتيب الأحداث بين الحكاية والسرد، ولا يقتصر هذا التباين الزمني على النصوص السردية المعاصرة فحسب وإن كانت شديدة الاعتماد عليه، وإنما هو موجود في النصوص السردية القديمة أيضًا، وهذا يعني أنه يعد سمة أساسية شديدة الصلة بالسرد[503].

لا يتقيد زمن السرد بالترتيب الزمني الطبيعي (الكرونولوجي) كالذي يتقيد به زمن الحكاية، إذ يعمد السرد إلى عدم التتابع في عرض الأحداث، فتأتي بصورة مغايرة لما هي موجودة في الحكاية، فإذا كانت الأحداث في الحكاية تبدأ حسب التسلسل المنطقي من الأول فالثاني فالثالث فالرابع ... وهكذا، فإنها تأتي في السرد غير متسلسلة، إذ ربما يبدأ السرد من الحدث الثالث ثم الرابع ثم يعود إلى الثاني ثم الأول ... وهكذا، وعلى هذا الأساس فإن طرائق السرد التي يتيحها التباين في الترتيب الزمني للأحداث لا حصر لها ولا حدود[504]، وذلك من خلال إمكانيات التنقل بين الأزمنة، إما بالقفز نحو المستقبل أو الرجوع إلى الماضي حسب ما تقتضيه الحاجات الفنية والدلالية للسرد، ومن هذا المنطلق يمكن أن يتباين سرد الحكاية الواحدة من سارد إلى آخر[505]، وذلك بحكم أن زمنية السرد أحادية البعد، أما زمنية الحكاية فمتعددة الأبعاد[506]، فتتولد عن ذلك المفارِقات الزمنية، تتمثل في صيغتين اثنتين يعبر عنهما بمصطلحي الاسترجاع والاستباق الزمنيين[507].

أما السرد القرآني فهو يتفرد في توظيفه لعنصر الزمن، حيث امتاز بقدرة استيعابية لا محدودة لكتلة زمن الوجود عبر مراحله المتباينة والمتمثلة بالماضي والحاضر والمستقبل، وعالمي الغيب والشهادة، مستخدمًا

---

(503) المرزوقي وشاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، 75-76.

(504) لحمداني، **بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي**، 73-74.

(505) محمد بوعزة، **طرائق تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)**، 88.

(506) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 399.

(507) جينيت، **خطاب الحكاية**، 51.

ذلك في خدمة إرساء قواعد الإيمان بالله ﷻ والغيب، فقد تجاوز الزمن في السرد القرآني مراحل الأزل والأبد إلى عدم الزمن، حتى أصبح ذلك سمة تميزه عن أي سرد آخر[508].

قد لا تأتي الأحداث والوقائع في السرد القرآني حسب النظام الطبيعي الذي تسير عليه في الحكاية، فيعتمد عدم الترتيب في سردها، ويستخدم في ذلك تقنيتي الاسترجاع والاستباق الداخلتين في الحركة الطبيعية لمسار الزمن، وذلك تناسبًا مع أغراضه الدينية التي تقتضي أن يكون ترتيب الأحداث بالكيفية التي تكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير[509].

المطلب الأول: الاسترجاع:

الاسترجاع هو الوجه الأول للمفارقة الزمنية، ويمثل كل رجوع إلى ماضي تذكر فيه الأحداث التي تسبق النقطة الزمنية التي وصل إليها السرد[510]، و"يشكل كل استرجاع بالقياس إلى الحكاية التي يندرج فيها حكاية ثانية زمنيًا"[511].

ويضطلع الاسترجاع بوظائف عديدة تتلخص في أنها تزود المتلقي بمعلومات عن ماضي أحد العناصر السردية، أو ملء فراغات يتركها السرد وراءه، فيستدرك به ما تركه سابقًا، وهذا ما يسمى بالاسترجاع التكميلي، وقد يقوم الاسترجاع بوظيفة التذكير بأحداث وقعت في السرد سابقًا، فيمثل العودة الصريحة أو الضمنية إلى نقطة زمنية سابقة وهذا ما يسمى بالاسترجاع التكراري أو التذكيري، وعلى الرغم من ضآلة الحجم النصي للاسترجاعات، وكونها مقاطع سردية لا تؤثر في جريان الأحداث قدمًا، فإنها تقوم

---

(508) لطروش، **إشكالية الزمن في القصص القرآني**، 376.

(509) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، (القاهرة: دار المنار، ط2، 1947م)، 327/1.

(510) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 121.

(511) جينيت، **خطاب الحكاية**، 60.

بأدوار كبيرة في إبراز القيمة الدلالية الخاصة لبعض عناصر الحكاية[512]، فقد تتغير دلالات بعض الأحداث مقارنة بين الزمنين، أو تعطى الدلالة لما لم يكن له دلالة في السابق، أو يُستبدَل تأويل سابق بتأويل جديد، وذلك حسب مستجدات السرد[513].

وتشكل الاسترجاعات في السرد القرآني متباينات زمنية يتوقف السرد في الزمن الحاضر ليفسح المجال للعودة إلى أحداث وقعت في مرحلة زمنية سابقة، ثم استئناف السرد مرة أخرى من النقطة التي وقف عندها، فتمثل نقطة تباين تتناسب مع إظهار التباين بين مرحلتين زمنيتين للأحداث المتعلقة بالشخصية، وذلك مثلما نجده في قصة موسى عليه السلام ضمن سياق سورة طه، إذ تبدأ القصة من المرحلة الثالثة من حياة موسى عليه السلام، وذلك عندما رجع مع أهله من مدين إلى مصر وما اشتملت عليه من أحداث ومواقف رافقت تكليفه بالرسالة الإلهية، إذ قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9)... وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) ﴾ [طه: 9 – 37]، إذ نرى أن الأحداث تتوالى وفق التسلسل الزمني لها، ولكن مع ملاحظة استرجاع ضمني نحس به في طلب موسى عليه السلام، عندما ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) ﴾ [طه: 25 – 30]، إذ تعرفنا من خلال ذلك على بعض الأمور التي تتعلق بشخصية موسى عليه السلام وماضيه القريب، مثل العقدة التي في لسانه والتي هي نتيجة لضيق الصدر الذي قد يصيبه عند حالات الانفعال والتوتر العصبي، وعرفنا كذلك أن لموسى أخًا اسمه هارون عليهما السلام، وهو يكن له كل الحب والوفاء، وإنه رجل فصيح ويمكن أن يعتمد عليه في مثل هذه المهمات التي تحتاج إلى الفصاحة في الكلام[514]، ويستمر بعدها السرد في توالي الأحداث، إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

---

(512) المرزوقي وشاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، 78-79.

(513) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 121.

(514) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 380/2-384.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) ﴾ [طه: 37]، إذ يقف السرد الحاضر عند هذه النقطة ويعود إلى أحداث تتعلق بالمراحل الأولى من حياة موسى عليه السلام منذ ولادته والظروف الاستثنائية التي أحاطت بها، وما تلتها من أحداث إلى أن وصل مع أهله إلى جبل الطور حيث يتكلم مع الله ﷻ، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) ﴾ [طه: 38 – 41]، ثم توصيل السرد بالزمن الحاضر حيث موسى عليه السلام واقفًا بين يدي الله ﷻ، يكلفه بأن يذهب إلى فرعون ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) ﴾ [طه: 42].

لقد شكل الاسترجاع هنا متباينة زمنية اشتملت على حكاية تتعلق ببداية حياة موسى عليه السلام، لتحمل معها قيمًا فنية ودلالية، أما الفنية فهي تتمثل في التعريف بماضي موسى عليه السلام، الذي يتميز بالبعد الغيبي الإعجازي منذ أولى لحظات حياته، ليفسر من خلاله الموقف الآني المشحون بالغيبيات والخوارق الإعجازية، ويقول إن موسى عليه السلام شخصية غير عادية اختارها الله ﷻ لمهمة متميزة، وبذلك أحدث السرد القرآني تناسبًا بين التباين الزمني المتمثل بالاسترجاع وبين تباين الحدث من حيث التميز والخصوصية، هذا فضلًا أهمية الاسترجاع في التعريف ببعض العناصر السردية ذات العلاقة بموسى عليه السلام مثل شخصية الأم والأخت، وفرعون الذي هو العدو المشترك بينه وبين الله ﷻ، وإخبارنا كذلك بحادثة قتله نفسًا، والتي أجبرته إلى أن يغادر إلى مدين ويلبث هناك لسنين، فكأنها نبذة مختصرة من حياة موسى عليه السلام منذ الولادة إلى أن وصل إلى الجبل، غطى بها السرد تلك المساحة الزمنية التي تركها في البداية، وملأ بها الثغرة السردية الموجودة، ليتمكن المتلقي من الاطلاع على الأحداث

المتعلقة بها[515]، والتي كانت سببًا في تواجد موسى عليه السلام في المكان والزمان اللذين وقف عندهما السرد. وأما القيم الدلالية التي تحملها هذه المتباينة الزمنية فتمثلت في أنها أدت وظيفة تذكيرية، إذ ذكّر الله ﷻ موسى عليه السلام بأنه "كان محل العناية من ربه من أول أوقات وجوده، فهو الذي ابتدأه بعنايته قبل سؤاله، فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله ﷻ به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، ففي ذلك طمأنة لفؤاده، وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيدًا في سائر أحواله المستقبلية"[516]، وأن الله ﷻ لا يرسله من دون سابق تهيئة واستعداد، فهو منذ ولادته الأولى يُصنع على عين الله ﷻ التي حرسته وحمته من فرعون، فكيف الآن وهو قد بلغ أشده والله ﷻ معه[517]. فجاء تذكيره بعناية الله ﷻ له وإنعامه عليه لينشطه على القيام بالواجب ويتحمس في دعوته[518]. كما يدل الاسترجاع على تذكير موسى عليه السلام بأن فرعون عدو لله ﷻ وله، فعليه أن يتهيأ لملاقاته على هذا الأساس، وأن يتناسى تربيته في قصره، لأن تلك كانت بمشيئة الله ﷻ وليس لفرعون أي فضل فيها، كما يذكره بالفتون كمنّة منّها الله ﷻ عليه بعد أن قتل القبطي، فالمراد بالفتون خوف موسى عليه السلام من عقاب فرعون وخروجه من المدينة، والتذكير به هنا جاء بمثابة إشارة من الله ﷻ أنه لم يهمل دم القبطي، فصحيح أنه أنجى موسى عليه السلام من القصاص على يد فرعون؛ ولكنه ابتلاه بالخوف والغربة عقابًا له على إقدامه على قتل النفس، ولهذا جاء بعد ذكر الفتون ذكر لبثه في مدين سنين[519]، وقد يكون في ذلك تلميح لموسى عليه السلام بأن هذين الأمرين هما أول ما سيواجهه بهما من قبل فرعون، وذلك لكي يحرجه في أمره ويصعّب عليه مهمته، وهذا ما حدث فعلًا عند المواجهة.

---

[515] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 322.

[516] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 215/16.

[517] قطب، **في ظلال القرآن**، 2334/4.

[518] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 389/2.

[519] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 221/16.

ولذلك نرى أن موسى عليه السلام يستدرك الأمر ويسترجع حادثة قتله للقبطي ويضيفها إلى قائمة الأمور التي كان يتوجس منها قبل مواجهة فرعون، إذ قال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) ﴾ [الشعراء: 14]، أملًا في أن يتلقى من الله ﷻ إرشادًا يهديه إلى سبيل للتغلب على هذا العائق.

ثم تأتي الحلقة الأخرى من حلقات قصة موسى عليه السلام وضمن سياق سورة الشعراء نجد فيها السرد يبدأ من وسط الأحداث، وتحديدًا عند اللحظة التي كلف الله ﷻ موسى عليه السلام بالرسالة والذهاب إلى فرعون، فيستمر السرد إلى أن يصل إلى المشهد الحواري بينه وبين فرعون، فعنده نشهد مواجهة بين الطرفين، فيرتكن فيها فرعون بوصفه الطرف المضاد إلى ماضي الأحداث عن طريق استرجاعات تتعلق بماضي موسى عليه السلام أراد أن يوظفها لتضليل الحقائق وتشويهها بغية إلحاق الهزيمة بالطرف الآخر، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) ﴾ [الشعراء: 18 – 19]، فأراد فرعون إحراج موسى عليه السلام بتذكيره بماضيه، واستغلال ذلك في جعل المواجهة بينهما معركة شخصية، ظنًا منه أنه سيعزله عن الجمع تمهيدًا للانتصار عليه[520]، ولكن في المقابل يقوم موسى عليه السلام مستندًا إلى قوة الله ﷻ ورعايته بالرد على فرعون، ولا يهرب من ماضيه بل يواجهه بكل حسم وحزم، ويقوم بتوظيف الأحداث المسترجعة نفسها لتصحيح وتقويم ما أراد فرعون تشويهه، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) ﴾ [الشعراء: 20 – 22]، وبذلك فوّت الفرصة على الخصم، وكان ردّه فيه الكثير من الحكمة بأن اعترف بالذنب؛ ولكنه ردّه إلى الضلال الذي كان فيه قبل الوحي، وذكّر فرعون بأنه لقي عقوبته لقاء ذلك بأن هرب منهم خوفًا من أن يقتلوه، ولبث بعيدًا عن أهله مدة عشر سنوات، وأن الله ﷻ قد منّ عليه

---

[520] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 406/2.

وجعله من المرسلين، ففي ذلك دلالة تشير إلى التباين الحاصل في شأنه، فكأنه يقول إن حالي الآن ليس كما كان آنذاك، وإن هذه الأمور التي تذكرني بها ليست ذات قيمة لدي الآن، وإنما الذي يهمني أن تعرف رسالتي ودعوتي، وخير لك أن تفكر فيها وتقبلها[521]، وإن تذكيري بتربيتكم إياي وأنا صغير فهو مأخذ عليك يا فرعون؛ لأنك أحسنت إلي فردًا ولكنك أسأت إلى بني إسرائيل وجعلتهم عبيدًا وخدمًا لك، وكيف يتساوى ما فعلته معي بما فعلته مع قومي[522]. فكان للاسترجاع الدور الكبير في إقحام تلك الأحداث التي وقعت في الزمن الماضي إلى سياق السرد في الزمن الحاضر، أملًا من فرعون في إدخال الخوف إلى قلب موسى عليه السلام، ولكن النتيجة أتت عكسية، إذ ردّ عليه موسى عليه السلام حجته هذه وأحرجه مرة أخرى[523]، فناسب التباين الزمني التباين الكائن في شخص موسى عليه السلام قبل أن يهرب إلى مدين وبعد أن عاد منها، فبعد أن كان هاربًا وخائفًا من بطش فرعون نجده الآن يواجهه وهو مؤيد بالرسالة الإلهية.

ويمكن القول إن المتباينات الزمنية هذه جاءت متناسبة مع تبئيرين داخليين مرتبطين بالشخصيتين المتضادتين عبّرتا من خلالهما عن وجهتي نظر متباينتين، فصارت سلاحًا وظفّه كل طرف لإلحاق الهزيمة الفكرية بالطرف الآخر، فوظفه فرعون لإفشال مهمة موسى عليه السلام[524]، عن طريق تشويه صورة موسى عليه السلام وصرف أنظار الجميع عن أصل المسألة وهو الدعوة التي جاء بها[525]، وإشغال موسى عليه السلام بأمور ثانوية تبعده عن قصده ومراده؛ لذلك قام موسى عليه السلام بتوظيف السلاح نفسه وبالكيفية نفسها التي قطع بها الحجة على فرعون، وتمكن من إزالة الحواجز التي كان يتوجس منها قبل

---

(521) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 408/2.

(522) إبن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 1370.

(523) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 258.

(524) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 320.

(525) بشار إبراهيم نايف، **البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2011م)، 57.

المواجهة، فاستطاع أن يصحح مسار الأحداث، ويجبر فرعون على الرضوخ لأمر الواقع، ويضطر إلى التهرب من الاستمرار في تفاصيل أخرى ويدخل في صلب الموضوع ويسأل موسى عليه السلام عن رسالته وعن رب العالمين[526]، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) ﴾ [الشعراء: 23]، ليعود السرد معه إلى النقطة التي انطلق منها نحو الماضي، ويستمر طبيعيًا. فشكلت هذه الاسترجاعات متباينات زمنية اقتحمت سير الأحداث وأوقفت حركة تتابع السرد نحو الأمام، لتؤدي الدور والإسهام في التعرف على ماضي الشخصية، وطبيعة علاقاتها مع الشخصيات الأخرى، والاطلاع على الظروف التي أحاطت بتلك الأحداث المتعلقة بالشخصية[527]، وذلك لإظهار التباين بين ماضي الشخصية وحاضره.

يستخدم السرد القرآني تقنية الاسترجاع لتأدية أدوار أخرى تتعلق بعقد المقارنة بين أحداث ماضية وأخرى حاضرة، وذلك مثل الذي نجده في قصة قارون، إذ يبدأ السرد فيها من المراحل الأخيرة، حين يعرفنا بقارون بأنه من قوم موسى عليه السلام ولكنه بغى عليهم، وأنه كان من أغنى أغنياء زمانه، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) ﴾ [القصص: 76]، فيدخل قارون في حوار مع قومه إلى أن يصل به الجدال إلى حالة من الغرور والتباهي بماله وقوته، فأخذه الكبر الذي أنساه قدرة الله ﷻ على كل شيء، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... (78) ﴾ [القصص: 78]، فيقف السرد عند هذه اللحظة ليعود إلى الوراء ويسترجع أحداثًا وقعت في الماضي البعيد، إذ قال تعالى: ﴿ ... أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) ﴾ [القصص: 78]، ليذكّر بها الجميع من أجل الاتعاظ والاعتبار، إذ اشتمل الاسترجاع

---

[526] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 320.

[527] قاسم، **بناء الرواية**، 54.

على حدث يتكرر مع تباين الأزمان والعصور، فالذين أهلكهم الله جل جلاله قبل قارون كانوا أشد قوة وأكثر أموالًا منه، وذلك ليزيد من تخويف قارون وترهيبه، إذ إن الاسترجاع لم يكتف بالتذكير بوجود هؤلاء ليقارن بينه وبينهم فيقتل به غروره، وإنما أشار إلى إهلاك الله ﷻ لهم، فيعطي بذلك تلميحًا استباقيًا لقادم الأحداث، ويضع المخاطب والمتلقي في حالة ترقب وانتظار، لأن هذا الاسترجاع من السارد الله ﷻ وفي مثل هذا التوقيت يعد مؤشرًا إلى أن أمرًا خطيرًا مشابهًا لأمر هؤلاء سيحدث، وهو إهلاك قارون في الدنيا قبل الآخرة، ثم إن مواصلة السرد للقصة دون الوقوف والاكتفاء بالجزاء الأخروي، دليل على حدوث هذا الأمر لا محالة[528].

واللافت للانتباه أن الاسترجاع قد غيّب قارون من المخاطبة تمامًا، وتوجه بالخطاب إلى القوم، وذلك تقليلًا من شأنه، وإشارة إلى أنه لا أمل في إصلاحه، وأن أمره قد انتهى، ثم يعود السرد بعد ذلك إلى المواصلة من حيث كان قارون يجادل قومه، إذ قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) ﴾ [القصص: 79-81]، فنرى أن السرد عقّب بحرف الفاء الدال على الترتيب والتعقيب، ثم يكرره في حادثة الخسف، للدلالة على تسارع الأحداث اللاحقة التي أوصلت قارون إلى العقاب نفسه الذي ذكّره السرد به في الاسترجاع، وبذلك أدى الاسترجاع وظيفة تنبيهية حذّرت من مغبة الوقوع في مثل هذه الخطايا.

يؤدي الاسترجاع أحيانًا وظيفة مزدوجة، فيكون تذكيريًا وتفسيريًا في آن واحد، ومثال ذلك نجده في قصة طالوت، وذلك عندما يبدأ السرد فيها من وسط الأحداث، وتحديدًا عند اللحظة التي طلب فيها الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام من نبي لهم الإذن بالقتال في سبيل الله جل جلاله، إذ قال

[528] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 2/175-176.

تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) ﴾ [البقرة: 246]، فأثار الطلب الدهشة والعجب لدى هذا النبي عليه السلام، فأجداد هؤلاء الملأ هم أنفسهم الذين خيّبوا ظن موسى عليه السلام من قبل بأن ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) ﴾ [المائدة: 24]، الشيء الذي دفع بهذا النبي عليه السلام إلى التشكيك في صدق نواياهم، فواجههم بجملة استفهامية إنكارية أشار فيها إلى أنهم لن يقاتلوا، فكأنه يذكرهم بماضيهم المتعلق بمسألة تخاذلهم وتقاعسهم عن القتال، وبهذا وضعهم في موقف حرج للغاية أدى بهم إلى التماس عذر قوي يبرر لهم طلبهم، فذكّروه بماضيهم المؤلم المليء بالهزائم المتكررة، وإخراجهم من ديارهم من قبل أعدائهم المحتلين، والتفرق والتشتت الذي صار عندهم إثر ذلك، حتى أن طلبهم من النبي بأن يبعث لهم ملكًا دليل على أنهم كانوا متفرقين ومشتتين حتى هذه اللحظة، لا يخضعون لقيادة موحدة، فبينوا أن كل هذا الذي حدث لهم يكفي لان يتقدموا بمثل هذا الطلب، ونرى أنهم أرادوا استمالة قلب النبي ودفعه إلى تصديقهم، بأنهم قد جعلوا سبيل الله ﷻ من أوائل دوافعهم للقتال، وذلك لإزالة الشكوك فيما كان يخشاه هذا النبي عليه السلام من عدم جديتهم فيما يطرحونه وإقناعه بأن رغبتهم صادقة في القتال يدفعها الإيمان[529]، فنراهم دقيقين في كلامهم كأنهم فهموا الإشارة من نبيهم إذ ذكّرهم بماضيهم المخزي في ملاقاة العدو، فجعلوا القتال في سبيل الله ﷻ أولًا[530].

---

[529] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 373/3-375.

[530] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 1043/2.

فساعد الاسترجاع في الكشف عن حوادث مجهولة تعود إلى ما قبل اللحظة التي بدأ فيها السرد بزمن بعيد، لنتمكن من الوقوف عند الأسباب الكامنة وراء طلب الملأ من بني إسرائيل بشخصية عسكرية تقودهم لقتال العدو، تلك الأسباب التي تتمثل في إخراجهم من ديارهم وسبي ذراريهم[531]، فأعطى الاسترجاع الفرصة للمتلقي في الاطلاع على معلومات ساعدته في فهم الحدث الآني الذي يلفه الغموض والعجب، وبذلك أدى الاسترجاع وظيفة تفسيرية ساعدت على فهم الأحداث بصورة صحيحة. وجاء ذلك متناسبًا مع التباين الكائن في شخصية القوم على أساس الاختلاف بين حقيقتهم وادعائهم.

ونجد الوظيفة نفسها في قصة أصحاب الكهف، وذلك عندما يبدأ السرد من وسط الأحداث، وتحديدًا عند اللحظة التي يأوي فيها الفتية إلى الكهف، لينيمهم الله ﷻ فيه أكثر من ثلاثة قرون، ثم يبعثهم مرة أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) ﴾ [الكهف: 9 – 12]، فيقف السرد عند هذه اللحظة ويعود إلى الوراء من خلال استرجاع يشتمل على تفاصيل حياة هؤلاء الفتية قبل إيوائهم إلى الكهف واستقرارهم فيه، فيمكننا من الوقوف عند الأسباب التي دفعتهم إلى اتخاذ ذلك القرار المصيري والحاسم، إذ قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) ﴾ [الكهف: 13 – 16]، ثم عودة السرد مرة أخرى إلى اللحظة

---

[531] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 46/1.

الآنية التي نرى فيها الفتية وهم نيام داخل كهفهم، وقد سخر الله ﷻ لهم كل المقومات التي تبقيهم على قيد الحياة، ويصور لنا حالهم وهم رقود وحال كلبهم إلى أن بعثهم الله ﷻ، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك إلى نهاية القصة. وقد جاء هذا الاسترجاع ليؤدي وظيفة تفسيرية، وذلك من خلال اطلاعنا على حقيقة أمر أصحاب الكهف بعد أن جاءت البداية ملخصة تثير الشوق إلى معرفة تفاصيل قصتهم، إذ انطلق سرد القصة من وسط الأحداث التي تعبر عن عجائبية القصة منذ اللحظة التي يصور فيها إيواءهم إلى الكهف، إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾ [الكهف: 9 – 10]، لتأتي هذه البداية متناسبة مع الأهداف الفكرية التي نتلمسها في مقدمة السورة التي سبقت القصة والتي تتمثل في نبذ الحياة الدنيا وزينتها، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8) ﴾ [الكهف: 7 – 8]، وإيواء الفتية إلى كهف منعزل دليل حي على ذلك، ولكن يبقى لدى المتلقي الشوق والفضول في معرفة تفاصيل الأحداث الأولية للقصة والأسباب التي دفعت هؤلاء الفتية إلى اتخاذ قرارهم، فيأتي السرد ويعرفنا عن طريق الاسترجاع بحال الفتية قبل إيوائهم إلى الكهف، ويقول لنا إنهم كانوا أصحاب قضية، وإن قضيتهم كانت تتمثل في إيمانهم بالله ﷻ، ومخالفتهم لما كان عليه قومهم سلطة وشعبًا، إذ كانوا يعيشون في بيئة يملؤها الكفر والضلال، فلم يستطيعوا التأقلم والتكيف مع تلك البيئة، ووصلوا إلى حال قرروا فيه الفرار بدينهم خوفًا من ظلم السلطة الوثنية وممارساتها القمعية ضد الموحدين[532]. فجاءت المتباينة الزمنية لتؤدي وظائف تكميلية وتفسيرية تتعلق بالأحداث الأولية للقصة، فهي أعطت تفاصيل تكميلية ملأت بها ذلك الفراغ السردي الذي تركه

[532] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/339-341.

السرد في البداية حيث ابتدأ من وسط الأحداث(533)، وفسّرت حدث إيواء الفتية إلى الكهف، مما أزال الغموض الذي أثاره السرد في البداية، هذا فضلًا عن القيم الدلالية التي تعبر عن مواضع العبرة في القصة، ومنها ما يتعلق بوصف شأنهم في الثبات على الإيمان، ونبذهم للحياة الدنيا وزينتها، ووقوفهم البطولي أمام الكفر والظلم من قومهم، ورفضهم الانصياع لما يطلبونه منهم، فكانت النتيجة أنهم قرروا الهروب بدينهم ودخلوا الكهف(534)، هذا فضلًا عما يمكن أن يحمله التباين الزمني من دلالة تشير إلى التباين الحاصل في حال الفتية بعد إيوائهم إلى الكهف، حيث الشعور بالأمن والطمأنية بعد أن كانوا خائفين مهددين.

نجد في السرد القرآني نوعًا مميزًا من الاسترجاع يتمثل في سرد حدث ما ضمن سياق معين على شكل استرجاع زمني يشكل متباينة زمنية بالنسبة إلى الزمن الآني للسرد، ليملأ به ثغرة سردية تركها السرد ضمن سياق آخر، وقد يرجع ذلك إلى أسباب تتعلق بالمقتضى الآني للسرد(535)، ومثل ذلك نجده في قصة الرجل المؤمن ضمن سياق سورة غافر، وذلك عندما إشار في حواره الطويل إلى نبوة يوسف عليه السلام ورسالته، وفي شكل استرجاع زمني بعيد المدى أدرجه في حواره الدعوي ودفاعه الضمني عن موسى عليه السلام، في مجلس فرعون، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) ﴾ [غافر: 34]، فـ"هذه هي المرة الوحيدة التي يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام للقوم في مصر"(536)، فقد ترك السرد القرآني هذه المسألة ولم يعلن عنها ضمن سياق سورة يوسف عليه السلام التي خصصت لسرد قصته، وبقيت ثغرةً سرديةً غير مملوءة، فأوصاف وحالات الاجتباء والتعليم، وإتمام النعمة،

---

(533) قاسم، **بناء الرواية**، 54.

(534) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 271/15.

(535) قاسم، **بناء الرواية**، 54.

(536) قطب، **في ظلال القرآن**، 3081/5.

والوحي، والحكم والعلم[537]، التي وصف بها يوسف عليه السلام في السورة التي تحمل اسمه لا تدل على نبوته؛ لأنها صفات وحالات لا تخص الأنبياء عليهم السلام وحدهم، حتى الوحي فهو ليس مقصورًا على النبوة، فقد يشترك فيه سائر البشر والمخلوقات، مثل الوحي إلى أم موسى عليه السلام، أو الوحي إلى النحل، ولا الحكم والعلم اللذان آتاهما الله ﷻ يوسف عليه السلام فليس فيهما معنى النبوة. وكذلك التمكين فهو ليس مقصورًا على الأنبياء فحسب، فهناك أقوام مكنهم الله ﷻ في الأرض، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ... (6) ﴾ [الأنعام: 6]. وهكذا فإننا لا نجد في أي موضع سردي من القصة في سياق سورة يوسف تصريحًا من الله ﷻ، ولا من يوسف عليه السلام نفسه بأنه مرسل من عند الله ﷻ، لا عندما يجهر بدعوته لصاحبيه في السجن، ولا حتى في حواره مع الملك فإنه لم يعلن عن نبوته وإنما ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) ﴾ [يوسف: 55]، ويستمر الحال هكذا حتى نهاية القصة، إذ نرى يوسف عليه السلام وهو يعدد نعم الله ﷻ عليه، فلا نجد ذكرًا لنعمة اختياره رسولًا، ليأتي في الأخير هذا الاسترجاع وضمن سياق سورة أخرى ويملأ ذلك الفراغ الذي تركه السرد القرآني في قصة يوسف عليه السلام في حينه، وذلك لأسباب قد تتعلق بطبيعة سياق سورة يوسف عليه السلام الذي روعي فيه تناسب الأحداث مع الأبعاد النفسية والاجتماعية التي برزت فيها، فضلًا عن اتسام مشاهد القصة وأحداثها بسرعة الإيقاع التي لم تترك متسعًا للحديث عن الدعوة والنصح والإرشاد والتقويم والتشريع[538]. وفضلًا عن تلك الوظيفة الفنية التي أداها هذا الاسترجاع، فإنه قد يحمل أبعادًا دلالية تشير إلى طبيعة القوم المخاطبين من قبل مؤمن آل فرعون، والتي لم تتغير رغم تباين الأزمان، فهم مازالوا على مواقفهم الرافضة المتشددة، فمن هنا جاءت محاولة الرجل المؤمن في تذكيرهم بموقفهم من يوسف عليه السلام الذي ينتسب إليه موسى عليه السلام، وكيف شككوا

---

(537) يوسف [6، 15، 22، 56].

(538) الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، 45-49.

في رسالته وما جاءهم من البينات في حينه، فيدعوهم أن لا يكرروا ذلك الموقف مع موسى عليه السلام في الوقت الحاضر، ولا يفوتوا الفرصة على أنفسهم مرة أخرى. وقد نال الرجل بذلك ما أراد، لأن كلامه حمل تصديق ما جاء به يوسف عليه السلام من قبل، مع نفيه لشكهم وراتيابهم تجاهه، وتكذيب ما جزموا به من قبل من أن الله ﷻ لن يبعث من بعده رسولًا، فها هو ذا موسى عليه السلام يرسله الله ﷻ على فترة من يوسف عليه السلام[539].

ويأتي مثل هذا النوع من الاسترجاع كنوع من الإنارة الكاشفة يلقي بها السرد على أجزاء غامضة من الحدث لم يخبرنا بها في حينها[540]، وذلك مثلما نجده في سورة يونس، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) ﴾ [يونس: 98]، ففي كل المواضع التي عرض فيها السرد القرآني قصة يونس عليه السلام نجده يتحدث عن أن هذا الرسول عليه السلام قد ذهب عن قومه مغاضبًا وهو يوعدهم بعذاب من الله ﷻ لعدم إيمانهم، إلا أنهم لم يصبهم ما كان متوقعًا، وبقي هذا الأمر غامضًا إلى أن جاء السرد وكشف لنا في هذا الموضع السردي بالذات عن السبب الكامن وراء ما حدث، وذلك عبر استرجاع زمني جاء ضمن سياق هذه السورة التي سميت باسم يونس عليه السلام رغم أن السرد لم يشر فيها إلى قصته غير تلك الإشارة السريعة، ليتناسب هذا التباين مع التباين الذي يتميز به قوم يونس عليه السلام عن الأقوام السابقة في كونهم يمثلون النموذج الوحيد من بينهم في تدارك أنفسهم قبل أن يباغتهم العذاب، فيرجعون إلى ربهم قبل فوات الأوان، وقد شهد لهم تاريخ الدعوات أنهم قوم تباينوا من خلال تميزهم بإيمانهم الجماعي بعد أن

---

[539] قطب، **في ظلال القرآن**، 3081/5.

[540] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 263/2.

أصروا على التكذيب بالرسالة الإلهية لمدة ليست بقصيرة، فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم[541].

المطلب الثاني: الاستباق:

الاستباق هو الوجه الثاني للمفارقة الزمنية، وهو تقنية سردية تستخدم لإيراد حدث لاحق للحظة الآنية التي وقف عندها السرد، أو الإشارة إليه عن طريق الانتقال إلى المستقبل، وذلك على شكل قفزات تأخذ السرد نحو الأمام[542]، وعلى الرغم من أن الاستباق يأتي بنسبة أقل من الاسترجاع فإن هذا لا يقلل من أهميته بوصفه تقنية زمنية[543]، "ترتبط بإقامة دلائل مسبقة على الحدث من شأنها أن تفتح باب التخيل والتكهن"[544]. كما تأتي أهمية الاستباق في كونه يمتلك وظائف عديدة: فهو قد يأتي على شكل تمهيد يسهم في الإعداد لسرد أحداث لاحقة، فيساعد المتلقي في بناء توقعاته على مستوى الأحداث وما سيطرأ عليها من تغييرات، وعلى مستوى الشخصيات والتكهن بمستقبلها وما ستؤول إليه مصائرها، مثل الموت أو المرض، أو الزواج، أو ما شابه ذلك[545]، كما يمكن أن يقوم بسد مسبق لثغرات سردية قد يحدثها السرد فيما سيأتي من أحداث، ويقوم كذلك بخلق حالة من من الترقب والانتظار لدى المتلقي، وذلك لما يلعبه من دور الإنباء عما سيحدث لاحقًا[546].

---

(541) قطب، **في ظلال القرآن**، 1752/3.

(542) إبراهيم الجنداري، **الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، 106.

(543) كريستيان أنجليت و يان هيرمان، **السرديات، ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، 97.

(544) ميساء سليمان الإبراهيم، **البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة**، (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2011م)، 231.

(545) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 132.

(546) المرزوقي وشاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، 80.

يتمثل الاستباق في السرد القرآني في عدة أشكال: منها سرد الحدث في بداية القصة، أي أن يسبق الحدث ترتيبه الزمني، أو من خلال دلائل مادية تشير إلى ذلك، نتلمسها منذ البداية[547].

يستخدم السرد القرآني الاستباق للتنبؤ بحدث ما، وذلك مثلما نجده في قصة نوح عليه السلام ضمن سياق سورة هود، إذ يعتمد السرد على استباق يقفز إلى المستقبل، ليتوقف السرد عند اللحظة التي يقوم فيها نوح عليه السلام بالدعوة ويجابه بالرفض من قومه، فيقفز نحو الأمام ليخبر المتلقي عبر متباينة زمنية فيها بيان لمصير الكثرة الكاثرة من قوم نوح عليه السلام بأنهم لن يؤمنوا، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾ [هود: 36 – 37]. ففي ذلك إعلام من الله ﷻ بأنه لم يبق من القوم من يتوقع إيمانه أبدًا[548]، فجاء هذا التنبؤ في الاستباق تسلية لقلب نوح عليه السلام، حيث كان مليئًا بالحب تجاه قومه، وبالحرص على أن يؤمنوا، فسأل الله ﷻ أن يبقيهم، فأعلم أنه لن يؤمن منهم أحد، ليزيل عن قلبه الكريم ما كان قد حصل فيه من ذلك الحب، فواساه الله ﷻ بأن لا يبتئس من أفعالهم، أي لا يحزن ولا يغتم، ولكي لا يظن أن في ذلك مذلة، فمعزة دين الله ﷻ لا تقاس بعدد الذين يتبعونه[549]. كما أن في قوله هذا دلالة تشير إلى قرب موعد الحسم والفصل الذي يتباين فيه الحق مع الباطل عن طريق إنزال العقاب الإلهي في القوم الكافرين[550]، وما يؤكد ذلك الأمر أكثر هو ما نتلمسه من الأمر الإلهي لنوح عليه السلام بصناعة السفينة، ففي ذلك استباق تلميحي بالتنبؤ بقرب موعد العقاب وحتميته، كما نجد فيه بيانًا لطبيعة العقاب الذي سيحل بهم؛ لأن صنع السفينة مرتبط بالبحار،

[547] بو طيب، **إشكالية الزمن في النص السردي**، **135**.

[548] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 48/12.

[549] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 230/17.

[550] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 49/12.

ليكشف من خلال ذلك لون العقاب الذي سيقع فيهم، فعلم نوح عليه السلام بأنه سيكون بالإغراق[551]، فتلك علامة فيها إشارة استباقية، كانت وظيفتها جعل المتلقي يتنبأ بحصول حدث الطوفان الذي سيشهده السرد، وذلك من خلال ما رسمه ذلك الاستباق في ذهنه[552]، والمتمثل في معاقبة القوم غرقًا، وجاءت هذه المتباينة الزمنية منسجمة مع حالات التباين التي خيمت على أجواء الحدث، سواء تلك التي تتعلق بالمكان وما حصل فيه من تباينات مناخية وبيئية، أو تلك التي تتعلق بالشخصيات وما حصل فيها من فصل على أساس الكفر والإيمان.

ويأتي هذا النوع من الاستباق على مستوى خاتمة القصة نفسها، وضمن السياق نفسه، إذ يعلن السرد من خلال استباق تنبؤي عن مجيء أمم بعد نوح عليه السلام، وما سيحدث لهم، وما ستؤول إليه مصائرهم، إذ قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) ﴾ [هود: 48]، ففي ذلك دلالة تشير إلى أن نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه سيشكلون النواة الأولى لتكوين أمم وأقوام متباينة سيتمتعون في الأرض لمدد متباينة ومحدودة، ثم يعذبهم الله ﷻ بكفرهم، وهنا قام الاستباق بوظيفة الإعلان صراحة عن سلسلة من الأحداث التي سيشهدها السرد في وقت لاحق[553]، وهو استباق ختامي يحتوي على ملخص يعلن عن أحداث مستقبلية ستقع في لاحق السرد، وله دور مهم في إحداث حالات الترقب والتوقع في ذهن المتلقي، وهو ما نجد له شبيهًا في السرود البشرية حين يرد في نهاية فصل من فصول الرواية ليكشف عما سيأتي في الفصل التالي[554]، إذ نحن نعلم أن من ذرية نوح عليه السلام قوم عاد الذين أرسل إليهم هود عليه السلام،

---

[551] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 11/6460-6467.

[552] جينيت، **خطاب الحكاية**، 83.

[553] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 137.

[554] جينيت، **خطاب الحكاية**، 82.

وكذلك قوم ثمود الذين أرسل إليهم أخوهم صالح عليه السلام، وكذلك قوم لوط عليه السلام، وهؤلاء جميعًا رانت الغفلة قلوبهم فاستحقوا العذاب(555)، وإبراهيم عليه السلام من ذريته كذلك، ولكن حاله ليس كحال من سبقه من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ليتحقق وعد الله ﷻ لنوح عليه السلام بطرفيه المتباينين: فتلك أمم كتب عليهم العذاب، أما إبراهيم عليه السلام فتتحقق فيه البركات، ومن بعده ولديه إسحاق عليه السلام وأبنائه أنبياء بني إسرائيل، وإسماعيل عليه السلام ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ(556)، فما لبث السرد أن حسم هذه الأحداث بعد قصة نوح عليه السلام مباشرة(557).

ومن الاستباقات الزمنية هي التي تكون تمهيدية لأحداث لاحقة، وهي تأتي في بدايات القصص(558)، وكثيرًا ما تكون من النوع الذي يتسم بقلة الشفافية إلى حين، إذ لا يبدو أنه يوحي بالتمهيد لشيء محدد، إلى أن يقع الحدث الذي يدل على السبب الذي جاء من أجله في البداية، فتنكشف معه المعاني والأغراض المقصودة(559)، وذلك مثلما نجده في قصة يوسف عليه السلام، إذ جاء الاستباق على مستوى بداية القصة، ومن خلال وجهة نظر داخلية يمثلها يعقوب عليه السلام(560)، إذ قال: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6) ﴾ [يوسف: 6]، فبعد أن قص يوسف عليه السلام رؤياه على أبيه استشرف يعقوب مستقبل يوسف عليهما السلام، بحيث فهم الإشارة الخفية في الرؤيا، وعلم أن الله ﷻ يعد ابنه يوسف عليه السلام لأمر عظيم(561)، فعند هذه اللحظة الآنية توقف

---

(555) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 6490/11.

(556) قطب، **في ظلال القرآن**، 1911/3.

(557) الآيات من 50 إلى 110 من سورة هود.

(558) نايف، **البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)**، 90.

(559) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 114.

(560) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 323.

(561) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 90/2.

السرد التتابعي، وتوجه نحو المستقبل ليفسح المجال للتوقع بما سيحدث[562]، ثم يعود السرد بعد ذلك إلى تتابع الأحداث حسب التسلسل الزمني، وبهذا خلق الاستباق حالة من الانتظار والترقب لدى المتلقي، وجعله يتشوق إلى معرفة كيفية تحقيق ما جاء في تلك الرؤيا، وما قد يصاحب ذلك من أحداث متشابكة ربما سيواجهها يوسف عليه السلام[563]، وهذا ما جعل المتلقي يعيش في حالة من اليقظة والانتباه، ويتتبع الأحداث باهتمام بالغ ويعيش لحظاتها بكل تفاصيلها، خصوصًا عندما يعلم أن هذه الرؤيا هي خبر إلهي لا بد أن يطابق الواقع في المستقبل، هذا فضلًا عما يتضمنه الاستباق من تطمين ليوسف عليه السلام كذلك[564]، لأنه جاء بعد أن أظهر يعقوب عليه السلام تخوفه من انكشاف أمر الرؤيا عند الإخوة فيكيدوا له، ورأى مشاعر الخوف على ملامح ابنه، فاستدرك بتأويل الجانب المتفائل من الرؤيا[565]، فأراد بذلك أن يزيد يوسف عليه السلام تمليًا من سمو الأخلاق، فيتسع صدره للأذى الذي سيلقاه من اخوته، فيتمكن من الصفح عن غيرتهم منه وحسدهم إياه، دعوة منه للصلاح والابتعاد عن الفساد وإثارة البغضاء، فتلك حكمة نبوية عظيمة، وطب روحاني ناجع[566]، وكأنه يقول له كما آنسك الله ﷻ بهذه الرؤيا المفرحة المنبئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك، وبالنسبة لأبيك، فسوف يجتبيك ربك، لا بأن يحفظك فحسب، ولكن بأن يجعل كيدهم سببًا لصالحك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، ما يجعل أصحاب الجاه والنفوذ يلتفتون إليك، ويتم نعمته عليك بإيصال نعمة الدنيا بنعمة الآخرة[567].

---

[562] جيرالد برنس، ت، السيد إمام، **قاموس السرديات**، (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ط1، 2003م) 17.

[563] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 323.

[564] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 214/12.

[565] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 408.

[566] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 214/12-215.

[567] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 6855/11-6860.

ونجد في قصة يوسف عليه السلام مستوى آخر من الاستباق، والذي يأتي في حلقة تآمر الإخوة على يوسف، وتنفيذ مخططهم الإجرامي بإلقائه في غيابت الجب، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴾ [يوسف: 15]، فنرى أن هذا الاستباق جاء من خلال وجهة نظر السارد كلي العلم الذي هو الله ﷻ، مما ضاعف من تماسك المراحل المقبلة للسرد، وجدد حالة الانتظار والترقب لدى المتلقي وأدخل الشوق الأكثر فيه لحين الوصول إلى ذلك الموقف السردي الذي ينبيء يوسف عليه السلام إخوته بفعلهم هذا من دون أن يشعروا به[568]، هذا فضلًا عن استشعار يوسف عليه السلام بمعية الله ﷻ وكأنه يتجاوز به تلك المحنة المؤلمة ويبشره بالخروج منها دون أن يفكر في تفاصيل ذلك، فما عليه إلا أن يسلم أمره لله ﷻ فهو الذي يرسم له مستقبله، ويبقيه على الأمل والرجاء[569]، فـ"ألهمه الله ﷻ وأوقع في نفسه شعورًا قويًا بأنه سيلتقي بإخوته يومًا، وأنه سيخبرهم بهذا الذي كان منهم له دون أن يعرفوه"[570]، وقد جاء الفعل المضارع الدال على الاستقبال (لتنبئنهم) مؤكدًا بلام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة، وذلك زيادة في التوكيد على تطمين يوسف عليه السلام وتأنيسه، وهذا كله يأتي منسجمًا مع حالة التباين التي يتصف بها يوسف عليه السلام باجتبائه وتعليمه وإتمام النعمة عليه وتمكينه من دون إخوته.

يستخدم السرد القرآني نوعًا آخر من الاستباق يتميز بكونه يستغرق مديات زمنية متبانة، وذلك تناسبًا مع أولوية الأحداث التي يتضمنها، أو مراعاة لحال المخاطَب، ومثال ذلك نجده في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، إذ نجد استباقًا لأحداث تتعلق بمستقبل موسى عليه السلام وهو مازال رضيعًا في ساعاته الأولى من حياته، فتتراوح مديات الاستباق ما بين القريبة والبعيدة يراعي السرد من خلالها المقامات

---

(568) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 324.

(569) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 101/2.

(570) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 416.

المتباينة، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) ﴾ [القصص: 7 – 8]، فتتميز قصة موسى عليه السلام في سياق سورة القصص بأنه يبدأ السرد فيها من الحلقة الأولى من القصة وهي حلقة ميلاد موسى عليه السلام، حيث تتباين بداية القصة فيها عن جميع البدايات التي نشهدها في السور الأخرى، إذ تبدأ في أغلبها من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد[571]، فاللحظة الآنية للسرد هي لحظة ما بعد الولادة مباشرة، حيث علمت الأم أنها وضعت مولودًا ذكرًا، وبدأ الخوف يدبّ فيها، لأن مجيء المولود قد تزامن مع ظروف استثنائية اتخذ فرعون فيها القرار بقتل المواليد الذكور[572]، هنا يأتي التدخل الإلهي ليُهدّىء من روع أم موسى عليه السلام، فيتوقف السرد عند تلك اللحظة ويقفز عبر استباق زمني جاء من وحي الله ﷻ إليها، ويذهب إلى مستقبل قريب المدى أولًا حيث الوعد بردّ موسى عليه السلام إلى أمه؛ لأن هذا الأمر من شأنه أن يُهدّىء فؤاد أمّ اضطرت إلى أن تلقي برضيعها في اليم، فكان الابتداء به من باب الأولى، ثم الانتقال إلى مستقبل بعيد المدى يبشر الله جل جلاله ببلوغ موسى عليه السلام درجة الرسالة، ثم يعود السرد إلى الزمن الحاضر، عند اللحظة التي يلتقط فيها آل فرعون موسى عليه السلام بالساحل، ليقفز منه هذه المرة إلى مستقبل أبعد مدى من الأول، وهو التنبؤ بأن هذا الرضيع الذي التقطوه سيصبح عدوًا وحزنًا لهم[573]، ثم يعود السرد إلى الزمن الحاضر ليستمر تسلسل الأحداث المتلاحقة التي وصل السرد عن طريقها إلى تلك النهاية، وهكذا قام الاستباق بدور الإنباء عما ستؤول إليه الأحداث من تباينات حتى

---

(571) قطب، **في ظلال القرآن**، 2676/5.

(572) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 132/2.

(573) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 237.

النهاية[574]، وخصوصًا إنه إنباء صادر عن وحي، مما جعل المتلقي في حالة انتظار وترقب، يتشوق فيها إلى معرفة كيفية حصول ذلك، فجاءت الأحداث اللاحقة لتمثل تفصيلًا تجسيديًا لتلك التنبؤات، وكيف أن موسى عليه السلام سبّب الحزن لفرعون وملَئه، في الوقت الذي كانوا يظنون فيه أنه سيكون قرة عين لهم، فجاءت نهاية الأحداث متباينة مع توقعات بدايتها، إذ ختمها السرد أخيرًا بالنتيجة الحتمية التي خرج بها فرعون في صراعه مع موسى عليه السلام[575]، إذ قال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) ﴾ [القصص: 39 – 40]، فعبّرت هذه النهاية عن الحقيقة التي جاء بها السرد في الاستباق الزمني في بداية السرد، والتي كانت غائبة عن فرعون وملئه.

وفضلًا عن تلك الوظائف الفنية التي يؤديها الاستباق في هذا السياق، فهو يحمل أبعادًا دلالية تشير إلى معاني العظة والاعتبار في إعلانه عن حالة التباين المتعلقة بحاضر هذا الرضيع ومستقبله بين الغموض والوضوح، وبأنه سيكون من المرسلين، ففيه زيادة تطمين لأم موسى عليه السلام، فإن الله ﷻ يقول لها "أنا الذي أحفظه ليس من أجلك فحسب، وإنما لأن له مهمة عندي"[576]، فتعلم الأم أن الأمر أعظم مما تتصور هي في شأن رضيعها، فتلقت الإشارة الإلهية هذه بفطرتها السليمة، وبكل مشاعرها وأحاسيسها، فاطمأنت بها، وعملت بمقتضاها[577]. كما يحمل هذا الاستباق دلالات تشير إلى قدرة الله

---

[574] المرزوقي وشاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، 80.

[575] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 324.

[576] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 10882/17.

[577] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 285/2.

ﷻ في تسيير الأمور، ورعايته لموسى عليه السلام منذ إنقاذه من القتل وإرجاعه إلى أمه، وحتى إعداده لمهمة الرسالة[578].

يأتي السرد القرآني باستباق زمني ضمن سياق قصة تعود أحداثها إلى الماضي البعيد ليشير من خلاله إلى أحداث تتصل بالواقع المعيش في زمن الرسول ﷺ، وذلك مثل الاستباق الزمني الذي نجده في نهاية قصة أصحاب الكهف وتحديدًا عند اللحظة التي عثر عليهم في كهفهم، وبينما يتنازع القوم بينهم حول كيفية التعامل مع الموقف، نجد السرد يقفز قفزة استباقية بعيدة المدى تمتد لقرون عديدة جاء فيها إخبار بتباين الناس واختلاف آرائهم في المستقبل بشان عدد أصحاب الكهف، إذ قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) ﴾ [الكهف: 22]، وقد جاء ذلك من خلال إشارة صريحة عبر عنها حرف السين الدال على المستقبل، ليشتمل الاستباق على حدث لا يمثل التحولات السردية الداخلية، وإنما يمثل السياق الخارجي المتعلق بأناس تفصل بينهم وبين أصحاب الكهف قرون عديدة يتباينون فيما بينهم في عدد أصحاب الكهف[579]، فهؤلاء الناس من المؤكد أنهم ليسوا القوم الذين عثروا على أصحاب الكهف في حينه؛ لأنهم شاهدوهم بأعينهم وتحاوروا معهم، إذًا لا بد أنهم قوم سيأتون لاحقًا ويقولون ذلك بعد أن يتباعد الزمن على الحدث وتتباين المعلومات عن عددهم[580]، فالظاهر أن هذا الاستباق إخبار بما سيقع في زمن النبي ﷺ عندما يسرد قصة أصحاب الكهف[581]، لأن الضمير يعود لمن خاض في قصتهم في زمن الرسول ﷺ من أهل الكتاب

[578] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 365/3.
[579] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 324-325.
[580] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 127.
[581] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 240/15.

والمؤمنين[582]. وهكذا ساعد هذا الاستباق السرد على اختراق الأزمنة، ومكّنه من الانفتاحات والتحولات الزمنية، مما سهّل عليه من استحضار المشهد كاملًا وبكل جزئياته الزمنية المتباينة من الماضي ومرورًا بالحاضر نحو المستقبل[583]، مما أسهم في إثبات حقيقة مطلقية الزمن عند الله ﷻ.

يتخذ السرد القرآني من الاستباق وسيلة للكشف المسبق عن حقيقة المواقف، فيؤدي بذلك وظيفة إفهامية وتنبيهية، وذلك مثلما نجده في قصة الملأ من بني إسرائيل، إذ يأتي الاستباق ليكشف عن حقيقة موقفهم المخادع في طلبهم من نبي لهم بأن يبعث لهم ملكًا يقودهم لقتال أعدائهم، بعد أن اضطهدوا وأخرجوا من ديارهم وأبنائهم كما زعموا، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) ﴾ [البقرة: 246]، وقد تمثل الاستباق في قوله (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا)، وجاء على شكل متباينة زمنية اقتحمت السرد لتوقفه فجأة وتنقل به إلى المستقبل، فتعلن فيه عن تلك الأحداث التي انتهت بتخاذل بني إسرائيل وعصيانهم، وذلك كعادتهم المعهودة[584]، ثم يعود السرد بعد هذا الاستباق إلى النقطة التي قفز من عندها، لينقل لنا تفاصيل الأحداث المتعلقة بسلوك بني إسرائيل منذ بداية الأحداث إلى أن انتهوا إلى التمرد والفرار الذي أعلن عنه سلفًا[585]. وقد كان اختيار السرد لتوقيت استباق الحدث دقيقًا، وذلك لكي ينبه المتلقي من أن تدب في نفسه مشاعر التأثر بدعوى بني إسرائيل، فيتعاطف مع قضيتهم المزعومة، إذ كان لأسلوب القوم في التعبير الأثر البالغ في ذلك، حيث

---

[582] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 616.

[583] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 325.

[584] مرشد أحمد، **البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005م)، 267.

[585] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 47/1.

كانوا يتكلمون بلغة الواثق من نفسه، وتظاهروا بأنهم حاسمون في محاربة الأعداء[586]، وأظهروا أن قتالهم هذا هو في سبيل الله ﷻ أولًا[587]، لذلك استعجل السرد باستباق ساعد المتلقي على الاطلاع على حقيقة الأمر، وأنقذه من الانخداع باستعطاف بني إسرائيل له، وذلك بأن أعطاه نتيجة الموقف قبل أوانه، وعرّفه بأنهم لن يقاتلوا كما هم يزعمون الآن، وأن أكثرهم سيولّون الأدبار عند ساعة الحسم، وبذلك تكفل الاستباق بإظهار التناقض والتباين بين أقوال بني إسرائيل وأفعالهم[588]، ليؤدي بذلك الوظيفة الإفهامية التي حاول من خلالها إقناع المتلقي واستشعاره بحقيقة الموقف، قبل أن ينجرف وراء مفاهيم زائفة[589]، هذا فضلًا عما في الاستباق من تصديق لشكوك نبيهم في قدرتهم على القتال وجديتهم[590] حين قال لهم: (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا).

واللافت للانتباه هو مجيء هذا الاستباق السردي متميزًا من حيث صياغته النحوية، إذ جمع بين الزمن الحاضر الذي طلب فيه القوم القتال، وبين الزمن المستقبل، حيث سيختارون التخاذل والانهزام في يوم الحسم، وقد أوردهما في صيغة الماضي الصريح، والمتمثلة في الفعلين الماضيين (كُتب – تولّوا)، ليدل بهما على المستقبل ضمن السياق[591]، وذلك للدلالة على حتمية وقوع الحدث، والتعبير عن الروح الانهزامية التي تسيطر على سلوك بني إسرائيل في كل زمان ومكان، وفضلًا عن هذا كله فقد جاء الاستباق بهذا الأسلوب المقلوب لكي يتناسب مع الطبيعة المتقلبة والمتباينة التي تلاصق شخصية بني إسرائيل، والتي لا

---

(586) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 47/1.

(587) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 1043/2.

(588) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 166/2.

(589) المرزوقي وشاكر، **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، 106.

(590) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 1044/2.

(591) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 325.

سبيل إلى إصلاحها، فماضيهم دليل على حاضرهم ومستقبلهم، فلا يُنتظر منهم الصدق والإخلاص أبدًا. وبذلك مثل هذا الاستباق الزمني تباينًا في الزمن يتناسب مع التباينات المتعلقة بالشخصيات والأحداث.

المبحث الثاني: السرعات السردية:

السرعة السردية مظهر آخر أساس من مظاهر الزمن السردي، وهي تعبر عن التغيرات التي تطرأ على نسق السرد وإيقاعه. وتتحدد السرعة السردية بالعلاقة بين مدة الحكاية مقيسة بالوحدات الزمنية من الثواني إلى السنوات، وبين طول النص مقيسًا بالسطور والصفحات(592).

وتنتظم السرعة السردية من خلال إمكانيات السرد في إيجاز مدة الحكاية أو تمديدها، متراوحة بين الإسراع والإبطاء(593)، وذلك في تدرج مستمر بينهما، يبدأ من السرعة غير المتناهية التي يمثلها الحذف، حيث لا نجد مقطعًا سرديًا يوافق مدة ما في الحكاية، حتى الوصول إلى ذلك البطء المطلق الذي تمثله الوقفة الوصفية، حيث لا يوافق مقطع ما في السرد مدة ما في الحكاية، ولكن التقاليد السردية قلصت تلك الحرية في أربع علاقات أساسية سماها جينيت بالحركات السردية، وهي تتمثل في الطرفين الحذف والوقفة يتوسطهما المشهد الحواري الذي يتساوى فيه زمن السرد مع زمن الحكاية، والخلاصة التي يكون زمن السرد فيها أصغر من زمن الحكاية(594). وتعكس هذه الحركات السردية تفاوتًا في سرعة السرد، وتباينًا في إيقاعه(595)، فتحرر السرد من القوالب الجامدة، وتؤسس لقواعد يستند إليها في استخدام السرعات المتباينة، بشكل تكون لكل سرعة وظائفها الخاصة، على المستويين الفني والدلالي(596).

---

(592) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 254.

(593) كريستيان أنجليت ويان هيرمان، **السرديات ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، 125.

(594) جينيت، **خطاب الحكاية**، 108.

(595) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 30.

(596) قاسم، **بناء الرواية**، 77.

المطلب الأول: الخلاصة:

الخلاصة هي واحدة من سرعات السرد الأساسية، وهي تظهر عندما يكون زمن السرد أصغر من زمن الحكاية[597]، ونلحظها في السرد على شكل بضع فقرات سردية في بضع صفحات تقابل عدة أيام أو شهور أو سنوات في الحكاية، دون الخوض في تفاصيل الأحداث والأقوال[598]. ويكمن الدور الوظيفي للخلاصة السردية في المرور السريع على فترات زمنية ليس في ذكر ما جرى فيها ما هو جدير بالاهتمام، كما يمكن أن تقدم الخلاصة تصورًا عامًا للمشاهد والربط بينها، أو تقدم تصورًا عامًا حول شخصية جديدة، أو شخصيات ثانوية لا يتسع النص لمعالجتها بالتفصيل، أو قد تحمل الخلاصة الإشارة السريعة إلى ثغرات زمنية وما وقع فيها من أحداث على شكل خلاصات استرجاعية[599].

وجاء استخدام هذه التقنية في السرد القرآني خدمة لأهدافه الدينية، مع مراعاة إظهارها في أتم وأجمل حالاتها الفنية، فكانت كفيلة بتقديم أحداث كثيرة ومتنوعة من دون إحداث أي خلل على مستوى بناء السرد قد يثير النفور لدى المتلقي. وتأتي الخلاصة السردية داخل البناء السردي القرآني في مستويات متباينة، وذلك حسبما تقتضيه الغايات الفنية والدلالية.

إنّ من بين الأساليب الفنية التي يعتمد عليها السرد القرآني في عرض القصة هو أسلوب الابتداء بخلاصة إجمالية تحمل الخيوط الرئيسة العريضة للقصة، ثم الدخول في التفاصيل السردية المتعلقة بها فيما بعد[600]، فتؤدي الخلاصة بذلك الوظيفة التمهيدية للقصة قبل سردها والخوض في تفاصيلها[601]، فتأتي

---

[597] برنس، **المصطلح السردي**، 226.

[598] جينيت، **خطاب الحكاية**، 109.

[599] قاسم، **بناء الرواية**، 78.

[600] قطب، **في ظلال القرآن**، 2261/4.

[601] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 327.

على شكل متباينة زمنية تشتمل على سرد مكثف لأهم أحداث القصة، وهي التي نجدها في قصة أصحاب الكهف، إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) ﴾ [الكهف: 9 – 12]، فمثلت الآيات الكريمة خلاصة تعرّف المتلقي من خلالها على أهم أحداث القصة، وهو أن أصحاب الكهف هم فتية مؤمنون غير معروفي العدد أووا إلى الكهف، وأن الله ﷻ قد أنامهم فيه لسنوات طوال عددها غير معلوم أيضًا، ثم بعثهم من رقدتهم الطويلة، وتقول الخلاصة إنه كان هناك فريقان متباينان يتجادلان في شأنهم، ومدة لبثهم في الكهف، وانتهى الجدال بأن بُعث أصحاب الكهف إلى الحياة من جديد، وتخبرنا الخلاصة أيضًا أن قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب آيات الله ﷻ، ولكنها عجيبة من عجائبه التي ملأت الكون[602]. وكان هذا سببًا في ابتداء السرد بتلخيص قصتهم، مع التنبيه إلى أن الإيمان وحده هو السبب في الحصول على تأييد من عند الله جل جلاله[603]، فتتباين الخلاصة السردية هذه عن جسم القصة التي عاد إليها السرد بعدها منذ اللحظة التي يعرفنا فيها بالفتية، إذ قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾ [الكهف: 13]، لتتوالى من عندها الأحداث في طبيعتها التتابعية.

وحملت الخلاصة هذه أبعادًا فنية ودلالية، تتمثل في أنها جاءت بمثابة مقدمة تخلق لدى المتلقي الإثارة والتشويق لمعرفة الأسباب التي دفعت أصحاب الكهف إلى اتخاذ مثل هذا القرار[604]، فهي اشتملت على مراحل زمنية طويلة لا بد وأن حوت أحداثًا كثيرة ومتنوعة دفعت إلى إثارة ذهن المتلقي في

---

[602] قطب، **في ظلال القرآن**، 2261/4.

[603] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 265/15.

[604] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 181.

محاولة توقعها وتخمينها، فجعلته يتابع مجريات الأحداث بلهفة وشواق، ويشارك في الكشف عن خباياها، خصوصًا وأن الخلاصة ركزت على إبراز حدث خارق للعادة، وهو لبث أصحاب الكهف لسنوات طويلة، ثم بعثهم من جديد، الأمر الذي كان كفيلًا بأن يفسح المجال أمام خيال المتلقي ليرسم في ذهنه توقعات متباينة، وهذا ما جعله يتشوق للوصول إلى إجابات تسكن سيل التساؤلات الملحة التي أثارتها الخلاصة في ذهنه، مثل الكشف عن هوية أصحاب الكهف وشخصياتهم، ولماذا لجأوا إلى الكهف، وكيف بعثهم الله ﷻ بعد أن لبثوا فيه لسنوات طويلة[605]، فكان لاحتواء الخلاصة على هذا الحدث الإعجازي الأثر في لفت انتباه المتلقي، وخلق الإثارة في ذهنه وعواطفه، ثم جذبه نحو القصة. ويكمن وراء ابتداء القصة بهذه الخلاصة سبب فني يتمثل في تساوق مثل هذه البداية مع مقدمة السورة التي تشدد على إبراز مفهوم النبذ للحياة الدنيا وزينتها، فكان هروب الفتية بدينهم ولجوئهم إلى كهف منعزل هو أتم تجسيد لهذا المفهوم[606] مثله أصحاب الكهف من خلال تباينهم مع محيطهم الاجتماعي وانعزالهم عن قومهم.

يبدأ السرد القرآني أحيانًا بخلاصة تمهيدية يرسم من خلالها الأجواء العامة التي تجري فيها الأحداث ويكشف عما يحيط بها من ظروف، وما يكمن وراء وقوعها من غايات سيقت القصة من أجلها، وذلك تساوقًا مع أهداف السرد القرآني نفسه ضمن السياق[607]، ونجد مثل ذلك في قصة موسى عليه السلام ضمن سياق سورة القصص، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) ﴾ [القصص: 4 – 6]، فتباينت الخلاصة مع اللحظة الآنية للسرد،

[605] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 327-328.

[606] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 339/1.

[607] قطب، **في ظلال القرآن**، 2677/5.

وهي مولد موسى عليه السلام، والتي تمثل بداية السرد في تتابعه الطبيعي للأحداث، فحوت الخلاصة على أحداث قبلية وبعدية لتلك اللحظة، إذ دونت الأحداث التي سبقت ولادة موسى عليه السلام، وجعلتها بداية تاريخية لقصته، انطلق منها السرد إلى ما ستؤول إليه الأحداث في النهاية، فكان ذلك بمثابة مقدمة عرض السرد من خلالها ما تسلكه القصة من البداية إلى النهاية في عبارة مختصرة وموجزة[608]، إذ أشارت إلى مظاهر فساد حكم فرعون، وذكرت نماذج من اضطهاده، وتعذيبه لبني إسرائيل، بأنه علا في الأرض أي تكبر وتجبر وانتفش وتبختر فيها، فقاده ذلك إلى استنكار الآخرين واستعبادهم، ثم إنه فرق أهل مصر إلى فرق متفرقة، وطبق فيهم سياسة ال(فرق تسد)، فاستضعف أغلبية الشعب، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، بينما يقرب إليه القلة من الموالين والمؤيدين، فكانت النتيجة الحتمية لسياسته هي الفساد[609]، فحملت الخلاصة دلالات خاصة تشير إلى أن خصوصية مولد موسى عليه السلام في تلك الظروف الاستثنائية، وطريقة نجاته من القتل قيمة خاصة في بيان رعاية الله ﷻ له، وإعداده إعدادًا متميزًا للمهمة الكبرى التي ستناط إليه في المستقبل[610]. كما إن في ابتداء السورة عمومًا والقصة خصوصًا بهذه الخلاصة السردية تأكيدًا على أن القصة هي ذاتها تمثل هدفًا فكريًا، فنرى أن الخلاصة تطرح أفكارًا تنعكس على سائر موضوعات السورة مثلما هي تنعكس على أحداث القصة ومواقفها، وهذا ما زاد في صياغة البناء الهندسي للسورة فنية وجمالًا ودهشة أكثر[611]، إذ أسهمت هذه الخلاصة في إحاطة المتلقي بأفكار القصة وأهدافها الأساسية، وعملت على جعله يستمتع جماليًا ببناء القصة وطريقة صياغتها، وكيف أنه سيكتشف تلك الأفكار بنفسه[612]. كما استطاع المتلقي من خلال هذه الخلاصة أن يكوّن تصورًا شاملًا حول

---

(608) الحجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، 290.

(609) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 266/2.

(610) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 163.

(611) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 362/3.

(612) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 131/2-132.

الشخصيات التي سيكون لها الدور في تمثيل التباين القائم بين طرفي الصراع من المستضعفين والمضطهدين في جهة، والمستبدين بقيادة فرعون وهامان وجنودهما في الجهة المقابلة، وقدمت المشاهد والأحداث المتعلقة بالشخصيات بصورة عامة، ساعدته في التوقع لما ستؤول إليه النهاية، وذلك من خلال الموقف الصريح للسارد تجاه كلا الفريقين، والذي كان داعمًا للمستضعفين على حساب المستكبرين[613]. فشكلت الخلاصة هذه وحدة زمنية مكثفة مستقلة اشتملت على الخطوط العريضة للقصة، وعلى أسبابها ونتائجها، فتباينت عما يليها من السرد التتابعي للقصة، فكونت الأساس الذي انطلق منه المتلقي في تتبعه لمسار الأحداث، وأن يخلق لديه توقعًا بمصير طرفي الصراع منذ البداية، وهذا ما تجسد في إهلاك فرعون وإغراقه، ونجاة المستضعفين من بني إسرائيل[614].

يذهب السرد القرآني أحيانًا إلى الجمع بين خلاصتين إحداهما تعقيبية تأتي في ختام قصص وردت من قبل، والثانية تمهيدية لقصة جديدة، فتظهر الخلاصتان كمتباينتين زمنيتين تسهمان في تسريع خطى السرد التتابعي بغية الوصول إلى النقطة التي يهدف السرد القرآني من خلالها إلى الربط بين الأزمان المتعاقبة، وذلك من أجل بيان التشابه بين أحداثها التي تنشأ من خلال المواقف المتشابهة للبشر في كل العصور والأزمنة المتباينة، ومثال هذا النوع من الخلاصات نجده في سورة الأعراف، حيث جاء فيها تلخيص لقصص كل من نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب عليهم السلام في نهاية سردها[615]، إذ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102) ﴾ [الأعراف: 101 – 102]، فكأنه سرد تاريخي موجز يشتمل على أحقاب

[613] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 328.

[614] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 329.

[615] قطب، **في ظلال القرآن**، 1335/3.

زمنية طويلة متباينة، يريد السرد من خلاله الوقوف على جانب مهم من تاريخ الإنسان، ومشيئة الله ﷻ في تدبير شؤونه، والحكمة في ابتلائه بالضراء والسراء، وذلك تحذيرًا لمن يرث الأرض من بعدهم من الغفلة والغرور، وعليهم الاعتبار بمصائر من سبقوهم من الأقوام، وتحمل الخلاصة الفكرة الرئيسة التي تتمثل في الإشارة إلى أن مشيئة الله ﷻ لا تتبدل وإنما الذي عليه أن يتكيف معها هو تاريخ الإنسان نفسه(616)، وذلك لكونها هي الهدف "المراد من سرد القصص لرسول الله ﷺ، إذ تقول له إذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العناد والإصرار والمكابرة، فاعلم أنك لست بدعًا من الرسل؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبوهم، وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما في رسالته من العلو فلا بد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوي ابتلاءات الرسل جميعًا"(617)، فركزت الخلاصة على إظهار المواقف المتباينة بين الرسل عليهم السلام واقوامهم، على أساس التباين بين الفعل ورد الفعل المتمثل في طرح الرسالة وكيفية الاستجابة لها(618). هذا فضلًا عما أدته الخلاصة من وظائف فنية تتمثل في المرور السريع على تلك الفترات الزمنية الطويلة التي فصلت زمن موسى عليه السلام عن هؤلاء الرسل عليهم السلام جميعًا، وذلك للربط بين أحداثها ومشاهدها فيما بينها، ووصولًا إلى الربط بينها وبين قصة موسى عليه السلام التي يريد السرد التفصيل في أحداثها لاحقًا، وكأنه هو هدف السرد وراء ذلك، إذ تبدأ هذه القصة من حيث انتهت السابقات بخلاصة تمهيدية تحدد اتجاه سرد الأحداث اللاحقة، وتضع المتلقي في حالة من التصور لما ستنتهي إليه القصة(619)، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) ﴾ [الأعراف: 103]، فتوجز الخلاصة طيلة الفترة الزمنية التي حوت جهاد موسى عليه السلام في تبليغ الرسالة، ثم دخل السرد في تفاصيل

(616) قطب، **في ظلال القرآن**، 3/1335-1336.

(617) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 7/4265.

(618) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 330.

(619) محمد مشرف خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (جامعة طنطا: دت)، 99.

الأحداث، "وهذه الطريقة هي المناسبة لسياق السورة، وللمحور الذي تدور حوله؛ لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى- تحقيقًا للهدف من سياقتها- ثم تأخذ بالتفصيل بعد الإجمال، فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها"(620). وهذا يأتي متناسبًا مع الأحوال المتباينة التي مر بها موسى عليه السلام مع قومه. فجاءت كلتا الخلاصتين التعقيبية والتمهيدية متباينتين زمنيًا عما سبقهما من سرد وما لحقهما، وذلك لاحتوائهما على قصص طويلة متباينة لخصها السرد في ثلاث آيات فقط(621)، فأسهمتا بذلك في التقريب بين الأزمان، والربط بين المشاهد المتوزعة على طول فترات زمنية طويلة ومتباعدة، وذلك بغية إظهار الغاية الدلالية المشتركة بين قصص الأنبياء، والتي تشير إلى التباين بين مهمة الرسل عليهم السلام في هداية أقوامهم، وبين ما واجهوه من صد واعتراض وظلم.

وفي السياق نفسه، وتحقيقًا لتلك الأهداف والأغراض يجمع السرد القرآني بين خلاصات سردية عديدة متتالية لقصص مختلفة، تندرج ضمن السرد التتابعي لأحداثها، ليمر عليها سريعًا، وذلك للإسراع في الدخول في القصة الأخيرة، والتي يستهدف السرد الخوض في تفصيلاتها، وذلك مثلما جاء في سياق سورة يونس عندما يبدأ السرد فيها بخلاصة قصة نوح عليه السلام مرورًا بخلاصة لقصة الرسل من بعده جميعًا، وانتهاءً بخلاصة تمهيدية لقصة موسى عليه السلام التي جعلها السرد القصة الأكثر تفصيلًا من بين القصص، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(620) قطب، **في ظلال القرآن**، 1345/3.

(621) شلوميت ريمون كنعان، **التخييل القصصي- الشعرية المعاصرة**، ت: لحسن حمامة، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1995م)، 84.

الْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ﴾ [يونس: 71 – 75]، فهذه الخلاصات تشغل فراغًا هائلًا من الأزمان المتتابعة والأجيال المتعاقبة والرسالات المتعددة التي توالت منذ رسالة نوح والرسل عليهم السلام من بعده حتى رسالة موسى وهارون عليهما السلام، ويمكن أن نتلمس فيها دلالة تشير إلى أن الرسالة الإلهية واحدة تتمثل في رسالة الإسلام، وأن الذين لم يستجيبوا لها هم ليسوا أهلًا للتشرف بها، وهذا حال المشركين المعاصرين للدعوة الإسلامية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم(622). وتحتوي هذه الخلاصة لقصة نوح عليه السلام على اختصار جميع تفصيلات حلقات القصة كاملة إلى حلقة واحدة، ثم اختصارها هي كذلك إلى النتائج الأخيرة للقصة، لنستدل بها على أنها جاءت متناسبة مع سياق السرد في السورة، وهو التعجيل بإعلان نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين، فالهدف هنا هو التركيز على التباين بين المصائر، فتنجو القلة المؤمنة وتهلك الكثرة الكافرة(623).

والشي اللافت للانتباه هنا هو التباين بين تلك الخلاصة وبين الخلاصتين الأخيرتين على أساس الطول والقصر، فالخلاصة الأولى أطول بالنسبة إلى خلاصتي قصة الرسل عليهم السلام من بعده، وخلاصة قصة موسى عليه السلام، وذلك لأن قصة نوح عليه السلام هي قصة أول الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم عبر التاريخ البشري(624)، والذين واجهت رسالاتهم الصد والاعتراض من قبل أقوامهم، وبما "أن لأوليات الحوادث وقعًا في نفوس المتأملين في التاريخ"(625)، فإن الخلاصة كانت بحاجة إلى إلقاء الضوء على متعلقات الفكرة المركزية المتمثلة في إبلاغ الرسالة، وتقديم عام للمشاهد والربط بينها، بينما الخلاصة الثانية

(622) محمد محمد محمد لقمة، **الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية**، أطروحة دكتوراه، (جامعة الأزهر: 1968م)، 289.

(623) قطب، **في ظلال القرآن**، 1810/3-1812.

(624) قطب، **في ظلال القرآن**، 1871/4.

(625) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 222/20.

ركزت على الفكرة المركزية دون الدخول في التفاصيل والمتعلقات، فاستطاعت بذلك تقديم مشهد عام لقصص الرسل عليهم السلام وربطت القصة الأولى بالأخيرة عبر مرور سريع على فترات زمنية طويلة[626]، إذ انتقل السرد عبرها انتقالة سريعة ومباشرة من قصة نوح عليه السلام إلى قصة موسى عليه السلام، فكانت بمثابة الحلقة الرابطة بين القصتين، وكأنه شاء ﷻ هنا أن يأتي بقصص عيون الرسالات التي هي أكبرها وأهمها ليذكرها مفصلة[627]، فجاءت الخلاصة الأخيرة تمهيدية للدخول في قصة موسى عليه السلام الرئيسة ضمن السياق، والتي كان السرد يستهدف الخوض في تفاصيلها، مما يشير إلى الإلمام بالمواقف المشابهة بمواقف المشركين من الرسول ﷺ في مكة، وموقف القلة المؤمنة معه[628].

يعمد السرد القرآني أحياناً إلى التعجيل بإنهاء القصة التي هو في صدد سردها، وذلك من أجل الدخول في القصة الرئيسة بالنسبة إلى السياق، فيكثف الزمن في نهاية القصة ويختصر أحداثها النهائية في خلاصة تسرع من وتيرة زمن السرد نحو إنهاء القصة، ويمكن أن نسمي هذا النوع بالخلاصة الختامية، ونجد مثالها في قصة موسى عليه السلام ضمن سياق سورة النمل، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) ﴾

[626] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 331.

[627] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 6120/10.

[628] قطب، **في ظلال القرآن**، 1813/3.

[النمل: 7 – 14]، فشكلت الخلاصة متباينة زمنية يتوقف عندها السرد التتابعي لأحداث القصة، ليسرع في الانتقال إلى النهاية، فبينما يعرض السرد الأحداث المتعلقة بتكليف موسى عليه السلام بالرسالة بعد أن أمده الله ﷻ بالآيات المعجزة، لتسانده في مواجهته المرتقبة لفرعون وملَئه، يأتي السرد ويوجز تلك الحادثة دون الخوض في تفاصيلها، ويذهب إلى النتيجة مباشرة، وهي تكذيب فرعون وملَئه بالآيات، فكانت عاقبتهم الخسران، فكانت هذه الخلاصة وسيلة للإسراع في إنهاء القصة لغرض الانتقال إلى قصة داود ثم قصة سليمان عليهما السلام، التي أوردها السرد هنا تناسبًا مع السياق، فأراد الخوض في تفاصيلها[629]، فقد وردت أطول حلقات قصة سليمان عليه السلام ضمن سياق هذه السورة الكريمة، وقد تكون في ذلك دلالة تشير إلى ما يتميز به سليمان عليه السلام من تباين يتمثل في كونه ورث داود عليه السلام خلافة إيمانية، ودولة قوية، ومملكة متقدمة متكاملة واسعة الرقاع، إذ بلغت المملكة الإسرائيلية في عهدهما الذروة في القوة، ففي ذلك تحفيز لمشركي قريش إلى أن يؤمنوا، فالإيمان سيحقق لهم السؤدد والرفعة في الأرض كما حققهما لسليمان عليه السلام من قبل[630]. هذا بعد أن أوحت الخلاصة إلى النبي ﷺ قبل ذلك بأن مواجهته لقومه ستكون مثل مواجهة موسى عليه السلام لفرعون وملَئه الذين شاهدوا المعجزات في حينها واستيقنتها أنفسهم، ولكن ظلمهم وعلوهم منعاهم أن يؤمنوا بها واتهموا صاحبها بالسحر، مع التلويح بمصائر المفسدين في النهاية[631]، فكثيرًا ما نجد مثل هذه الخلاصات في القصص التي جاءت ضمن سياق السور المكية وخصوصًا تلك التي تأتي في بداية الدعوة، إذ كانت تركز على عاقبة المكذبين، وذلك لأنها

---

[629] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 232/19.

[630] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 482/3.

[631] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 345/3.

تتناسب مع واقع مرحلة الدعوة الذي يتمثل في تحذير المشركين من عاقبة تكذيبهم، وإصرارهم على الباطل[632].

المطلب الثاني: الحذف:

الحذف السردي هو أقصى درجات تسريع السرد، بحيث يقضي بإسقاط فترات طويلة أو قصيرة من زمن الحكاية، وعدم الخوض فيما يجرى فيها من وقائع وأحداث سردية[633]، وهذا يعني أنه يقصد بالحذف هنا بمعناه الحصري وهو الحذف الزمني[634].

وكثيرًا ما يعتمد السرد القرآني على هذه التقنية السردية في قصصه، وقد عبر عنه (سيد قطب) بمصطلح الفجوة بوصفها واحدة من أدوات البناء الزمني للسرد القرآني، وخصيصة من خصائصه الأسلوبية، إذ استخدمها للإشارة إلى الفترات الزمنية المحذوفة بين المشاهد، والتي تفسح المجال أمام تحرك خيال المتلقي لملئها، وإقامة الأواصر الرابطة بين المشاهد المتعاقبة، مما يخلق لديه المتعة الفنية[635]. وذلك تجنبًا من السرد القرآني المباشرة في التعبير، والذي يأتي انطلاقًا من اهتمام القرآن الكريم بالمتلقي، وفسح المجال أمامه لتدبر آياته، والتأمل في خطابه المعجز، فتأتي الفراغات السردية التي ينتجها الحذف لتشد انتباهه إلى الدلالات المخبوءة وراءها[636]. ويكون الحذف السردي على شكلين، فهو إما أن يكون مصرحًا به وظاهرًا، وإما أن يكون غير مصرح به وضمنيًا[637].

---

(632) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 92.

(633) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 156.

(634) جينيت، **خطاب الحكاية**، 117.

(635) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 187-188.

(636) الشهرزوري، **السرديات المعاصرة**، 316-317.

(637) لحمداني، **بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي**، 77.

أولًا: الحذف الصريح:

وهو الحذف الذي تعلن فيه الفترة الزمنية المحذوفة بوضوح[638]، وذلك من خلال الإشارة إليها بعبارات موجزة صريحة تدل على مضي الزمن، مثل (ومضت عشر سنوات)، أو (بعد عدة أشهر) وهكذا[639]. ويأتي هذا النوع أقل استعمالًا في السرد القرآني بالمقارنة مع الحذف الضمني، وذلك تناسبًا مع الأسلوب القرآني في الابتعاد عن المباشرة في استخدام أساليبه السردية، وذلك للاحتفاظ بحيويته، وضمان الإبقاء على التواصل مع المتلقي[640].

وخير مثال للتصريح بمدة الحذف هو ما نجده في الإشارة إلى المدة التي مكث فيها نوح عليه السلام بين قومه، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) ﴾ [العنكبوت: 14]، فهي المرة الأولى التي تتحدد فيه مدة المحذوف من الزمن[641]، ليحمل ذلك دلالة تشير إلى بيان إصرار نوح عليه السلام على دعوة قومه إلى الحق، وذلك من خلال الأشارة إلى تلك المدة الطويلة من (اللبث) في مكان الإقامة بين قومه وملازمته طوال تلك السنوات[642]. فجاء التباين الزمني المتمثل في هذا الحذف السنين متناسبًا مع حالة التباين القائمة بين نوح عليه السلام وقومه على أساس التقابل بين دعوة نوح عليه السلام ورفض القوم، فتحمل ظلمهم المتواصل وواجهه باللبث والصمود طيلة هذه القرون.

---

[638] إبراهيم الجنداري، **الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، 133.

[639] بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 157.

[640] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 334.

[641] خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 90.

[642] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 733.

ونجد هذا النوع من الحذف الزمني الذي يشار إليه بالسنوات في قصة يوسف عليه السلام، إذ يطوي السرد القرآني فترة زمنية طويلة قضاها يوسف عليه السلام في السجن، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) ﴾ [يوسف: 42]، فيشير إلى تلك الفترة الزمنية إشارة واضحة من خلال عبارة (بضع سنين) التي تساعد في تخمين عدد السنوات بين الثلاث إلى التسع، وقد جاء ذلك بعد أن أوّل يوسف عليه السلام رؤيا كل من صاحبيه في السجن، فأسقط السرد كل الأحداث المتعلقة بنتائج تأويله، وما آل إليه مصير كل من الرجلين، كما تجاوز كل الأحداث التي حوتها هذه السنين، سواءً تلك التي تتعلق بيوسف عليه السلام، أو التي تتعلق بالشخصيات الأخرى، فيشير لفظ (لبث) إلى أن يوسف عليه السلام بقي مقيمًا في سجنه وملازمًا له طيلة هذه السنين، دون أن تكون هناك أحداث تؤثر في البناء السردي للقصة، لذلك ينتقل السرد مباشرة من خلال إشارة صريحة إلى ما بعد هذه السنين التي طواها مع ما وقع فيها من أحداث، ليضع المتلقي أمام مشهد مجلس الملك وهو يسرد لرجال حاشيته رؤياه التي أثارت قلقه، ويطلب منهم ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات أن يأولوا له تلك الرؤيا[643]، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) ﴾ [يوسف: 43]، فقام السرد القرآني بالحذف الزمني الذي أحدث تباينًا في التتابع الزمني للأحداث، وذلك من أجل الإسراع في الانتقال مباشرة إلى حدث محوري مميز له الأثر في تحويل مسار السرد ومجريات الأحداث المتعلقة بحياة يوسف عليه السلام نحو اتجاه متباين، ثم إلى الحل والنهاية فيما بعد، ليتناسب هذا التباين الزمني المتمثل في حذف سنوات السجن مع حالة التباين التي ستحصل على مستوى الأحداث السردية اللاحقة، والتحولات المفصلية المرتبطة بشخصية يوسف عليه السلام.

[643] قطب، **في ظلال القرآن**، 1992/4.

يحذف السرد القرآني السنوات التي قضاها موسى عليه السلام في مدين من خلال الإشارة الصريحة، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) ﴾ [القصص: 29]، فجاء حذف تلك السنوات من خلال التعبير بانقضاء الأجل، فالأجل هو المدة المضروبة للشيء، كما هي الحال في مدة الدين، ومدة حياة الإنسان(644)، وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى عليه السلام مع حميه دون أن يذكر السرد عنها شيئًا، فأسقط السرد هذه السنوات من حياة موسى عليه السلام وحذف كل ما يتعلق بها من أحداث، وذلك من أجل الإسراع في الوصول إلى زمن الهداية والرسالة الإلهية، وكأن السرد يقيس حياة موسى عليه السلام منذ بداية الوحي والتكليف الإلهي له بالرسالة(645). وقد يحمل هذا التباين المتمثل في الحذف الزمني دلالة تشير إلى التباين الحاصل في حياة موسى عليه السلام الاجتماعية والمهنية والفكرية والنفسية، طوال المدة التي عاش فيها في مدين، والتي أتبعها الإحساس بالفراغ من قبله، فجاء الحذف الزمني لها متناسبًا مع ما يريده السرد القرآني من تجاوز لآلام الغربة والإقصاء القسري التي قاساها موسى عليه السلام وهو مبعد في مدين، وكأنه لم يعش هذه السنين التي انقضت بالمعنى الحقيقي للعيش، وهذا ما يؤكد عليه السرد من خلال التعبير عن مرور السنوات بانقضاء الأجل، إذ يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ... (29) ﴾ [القصص: 29]، فمعاني (القضاء) ثقيلة الوقع في النفس، وذلك لارتباط اللفظ بحسم الأمور، وأداء ما يثقل كاهل الإنسان، ولارتباطه الوثيق بالتعبير عن الموت فيقال فلان قضى نحبه(646)، وما يؤكد على ما يشتمل عليه اللفظ من هذا المعنى هو مجيئه مع

(644) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 13.

(645) قطب، **في ظلال القرآن**، 5/2689-2690.

(646) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 525.

(الأجل) الذي يعني الموت أيضًا[647]، فزاد ذلك من الدلالات النفسية التي توحي بثقل انقضاء تلك السنوات العشر.

قد يعتمد السرد القرآني على أدوات لغوية للإشارة إلى الحذف الزمني إشارة صريحة، ولكنها غير مباشرة، تدل على حدوث فراغ سردي بين المشاهد، والحلقات السردية[648]، وذلك مثلما نجد في قصة موسى عليه السلام، إذ يشير السرد القرآني إلى حذف زمني يفصل بين مرحلة رضاعته وبين مرحلة شبابه وبلوغه، مما أحدث تباينًا على مستوى الزمن السردي للقصة، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) ﴾ [القصص: 14]، فهو حذف صريح ينتقل السرد عن طريقه إلى شباب موسى عليه السلام مباشرة[649]، فبلوغ الأشد يعني اكتمال الإنسان جسميًا، والاستواء هو النضوج العضوي والعقلي، ويكون عادة عند حوالي سن الثلاثين[650]، ووصل السرد من خلال هذا الحذف الزمني إلى أقصى درجات سرعته، بأن أسقط كل الأحداث المتعلقة بحياة موسى عليه السلام منذ الطفولة، وإلى مرحلة الشباب والاستواء، تاركًا المجال أمام خيال المتلقي لملئها بما يمكن أن يتصوره عن كيفية عيشه في قصر فرعون، ونوعية علاقته بأمه وأهله، والظاهر أنها كانت فترة ركود على مستوى الأحداث المحورية، لا يجد السرد فيها ما هو مهم لا على مستوى البناء الفني للقصة، ولا على مستوى الدلالي، لذلك جاء السرد القرآني معبرًا عن تلك الفترة بالحذف السردي، فأسهم ذلك في الإسراع من وتيرة الزمن والوصول إلى تلك الحادثة التي شكلت منعطفًا سرديًا تباين عنده مسار السرد تباينًا كبيرًا، وهي حادثة قتل القبطي على يد موسى عليه السلام، والتي كانت السبب في خروجه من مصر وتوجهه إلى

---

(647) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 13.

(648) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 334.

(649) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 105.

(650) قطب، **في ظلال القرآن**، 2681/5.

مدين خوفًا من بطش فرعون وجنوده، وبذلك تجنب السرد حشو المعلومات الزائدة، وطرح كل ما لايخدم أهدافه الفنية والدينية، فجاء هذا التباين الزمني المتمثل في حذف سنوات العيش في القصر ليسهم في الاستدلال على حالة التباين التي حصلت في حياة موسى عليه السلام بين كونه أميرًا في القصر وبين كونه هاربًا وخائفًا من بطش فرعون وجنده.

وانسجامًا مع هذا التباين الزمني نجد تباينًا على مستوى الصياغة، ليجعل السرد القرآني أساليبه الفنية والجمالية في خدمة وظيفته الإبلاغية، فاستطاع السرد القرآني يعرفنا على عمر موسى عليه السلام من خلال الإشارة إلى الزمن المحذوف مع عدم ذكر الوحدات الزمنية المألوفة التي تدل على الأعمار، مثل الأعوام[651].

والشيء نفسه نجده في قصة يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) ﴾ [يوسف: 22-23]، فتلك هي إشارة صريحة على مضي سنين طويلة على إقامة يوسف عليه السلام في بيت العزيز لا نعلم عددها، ولكن الذي نعلمه هو أنه صار شابًا جلدًا قويًا، وقد نضجت شخصيته، واستقام كيانه[652]، فقد طوى السرد تلك الفترة الزمنية التي تفصل وصول يوسف عليه السلام إلى بيت العزيز واستقراره فيه إلى حد بلوغه الأشد جسميًا وعقليًا، ثم تعرضه لحادثة المراودة، فانتقل السرد مباشرة إلى مراحل زمنية متقدمة، وذلك تمهيدًا لذكر الحادثة المحورية التي مثلت منعطفًا سرديًا وأوصلت حبكة السرد إلى ذروتها، وهي حادثة المراودة التي كانت الحد الفاصل بين مرحلتين متباينتين من حياة يوسف عليه السلام، وبذلك طوى السرد عن طريق الحذف

---

(651) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 336.

(652) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 113/2.

الزمني تلك التفاصيل المتعلقة بالمحنة الطويلة التي عاشها يوسف عليه السلام وهو يقاوم محاولات المراودة المتكررة طيلة هذه السنوات، فالسياق يدل على أن المراودة كانت لها بدايات ومقدمات[653]، وكان يجابهها بالمقاومة والصمود، إلى أن وصلت المراودة مراحلها الحاسمة، وأصبحت فيها مكشوفة وسافرة[654]، ولعل الحذف هنا يدل على أن السرد لم يرد الدخول في تفاصيل هذه الجريمة منذ بداياتها، وأراد تجاوزها؛ لأنها تتنافى مع الفطرة السليمة، والذوق السليم، ومع الأهداف الدينية والتربوية للسرد القرآني.

ثانيًا: الحذف الضمني:

لاتنتهي دلالات الزمن عند تلك الألفاظ الصريحة التي تعبر عنها، مثل يوم وليلة، وساعة وشهر وسنة، وبضع سنين، وما شابه، وإنما للزمن دلالات لا حصر لها، يتسم بها الحدث من خلال أوضاع الشخصيات، كأن تكون صغيرة فنراها كبيرة، أو تكون في مكان فنراها في آخر، أو تكون أولادًا فنراها آباءً وأمهات، فمع كل تلك الأوضاع نستشعر بعناصر زمنية متعددة تحرك الأحداث، يشار من خلالها إلى مراحل مختلفة ولغايات مختلفة[655]. لذا فالحذف الضمني هو ما لا يصرح السرد بوجوده من الزمن، ليدع المجال المتلقي يستنتجه من الانقطاعات بين المشاهد السردية[656]، والثغرات السردية في التتابع الزمني، حيث تتوقف عندها الاستمرارية الطبيعية للزمن السردي[657]،

ومثل هذا النوع من الحذف نجده في قصة الخلق ضمن سياق سورة (ص)، وذلك عندما ينتقل السرد مباشرة من مشهد خلق أبي البشر، وتفاصيله، إلى مشهد سجود الملائكة له، تاركًا فجوة سردية بين

---

(653) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 128.

(654) قطب، **في ظلال القرآن**، 1980/4.

(655) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 85.

(656) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 75.

(657) جينيت، **خطاب الحكاية**، 119.

المشهدين، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) ﴾ [ص: 71 – 73]، فيبدأ السرد هنا باستباق يعلن فيه أنه ﷻ سيخلق بشرًا من طين، فالسياق يشير إلى أن خلق آدم عليه السلام لم يحدث بعد، وأنه سيكون في المستقبل، ثم يحذف السرد الفترة الزمنية التي استغرقها إنجاز الخلق، وينتقل مباشرة إلى المشهد الذي يأمر فيه الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وهذا يعني أنه أصبح مكتمل الخلق يقف بين يدي الله ﷻ ينتظر تنفيذ الملائكة لأمر الله ﷻ بالسجود له سجود التحية والتكريم[658]، وقد كان للحذف الزمني هنا دور في أداء وظيفة دلالية تسهم في إظهار جانب مهم من جوانب صفات الملائكة في الطاعة والتسليم لأوامر الله ﷻ دون إبطاء[659]، فجاء التسريع الذي نشأ عن الحذف السردي متناسبًا مع تباين الملائكة في سرعة تنفيذ أمر الله جل جلاله، بخلاف إبليس الذي أبى ذلك، كما جاء متناسبًا مع حالة التباين التي حصلت عند آدم عليه السلام، وذلك على أساس الاختلاف المادي والمعنوي الذي تميز به بين مرحلتي ما قبل نفخ الروح وما بعده.

ينطلق السرد القرآني أحيانًا من نقطة زمنية معينة تتصل بحدث محوري معين، فيستخدم الحذف وسيلة لتجاوز ما قبل ذلك من الزمن، فتظهر هناك فجوة سردية تتعلق ببدايات ما قبل ذلك الحدث، وهذا ما نجده في قصة يوسف عليه السلام، حيث تبدأ بحدث الرؤيا، فنرى أن أول ما يبدأ به السرد هو حذف سنوات طفولة يوسف عليه السلام قبل ذلك الحدث، وذلك بكل ما تحمله هذه السنوات من مواقف عدائية مليئة بمشاعر الغيرة والحسد عند الإخوة تجاه يوسف عليه السلام، فترك السرد المجال للمتلقي كي يتخيلها من خلال استنتاج ما يحمله تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام من إشارات تدل على أن هذه

---

[658] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 110/1.

[659] خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 82.

المشاعر كانت موجودة من قبل وأن يعقوب عليه السلام قد أحس بها، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) ﴾ [يوسف: 5]، فجاء ابتداء السرد بحادثة الرؤيا متناسبًا مع ما تؤديه من دور أساسي في كونها مرتكزًا تدور حوله الأحداث والمواقف السردية للقصة، فمثلت العصب الفني الذي قام عليه شكل القصة بصورة عامة، وجاء ذلك من كون الأحلام تمثل أهم فعاليات السلوك البشري التي ترتبط بالجانب اللاشعوري من الشخصية، لذا فهي تشكل مادة فنية غنية في السرد، وتمتلك قوة كبيرة تساعد في الإثارة الفنية[660]. وجاءت متناسبة مع السياق؛ لأنها شكلت النقطة الفاصلة التي تحد بين مرحلتين متباينتين في حياة يوسف عليه السلام.

وللاسباب نفسها يستخدم السرد القرآني الحذف الضمني في قصة يوسف عليه السلام، فيحدث به قفزات زمنية بين المشاهد، ليسرع من وتيرة الزمن فيقف عند أحداث مفصلية هي ذات شأن في توجيه مسار السرد، وذلك عندما يقفز السرد على الفترة الزمنية التي تفصل بين التقاط السيارة ليوسف عليه السلام من الجب، وبين بيعه لعزيز مصر، لأن ذلك من الأمور التي يعلمها المتلقي بالبديهة، ويستطيع تصورها كيفما شاء، وإن سردها لا يغير في الأحداث شيئًا، فالمراد هو الإسراع في الوصول إلى مصر، المكان الذي سيكون مسرحًا للأحداث المفصلية اللاحقة[661]، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) ﴾ [يوسف: 21]، فمن خلال هذه الانتقالة المكانية يستدل المتلقي على الحذف الزمني الذي حصل بين المشهدين من غير أن

---

[660] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 322/2.

[661] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 127-128.

تكون هناك إشارة صريحة، لنعلم معها أن أولى محطات تمكين يوسف عليه السلام ستكون في مصر، فجاء ذلك متناسبًا مع التباين الكبير الذي حصل في مسار الأحداث السردية هناك.

ومثل ذلك نجده في حركة الساقي بين القصر والسجن جيئة وذهابًا، من أجل تأويل رؤيا الملك ثم من أجل إبلاغ يوسف عليه السلام بخروجه من السجن، وامتناع يوسف عليه السلام عن ذلك قبل أن تثبت براءته، فتجاوز السرد القرآني كل الأحداث المتعلقة بهذه الحركة، وينتقل مباشرة إلى مثول النساء أمام الملك ليشهدن على براءة يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) ... وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ﴾ [يوسف: 45 -51]، فنرى السرد ينتقل بأقصى سرعته إلى المشهد الذي وصل فيه الساقي إلى السجن، فجاء تسريع السرد الذي نتج عن الحذف هنا متناسبًا مع تباين حالة الطارئة التي دخلت فيها المملكة، والاستنفار الذي أعلن عنه الملك جراء هذه الحيرة التي خيمت على القصر، والتي أثارتها رؤيا الملك، فكان لا بد من هذه الحركة السريعة التي وصلت إلى أقصاها، إذ لامجال لتباطؤ الساقي بحجة الاستئذان أو العروج على شيء هنا أو هناك، ولولا انطلاقته البرقية تلك لتعرض للانتقادات اللاذعة من كل من يسمع الخبر أو يراه[662]، كما أسهم الحذف في تسريع السرد ليصل إلى النقطة الفاصلة بين مرحلتين متباينتين تتعلقان بحياة يوسف عليه السلام، بين السجن والقصر، إذ يأمر الملك بأن يأتوا له بيوسف عليه السلام ليستخلصه لنفسه، وذلك بعد أن ظهرت

[662] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 128-129.

براءته على العلن، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾ [يوسف: 54]، فنرى أن السرد يحذف الأحداث المتعلقة بخروج يوسف عليه السلام من السجن، والتفاصيل التي تسبق لقاءه مع الملك، وينتقل مباشرة إلى المشهد الذي نرى فيه يوسف عليه السلام في مجلس الملك الذي يريد أن يمكنه في إدارة شؤون الدولة، وذلك لإظهار لهفة الملك في تحقيق هذا التمكين، وفي ذلك تنويه للحكام بأن من دواعي صلاح الحاكم هو اعتماده مقياس الكفاءة والخبرة في اختيار القائمين على إدارة شؤون البلاد بغض النظر عن الجنس والعرق والدين. ثم يقفز السرد بعد مشهد التمكين، ويطوي فترات زمنية طويلة تشتمل على سنوات الخصب والادخار، ثم اعتراء سنوات القحط، وذلك لأنها أحداث معلومة بالبديهة، ولا تخدم الغرض من السورة، وكيف كافأه الله ﷻ بالنصر والحسنى، وينتقل مباشرة إلى مصير الإخوة من خلال عرض مشهد نراهم فيه وقد دفعتم الحاجة إلى المؤونة أن يأتوا إلى يوسف عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) ﴾ [يوسف: 58]، وفي ذلك رجوع سريع إلى الأحداث المتعلقة بالإخوة بعد أن سكت السرد عنها طويلًا، وذلك للإسراع بالوصول إلى جمع الشمل مع إخوته وأبويه وأهله، ليظهرنا على عفو يوسف عليه السلام وكرمه وصلته رحِمَهُ، فنتعرف بذلك على فضائل هذا النبي الكريم عليه السلام(663)، وبذلك تمضي القصة في مجراها الأكبر والأهم بين يوسف عليه السلام وإخوته، وهي سمة فنية تسهم في تحقيق هدف ديني ضمن السياق(664). ثم تتوالى في القصة قفزات زمنية قصيرة المدى يمكن أن تقاس بالأيام والشهور، وهي التي تتعلق بحذف الفترات الزمنية التي استغرقتها الرحلات الأربع للإخوة إلى مصر والعودة منها، وكانت الرحلة الأخيرة هي الرحلة النهائية، إذ استقر يعقوب عليه السلام وبنوه في مصر(665)، ففي هذه الرحلات

---

(663) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 11/13.

(664) قطب، **في ظلال القرآن**، 2015/4.

(665) [يوسف: 58-68-88-99]

كان السرد يطوي المسافات المكانية والزمانية، وينتقل بين المشاهد في شكل لقطات سينمائية تغلق على مشهد لتفتح على آخر حاذفًا الزمن الذي يفصل بينها، دون أن يحدث خلخلة، أو انقطاعًا في تدفق الأحداث يمكن أن يحس به المتلقي(666)، فكان الهدف منه هو تسريع السرد من أجل الوقوف عند أهم أحداث القصة، وتجنب الخوض في التفاصيل الزائدة التي قد تثقل كاهل السرد، وليس فيها ما يخدم الغرض من القصة، وكذلك إظهار ما سيحدث من تباينات على مستوى الأحداث ومواقف الشخصيات منها.

وصل السرد في قصة يوسف عليه السلام إلى أقصى درجات سرعته عند العودة من الرحلة الثانية، وبعد أن أخذ يوسف عليه السلام أخاه، إذ ينتقل السرد مباشرة من مكان إلى مكان ومن موقف إلى موقف، من دون أن تكون هناك أية إشارة تدل على ذلك غير السياق الذي نفهم منه طي الزمن المستغرق في الطريق حتى نصل إلى مشهد نراهم فيه واقفين مع أبيهم المفجوع وهو يرد عليهم(667)، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) ﴾ [يوسف: 80 – 82]، فهذا كله حدث في مصر، ليسدل السرد الستار عنه هناك، وينتقل مباشرة إلى أرض كنعان، إذ يرفع الستار عن مشهد نرى فيه الإخوة يتلقون الجواب من أبيهم بعد أن عملوا بما وصاهم به أخوهم في مصر(668)، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) ﴾ [يوسف: 83]، فأسهم هذا الحذف الفني في تسارع الأحداث السردية، ليصل السرد بأقصى سرعة إلى

(666) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 129.

(667) قطب، **في ظلال القرآن**، 2025/4.

(668) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 188-189.

ذلك الموقف الذي كان ينتظره المتلقي بلهفة وشوق، وهو تلقي يعقوب عليه السلام الخبر، وأثر وقعه عليه، وكيف ستكون ردة فعله تجاهه؟ فهذا ما جعل المتلقي أن يتصور مقدار التباين الحاصل من أثر الصدمة والذهول الذي حل بيعقوب عليه السلام عندما عاين الخبر(669).

والشيء نفسه نجده في قصة موسى عليه السلام، وذلك ضمن سياق سورة طه، فبعد أن كلفه الله ﷻ بأن يذهب مع أخيه هارون عليهما السلام بآياته إلى فرعون ليوقفا طغيانه، وذلك في مشهد مناجاة موسى عليه السلام في الفلاة، إذ قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) ﴾ [طه: 42 – 44]، فالخطاب هنا موجه إلى موسى عليه السلام لوحده، لأن هارون لم يكن مع موسى عليهما السلام في موقف المناجاة، ثم يطوي السرد الزمان والمكان، وينتقل مباشرة إلى المشهد الذي نرى فيه موسى وهارون عليهما السلام معًا وهما يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون، ومن ردة فعل عنيفة قد تصدر عنه، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) ﴾ [طه: 45]، فنفهم من السياق أن السرد قد تجاوز تلك التفاصيل، وترك فراغًا سرديًا بين المشهدين، ليصل إلى الموقف الأهم مباشرة، والذي يتميز بالخصوصية الكبيرة، وهو موقف مواجهة فرعون، لأن السرد يتوخى الوقوف عند المواقف السردية المؤثرة في سير الأحداث، وفي وجدان المتلقي(670).

وللغرض نفسه نجد حذفًا ضمنيًا مشابهًا لما سبق، وذلك عبر انتقالة يدل عليها السياق في السورة نفسها، فبعد أن طمأنهما الله ﷻ وأكد لهما معيته لهما، أمرهما بالذهاب إلى فرعون لكي يخبراه بالرسالة الإلهية، وأن يرسل معهما بني إسرائيل، ويخوفاه بالعذاب إن كذب وأعرض، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا

(669) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 217/2.

(670) قطب، **في ظلال القرآن**، 2336/4.

إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) ﴾ [طه: 46 – 48]، وهنا ينتهي المشهد، وينتقل السرد مباشرة إلى المشهد الذي نرى فيه موسى وهارون عليهما السلام يقابلان فرعون، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) ﴾ [طه: 49]، فحذف السرد الزمن بين المشهدين، متجاوزًا كل التفاصيل المتعلقة بكيفية الوصول إلى القصر[671]، وذلك من أجل تسريع وتيرة زمن السرد، والذي يتناسب مع خصوصية المهمة وأهميتها الكبرى، والتي تحتاج إلى الإسراع في إنجازها من دون تكاسل أو تباطؤ.

يكون الانتقال بين الأحوال المتباينة للشخصيات وما يطرأ عليها من تحولات دليلًا على الحذف الضمني للزمن السردي الذي يفصل بينها، وذلك مثلما نجده في قصة سليمان ضمن سياق سورة النمل، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) ﴾ [النمل: 15]، فيضعنا السرد أمام مشهد نرى فيه داود وسليمان عليهما السلام معًا، ليتخيل المتلقي أن السرد سيتحدث عن قصة داود معه ابنه الشاب سليمان عليهما السلام الذي يحمل صفة ولي العهد للمملكة، ولكنه فجأة يحذف كل التفاصيل المتعلقة بداود عليه السلام وينتقل مباشرة إلى قصة سليمان عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) ﴾ [النمل: 16]، ليستمر بعد ذلك في الخوض في تفاصيل قصته، فجاء الحذف هنا بمثابة النقطة الفاصلة للعبور سريعًا إلى قصة سليمان عليه السلام الرئيسة، وإحداث التباين بين القصتين، فطوى السرد زمن الأحداث المتعلقة بقصة داود عليه السلام، ولم يسرد لنا

[671] قطب، **في ظلال القرآن**، 2337/4.

أخبار مملكته ولا تفصيلات حياته الاجتماعية والإدارية والسياسية والعسكرية، وانتقل إلى ما بعد وفاته، ليجعل من ذلك أساسًا ومنطلقًا إلى قصة سليمان عليه السلام التي يقصدها السرد بالذات[672].

يمكن التعرف على مواضع الحذف الضمني في السرد من خلال الانتقالات بين المراحل العمرية للشخصية الواحدة، وذلك عندما ينتقل إلى مرحلة عمرية متقدمة من عمرها، ومثل ذلك نجده في قصة عيسى عليه السلام إذ ينتقل السرد من لحظة ولادته مباشرة ومن دون إشارة صريحة إلى مراحل طفولته ومابعدها، إذ نراه شابًا أرسله الله ﷻ إلى بني إسرائيل، وقد بلغ مراحل متطورة من دعوته وهو يعرض عليهم المعجزات المؤيدة، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) ﴾ [آل عمران: 45 –47]، فإلى هنا الحديث عن ولادة عيسى عليه السلام، ثم يحذف المراحل العمرية التي تتعلق بما بعد الولادة وينتقل إلى مرحلة الرسالة والدعوة مباشرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) ﴾ [آل عمران: 48 – 52]، فأخضع السرد القرآني الحذف هنا لخدمة الغرض الرئيس من السورة، وذلك من أجل إبرازه

---

[672] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 19/233-235.

وتجسيده(673)، والذي يتمثل في التأكيد على خصوصية هذه الخوارق وتباينها قياسًا باي عمل يدخل ضمن النطاق العقلي للإنسان، فهي مدد إلهي من عند الله ﷻ، ولذلك أكد على أنها بإذن الله ﷻ، إذ كرر ذلك بعد كل خارقة من تلك الخوارق(674)، كما يحمل ذلك أبعادًا دلالية تشير إلى ما يرمي إليه السرد القرآني من تباين في عرض مواضيع القصص، فهو يعرض من كل قصة أشرف مواضيعها، ويُعرض عما عداه؛ لأنه لا يقصد المتعة فحسب، فعليه جاءت مواضيع القصص متناسبة مع سياقاتها، لتكتسب معها صفتي البرهان والتبيان(675)، إذ جاء الحذف الزمني على شكل متباينة زمنية تناسبت مع إظهار التباينات المتعلقة بالأحداث المفصلية والمواقف والمواضيع التي هي ذات صلة بالشخصيات، وتكون لها الأهمية في توجيه مسارد السرد.

المطلب الثالث: المشهد:

المشهد هو إحدى تقنيات إبطاء السرد، ويكون التركيز فيه على الأحداث المهمة التي تشكل المرتكز الأساس للقصة، فتعرض ممسرحة بتفاصيلها ودقائقها المركزة، دون أي تدخل، فكأنها هي التي تتحدث عن نفسها(676). يخلق المشهد إحساسًا لدى المتلقي بالمشاركة في الحدث، وكأنه يعاصر زمن وقوعه ويعايشه، وذلك باستخدام تلك اللحظات المشحونة التي تعيشها الشخصيات، والتي تسهم في الوصول بالأحداث إلى ذروتها(677)، وهذا لا يأتي إلا عن طريق تقديم الشخصيات في حال حوار مباشر(678)، وعندها يتباطأ زمن السرد إلى حد يتساوى فيه مع زمن الحكاية، فنحصل على المشهد(679).

(673) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 346.

(674) قطب، **في ظلال القرآن**، 399/1.

(675) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 64/1.

(676) بو طيب، **إشكالية الزمن في النص السردي، 139**.

(677) قاسم، **بناء الرواية**، 91.

(678) زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 154.

ويتحدد دور المشهد الحواري في كونه يُسهم في رسم معالم الشخصية، والكشف عن مواقفها تجاه الأحداث والشخصيات الأخرى، وذلك عبر التعبير عن أفكارها وعواطفها، مثلما كان له الدور في تطوير الأحداث، والتقدم بها نحو الأمام[680].

أما المشهد في السرد القرآني فهو يمثل إحدى وسائله التبليغية الفعالة في تحقيق أهدافه، وذلك بوصفه خطابًا تواصليًا غايته الإقناع، فكان للعلاقة الحوارية فيه الدور في إشاعة الحيوية السردية في القصة القرآنية، وتوضيح معالمها، ليقف المتلقي على علم بجميع جوانبها، من خلال وظيفة الحوار الكشفية[681]. وبذلك امتلك المشهد الحواري في السرد القرآني أبعادًا فنية ودلالية، تعطيه القوة في أن يكون الأسلوب الأنسب لتصوير الشخصيات، وتحريك الأحداث، وتصعيد الصراع، وإظهار الفكرة الرئيسة للقصة[682].

لقد سبق القول في أن تقديم الشخصيات في السرد القرآني يعتمد على الأسلوب غير المباشر، فهي تُعرض من خلال مشاعرها، وأقوالها وحواراتها[683]، مما يساعد المتلقي في تصور ملامحها وتشخيصها، وما يسهّل هذا الأمر هو أن تلك الحوارات تتميز بسمة أساسية تتمثل في أنها لا توضع على ألسنة الشخصيات تكلفًا أو تصنعًا، وإنما تأتي بصورة يحس معها المتلقي بطبيعيتها وتلقائيتها[684].

تؤدي المشاهد الحوارية أدوارًا تسهم في تقدم الأحداث وتطورها، وتكشف عن بواطن الشخصية وخلفياتها التي أوصلتها إلى حالة التباين المتمثلة بالتقابل والصراع، وذلك مثلما تفعله المشاهد الحوارية في قصة ابني آدم عليه السلام، إذ نرى بعد أن يبدأ السرد القرآني عرض القصة بأسلوب السرد السريع الذي

---

(679) برنس، **المصطلح السردي**، 204.

(680) محمد يوسف نجم، **فن القصة**، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1955م)، 113.

(681) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 195.

(682) شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، 221.

(683) مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 92-93.

(684) شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، 221.

يضعنا أمام الحدث مباشرة، فيعرفنا بابنين لآدم عليه السلام في موقف تقربا فيه إلى الله ﷻ بقربان، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فتأتي الأحداث متسارعة، ليقف السرد عن التتابع في نقطة معينة، ويترك لنا متابعة الحدث من خلال مشهد يدور فيه الحوار بين الأخوين وكأننا نعيش معهما تلك اللحظات المشحونة بدقائقها وتفاصيلها عبر كلماتهما وعبارتهما، وذلك ليقف السرد عند تصوير حقيقة مواقف كل من الأخوين وما تجيش به دواخلهما من أفكار ومشاعر يكنها الواحد منهما تجاه الآخر مباشرة[685]، فجاء هذا التأني السردي الذي أحدثه المشهد الحواري على شكل متباينة زمنية تتساوى فيها زمنا الحكاية والسرد لتكون متناسبة مع ما يحتاجه المتلقي من التأني في التقاط كلمات المتحاورين، تلك الكلمات التي تكشف عن ملامحهما النفسية والفكرية المتباينة، إذ قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) ﴾ [المائدة: 27 – 29]، فكانت الجملة الأولى التي أطلقها القاتل كفيلة بإظهار تأزم الحدث والصراع، والكشف عن الملامح الداخلية للشخصية الناطقة بها، وذلك من خلال ما تحمله من معاني احتقان الشر وتراكم الحقد في نفس صاحبها منذ زمن بعيد، والتي كانت نتيجته التوتر الشعوري الذي دفع به إلى ارتكاب جريمته، فجاء التباين الزمني المتمثل في المشهد الحواري متناسبًا مع التباين بين مرحلتي الكتم والإظهار عند القاتل. وإذا لحظنا الجملة نجد أنها جاءت مكثفة في لفظة واحدة (لأقتلنك) يحيط بها التوكيد من أمامها وورائها، فهي تبدأ بلام التوكيد، وتنتهي بنون التوكيد الثقيلة، لتكون جملة حوارية مضغوطة ضغطًا قويًا يجعلها على وشك الانفجار، مثل نفسية القاتل قبيل ارتكابه لجريمته، وعلى العكس منه جاء حوار المقتول طويلًا مصحوبًا

---

(685) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 178.

بألفاظ لينة سمحة توحي بالطيبة والتقوى، فها هي لفظة (بسط) التي جاءت بصيغتين لتعبر عن بساطة صاحبها وسماحته[686]، هذا فضلًا عن أن التباين في طول حواره قياسًا بحوار أخيه يتناسب مع تباين موقفه في حرصه الشديد على الدفاع عن النفس أولًا بحيث يتجنب القتل على يد أخيه، وفي الخوف على أخيه ثانيًا ومساعدته في عدم ارتكاب الجريمة، لذلك كان عليه أن يسلك شتى السبل في ثني أخيه عما يعتزم فعله، فحاول تهدئته عن طريق الكلمة الطيبة، وتحذيره في الوقت نفسه من عقاب الله ﷻ، وقد يرى في إطالة الكلام فرصة زمنية يعطيها لأخيه لعله يراجع قراره.

ينتهي المشهد ويرجع السرد إلى سرعته في تتابع الأحداث، لينقل لنا حادثة القتل التي وقعت بالفعل، إلى أن يبعث الله ﷻ غرابًا يعلمه كيف يواري جثة أخيه المقتول على يديه، إذ قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ... (31) ﴾ [المائدة: 30-31]، ثم يوقف السرد تتابع سير الأحداث مرة أخرى، ويضعنا أمام مشهد حواري نعاين فيه القاتل داخليًا، وذلك عبر حوار داخلي يكشف السرد من خلاله عن التباين الذي حصل في مشاعر الشخصية بعد الحادث، والتي تعبر عن الحسرة والندم، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) ﴾ [المائدة: 31]، وهكذا أسهم الحوار في تصعيد الحدث، والسير به نحو التأزم، وكذلك الكشف عن المشاعر والأحاسيس والأفكار التي تختبيء في نفس الشخصية وعقلها[687]، والتي جاءت متباينة حسب مراحل تطور الأحداث وتغير المواقف، فأحدث السرد بذلك إمتاعًا جماليًا وفنيًا لدى المتلقي، بحيث فتح أمامه المجال ليكشف عن تلك الدلالات الفكرية والنفسية التي تحملها المشاهد الحوارية[688]. فكان

---

[686] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 179.

[687] الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، 80.

[688] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/166-169.

للمشهد الحواري الإسهام في بث الحياة والحركة في القصة عبر الكلمات التي تتناسب أحوال المتحاورين، مما يكسب تلك الكلمات دلالة ذاتية تسهم في تمثيل المشهد وتجسيده، وتكون بمثابة الأدوات الفنية التي تهيء الأجواء المناسبة للحركة المسرحية في نقل الأحداث وتجسيمها[689].

يعمد السرد القرآني إلى نقل بعض الأحداث بالكيفية التي وقعت بها في زمنها، وظروفها المحيطة بها، ليساعد المتلقي على الوقوف عند تفاصيلها وجزئياتها، فيكتشف الحقائق بنفسه، وذلك لما تتميز به المشاهد الحوارية من دقة كبيرة في تمثيل الحدث من كافة جوانبه، ولما تمتلكه من قوة في إثارة أفكار المتلقي وعواطفه، ومثل ذلك نجده في المشهد الحواري المباشر الذي يكشف عن حقيقة ولادة عيسى عليه السلام الغيبية والإعجازية، والذي جرى بين مريم وجبريل عليهما السلام، إذ يضعنا السرد أمامه مباشرة، فنعيش معهما الحدث كما وقع من خلال حوارهما، إذ قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21) ﴾ [مريم: 16 – 21]، فبدأ السرد القرآني بعرض القصة في أسلوب السرد التقريري السريع، إذ تعرفنا فيه على الشخصية الرئيسة (مريم)، وقد خلت بنفسها في مكان شبه بعيد في جهة الشرق، فهي انفردت واعتزلت في هذا المكان، ويحجب بينها وبين أهلها حجاب، بحيث لا هي تراهم ولا هم يرونها[690]، إذًا هي وحيدة في مكان منعزل لقضاء شأن من شؤونها التي تقتضي التواري والاحتجاب عن الأنظار، فكانت في حالة من الاطمئنان والسكينة، وفي موقف غير متوقع لديها ترى

[689] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 141.

[690] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 79/16.

رجلًا ماثلًا أمامها، ليوقف السرد في هذه اللحظة الحساسة والحرجة سرعته في التتابع، وينتقل إلى مشهد حواري مباشر بين الشخصيتين يجسد الموقف تجسيدًا دقيقًا ومفصلًا، نستشعر معه حالة التباين في المشاعر التي أصابت مريم عليها السلام في تلك الأثناء، فبعدما كانت هادئة البال في خلوتها أصبحت في فزع وهلع ودهشة؛ لأنها لا تعرف هذا الرجل الماثل أمامها كما نعرفه نحن المتلقون من خلال أسلوب السرد، فتأتي كلماتها معبرة عن حالتها النفسية والشعورية كفتاة شريفة عفيفة ورعة، ومتمسكة بمبادىء الدين والأخلاق، إذ أرادت استثارة التقوى في نفس الرجل، فيأتيها الرد هادئًا ليطمئنها أنه ليس كما تظن هي، بل هو رسول الرحمن جل جلاله الذي استعاذت به منه، وكشف لها عن المهمة التي أُرسل من أجلها، وهي أنه جاء ليهب لها غلامًا زكيًا، فانكشف الحدث المعجز في تلك الجملة الحوارية على لسان جبريل عليه السلام بكل يسر وسهولة، وفي صراحة تامة، وبألفاظ واضحة لا تقبل التأويل، ولكن مريم عليها السلام مازالت لا تستوعب الأمر وكيفية أن يهب لها غلامًا، فهي المتحصنة عن الاتصال بالرجال بعيدة عن أن تحمل مولودًا، ليأتيها الرد من جبريل عليه السلام قاطعًا بأن ذلك سيحصل لا محالة؛ لأن الله ﷻ قد قضى بذلك[691]، "عند ذلك اطمأنت ووثقت، وعلمت أن هذا أمر الله ﷻ، فاستسلمت لأمر الله ﷻ، ورضيت بحكمه"[692]. فجاء الحوار وسيلة للكشف عن سمات الشخصية وملامحها الداخلية بشكل دقيق، فكان هو الأسلوب الأنسب لإبراز مشاعر مريم عليها السلام وأحاسيسها المتباينة التي عبرت عن الضغط النفسي الذي كانت تعيشه تحت وطأة تأثيره في تلك اللحظة العصيبة، أما الطرف الآخر للحوار والمتمثل في جبريل عليه السلام نرى إسهام كلماته وعباراته التي تصدر عنه كل مرة في التقدم بالحدث السردي وتطوره، فاستطاع المشهد الحواري بين الشخصيتين أن يعمل باتجاهين متباينين، ففي الوقت الذي كان يركز

---

[691] قطب، **في ظلال القرآن**، 2305/4-2306.

[692] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 224/4.

على الحدث عند أحد طرفيه، نجده يركز على الشخصية في الطرف الآخر، ومع تقدم الحدث، وتطور الشخصية، تمضي القصة كلها قدمًا نحو الذروة(693).

ينتهي الحوار ويعود السرد إلى تتابعه السريع في سير الأحداث، إذ تتوالى الأحداث السردية بسرعة، ابتداءً من الحمل الذي حدث فورًا، فالانتباذ إلى مكان قصي، فالمجيء إلى جذع النخلة من المخاض، إذ قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) ﴾ [مريم: 22 – 23]، فهذه الفاءات المتكررة التي تفيد الترتيب والتعقيب تدل على سرعة توالي الأحداث، ثم يوقف السرد سرعته فجأة، ليضعنا أمام مشهد حوار داخلي لمريم عليها السلام، والذي يأتي في هيئة النجوى، فنستدل من خلاله على حالة التباين في المشاعر التي كانت تعيشها في تلك اللحظات الحرجة، ومدى قساوة الآلام الجسدية والنفسية التي اجتمعت عليها، فكأننا نرى ملامحها الحزينة، ونحس حالتها المضطربة، ونلمس مواقع الألم في جسدها ونفسها، والتي دفعت بها إلى تمني الموت، وتكون نسيًا منسيا(694)؛ لأنها كانت على يقين من مواجهة المجتمع لها بالفضيحة(695)، فكشف الحوار الداخلي عن مشاعر مريم عليها السلام وأفكارها التي تنصبّ فيما ستكون عليه ردة فعل الناس بشأن هذا الحدث المعجز(696).

يتوقف السرد مرة أخرى، ليفسح المجال أمام نوع آخر من الحوار، وهو الحوار المعجز المفاجىء وغير المتوقع من طفل رضيع ولد منذ ساعات فقط(697)، إذ قال تعالى: ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي

(693) دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، 216-217.
(694) قطب، **في ظلال القرآن**، 2306/4.
(695) دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، 217.
(696) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 482/1.
(697) الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، 96.

وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) ﴾ [مريم: 24 – 26]، فجاءت هذه المفاجأة المدهشة لتلعب دورًا فنيًا، وتكون جوابًا وقتيًا يسهم في تهدئة مريم عليها السلام وطمأنتها[698]، فعلمت أن الله ﷻ لم يتركها، وجعل حجتها في مولودها، وهو الآن معها لتواجه به قومها بدون خوف[699]، كما جاء هذا التباين الفني في بناء زمن القصة متناسبًا مع تباين الحدث المتمثل بالحوار الإعجازي، لرضيع معجزة أوجده الله سبحانه من غير أب[700].

انتهى المشهد الحواري وبعد أن استعادت مريم عليها السلام هدوءها، عاد السرد مرة أخرى إلى التتابع السريع لسير الأحداث، ليضعنا هذه المرة أمام مشهد المواجهة المرتقبة بين مريم عليها السلام وقومها بأقصى سرعة، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ﴾ [مريم: 27 – 33]، فجاء المشهد في مكانه المناسب تمامًا، إذ لم تبدأ مريم عليها السلام الحوار كما في المشهدين السابقين؛ لأن حالها يختلف هنا، فهي مطمئنة وواثقة من حجتها بعد أن أمرها الله جل جلاله بالصوم عن الكلام، وافتتح القوم الحوار بالسخرية والتهكم عليها، في حين التزمت هي الصمت، واكتفت بالأشارة إلى الصبي لترمز إلى أن يكلموه هو، مما زاد عندهم العجب، فاستنكروا عليها ذلك، وفي هذا التوقيت تأتي مشاركة الرضيع في الحوار ليرد اتهامات القوم لأمه بنفسه، وفي العلن، ليكشف الحوار عن حالة التباين الفكري والعقدي التي يريد أن يحدثها عيسى عليه السلام بدعوته،

---

(698) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 483/1.

(699) قطب، **في ظلال القرآن**، 2307/4.

(700) دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، 219.

وذلك من خلال الإشارة إلى الأصول العقائدية الصحيحة "في جوانبها المتعددة من عبادات ومعاملات واجتماعيات، تحكم الناس فيما بينهم، ثم هو يقرر حقيقتين دار حولهما جدل كبير بين الناس من بعده وخاصة بين أتباعه، وهما: أنه عبدالله، أي إنه خلق من خلق الله ﷻ، وليس إلهًا كما ادعى المتطرفون من أتباعه، وأنه يجري عليه ما يجري على عباد الله ﷻ من ولادة وموت وبعث"[701]، وانتهى المشهد بنهاية الحوار الذي جاء بمثابة الإنهاء لذلك الجدل والتباين في الآراء كله، فكان المشهد الحواري المعجز هو الأسلوب الأنسب للتعبير عن تلك الحقيقة الإعجازية المتميزة في أدق صورها.

كثيرًا ما يعتمد السرد القرآني على المشاهد الحوارية في عرض أحداث قصص الأنبياء عليهم السلام، لأنه يجد فيها الأسلوب الأنسب لإبراز الفكرة الرئيسة للقصة، والمتمثلة في حدث تبليغ الرسالة الإلهية من قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام، يقابلها الإعراض والتكذيب من قبل أقوامهم، فنجد أن السرد القرآني سرعان ما يترك سرعة التتابع في سرد الأحدث، ويضع المتلقي أمام المشاهد الحوارية، ليطلع على الحدث من خلال الشخصيات نفسها، وذلك لأن المشاهد الحوارية تمتلك قوة إيحائية أكبر بالمقارنة مع السرد التقريري، وتكون ذات فعالية أكثر لتوثيق تاريخ الأنبياء عليهم السلام ورسالاتهم في صورة مجسدة، وربطه بالحاضر من خلال مشاهد حوارية حية ومتحركة يعيش المتلقي أجواءها كما هي، ويشعر بما يشعر به أبطالها، بشكل يندمج مع الأحداث السردية كما لوكان حاضرًا معهم[702]، ويتلمس جوانب التباين بين الفريقين، فهذا حوار نوح عليه السلام يمثل ذلك خير تمثيل، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ

[701] دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، 221.

[702] محمد حسين فضل الله، **الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته**، (بيروت: دار الملاك، ط5، 1996م)، 232.

رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) ﴾ [الأعراف: 59 - 62]، فنرى أن السرد القرآني لا يطيل السرد التقريري في عرض القصة، إنما سرعان ما يضعنا أمام المشهد الحواري الذي يتساوى فيه زمنا الحكاية والسرد، ليتباطأ السرد، إذ نرى نوحًا عليه السلام في حوار مباشر مع قومه، فجاء ذلك الأسلوب دقيقًا في إظهار المواقف المتباينة ما بين شدة حرص نوح عليه السلام على تبليغ الرسالة التي يقابلها تعنت القوم وإصرارهم على الكفر.

وينطبق هذا الشيء في قصص جميع الأنبياء عليهم السلام الذين فصّل السرد القرآني في قصصهم، إذ يبطىء السرد القرآني سرعة تتابع السرد للأحداث، ليضع المتلقي أمام مشاهد حوارية حية يتساوى فيها زمنا الحكاية والسرد، فيرى فيها أهم جانب من حياة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ماثلًا أمامه، ويتعايش معهم أشد اللحظات حساسية وتوترًا في حياتهم، تلك اللحظات التي تتعلق بالصراع والتضاد الحاصل نتيجة التباين بين دعوة الأنبياء عليهم السلام من جهة، وتكذيب أقوامهم لهم من جهة أخرى[703]، فهذا هود عليه السلام يحاور قومه في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) ﴾ [هود: 50 –51]، ومثله صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) ﴾ [هود: 61]، وكذلك شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) ﴾ [هود: 84]، وهكذا سجل السرد القرآني تلك المواقف التاريخية في تمثيل حي عبر حوارات مباشرة، والتي ركز فيها على الفكرة المركزية التي أراد إبرازها، وهي

---

[703] خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 119.

الدعوة إلى عبادة الله ﷻ وحده، وذلك لما يحمله أسلوب المشهد الحواري من إثارة وتشويق وحرية في عقد المقارنات بين المواقف المتباينة، فضلًا عن الهدف التربوي الذي يتوخاه السرد القرآني من ذلك، وهو ترسيخ فكرة الحوار في عقول الناس، وجعله مبدأً أساسيًا للتعامل الحضاري على مستوى الأفراد والمجتمعات، فركز السرد القرآني في حوارات الأنبياء عليهم السلام على إبراز حرصهم الشديد على استخدام شتى الأساليب الممكنة لاستمالة قلوب أقوامهم، من خلال تحسيسهم بالمحبة والرحمة تجاههم، فنرى في حواراتهم تكرار أسلوب النداء (ياقوم) كثيرًا، والذي يوحي بمعاني التحبب والرحمة والشفقة، محاولة منهم في تهيئة الأجواء النفسية للحوار، بمراعاة مقتضى حال المخاطبين، فجعلوا التذكير بروابط الدم والأخوة والانتساب والانتماء التي تربطهم وإياهم وسيلة للإبقاء على قنوات التواصل معهم[704].

المطلب الرابع: الوقفة:

الوقفة السردية هي أقصى درجات الإبطاء في السرد، إلى حد تعطيل حركة الزمن المتنامي، لأن الحيز الذي تحتله في السرد لا تقابله أي مدة زمنية في الحكاية. وتأتي الوقفة السردية لإفساح المجال لوصف الشخصيات والأماكن والأشياء[705]، وإعطاء أكبر قدر مما يخصها من تفاصيل وجزئيات دقيقة، ولا يخلو هذا الوصف من أبعاد جمالية ودلالية ذات صلة بمكونات السرد.

والوقفة السردية بوصفها تعبر عن مقاطع وصفية طويلة لا نجدها في القصة كما هي في الرواية، ولهذا لا يعتمد عليها السرد القرآني بالشكل الذي عرفت به في النصوص الروائية، إذ لا نجد هناك

---

[704] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 135.

[705] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 478.

صفحات من السرد القرآني تشتمل على الوصف التفصيلي في أي من مسارات سرده، وقد يكمن السبب في أن طبيعة القصة القرآنية تتوخى الإيجاز والاختصار، وتبتعد عن الإطالة والتفصيل[706].

ولكن مع الاستناد إلى إمكانية تمثيل الوقفة السردية في تدخلات السارد بتعليقات وتأملات معترضة لسياق أحداث القصة[707]، يمكن أن نتلمس وقفات سردية قصيرة نسبيًا تتضمنها سياقات السرد القرآني، والتي يمكن تسميتها بالوقفات الوعظية[708]، ومثال ذلك النوع من الوقفات نجده ضمن سياق قصة إبراهيم عليه السلام، في سورة العنكبوت، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) ﴾ [العنكبوت: 16 – 26]، فالآيات [19 – 23] هي بمثابة خطاب معترض في ثنايا القصة، وجاءت في شكل وقفة وعظية

---

(706) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 350.

(707) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 478.

(708) بن يوسف، **أدبية السرد القرآني**، 124.

يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله ﷻ على الإطلاق، والمكذبين بيوم البعث والرجوع إلى الله ﷻ بما فيهم قوم إبراهيم عليه السلام، فهي تمثل وقفة سردية لا يقابلها تقدم الزمن في الحكاية، وبعدها يعود السرد القرآني إلى سياق القصة، حيث تنامي الزمن السردي، ليمضي بالأحداث نحو التأزم والنهاية، إذ جاء جواب القوم غريبًا عجيبًا، يكشف عن استمرارهم في تبجحهم وطغيانهم، وتماديهم في كفرهم[709]، فناسب ذلك مع حالة إبراهيم عليه السلام في اتخاذ موقف متباين وأن يقرر الهجرة إلى الله جل جلاله.

أو كما نجد في قصة موسى عليه السلام وضمن سياق سورة طه، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴾ [طه: 69 – 76]، فالآيات [74-76] هي "جمل معترضة بين حكاية قصة السحرة وبين ذكر قصة خروج بني إسرائيل، ساقها الله ﷻ موعظة وتأييدًا لمقالة المؤمنين من قوم فرعون"[710]، إذًا هي وقفة سردية هدفها الوعظ، والتأكيد على إبراز عظمة هذا الموقف الشجاع والمتباين للسحرة وانقلاب كفرهم إلى إيمان راسخ، يقابله التباين في قرار فرعون بقتلهم بعد أن كان يعتمد عليهم في مواجهة موسى عليه السلام.

---

[709] قطب، **في ظلال القرآن**، 2731/5.

[710] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 286/16.

أما الوقفة الوصفية فكثيرًا ما نراها في سياق قصة الجزاء، إذ نجد وصفًا مفصلًا لكل من الجنة والنار، فها هو السرد القرآني يُفصّل في وصف ما ينتظر السابقين وأصحاب اليمين من نعم، وما ينتظر أصحاب الشمال من عقاب(711)، واللافت للانتباه هو أن السرد القرآني لا يركز في وصفه على الدنيا وما فيها، بل يكتفي بإشارات وصفية خاطفة تدل على التقليل من شأنها، فهي متاع، أو متاع الغرور، أو لهو ولعب، وما شابه ذلك، فتغييب أوصاف الدنيا حث للإنسان على تغييبها من فكره ووجدانه، وذلك لأنها زائلة لا محالة، أما تلك الوقفات الوصفية للحياة الآخرة، فهي تحث الإنسان على العمل من أجل هذه الحياة الأبدية، فتعمل على ترهيبه من جهنم ونارها، وترغيبه بالجنة ونعيمها(712)، فيسهم السرد القرآني بذلك على تأسيس فهم صحيح لدى الإنسان، وذلك على أساس إظهار التباين بين الدنيا والآخرة.

ومن الوقفات الوصفية التي تؤكد على ذلك هي الوقفة الوصفية التي نجدها في قصة صاحب الجنتين ضمن سياق سورة الكهف، حيث يوصف فيها الرجل في حالة من الخسران والندم بعد أن رأى جنتيه اللتين اغتر بهما لحين من الزمن خاويتين على عروشهما، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) ﴾ [الكهف: 42]، فهي وقفة وصفية يقف فيها الزمن لتعرض صورة صاحب الجنتين في يأسه(713)، وناسب السرد ذلك مع إظهار الرجل في حالة من التباين الشعوري والنفسي والجسدي تتعلق بحال المزرعتين وما حدث لهما على أساس التباين بين ازدهار في الماضي وخراب في الحاضر.

(711) [الواقعة: 10 – 44].

(712) بن يوسف، **أدبية السرد القرآني**، 125.

(713) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 114.

المبحث الثالث: التواتر السردي:

يعد التواتر واحدًا من مفاهيم الزمن السردي، ويتمثل بالعلاقة القائمة على أساس تكرار الأحداث بين الحكاية والسرد[714]. ولم تتعرف الدراسات السردية على مفهوم التواتر قبل جيرار جينيت .G (Genette) ، فهو الذي أسماه بهذه التسمية، وأدرجه ضمن مبحث الزمن في دراسته للسرد، وحصره في علاقات التكرار بين الحكاية والسرد[715]، فقابلية الحدث للوقوع المتجدد مرات ومرات تمنح التواتر السردي خاصية تُمكنُه من أن يندرج ضمن المظاهر المتعلقة بالبناء الزمني للسرد[716]، إذ إن الحدث في الحكاية لا يقف عند الوقوع مرة واحدة فحسب، إنما يمكن أن يقع مرة أخرى، بل وأن يتكرر وقوعه مرات عديدة، كما إن سرد الحدث أيضًا له القابلية في أن يقع مرة أخرى أو أن يتكرر وقوعه مرات عديدة، فعلى أساس التباين أو التشاكل لقدرات التكرار بين الحكاية والسرد تقوم علاقات التواتر السردي[717]. إذًا الزمن يمثل المؤشر الذي يساعد في تحديد ماهية التواتر السردي وأنماطه[718]. واستنادًا إلى تساوي نسب التكرار بين الحكاية والسرد أو تفاوتها يمكن حصر احتمالات التواتر داخل العمل السردي في أربعة أنماط أساسية هي:-

1. التواتر الإفرادي، وهو أن يسرد مرة واحدة ما حدث مرة واحدة في الحكاية[719].

2. التواتر التعددي، وهو أن يسرد مرات متعددة ما حدث مرات متعددة في الحكاية[720].

---

(714) العيد، **تقنيات السرد الروائي**، 129.

(715) جينيت، **خطاب الحكاية**، 129.

(716) بو طيب، **إشكالية الزمن في النص السردي**، 142.

(717) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 81.

(718) مراد عبدالرحمن مبروك، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة**، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1988م)، 123.

(719) جينيت، **خطاب الحكاية**، 130.

(720) مراد عبدالرحمن مبروك، **آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة_الرواية النوبية نموذجًا**، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2000م)، 196.

3. التواتر التكراري، وهو أن يسرد مرات متعددة ما حدث مرة واحدة في الحكاية[721].

4. التواتر التأليفي، وهو أن يسرد مرة واحدة ما حدث مرات متعددة في الحكاية[722].

وتأسيسًا على ذلك يمكن أن يسمى كل من التواتر الإفرادي والتعددي بالتواتر المتشاكل؛ لأنهما يعبران عن تساوي نسب تكرار وقوع الحدث في الحكاية مع نسب تكرار عرضه في السرد، كما يمكن أن يسمى كل من التواتر التكراري والتأليفي بالتواتر المتباين؛ لأنهما يعبران عن تفاوت نسب تكرار وقوع الحدث في الحكاية مع نسب تكرار عرضه في السرد. وكثيرًا ما يستخدم السرد القرآني هذه التقنية السردية وبجميع أنماطها متناثرة داخل النسيج السردي المتمثل بالقصص والمواقف السردية المختلفة.

المطلب الأول: التواتر الإفرادي:

هو التواتر السردي الذي يتطابق فيه إفراد سرد الحدث مع إفراد وقوعه في الحكاية[723]، وهذا يعني حصول التطابق بين زمني الحكاية والسرد. والتواتر الإفرادي هو الصيغة الأكثر اعتمادًا في السرد، إذ يزيد من حركية السرد، ويلبي رغبة القارىء في معرفة الحل بأسرع ما يمكن[724].

يقدم السرد القرآني بعض جزئيات الأحداث بصيغة التواتر الإفرادي، إذ يفرد سرد جزئية من الحدث وقعت مرة واحدة في الحكاية، ليتطابق السرد مع الحكاية من حيث الإفراد بين الذكر والوقوع، فنرى هذه الجزئيات السردية لا تتواتر إلا مرة واحدة حتى وإن تواترت القصة المتضمنة لها في أكثر من سورة في القرآن الكريم[725]. يسهم هذا الإجراء في تسريع السرد من جهة، وتضمين أبعاد دلالية من جهة أخرى،

---

(721) جينيت، **خطاب الحكاية**، 131.

(722) القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 122.

(723) جينيت، **خطاب الحكاية**، 130.

(724) فانسون جوف، **شعرية الرواية**، ت: لحسن أحمامة، 75.

(725) عمر محمد عمر باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط1، 1993م)، 48.

ومثال ذلك نجده في الجزئية التي تسرد مسألة استعلام الملائكة عليهم السلام من أمر استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، فهي لم تحدث على مستوى الحكاية إلا مرة واحدة، ولم يذكرها السرد القرآني إلا مرة واحدة وضمن سياق سورة البقرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) ﴾ [البقرة: 30 – 33]، فهي المرة الوحيدة التي نشهد فيها الملائكة عليهم السلام في حوار مع الله ﷻ يستفسرون على استحياء عن سر استخلاف الإنسان في الأرض مع تلك المقومات التي يمتلكها لتؤهله أن يفسد فيها ويسفك الدماء[726]، فيأتي هذا متناسبًا مع خصوصية حدث الاستفسار هذا الذي يمثل جزئية محصورة في حيز ضيق من الزمن، انتهت آثارها في حينها، ولم يمتد بها الزمن إلى ما بعدها، فضلًا عن أن موقف الملائكة عليهم السلام لم يكن ناجمًا عن عناد أو تمرد، ولذلك سرعان ما خضعوا لأمر الله ﷻ ومشيئته. كما يمكن أن تكمن وراء هذا الإفراد أسرار فنية تخص شكل القصة، وهي أن السرد القرآني لا يريد التفصيل في ماهية الملائكة عليهم السلام وتركيبتهم الخلقية، والمقارنة بينهم وبين البشر، وإنما أراد إبراز أهمية الكائن الآدمي ومسألة خلافته في الأرض، ولذلك ينتهي دور الملائكة عليهم السلام عند حدث استفسارهم عن الأمر وإعلامهم بحقيقته[727]، فأكدوا بذلك على طاعتهم المطلقة لأمر الله ﷻ ومشيئته، والتي تميز الملائكة عليهم السلام من دون سائر المخلوقات، فهم أرجعوا علمهم إلى الله ﷻ، ونفوا بوجود أي علم لديهم إلا الذي يعلمه الله ﷻ إياهم بدليل لا النافية للجنس في قولهم (سبحانك

---

[726] خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 87.

[727] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/26-27.

لا علم لنا إلا ما علمتنا)، وذلك إشارة إلى أن مزية أي مخلوق ليست في ذاته، وإنما في العلم الذي يهبه الله ﷻ إياه، والخاصية التي يميزه بها، كما يدل ذلك على عدم اشتراك الملائكة عليهم السلام في الحرب الأبدية التي أعلنها الشيطان على الإنسان. ولما كان استعلام الملائكة عليهم السلام جاء بنتيجته في حينه، ولم يخلق أية عقبة في سير الأحداث اللاحقة، لم يستدع تكراره مرة أخرى، واكتفى السرد القرآني بذكره مرة واحدة فقط، كما هو في الواقع.

واللافت للانتباه هو تباين سورة البقرة في انفرادها بذكر هذه الجزئية من الحدث، فهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن قصة آدم عليه السلام بشيء من التفصيل، وجاءت بجزئيات جديدة لم نجدها في السور المكية التي تناولت القصة نفسها[728]، ومنها جزئية استعلام الملائكة عليهم السلام عن سر استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، وانتهاء الأمر بامتثالهم لأمر الله ﷻ، فلعل في ذلك دلالات تشير إلى غايات تعليمية وتربوية يهدف إليها السرد القرآني، ليحفز من خلالها على الطاعة المطلقة لأوامر الله ﷻ من قبل العباد، وكأن في ذلك إشارة إلى ما يتصف به اليهود وأهل الكتاب من عناد وتمرد وتردد في إيمانهم وطاعتهم.

يعتمد السرد القرآني على التواتر الإفرادي تعبيرًا عن التناسب بينه وبين الأبعاد الدلالية التي يحملها الحدث، كأن يراعي المقام في ذلك، فلا يكرر الحدث أكثر من مرة تقديرًا للموقف وصاحبه، وذلك مثلما نجد في حادثة تسور المحراب في قصة داود عليه السلام التي حدثت مرة واحدة ولم يذكرها السرد القرآني غير مرة واحدة ضمن سياق سورة (ص)، إذ قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾ [ص :21]، فحكم لهما داود عليه السلام بمجرد الاستماع إلى إفادة أحد الخصمين دون أن يستمع إلى الآخر، إذ قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ

[728] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 52.

عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) ﴾ [ص: 24]، فهذه الجزئية السردية تصور حدثًا وضع داود عليه السلام في موضع امتحان، فعوتب على إصداره الحكم في مثل تلك الظروف المبهمة، فندم واستغفر ربه راكعًا وأناب، فغفر له(729)، وتقديرًا لهذا الموقف الذي يتباين مع واقع داود عليه السلام -بوصفه نبيًا- راعى السرد القرآني المقام ولم يسرد الحدث أكثر من مرة واحدة.

ومماثلًا لهذا التوجه نرى في قصة أيوب عليه السلام تلك الجزئية السردية التي تصور كيفية إيفائه الوعد بالضرب، فإنها فردية ولم يذكرها السرد القرآني غير مرة واحدة ضمن سياق سورة (ص)، إذ قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) ﴾ [ص: 44]، فقد يكون السبب وراء تواتر هذه الجزئية السردية إفراديًا هو أن الحدث يحمل أبعادًا دلالية تشير إلى استنكار الحلف، وما يترتب عنه من صعوبات تحمل الإيفاء به، أو قد يكمن السبب وراء كون الحدث يتعلق بمسألة الضرب والتعنيف بين الناس، فهو شيء مستنكر؛ لأنه يمس كرامة الإنسان وعزته بسوء، ولهذا نجد السرد القرآني قد سكت عن الشخص الذي حلف أيوب عليه السلام أن يضربه، وحتى أن الأحاديث الصحيحة قد سكتت عن ذلك وعن ملابسات هذا الحدث عمومًا(730).

تزامن نزول بعض سور القرآن الكريم مع أحداث وقعت في حياة النبي ﷺ والمسلمين، فيأتي السرد القرآني في سياقها بما يناسبها من أحداث سردية تتعلق بقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام، فيكون التعبير عن تلك المناسبة الفردية بحدث فردي مماثل لها، وذلك مثل حدث التآمر الذي حاكه رهط من ثمود على قتل صالح عليه السلام، والذي وقع مرة واحدة ولم يذكره السرد القرآني إلا مرة واحدة، إذ قال تعالى:

---

(729) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 355.

(730) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 29/4.

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) ﴾ [النمل: 48 – 50]، فهذا الحدث من قصة ثمود لم يسرد إلا في هذا الموضع من القرآن، والذي جاء سياقه متزامنًا مع حادثة تآمر مشركي مكة على الغدر بالنبي ﷺ، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) ﴾ [الأنفال: 30]، والتي أصبحت مناسبة لضرب مثل تآمر الرهط من قوم صالح عليه السلام على نبيهم ومكرهم، وكيف كانت عاقبة مكرهم، وهذا ما جعلنا نتلمس تشابهًا بين الحدثين[731]، فحادثة التآمر الفردية على النبي ﷺ ناسبتها حادثة فردية من قصة صالح عليه السلام ذكرها السرد القرآني مرة واحدة.

يقدم السرد القرآني بعض جزئيات أحداث قصصه بصيغة التواتر الإفرادي حين يكون الغرض الأول من سردها هو الإخبار فحسب، وذلك عندما تعبر هذه الجزئية السردية عن موقف فردي يخص الشخصية المسرودة قصته، إذ ينتهي الغرض الذي سيقت من أجله عند سردها، فلا يستدعي تواترها أكثر من مرة واحدة على مستوى السرد، وهي تتمثل بتلك الجزئيات السردية التي تتعلق بالجوانب الإنسانية والاجتماعية والقيم الخلقية لدى الشخصيات الشخصيات[732]، ولا نجد لها ما يشابهها في حياة الرسول ﷺ والمسلمين[733]، وهذا ما نجده في تقديم بعض أجزاء الأحداث من قصة نوح عليه السلام، مثل تلك الجزئية التي تصور عصيان ابنه ضمن سياق سورة هود، إذ قال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ

---

[731] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 284/19.

[732] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 23-24.

[733] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 48.

(43) ﴾ [هود: 42 – 43]، فلم تكن هناك مناسبة مشابهة في واقع حياة النبي ﷺ تستدعي التأكيد على هذه الجزئية السردية، إذ لم تكن له ظروف وملابسات مشابهة لتلك التي كانت لنوح عليه السلام، فلم يكن له ابن في عمر ابن نوح عليه السلام، حيث إن أبناءه ماتوا أطفالًا، كما لم تكن هناك ظروف بيئية مماثلة يمكن أن يمر بها، مثل الطوفان الذي شهده نوح عليه السلام، فمن هنا لم يستوجب ذكر هذه الجزئية أكثر من مرة واحدة على مستوى السرد؛ لأنها جاءت لمجرد الإخبار عنها[734]. أو قد تكون هناك أسباب اعتبارية تتعلق بالأبعاد النفسية والاجتماعية للحدث، والتي تثير الحزن والغضب الشديدين تجاه هذا الموقف المشين لابن لم يقدر مشاعر الأبوة المتلهفة إلى نجاته، وجابهها بالعصيان والتمرد، فلهذه الأسباب المعنوية لم يستحب السرد القرآني سرد هذا الحدث أكثر من مرة واحدة.

كما نجد في القصة نفسها وفي السياق نفسه إفرادًا لتلك الجزئية التي تصور نداء نوح عليه السلام لربه في شأن ابنه، وما ترتب عنه من عتاب له من الله ﷻ، إذ قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) ﴾ [هود: 45 – 46]، فهي جزئية سردية حدثت مرة واحدة في الواقع وذكرها السرد القرآني مرة واحدة، ولعل السبب يكمن فيما يستشعرنا به الحدث من الصرامة والجدية في التعليم، إذ يعلم الله ﷻ نوحًا عليه السلام وذريته من بعده درسًا يحسم فيه الأمر على أساس التباين بين رابطة العقيدة ورابطة القربى، فيقرر أن الأهلية هي للعقيدة أولًا، لأن صلات القربى تكون واهية إذا لم تحكمها روابط العقيدة[735]، وبسبب بيان الدرس ووضوحه وحسمه لم يستدع تواتره أكثر من مرة واحدة. أو قد يكمن السبب في أن الموقف هو موقف عتاب من الله

(734) باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 48.

(735) عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 75.

ﷺ، ثم يتبعه اعتذار من نوح عليه السلام إلى ربه، فتكريمًا لهذا النبي، وتقديرًا لمشاعره الفياضة في هذا الموقف المحزن مع ابنه لم يستحب السرد القرآني تواتر الحدث أكثر من مرة واحدة. هذا فضلًا عن دلالة فنية تتعلق بالتباين في كون سياق القصة في هذه السورة الكريمة هو سياق تفصيل، فأراد السرد القرآني أن يسرد فيه أكثر جزئيات القصة التي لم يسردها في غيرها من السياقات، ومنها هذه الجزئية التي تتعلق بموقف ابن نوح عليه السلام وما ترتبت عنه من ملابسات متباينة.

ونجد في القصة نفسها جزئية سردية أخرى حدثت مرة واحدة وذكرها السرد القرآني مرة واحدة، وهي سخرية نوح عليه السلام والمؤمنين من الكافرين، والتي هي السخرية الأولى والأخيرة التي وجهوها للكافرين، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) ﴾ [هود: 38]، فيظهر السياق أن قول نوح عليه السلام هذا جاء في النهاية وبعد تكرار فعل السخرية من قبل الكافرين مرارًا، فجاء الرد قاطعًا بسخرية واحدة حاسمة، ليسهم التواتر الإفرادي لهذه الجزئية السردية في إضفاء دلالات تشير إلى تباين موقف نوح عليه السلام مع الكافرين، إذ كان موقف الواثق العارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه سيواجه سخريتهم المتكررة بسخرية نهائية قاطعة[736]، فتلك سمة فنية تميز بها التواتر الإفرادي هنا، إذ جاء متناسبًا مع تلك المعاني التي تحملها هذه الجزئية الفردية من الحدث السردي ومعبرًا عنها.

والشيء نفسه نجده في السرد الإفرادي لبعض جزئيات الأحداث من قصة إبراهيم عليه السلام، وذلك مثل محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه، والتي جاءت مفصلة ضمن سياق سورة مريم، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) .... قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾ [مريم: 42 – 47]، فهي محاورة حدثت مرة واحدة وذكرها

---

[736] قطب، **في ظلال القرآن**، 1877/4.

السرد مرة واحدة، لأنه لم تكن للرسول ﷺ ظروف اجتماعية مشابهة، فلم يكن له أب يحاوره، لذلك اكتفى السرد بذكرها مرة واحدة، وكذلك جزئية رؤيا إبراهيم عليه السلام التي نبأته بذبح ابنه اسماعيل عليه السلام، والتي حدثت مرة واحدة وسردت مرة واحدة ضمن سياق سورة الصافات، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) ﴾ [الصافات: 102]، ففضلًا عن كون هذا الموقف العظيم متباينًا وفريدًا من نوعه سواء في حياة إبراهيم عليه السلام أو في حياة البشر أجمعين[737]، والذي جاء تباينه على مستوى السرد متناسبًا مع تباينه على مستوى الحكاية، فإنها تبقى كذلك من الأحداث الخاصة والشخصية التي ينتهي غرضها بمجرد الإخبار عنها[738].

وهذا ما نجده في كثير من الجزئيات السردية في قصص كثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام، والتي لم تتواتر أكثر من مرة واحدة، وذلك مثل الذي نجده في الجزئية التي تصور ما حدث مع الهدهد في قصة سليمان عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) ﴾ [النمل: 20 – 22]، أو ما حدث مع ملكة سبأ، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) ﴾ [النمل: 29 – 32]، أو الجزئية التي تصور حدث العصا، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا

---

[737] قطب، **في ظلال القرآن**، 2994/5.

[738] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 49.

يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14) ﴾ [سبأ: 14]، فتلك ظروف وحوادث فردية ومتباينة تخص النبي سليمان عليه السلام، فلا نجد لها مثيلات في حياة النبي ﷺ بوصفه عبدًا رسولًا، ويتباين معه سليمان عليه السلام في كونه عبدًا وملكًا ورسولًا، وقد سخر الله ﷻ له الريح والجن والحيوانات، فلم يجد السرد القرآني مناسبة لتواترها أكثر من مرة واحدة، واكتفى بالإخبار عنها فقط[739].

يهدف السرد القرآني من استخدام التواتر الإفرادي إلى إحداث تساوق بين أحداث سردية متعددة، وذلك عندما يعمد إلى سرد حدث فردي ما مع أحداث فردية أخرى تتساوق معها فنيًا ودلاليًا، ومثل ذلك نراه في إفراد الجزئية السردية التي تصور ما حدث بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، فجمعها السرد القرآني على وجه الإفراد مع قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين في سورة الكهف، فلا يذكر السرد القرآني هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام إلا في هذا الموضع من هذه السورة[740]، فأحدث بذلك تساوقًا فنيًا بين الأحداث الثلاثة من حيث فردية تواتر كل منها، هذا فضلًا عن البعد الدلالي الذي يحمله التواتر الإفرادي الذي تشترك فيه القصص الثلاث، إذ يشير إلى الجمع بين القضايا الأساسية في حياة المسلمين، وهي العقيدة والعلم والجهاد، والتي تتمثل في القصص الثلاث: قصة أصحاب الكهف، وما دار بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين[741]. فجاءت هذه الجزئيات السردية كلها متباينة مع غيرها من حيث إفرادها في التواتر سواء على مستوى السرد أو على مستوى الحكاية.

---

[739] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 52-54.

[740] قطب، **في ظلال القرآن**، 2277/4.

[741] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 25.

المطلب الثاني: التواتر التعددي:

وهو سرد متعدد لحدث متكرر، أي هناك تطابق بين تكرارات الحدث في الحكاية وبين تكرارات الذكر في السرد[742]، وعلى الرغم من أن جينيت قد عدّ هذا النمط ضمن التواتر الإفرادي، وذلك بحكم أنه سرد متعدد لأحداث متعددة، فإنه ومن خلال المثال الذي جاء به للتعبير عن هذا النمط والذي يقول فيه (نمت الإثنين باكرًا، نمت الثلاثاء باكرًا، نمت الأربعاء باكرًا... إلخ)، يريد أن يبين لنا أن الأحداث السردية وإن كانت مختلفة من حيث الموقف والزمان والمكان، إلا أنها تشترك في نقطة واحدة تجمع بينها جميعًا، وهي النوم باكرًا، وتلك هي التي يمكن أن تعد سمة للتواتر التعددي[743].

ونجد مثل هذا النمط من التواتر في قصة يوسف عليه السلام، وذلك في تعدد رحلات إخوته إلى مصر ودخولهم عليه هناك، فهي رحلات حدثت أربع مرات على مستوى الحكاية، وتواتر ذكرها أربع مرات على مستوى السرد: فالأولى حدثت عندما حل القحط في سنوات الجفاف، إذ ذهب الإخوة إلى مصر طلبًا للميرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) ﴾ [يوسف: 58]، والثانية هي بعد أن أقنعوا أباهم بالموافقة على أخذ أخيهم الأصغر معهم، بعد أن أعطوه الموثق، وذلك تحقيقًا لطلب أكّد عليه يوسف عليه السلام منهم في رحلتهم الأولى، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) ﴾ [يوسف: 69]، والثالثة جاءت عندما أمرهم أبوهم أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخويه: المحتجز، وكذلك الذي امتنع عن الرجوع مع إخوته في الرحلة الثانية خوفًا من مواجهة أبيه، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ

---

(742) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 81.

(743) جينيت، **خطاب الحكاية**، 130.

يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) ﴾ [يوسف: 88]، أما الرحلة الرابعة والأخيرة فكانت رحلة الإخوة مع الأهل جميعًا إلى مصر على طلب من يوسف عليه السلام، وهي رحلة للمّ شمل العائلة هناك، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) ﴾ [يوسف: 99 – 100]، ومعها تحققت الرؤيا التي بدأت بها القصة، فتلك الرحلات هي أحداث وقعت أربع مرات في الواقع، وذكرت كل واحدة منها منفردة في السرد، إذًا هو سرد متعدد لأحداث متعددة تقع في ظروف زمانية ومكانية مختلفة، ولكنها تشترك في كونها رحلات إلى مصر والدخول هناك على يوسف عليه السلام واللقاء به، وهذا ما جعل منها تظهر متباينة مع الأحداث الأخرى. ونتلمس من التواتر التعددي لهذا الحدث أبعادًا فنية ودلالية، أما الفنية فهي تتعلق بما يحدثه هذا النوع من التواتر من الإثارة الفنية، فالسياق هو سياق التفصيل في القصة ككل، فهي قصة تصل إلى مستوى الرواية؛ لأنها تتناول حياة البطل الطويلة وتتضمن أحداثًا كثيرة ومتنوعة ومتشابكة، فجاء التفصيل في سرد الرحلات المتكررة متناسبًا مع الوقوف عند تفاصيل الأحداث ودقائقها، فضلًا عما يحمله هذا الأسلوب من عناصر المفاجأة والتشويق التي نتلمسها في تأخير يوسف عليه السلام الكشف عن هويته إلى الرحلة الثالثة[744]، وأما الأبعاد الدلالية فهي تتمثل في إقامة الحجة على أهل الكتاب في إثبات الحقائق التاريخية المتعلقة بحياة الأنبياء والرسل عليهم السلام، والتي حاولوا تحريفها وتبديلها في كتبهم، ومنها الكثير من المواقف والأحداث التي تتعلق بقصة يوسف عليه السلام، وذلك مثلما نرى في خبر هذه الرحلات في سفر التكوين من الإصحاح 42 إلى 50، إذ جاء فيه أن هذه الرحلات كانت ثلاث، ولكن المنطق

---

[744] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/270-271.

والسياق يقتضيان أن تكون أربع رحلات كما جاء ذكرها في القرآن الكريم، إذ جاء في السرد القرآني أن كشف يوسف عليه السلام عن الحقيقة كان في الرحلة الثالثة، وليس في الرحلة الثانية كما جاء في التوراة، ويمكن القول إن التفصيل في سرد هذه الرحلات الأربع كما حدث في الواقع جاء من أجل الوقوف عند هذه الرحلة بالذات، لأن تخطي السرد القرآني القصة التوراتية بهذه المرحلة من الأحداث من عودة الإخوة التسعة دون الأخوين الآخرين إلى أرض كنعان هو أمر في غاية الأهمية روحيًا وأخلاقيًا، وذلك للوقوف عند الدرس الذي تلقاه الإخوة في أن التلاعب بمصير إنسان بريء هو أمر لا يمكن أن يمر دون حساب، فيجب أن يدركوا مدى بشاعة الجرم الذي اقترفوه بحق أخيهم يوسف عليه السلام عندما ألقوه في الجب، والذي شكل بداية لسلسلة متلاحقة من المحن واجهها يوسف عليه السلام، فلعل ذلك يدفعهم إلى الارتعاد والاتعاظ والاعتراف بالخطأ عندما يتعرفون على يوسف عليه السلام المعني بالأمر في وقت لاحق، فيؤدي بهم إلى التوبة وطلب المغفرة، لتتقوم شخصياتهم المنحرفة إلى الصواب والحق، وليمارسوا بعد ذلك حياة طبيعية هادئة بعيدين عن التباغض والتحاسد[745]. كما أن التفصيل في أحداث الرحلات هذه يوقفنا عند مظهر من مظاهر شخصية يوسف عليه السلام، والتي تتصف بالحصافة والكياسة والصبر، حيث استطاع أن يتمالك نفسه طوال هذه المدة التي استغرقتها الرحلات جيئة وذهابًا، فلم يكشف عن الحقيقة إلا في الوقت المناسب، واستعلى على آلامه وأحزانه وجراحه، واستبعد الحقد والتشفي والانتقام، وبادل الإساءة بالإحسان[746]، وفضلًا عن هذا وذاك فإن هذا التفصيل في دقائق الأحداث المتعلقة بالرحلات الأربع تصب في بيان غيبية القصة ودلالتها على نبوة محمد ﷺ وإلهية رسالته الكريمة[747].

---

[745] زاهية راغب الدجاني، **يوسف في القرآن الكريم والتوراة–دراسة مقارنة للمشاهد والعبر**، (بيروت:دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 1994م)، 174.

[746] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/187-188.

[747] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/246.

ونجد لمثل هذا النمط من التواتر مثالًا في قصة ذي القرنين، وذلك عبر سرد ما قام به ذو القرنين من رحلات عالمية وصلت إلى مغارب الشمس ومشارقها، بما فيها رحلته الأخيرة التي بلغ فيها بين السدين، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) ﴾ [الكهف: 85 – 86]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) ﴾ [الكهف: 89 – 90]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) ﴾ [الكهف: 92 – 93]، فهي رحلات مختلفة من حيث المواقف والزمان والمكان، ولكنها تشترك في اتباع الأسباب لكل منها، وهي رحلات تمت وفق خطة مدروسة وضعت بموجبها خارطة طريق تكون هي الدليل لرحلات ذي القرنين، مع كون اتباع الأسباب أولى الخطوات لتلك الرحلات، ولهذا نجد أن السرد القرآني يمهد لكل رحلة منها بالإشارة إلى أن ذا القرنين قد أتبع سببًا[748]، إذًا هو تواتر تعددي لثلاث رحلات مختلفة، حدثت ثلاث مرات على مستوى الحكاية، وذكرها السرد القرآني ثلاث مرات أيضًا على مستوى السرد. وتواتر هذه الأحداث المتعددة مع التأكيد عليها، وعلى القاسم المشترك الذي يجمع بينها جميعًا، والمتمثل باتباع الأسباب، إنما يدل على وجوب الأخذ بالأسباب، وذلك لما له من دور في التقدم الحضاري لدى الأمم والشعوب، فعلى الرغم من أن الله ﷻ قد مكّن لذي القرنين في الأرض، وأعطاه من كل شيء سببًا فإن ذلك لم يجعل منه اتكاليًا، بل بادر بالعمل فورًا ولم يتقاعس ولم يتكاسل[749]، وذلك بدليل حرف العطف (فاء) في (فأتبع سببًا)، لأنه يدل على الترتيب والتعقيب، أي إنه عجّل في المباشرة برحلته الأولى، ولم يمهل نفسه أي وقت للتأخير، هذا بعكس ما جاء في الرحلتين الثانية والثالثة اللتين مهد لهما السرد القرآني بـ(ثم أتبع سببًا)، ومعلوم أن (ثم)

---

[748] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 416/1.

[749] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8982/14.

تفيد الترتيب والتراخي، لذا جاءت في موضعها المناسب، أي هناك مهلة زمنية تفصل بين الرحلات الثلاث، وذلك تناسبًا مع ما يتطلبه الواقع، لأن القيام بأي حملة عسكرية وما يترتب عنها من بسط السيطرة ومن ثم تثبيت دعائم العدل ونشر الدعوة يحتاج إلى زمن، لذلك استغرقت حملاته إلى الغرب والشرق ثم إلى بين السدين لتلك المدة الزمنية، فعبر عنها السرد القرآني بـ(ثم) التي تفيد امتداد الزمن بين الحملات الثلاث[750].

وفي القصة نفسها نجد التواتر التعددي في عدم استطاعة يأجوج ومأجوج في التعامل مع الجدار الذي بناه ذو القرنين بين السدين من زبر الحديد والنحاس، فالسياق يقول إن هناك محاولتين لاختراق الجدار على مستوى الحكاية، وباءت كلتاهما بالفشل، ذكرهما السرد القرآني مرتين على مستوى السرد كذلك، وإن القاسم المشترك بينهما هو عدم استطاعة يأجوج ومأجوج في التعامل مع الجدار وتخطيه، إذ قال تعالى: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) ﴾ [الكهف: 97]، فتواتر الحدث مرتين مع محاولتين مختلفتين، مرة للصعود على الجدار، ومرة لإحداث ثقب فيه، وذكر السرد القرآني كلتيهما، لنستدل بذلك على أن التفصيل في سرد الحدث من مختلف أوجهه فيه بيان لمدى إحكام صنع ذي القرنين الذي يظهر من خلال قوة الجدار ومقاومته لأي تجاوز أو اختراق، والذي هو نتاج عمل جماعي اشترك فيه القوم مع ذي القرنين. واللافت للانتباه هو التباين في استعمال فعل الاستطاعة بين الموقفين، إذ حذف السرد القرآني حرف (التاء) من الفعل في الموقف الأول، وأبقى عليه في الموقف الثاني، وذلك تناسبًا مع السياق، إذ يهدف السرد القرآني من خلال ذلك إلى غايات فنية وبيانية تتعلق بالتعبير

---

[750] محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1987م)، 4581/9.

عن أن الصعود على السد عمل أيسر ويحتاج جهدًا أقل من نقبه وإحداث ثقب فيه، ولهذا ناسب العمل الأيسر بالفعل الأخف، والعمل الأصعب بالفعل الأثقل[751].

يستخدم السرد القرآني التواتر التعددي تناسبًا مع تباين الأسباب الكامنة وراء الأحداث وما يحيط بها من ظروف متباينة، وهذا ما نجده في تعدد سرد الحدث المتعلق بإلقاء العصا في قصة موسى عليه السلام، إذ حدث ذلك ثلاث مرات: الأولى عند جبل الطور في موقف تكليف موسى عليه السلام بالرسالة، وكان ذلك من جملة المعجزات التي أراها الله ﷻ لموسى عليه السلام، والثانية هي عند مواجهته فرعون بالبينات، فكان إلقاء العصا أولاها، أما الثالثة فهي عند مواجهته السحرة وإبطال سحرهم العظيم عن طريق إلقاء العصا، ولكن مع ملاحظة تكرار هذه المواقف في السياقات المختلفة على مستوى السرد، ليدخل ذلك ضمن التواتر التكراري الذي سنتناوله في المطلب اللاحق إن شاءالله. أما الموقف الأول فيأتي إلقاء العصا فيه متزامنًا مع الأجواء التي تخيم عليها الغيبيات والمعجزات، حيث ينادى موسى عليه السلام وهو على جبل الطور عند الشجرة المباركة، إذ يقتفي أثر النار التي لمحها من بعيد وجاء ليأخذ منها جذوة إلى أهله، فقال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) ﴾ [طه: 17 – 20]، فسبق الحدث سؤال من الله ﷻ عن تلك العصا، وذلك تأنيسًا لقلب موسى عليه السلام وطمأنته، وإرجاعه إلى طبيعته بعد أن أصابه الذهول في تلك اللحظة، ثم ليلفت انتباهه إلى العصا، تمهيدًا لإعداده للتعامل معها حين يحولها إلى حية تسعى، فيخفف عليه من هول المفاجأة[752]. فكان ذلك تدريبًا عمليًا لموسى عليه السلام يساعده في المباشرة بها أمام فرعون بكل ثقة ويقين[753]، أما الموقف

---

[751] السامرائي، **التعبير القرآني**، 75.

[752] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/361-365.

[753] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 7/4280.

الثاني فقد حدث عندما انقطع بموسى عليه السلام سبل الحوار والمنطق مع فرعون، وطُلب منه أن يأتي بالآية التي لديه في تلك اللحظة التي يملؤها التوتر، وكان الحدث في القصر الفرعوني حيث يوجد كبار رجال الدولة، وقد جاء ليحسم الجدال الذي أراد فرعون فرضه، فوضع موسى عليه السلام فرعون في موقف محرج، إذ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) ﴾ [الشعراء: 30]، ليجد فرعون نفسه أمام خيارين الواحد منهما أشد مرارة من الآخر، فإما أن يرفض التحدي وعندها يعلن بنفسه عن هزيمته، وإما أن يسمح بذلك فتكون فرصة مؤاتية لإطلاع القوم على البرهان، فيعرفون الحق، فأحدث إلقاء العصا هذه المرة مفاجأة كبرى لفرعون والقوم جميعًا، وأثبت من خلال ذلك أن الألوهية والربوبية لا تكون إلا لله جل جلاله[754]. واللافت للانتباه أن العصا قد تحولت إلى ثعبان مبين هذه المرة، والثعبان نوع ضخم وطويل من الحيات[755]، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) ﴾ [الشعراء: 31 – 32]، وذلك تناسبًا مع التهويل الذي أريد به مفاجأة فرعون وملئه، وترويعهم، فضلًا عن إعطاء إمكانية أكبر للكل من رؤية ذلك الثعبان بوضوح تام، فهو ثعبان ظاهر لا شك فيه ولا تخيل[756]. وهذا ما أدى بفرعون وملَئه إلى الاستنجاد بالسحّارين المتمكنين لمواجهة موسى عليه السلام وآياته[757]، لينتج عن ذلك الموقف الثالث حيث الحسم وانتصار الحق أمام الباطل على مرأى ومسمع الناس جميعًا، ذلك عندما ألقى موسى عليه السلام عصاه في مواجهة السحرة، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) ﴾ [الشعراء: 45 – 48]، وهنا لم تتحول العصا إلى ثعبان مبين فحسب، وإنما تميزت بصفة التلقف التي تشمل الحيوان، والتي تعني الابتلاع، ذلك لأن الموقف فضلًا

---

[754] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 421/2.

[755] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 20/9.

[756] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 40/9.

[757] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 425/2.

عن إظهار معجزة تحول العصا إلى ثعبان مبين كان يحتاج إلى ميزة تؤدي إلى إبطال سحر السحرة، وكان ذلك بابتلاع كل تلك العصي والحبال التي ألقوها وجاؤوا منها بسحر عظيم[758]، فما كان للسحرة إلا أن يؤمنوا برب العالمين ﷻ، "فإنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية، هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين من السحرة السابقين"[759]. إذًا هي مواقف متباينة من حيث الزمان والمكان، ولكنها تتعلق بشيء واحد، وهو إلقاء موسى عليه السلام للعصا، إذ تواترت ثلاث مرات على مستويي الحكاية والسرد، فكان لكل إلقاء موقعه الخاص في سياق القصة، وقد أسّس ذلك لتعدد المواقف والملابسات، بشكل كان لكل موقف متطلباته الخاصة[760].

المطلب الثالث: التواتر التكراري:

يتمثل هذا النمط من التواتر السردي في تكرار السرد لحدث لم يقع في أصل الحكاية إلا مرة واحدة[761]، ومن شأن التكرار في السرد إعاقة حركة الزمن السردي وإبطاؤه، لأن كل تكرار لسرد الحدث يتبعه تكرار الزمن[762]، مما يثير الفكر ويطيل التأمل. ويعتمد هذا النمط من التواتر السردي على التنوع الأسلوبي، أو الاختلاف في وجهات النظر الساردة[763]، فيتكرر الحدث الواحد بأكثر من طريقة، وفي أكثر من مستوى زمني[764]، وهو أكثر أنماط التواتر السردي انتشارًا في السرد المعاصر[765].

---

[758] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 49/9.

[759] قطب، **في ظلال القرآن**، 1351/3-1352.

[760] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 4280/7.

[761] العيد، **تقنيات السرد الروائي**، 131.

[762] مبروك، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة**، 132.

[763] زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 61.

[764] مبروك، **آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة_الرواية النوبية نموذجًا**، 200.

[765] بو طيب، **إشكالية الزمن في النص السردي، 142**.

والتواتر التكراري سمة مميزة من سمات الإعجاز البلاغي في السرد القرآني، لأن عرض الحدث الواحد وتقديمه بأساليب متنوعة، ومتجددة محملة بأبعاد دلالية وفنية متباينة، دليل على وصول بلاغة القرآن الكريم إلى أعلى مراتبها، وعلى ما تمتلكه من قوة الإعجاز[766]، كما يعد التواتر التكراري من آثار خضوع القصة للغرض الديني[767]. ومعظم التواتر التكراري في السرد القرآني يأتي لجزء معين من أجزاء السرد، وذلك حسبما تقتضيه السياقات السردية والأغراض الدلالية، فيعطي الحدث ميزة التباين مع غيره من الأحداث على مستوى السرد.

يوظف السرد القرآني التواتر التكراري لإبراز أهمية الحدث، من حيث تمثيله بؤرة محورية داخل السرد[768]، وذلك من خلال علاقته الترابطية مع جميع الأحداث التي تقع تحت تأثيره، والتي تكون امتدادًا له[769]، وهذا ما نجده في قصة آدم عليه السلام من تواتر جزئية تكريمه بإسجاد الملائكة له، وما نشأ عن ذلك من امتناع إبليس عن تنفيذ هذا الأمر الإلهي، فهي الجزئية الوحيدة التي جاء ذكرها في تواتر تكراري في جميع السياقات السردية السبعة التي وردت فيها القصة حسب ترتيب نزولها، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) ﴾ [ص: 71 -74]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) ﴾ [الأعراف: 11]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) ﴾ [طه: 116]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

[766] القطان، **مباحث في علوم القرآن**، 302.

[767] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 155.

[768] العيد، **تقنيات السرد الروائي**، 132.

[769] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 136-139.

قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) ﴾ [الإسراء: 61]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) ﴾ [الحجر: 29 – 31]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ﴾ [الكهف: 50]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) ﴾ [البقرة: 34]، فعمل التواتر التكراري على إبراز الأهمية القصوى لهذا الحدث وتباينه مع أي حدث آخر، وذلك لما يمتلكه من تأثير في مسار تاريخ البشرية إلى يوم القيامة، فهو يمثل النقطة المركزية التي تنطلق منها جميع الأحداث المتعلقة بهذا المخلوق الجديد في المستقبل، وذلك لارتباطه بحالة التباين المتعلقة بشخصية آدم عليه السلام التي تظهر من خلال تكريمه بالمكانة التي ميزه الله ﷻ بها من بين جميع المخلوقات، والتي نفهمها من خلال صدور الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجود التكريم، لتأتي استجابتهم بالتنفيذ فورية، وجماعية، فنتحسس معها معاني الإجلال والإكبار التي طغت على ذلك الحدث[770]، هذا فضلًا عما نتلمسه من إبراز لكمال العناية الإلهية بالإنسان وتكريمه بتعليمه واستخلافه، وفوق كل هذا وذاك، فإنه ﷻ نفخ في الإنسان من روحه ليضفي عليه من قدسيته العلوية التي جعلت منه مخلوقًا متباينًا جديرًا بأن تتكرر تفاصيل قصته أكثر من مرة[771]، حيث يريد السرد القرآني من خلاله التأكيد على تكريم بني آدم واضطلاعهم بمهمة الخلافة التي يدعوهم إليها. وفي المقابل نجد أن السرد القرآني يعمل وبنسبة تواتر مماثلة وفي جميع السياقات السبعة المذكورة على إبراز امتناع إبليس عن السجود، ليؤكد بذلك على العداء الأبدي بين إبليس وبني آدم بوصفه جزءًا أساسيًا

---

[770] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 362.

[771] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 139.

من العقيدة الدينية[772]. كما يسهم في تجسيد الصورة المتكاملة لإبليس، ذلك العدو الأبدي للإنسان، فنعلم من خلالها أنه كان يمتلك بالأساس نزعة تكمن في داخله تتمثل في الكبر والتعالي والعصيان، ظهرت على أثر التباين الذي أحسه في نفسه مقارنة مع آدم عليه السلام[773]، وذلك على أساس أن الله ﷻ خلقه من نار، وخلق آدم عليه السلام من تراب، فرأى نفسه خيرًا منه[774]. فمن هنا انطلقت المعركة الأبدية بين الشيطان وأبناء آدم عليه السلام، تلك المعركة الحامية التي لا تضع أوزارها، والتي يهدف الشيطان من ورائها الإيقاع بأكثر عدد من بني آدم، ويسير بهم إلى النار معًا، وذلك انتقامًا من أبيهم آدم عليه السلام الذي يرى فيه السبب في طرده، وعلى الرغم من أن أهداف الشيطان مكشوفة في معركته هذه فإن أبناء آدم عليه السلام يقعون في شرك عدوهم القديم هذا ويستسلمون له[775]. وتكرار هذه القضية في مواضع شتى هو تأكيد وإلحاح على تنبيه الإنسان إلى تباين عداوة الشيطان والإشارة إلى أنها لم تنته في عهدها، إنما هي عداوة خالدة وأبدية[776]، وتذكيره مرارًا بأن الشيطان هو أصل الضلال، واتباع خطواته هو سبب خسران الخاسرين يوم القيامة[777].

وتمتد آثار أسلوب التباين الناتجة عن هذه التقنية السردية نحو بروز مستويات أخرى لشواهد الإعجاز الفني والدلالي للسرد القرآني، إذ إنها لا تأتي لمجرد التكرار، وإنما لتجديد المعاني التي تتناسب مع السياقات السردية المتباينة[778]. ومنها ما نرى في تباين الصيغة التي جاء بها الأمر بسجود الملائكة، إذ نجد هذا الأمر في كل من سورتي (ص) والحجر أكثر توكيدًا مما نجده في بقية السور، والدليل هو أنه جاء

---

(772) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 52.

(773) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 301/23.

(774) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 113/1.

(775) قطب، **في ظلال القرآن**، 3025/5.

(776) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 154.

(777) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 340/15.

(778) محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى القرآن**، (القاهرة: دار الفكر العربي، دط، دت)، 194.

بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات، والتي يسبقها فعل الوقوع (فقعوا له ساجدين)، لتتبعه الاستجابة من قبل الملائكة مناسبةً له من حيث التوكيد والمبالغة في التنفيذ، في حين جاء الأمر في سياق السور الأخرى بالصيغة الفعلية (اسجدوا)، فتبعته استجابة الملائكة بالصيغة الفعلية (فسجدوا) من دون توكيد ومبالغة، والسبب في ذلك هو أن الله ﷻ ذكر في سورتي (ص) والحجر أصل خلق الإنسان الذي هو من طين وصلصال، وأتبع ذلك بأنه نفخ فيه من روحه، ليدل على تعظيم آدم عليه السلام وتكريمه وتشريفه، وهذا ما لا نجده في السور الأخرى، حيث لا توجد التوكيدات والمبالغات التي تشير إلى ذلك، فجاء الأمر بالسجود وتنفيذه مناسبين مع السياقات التي وردا فيها[779].

وكذلك الحال مع جزئية امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله ﷻ بالسجود لآدم عليه السلام، فنرى تباين صيغ تقديمها حسب تباين السياقات السبع التي وردت فيها، فهي تأتي مفصلة في سياق سورة البقرة، إذ ورد أن إبليس (أبى واستكبر وكان من الكافرين)، وذلك تناسبًا مع التفصيل الذي نلحظه في قصة آدم عليه السلام ضمن سياق هذه السورة، فهي أكثر السياقات تفصيلًا لها، إذ تبدأ منذ بداية الخلق، ثم إرادة الله ﷻ في جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض، وما دار من حوار مع الملائكة على إثر ذلك، ثم علّم الله ﷻ آدم عليه السلام بعد ذلك الأسماء كلها، وعرضها على الملائكة، هذا فضلًا عن التناسب مع غرض السياق الذي هو بيان لتفضيل آدم عليه السلام وتكريمه من بين جميع المخلوقات باستخلافه، وتعليمه، وإسجاد الملائكة تحية له، فقابل إبليس ذلك بالمبالغة في الامتناع والإباء والاستكبار والكفر. كما يمكن أن يكون في ذلك إشارة إلى التناسب بين موقف إبليس مع موقف اليهود في امتناعهم عن تصديق الرسول ﷺ واستكبارهم عليه، وذلك بحكم أن سورة البقرة مدنية. أو قد يكون السبب في أن سورة البقرة هي آخر

---

[779] فاطمة زهرة برحمون، **دلالة المتشابه اللفظي في السياقات القرآنية**، أطروحة دكتوراه، (الجزائر: جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، 2016-2017م)، 99-103.

سياق وردت فيه القصة، فكان مناسبًا أن يجمع السرد فيها جميع التعابير التي جاءت متفرقة في السياقات التي جاءت قبلها، فجاء فيها التفصيل بخلاف ما نلحظه من إيجاز في السياقات الأخرى، مثل سورة الأعراف التي تتسم بالإيجاز[780]، أو سورة الإسراء التي جاءت القصة فيها متناسبة مع سياق تذكير النبي ﷺ بما لقيه الأنبياء عليهم السلام قبله من معاناة في مواجهة الأعداء، منذ عهد آدم عليه السلام، والتي القصد منها تأنيس النبي ﷺ والتخفيف عنه لما لقيه من معاندة قومه[781]. أما في سياق سورة الكهف فجاءت هذه الجزئية السردية متباينة عما نجده في السياقات الأخرى، لتتناسب مع الغرض الرئيس من السورة وهو "التذكير بعواقب اتباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء واحتقار الفضيلة، والابتهاج بالأعراق"[782]، هذا فضلًا عما يشير إليه السياق من حسم الجدل الدائر حول أصل إبليس، إذ جاء فيه القول الفصل بأنه من الجن، فهي الآية الوحيدة التي يصرح فيها بذلك، كما تقول لنا الآية إن إبليس فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك، وإن له ذرية، وحذرتنا من اتخاذهم أولياء من دون الله تعالى[783]. أما في سياق سورة طه فقد اكتفى السرد بذكر الإباء، وذلك تناسبًا مع ما يقتضيه السياق هنا من إجمال وإيجاز، هذا فضلًا عن مراعاة الفاصلة القرآنية التي تقتضي الوقوف عند (أبى)[784]، أما في سورتي (ص) والحجر، فقد جاءت هذه الجزئية متباينة بينهما، في كون استقلال كل سورة بصيغة دون أخرى للاستدلال على امتناع إبليس، فنجد ورود (استكبر) في (ص)، و(أبى) في الحجر، وذلك تناسبًا مع اقتضاء السياق الذي يدل على معاني زيادة التوكيد في (ص)، لتناسب مع ذلك التصريح بأمر استكبار إبليس، فالاستكبار أشنع وأفظع من الإباء، وعكس ذلك نجده فيما جاء في سورة الحجر، إذ لم يذكر

---

[780] برحمون، **دلالة المتشابه اللفظي في السياقات القرآنية**، 125-126.

[781] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 149/15.

[782] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 340/15.

[783] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 52.

[784] السامرائي، **التعبير القرآني**، 217.

السرد الاستكبار واكتفى بذكر الإباء؛ لأن ما يأتي بعد ذلك من قول إبليس يكشف عن الامتناع والاستكبار. هذا فضلًا عما يوحي به الاستكبار والكفر اللذين جاءا في سورة (ص) من دلالة تشير إلى مشركي قريش، وما كانوا يتصفون به من استكبار وتفاخر وكفر، وكأن قصة إبليس تحاكي قصتهم في الاستكبار والكفر(785). كما أن القصة في (ص) مبنية على الاستكبار أساسًا، أما في الحجر فهي مبنية على الإباء والامتناع، فكل الألفاظ والعبارات الواردة في القصة بين السورتين جاءت متناسبة مع الغرض الذي بنيت عليه القصة فيهما، إذ نلحظ أن جو سورة (ص) يطغى عليه الاستكبار والاستعلاء، أما الحجر فأكثر ما نتلمس فيها هو معاني الامتناع والرفض، وبهذا قد وضع السرد القرآني كل جانب من القصة بما يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه على أكمل وجه وأجمله(786).

يستخدم السرد القرآني التواتر التكراري تعبيرًا عن وجهات نظر متعددة ترصد الحدث الواحد، والتي سماها جيرار جينيت (G. Genette) بالتبئيرات (Focalizations)*، وهي تصلح لأن

---

(785) برحمون، **دلالة المتشابه اللفظي في السياقات القرآنية**، 131.

(786) السامرائي، **التعبير القرآني**، 305.

* يندرج مفهوم التبئير ضمن تلك المفاهيم السردية, التي صاغها جيرار جينيت في نظريته السردية، مستخلصًا إيّاه من مصطلحات النقاد السابقين له, ويقصد به تقليص حقل الرؤية عند السارد وحصر معلوماته، إذ يجري السرد من خلال بؤرةٍ تَحْصُر عملية السرد ضمن إطار محدد, فأصبح التبئير مفهومًا أساسًا من مفاهيم الخطاب السردي، واستطاع أن يحلَّ محلَّ المفاهيم الأخرى، مثل (الرؤية) و(وجهة النظر), بوصفه مفهومًا إجرائيًا حيويًا متعلِّقًا بالسارد وبنشاطاته السردية، وبالموقع الذي يحتلّه في عرض الأحداث، وصنّف جينيت التبئير السردي إلى ثلاثة أنماط رئيسة هي:-

1- التبئير في درجة الصفر(Zero Focalization): وهو النمط الذي تمثله الحكاية الكلاسيكية، والذي يعادل الراوي كلي العلم في النقد الأنكلوسكسوني، إذْ يكون الراوي مطلعًا على كل شيء خارقًا لكل زمان ومكان، يدخل أذهان الشخصيات وقلوبها لاستبطان أفكارها ومشاعرها.

2- التبئير الداخلي (Internal Focalization): وهو الذي يُعرض السرد فيه من خلال منظور الشخصيات السردية، وينقسم هذا النمط إلى:

أ- التبئير الداخلي الثابت (Fixed internal focalization) الذي يعبر عن جريان أحداث السرد من خلال منظور شخصية واحدة.

ب- التبئير الداخلي المتغير (Variable internal focalization) الذي يعبر عن التناوب في البؤرة السردية بين شخصيتين اثنتين.

ج- التبئير الداخلي المتعدد (Multiple internal focalization) الذي يركز على حدث واحد مرات متعددة من خلال منظور شخصيات متعددة.

تكشف عن مختلف النفسيات والوضعيات[787]، وذلك مثلما نجد في حدث إحياء الحوت المشوي ودخوله إلى البحر ضمن سياق قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح[788]، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) ﴾ [الكهف: 61 – 63]، فالحدث وقع مرة واحدة على مستوى الحكاية، وهو انسلال الحوت الميت ودخوله إلى البحر بعد أن عادت إليه الحياة، بينما تكرر تواتره مرتين على مستوى السرد، ومن خلال تبئيرين متباينين يعبران عن وجهتي نظر مختلفتين تجاه الحدث: الأول في درجة الصفر، وهو إخبار من السارد كلي العلم الله ﷻ للحدث، فجاء التعبير من دون أن نحس فيه معاني التعجب، فجعل الحوت لنفسه نفقًا في البحر كأي حوت، أما الثاني فداخلي لأنه عبر عن وجهة نظر فتى موسى عليه السلام، والتي اتسمت بالتعجب من الحدث، وكأنه يقول أعجب عجبًا[789] أمام هذا الحدث، وذلك لأنه سارد مشارك ومحدود العلم نسبة إلى علم الخالق العليم. ولعل في تكرار هذه الجزئية دلالة فنية أخرى تشير إلى ما تمثله هذه الجزئية من تمهيد لما سيأتي من أحداث تطغى على أجوائها معاني الإعجاز والغيب.

يسهم التواتر التكراري في تصوير الحدث الواحد من كافة جوانبه المختلفة ومراحله المتعاقبة، ومثال ذلك نجده في حدث انقلاب عصا موسى عليه السلام، والذي وقع في سياق مخاطبة الله ﷻ إياه في جبل طور عند بداية التكليف بالرسالة الإلهية، فهو حدث وقع مرة واحدة في الواقع ضمن هذا المكان، ولكنه

3- التبئير الخارجي (External Focalization): وهو الذي تُرصد فيه تحركات الشخصيات من الخارج دون الاطلاع على أفكارها ومشاعرها. جينيت، خطاب الحكاية، 201.

[787] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 324.

[788] قطب، **في ظلال القرآن**، 2278/4.

[789] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 366/15-367.

يتكرر ذكره ثلاث مرات على مستوى السرد: الأولى هي في سياق سورة طه، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) ﴾ [طه: 19 – 20]، والثانية في سياق سورة النمل، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) ﴾ [النمل: 10]، أما الثالثة فهي في سياق سورة القصص، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) ﴾ [القصص: 31]، فالتكرار يصور مراحل تحول العصا، فهي بمجرد أن ألقاها موسى عليه السلام في أول وهلة تحولت إلى حية، ثم صارت بعد ذلك حية عظيمة كبيرة هائلة مخيفة، وسريعة الحركة، وكانت تهتز وتضطرب، وتسعى وتسير، وتتحرك حركة سريعة مخيفة، فمن هنا شبهت الحية بالجان[790]، وبهذا أسهم التواتر التكراري في تكامل الصورة لحدث واحد تباينت حالاته المتعاقبة.

لما كان السرد القرآني يهدف إلى أداء وظائف تتناسب مع الغرض الرئيس، فيكون الحدث متحدًا بغرض السياق الذي ورد فيه[791]، وذلك مثل الاستشهاد بالوقائع التاريخية من أجل إقامة الحجة والبرهان، فكان الحدث الواحد يتكرر في مواضع سردية متباينة، ويقدم بطرق وأساليب عرض مختلفة، تعبر من خلالها عن الغرض الذي سيقت من أجله، وذلك مثل التباين في إجمال جزئية الحدث الواحد في موضع وتفصيلها في موضع آخر[792]، ومثال ذلك نجده في قصة موسى عليه السلام بين سورتي طه والشعراء، إذ فصل السرد القرآني في سورة طه في موقف موسى عليه السلام مع السحرة قبل البدء بالمبارزة، فقال تعالى: ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

---

[790] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 364/2.

[791] فهد بن شتوي بن عبدالمعين الشتوي، **دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى** ، رسالة ماجستير، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، 2005م)، 43.

[792] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 141.

بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) ﴾ [طه: 62 – 64]، في حين نجده يوجز في تصوير انتصار موسى عليه السلام ونهاية فرعون المذلة، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) ﴾ [طه: 77 – 79]، ولكننا نجد عكس ذلك في سورة الشعراء، إذ يوجز السرد القرآني في تصوير الموقف الأول، فقال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) ﴾ [الشعراء: 43]، بينما يفصل في سرد الموقف الثاني، إذ قال تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) ﴾ [الشعراء: 52 – 68]، ولعل السر الذي يكمن وراء ذلك هو مراعاة تقديم الحدث متناسبًا مع الغرض، لأن سورة طه جاءت لغرض تسلية الرسول ﷺ وتأنيسه، ولذلك نرى أنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ﴾ [طه: 1 – 2]، ليتبعه قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) ﴾ [طه: 9]، ففصل السرد القرآني في هذه الجزئية كما فصل في جميع الأحداث المتعلقة بحياة موسى عليه السلام، أما في موضوع فرعون فقد اكتفى السرد القرآني بتصوير نهاية حاله حين نزل عليه الهلاك. أما سورة الشعراء فالغرض منها هو التثبيت، ومن هنا نراها افتتحت بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ (3) ﴾ [الشعراء: 3]، وللسبب نفسه سيقت القصة ضمن قصص العديد من الأنبياء عليهم السلام، مثل قصة نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، فجاء الخوض في تفاصيل حدث نهاية فرعون وقومه، ليبين للرسول ﷺ عاقبة المكذبين الظالمين، فيلهمه ذلك الثبات والصبر على أذى قومه، بينما لم يفصل في حدث ما قبل المبارزة مع السحرة؛ لأنه لا يتعلق بالغرض مباشرة[793].

وبهذا يمكن القول إن التواتر التكراري هو أبرز أنواع التواتر استخدامًا في السرد القرآني، وذلك لما يحمله من أبعاد دلالية متباينة، تتناسب مع اختلاف الغايات والأغراض التي تساق من أجلها القصة أو أجزاء منها[794]، فتأتي متناثرة في سياقات مختلفة وبأساليب متباينة من حيث المعاني والألفاظ، وذلك حسبما يقتضيه السياق الذي ترد فيه هذه الجزئية السردية أو تلك[795]، وذلك مع احتفاظ كل جزئية من جزئيات الحدث بالملامح الرئيسة، بحيث إذا جمعت إلى بعضها البعض أعطت الحدث صورة مجسمة ومتكاملة من كافة جوانبه[796].

المطلب الرابع: التواتر التأليفي:

وهو أن يسرد مرة واحدة ما يحدث في الحكاية مرات عديدة، ويستخدم التواتر التأليفي من أجل الإيجاز والإجمال في السرد، فيسهم في تسريع زمن السرد، ومن مميزاته أنه بناء ذهني مجرد لتعاقب الأحداث يتوخى التعميم[797]، وهو حالة من التكثيف السردي للزمن، أو حالة من انحصار الزمن السردي تنتج عن

[793] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 63-65.

[794] القطان، **مباحث في علوم القرآن**، 303.

[795] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 139.

[796] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 371.

[797] القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، 323.

اختزال السرد لأحداث متكررة في تعبيرات سردية مكثفة[798]. وهو النمط الأكثر تناسبًا مع طبيعة أسلوب السرد القرآني المبني على أساس اللغة، والذي يختصر أكثر الدلالات في أقل ما يمكن من الألفاظ[799].

نجد مثل هذا النمط من التواتر في السرد القرآني على شكل عبارات تدل على التكرار المتعاقب عبر الزمن، وذلك مثلما نجده في قصة آدم عليه السلام، وخصوصًا في تهديدات إبليس وتعهداته بإغواء بني آدم بشتى السبل والوسائل، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) ﴾ [ص: 82 – 83]، وجاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) ﴾ [الأعراف: 16 – 17]، وجاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾ [الحجر: 39 – 40]، فيتجلى التواتر التأليفي في الألفاظ والعبارات التي أطلقها إبليس، مثل: (لأغوينهم، لأقعدن لهم، لأتينهم، لأزينن لهم)، فالفعل المضارع (لأغوينهم) يدل على تجدد الإغواء واستمراره إلى يوم القيامة، إذ استخدم إبليس صيغة الجمع في وعيده؛ لأنه كان يعلم علمًا اكتسبه من أخبار العالم العلوي حين كان من أهله وملئه أن آدم عليه السلام ستكون له ذرية[800]، فعليه يجب تكرار فعل الغواية مع كل إنسان، فجاءت الألفاظ لتدل على أن هذه الوسائل التي ينوي الشيطان اتباعها للإيقاع بالإنسان ستتكرر إلى يوم القيامة، فهي أحداث متكررة ستقع في مستقبل حكاية كل الإنسان طالما هو يعيش على الأرض، ولكن السرد القرآني اختزل جميع هذه الأحداث المكررة في هذه العبارات المكثفة للتعبير عما يحتقنه الشيطان من شر وحقد تجاه الإنسان، وكلها عبارات مؤكدة تشير إلى إصرار الشيطان على محاولاته المتكررة والدائبة في تنفيذ تهديداته،

---

[798] مبروك، **آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة_الرواية النوبية نموذجًا**، 208-209.

[799] محمد عزام، **شعرية الخطاب السردي**، (دمشق: منشورات أتحاد الكتاب العرب، 2005م)، 107.

[800] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 50/14.

فحدث إغواء الشيطان للإنسان يتكرر وبطرق مختلفة، إذ يحيط به من كل جانب من أجل أن يوقع به في النهاية(801).

ونتلمس هذا النمط من التواتر في من خلال الصياغة السردية للحدث ضمن السياق، ومثال ذلك نجده في حدث الإهباط الذي شمل كلاً من آدم عليه السلام وإبليس عدوين يرث عنهما أبناؤهما تلك العداوة إلى يوم القيامة، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) ﴾ [طه: 123]، فالآية "تحمل معاني التجدد والتكرار، تجدد العداوة وتكرار الرسالات"(802)، فضمير الجمع هنا جاء للدلالة على أن الذي أريد من هذا الخبر هو عداوة نسلي آدم عليه السلام، وإبليس، فإنهما أصلان لنوعين(803). واختزال العصور والأزمان الدالة على هذه العداوة الخالدة في عبارة موجزة مكثفة يدل على تشابه تلك العصور والأزمان من حيث وحدة القضية، وهي قضية الصراع بين الخير والشر الناتجة عن العلاقة المتباينة بين الإنسان والشيطان.

يأتي التواتر التأليفي من أجل اختصار الأزمنة وما تشتمل عليه من أحداث متعاقبة، وهذا ما نجده في اختصار ثلاثة قرون من الزمن اشتملت على كل ما حدث لأصحاب الكهف وما أحيط بهم من ظروف بيئية طوال تلك القرون التي لبثوا فيها في كهفهم، إذ قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) ﴾ [الكهف: 17 – 18]، فهذه حالات وظروف تتكرر يوميًا طوال تلك القرون، ونستدل على ذلك

(801) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 83.

(802) خضر، **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، 85.

(803) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 328/16.

من خلال الأفعال المضارعة (ترى، وتزاور، تقرضهم، نقلبهم) التي تحمل معاني تكرار الحدث وتجدده، واستحضار تلك المشاهد المتكررة التي تصورها هذه العبارات الموجزة عبر الكلمات[804]، لتسهم في إبراز تباين الحدث ولفت الانتباه إلى آية من آيات الله ﷻ في قدرته على خلقه، والتي تدل على كمال عنايته بأوليائه وأنصار دينه الحق[805].

يستخدم السرد القرآني هذا النمط من التواتر السردي عندما يريد التأكيد على حدث معين يتعلق بأجيال متباينة من الناس، وهو ما نجده في عرض مشهد من مشاهد الآخرة، حيث تتلاعن الأمم الضالة بعضها البعض، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) ﴾ [الأعراف: 38]، فتتكرر اللعنة مع تكرار كل دخول لأمة من هذه الأمم النار، إذًا هو حدث متكرر اختزله السرد القرآني في عبارة (كلما دخلت أمة لعنت أختها) الموجزة، والتي تعبر عن التواتر التأليفي لهذا الحدث المتكرر، ف(ما) في (كلما) ظرفية مصدرية تفيد عموم الأزمنة، أي كل وقت تدخل فيه أمة النار لعنت أختها، فكان ذلك سببًا في بيان تشابه حال هذه الأمم في النار، سواء السابقة منها أو اللاحقة[806]، وبيان تباين أحوالها بين الدنيا والآخرة، فهي تتلاقى في الآخرة بالحقد والكراهية والتنابز والتخاصم بعد أن كانت متآلفة ومتوائمة ومتصالحة في الحياة الدنيا[807].

---

[804] قطب، **في ظلال القرآن**، 2263/4.
[805] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 279/15.
[806] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 120/8.
[807] قطب، **في ظلال القرآن**، 1290/3.

ومثل ذلك نجده في اشتراك فئات متباينة من قوم نوح في السخرية المتكررة من نوح عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) ﴾ [هود: 38]، فالسخرية تتكرر مع تكرار كل مرور لملأ من القوم، فيدل بذلك على اشتراك كل القوم في السخرية، وكيف أنهم تمادوا في الإصرار على الإعراض والكفر، وثبات حالهم على ذلك دون أن يحدث أي تغيير، وفي المقابل نستدل من خلال ذلك على مدى مكابدة نوح عليه السلام على الصبر وتحمل الأذى.

وقد يتعلق هذا النمط من التواتر بأحداث إعجازية، وذلك مثل الذي نجده في حدث إمداد مريم عليها السلام بالرزق، وإيصاله إليها في محرابها، فنجد التواتر التأليفي وسيلة فنية تعبر عن ذلك خير تعبير، إذ قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) ﴾ [آل عمران: 37]، فوجود الرزق لدى مريم عليها السلام حدث متكرر مع تكرار كل دخول لزكريا عليه السلام عليها المحراب، لتكون استمرارية الرزق من عند الله ﷻ غير مقيدة بمواقيت محددة، وذلك للدلالة على كمال العناية الإلهية بمريم عليها السلام، وإضفاء معاني الغيبة والإعجاز على ما يحيط بها من أجواء وظروف، فتسهم في اتسام الحدث بالتباين، فيمهد السرد القرآني بذلك لأحداث معجزة ستأتي بعد هذا الحدث، وهي ميلاد يحيى عليه السلام من أب شيخ هرم وأم عاقر، وميلاد عيسى عليه السلام من غير أب[808].

يتناسب هذا النمط من التواتر مع تكرار آيات العقاب المتباينة وتعاقبها، فيجمع السرد القرآني بينها بشتى أنواعها، وذلك بقصد التهويل والتضخيم، وهذا ما نجده في كيفية إرسال العقاب على آل

---

[808] قطب، **في ظلال القرآن**، 393/1.

فرعون، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) ﴾ [الأعراف: 133]، فيتكرر الإرسال مع تكرار الوسائل العقابية كل مرة، فهي آيات يفصل بينها الزمن، ولم تحدث كلها مرة واحدة وفي وقت واحد، وإنما حدثت متعاقبة، ليكون العذاب معها أشد، حيث إنه سيكون أطول زمنًا، وإيرادها في هذا النوع من التواتر يوحي بمدى عتو القوم وعنادهم تجاه ما دعاهم إليه موسى عليه السلام من الحق(809)، كما يسهم هذا التأليف بين تلك الأحداث المتلاحقة في أن تكون أقوى وقعًا على النفوس وأشد تأثيرًا في القلوب.

(809) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 70/9.

الفصل الثالث: التباين في أساليب عرض القصص:

تمتلك القصة في السرد القرآني سمات وخصائص تميزها عن جميع الأعمال السردية الأخرى، فهي ليست عملًا فنيًا مستقلًا من حيث الموضوع وطريقة العرض وإدارة الأحداث(810)، إذ يبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته، ولكن هذا لا يمنع من انسجام عناصرها في بعض الأحيان مع عناصر القصة الفنية الحديثة التي تواضع عليها نقاد القصة(811)، مثل الأحداث والشخصيات والزمان والمكان والأسلوب وطريقة العرض(812)، فإذا تأملنا أسلوب العرض للقصة القرآنية وما يحمله هذا الأسلوب من تأثير نفسي وفني اتضح لنا وجه تسميتها بالقصة، فهي لا تأتي على أساس المدلول اللغوي فحسب، لكون أصل الاشتقاق للفظ (قصة) يتناسب معنويًا مع المدلول الذي جاء على أساسه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام بالنبأ، ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ... (13) ﴾ [الكهف: 13]، أو تتبع الأثر وتقصّيه، ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ... (11) ﴾ [القصص: 11]، بل بالاستناد إلى ما تتميز طريقة عرضها بأساليب فنية متنوعة(813)، نرى فيها تناسبًا مع السمات الفنية للقصة عمومًا: منها ما يتعلق بالسمات الشكلية للقصص، مثل التباين في أحجام القصص وأشكالها الفنية من حيث القصر والطول، ثم عرضها ضمن سياقات فنية متباينة، ومنها ما يتعلق بالخصائص الأسلوبية في مستوياتها المتباينة مثل كيفية استخدام الضمائر السردية وأزمنة الأفعال ومسرح الأحداث، وما تُحدثه تحولاتها السردية من تباينات.

(810) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 143.

(811) شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، 226.

(812) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 78-96.

(813) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 85-86.

المبحث الأول: التباين في أحجام القصص وأشكالها الفنية:

يعتمد السرد القرآني في تقديم قصصه على طرائق فنية متنوعة، منها الحجم، إذ تأتي القصص من حيث القصر والطول في أشكال وقوالب فنية متباينة، وبهذا يكون السرد القرآني قد سبق الفن القصصي فيما اصطلح عليه النقاد من تقسيمات لأنواع القصة وأشكالها[814]، وذلك تبعًا لتباين تقديمه لكمية التفاصيل المتعلقة بالعناصر السردية وجزئياتها، فهي إما تأتي مفصلة، أو مختصرة، أو متناهية في الاختصار[815]. واستنادًا إلى ما سبق سنحاول الوقوف عند ثلاثة أشكال فنية متباينة للقصة القرآنية، وهي: القصة القصيرة جدًا، والقصة القصيرة، والقصة الطويلة.

المطلب الأول: القصة القصيرة جدًا:

وهي التي يتجاوز فيها السرد التفصيلات السردية التي تتعلق بالشخصية والحدث ضمن فضاء سردي مكثف ومختزل[816]، فهي قصة مكثفة يمكن أن يتراوح حجمها مابين عشر كلمات إلى صفحتين، ولكن هذه السمة تأتي بعد سمات أخرى أهم منها وهي البنية والطبيعة وطريقة استخدام العناصر والتقنيات والأركان المؤسسة وكيفية الاستفادة منها وتوظيفها[817]. والقصة القصيرة جدًا أكثر تكثيفًا من القصة القصيرة، فهي تمتلك كل مكونات القصة القصيرة، ولكن بصورة موجزة ومكثفة تكثيفًا عاليًا في بؤرة محددة جدًا[818].

---

[814] شيخ شاهد حسيب، **أسلوب القصة في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (إسلام آباد: الجامعة الوطنية للغات العصرية، 2008م)، 116.

[815] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 165-168.

[816] جاسم خلف إلياس، **شعرية القصة القصيرة جدًا– دراسة**، (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دط، 2010م)، 20.

[817] أحمد جاسم الحسين، **القصة القصيرة جدًا–مقاربة تحليلية**، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دط، 2010م)، 34-35.

[818] فتحي، **معجم المصطلحات الأدبية**، 276.

يَعُدّ الكثير من النقاد القصة القصيرة جدًا جنسًا أدبيًا وافدًا من الأدب الغربي، بحيث يرجعون سبب ظهورها إلى مستجدات العصر الراهن وما يتسم به من سرعة الحياة، وشدة الانشغال وضيق الوقت، تلك العوامل التي تدفع الناس إلى توخي السرعة في كل الأمور الحياتية ومنهم القراء في ممارسة نشاط القراءة[819]، واختلف النقاد في وضع مقومات وأركان وخصائص فنية تتعلق بآليات التحليل السردي للقصة القصيرة جدًا، ولكن هناك شبه إجماع على أن أركان القصة القصيرة جدًا تتمثل في قصر الحجم، والقصصية في تسلسل الأحداث، والشخصية المحركة للأحداث، والعقدة القائمة على الصراع، والحدث المقترن بالزمان والمكان، والتكثيف، أي إذابة العناصر في بوتقة واحدة، والاستهلال بالبداية المفاجئة لشد ذهن المتلقي وتحفيزه للدخول في عالم النص، ولما كانت هذه الأركان متحققة في القصة القرآنية القصيرة جدًا نستطيع القول بأن السرد القرآني هو مصدر وجود هذا الجنس الأدبي[820]. لذلك اعتمد البحث في التحليل الفني للقصص القرآنية القصيرة جدًا على تلك الأركان والخصائص الفنية، وبشكل متباين يتناسب مع تباين بروزها من قصة إلى أخرى. وبعد الرصد والمتابعة لهذا النوع من القصص في السرد القرآني يمكننا تصنيف القصص القرآنية القصيرة جدًا إلى:-

أولًا: قصص قصيرة جدًا مستقلة:

وهي التي تتحدد في قوالب نصية ممثلة في سور قصيرة مستقلة، مثل قصة أصحاب الفيل في سورة الفيل، وقصة أبي لهب وزوجه في سورة المسد، فهما قصتان قصيرتان جدًا، بحيث لا تستهلكان سوى

---

[819] جلال مرامي، **دراسة القصة القرآنية القصيرة جدًا وعناصرها**، (طهران: إضاءات نقدية، السنة السادسة/العدد الثاني والعشرون، 2016م)، 95.

[820] محمد محمود كالو، **القصة القصيرة جدًا في القرآن الكريم**، (مجلة التدوين، العدد الثاني عشر، 2019م)، 102.

كلمات قليلة لا تتطلب من المتلقي إلا لحظات وجيزة لقراءتهما، وبذلك تحقق فيهما الشرط الفني الأول للقصة القصيرة جدًا، وهو ما يتعلق الحجم[821].

أما قصة أصحاب الفيل فتشغل مساحة سردية محددة يحتويها قالب نصي مستقل، متمثلًا في سورة مستقلة، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5) ﴾ [الفيل: 1 – 5]، فهي قصة قصيرة جدًا حسب المعايير الفنية لهذا النوع من القصص، ولعل تباينها الفني هذا جاء ليتناسب مع تباين أحداثها من حيث إنها لم تتكرر في غير هذه السورة، وتكمن وراء ذلك جملة من الأسباب: أولها أنها لم تكن في معرض تكذيب الأنبياء والرسل عليهم السلام، والثاني يتعلق بالمشركين لأن لا يساعدهم في اتخاذ القصة حجة لإنماء غرورهم بأن ميزهم الله ﷻ بمكانة معينة، بل على العكس من ذلك، ففيها تنبيه لهم وتذكير بما ظهر من كرامة النبي ﷺ، إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته، فيكون في ذلك تثبيت للرسول ﷺ بأن الله ﷻ سيدفع عنه كيد المشركين، ولن تفيدهم قوتهم ووفرة عددهم وعدتهم[822]، وذلك لأن عناية الله ﷻ برسوله ﷺ أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت، فإذا كان قد دمر كيد الذين أرادوا ببيته السوء فكيف بالذين يريدون برسوله ﷺ سوءًا[823]، فقريش هي المعنية وحدها بهذه القصة؛ لأنهم كانوا حديثي العهد بهذه الحادثة، وأنهم أرخوا بها[824]، وهذا ما أعطى القصة الخصوصية والتميز، حيث ارتبطت أحداثها بتاريخ محدد يتميز بالأهمية القصوى في تاريخ البشرية جميعًا، وهو ولادة النبي صلى الله عليه وسلم. ولعلنا نجد في هذا التباين الفني الذي تتميز به القصة من حيث الحجم دلالة

---

[821] حسين المناصرة، **القصة القصيرة جدًا رؤى وجماليات**، (إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 2015م)، 7.

[822] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 544/30.

[823] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 232/30.

[824] أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، 344/10.

تشير إلى قصر المدة التي لقيت فيها الشخصيات مصيرها وسرعة انقضائها، فكان انتهاء أمر أصحاب الفيل كلمح البصر(825).

لم تتوقف آثار التباين عند حد هذه الدلالات التي يمكن أن يشير إليها ذلك التباين الفني من حيث الكم والشكل، بل امتدت لتشمل أسلوب العرض ووسائله المستخدمة في كيفية تقديم العناصر السردية، ومنها ما نلحظه من تباين على مستوى كيفية تقديمهما للشخصيات السردية، فنرى كيف جمع القصة في تسمية أصحاب الفيل بين جنسين متباينين، لتحمل التسمية بهذه الكيفية دلالات يشير السرد القرآني من خلالها إلى أن القوم هم من جنس الفيل في البهيمية، وعدم الفهم والعقل، هذا فضلًا عما تحمله الصيغة من دلالة تشير إلى التهكم من الإنسان المغتر بقوته وقوة ما لديه من وسائل، وذلك حين يجد قوته في قوة مخلوق مثل الفيل وينسى قوة الله ﷻ. وعندما تتخذ القصة التباين أساسًا لإبراز المواجهة التي تجمع بين الفيل والطير، فإنها تريد أن تضع المتلقي أمام مفارقة تهكمية(826) تتمثل في هزيمة الفيلة التي هي أضخم الحيوانات الأرضية وأقواها أمام مخلوقات ضعيفة وهي الطيور، فأسفر التضاد بينهما عن حدث متباين مثّل واقعة عجيبة لم تألفها الأذهان ولم تشاهدها العيون(827).

كان لتقنية اللغة بوصفها أداة إنتاجية خصوصية كبيرة في الصياغة السردية للقصة، وذلك بسبب التكثيف الشديد الذي تتميز به القصة القصيرة جدًا، واقتراب لغتها من لغة الشعر في أجواء تتسم بالرمزية، سواء على مستوى الكلمات والجمل التي تنتج صورًا ومجازات، أو على مستوى الدلالة العامة التي تنتجها

---

(825) برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، دط، دت)، 250/22.

(826) فتحي، **معجم المصطلحات الأدبية**، 112.

(827) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 502/2.

القصة ككل[828]، وذلك مثل التعبير عن فعل أصحاب الفيل بـ(الكيد) الذي فيه معنى إخفاء إرادة الضر للمقابل، فنستشعر معه حالة من التباين في حقيقة الموقف الذي كان يتبناه ذلك الجيش في تلك اللحظات: حالة مادية ملموسة تتمثل في إعلانهم عن هدم الكعبة وأخرى نفسية مضمرة تتمثل في مشاعر الحسد التي يستنبطونه تجاه العرب[829]. أو ما نتلمسه في عبارة (العصف المأكول) التي تصف جثث القتلى، فهي أفضت إلى تأويلات متباينة، أسهمت بدورها في التجسيد المتباين للصورة التي يمكن أن يتخيلها المتلقي لجثث القتلى، فكان لهذا البعد الجمالي دور في خلق المتعة الفنية والجمالية، فلعل العصف يراد به ورق الزرع الذي تعصفه الرياح بعد الحصاد، أو التبن الذي تفرقه الريح عن الحب، أو أطراف الزرع، أو ربما القشرة التي بقيت بعد أكل حبها، وهو في كل الأحوال مأكول، ومنته أمره وليس هناك سبيل إلى رجوعه مرة أخرى، وذلك تناسبًا مع إظهار هوان هؤلاء القوم الذين كانوا يحملون في أنفسهم الغرور والغطرسة ويستنبطون النوايا الخبيثة تجاه أعظم وأقدس مكان على وجه الأرض ينسب إلى الله تعالى[830].
وقد تآلف مع هذه المستويات من التباين مستوى آخر يتمثل في التباين بين الأفعال السردية، وذلك من خلال التحول من السرد بصيغة الماضي في (ألم تر، فعل، ألم يجعل، وأرسل) إلى صيغة الحاضر في الفعل المضارع (ترميهم)، وذلك بقصد استحضار الحدث في ذهن المتلقي، بحيث يساعده في تخيله كما هو في زمن وقوعه[831].

أما قصة أبي لهب القصيرة جدًا، فقد احتواها قالب نصي محدد ومستقل، يتمثل في سورة المسد، إذ قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ

[828] إلياس، **شعرية القصة القصيرة جدًا– دراسة**، 129.
[829] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 99/32.
[830] محمود البستاني، **دراسات فنية في صور القرآن**، (مشهد: مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، ط1، 1421هـ)، 696-697.
[831] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 550/30.

(3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) ﴾ [المسد: 1 – 5]، ليتناسب هذا التباين الفني مع تباين موضوع القصة في الفرادة، فهي قصة لا نجد ذكرًا لأحداثها في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، أو لعله يتناسب مع ما اكتسبت السورة من سمة الإعجاز الغيبي، حيث تعد من دلائل نبوة الرسول ﷺ، إذ نزلت هذه السورة في حياة أبي لهب، وقد مات بعدها كافرًا فكان فيها الإعلام بأنه لن يسلم أبدًا[832]، أو لعله يتناسب مع التباين في موقف القرآن من أبي لهب وامرأته مع سائر أعداء الرسول ﷺ والإسلام الذين تعرض لهم بالذم، ففي الوقت الذي نرى فيه القرآن يذكر هؤلاء بالأوصاف التي تدل عليهم وعلى غيرهم نجده يذكر أبا لهب وامرأته بأوصاف خاصة تدل عليهما وحدهما، ولعل ذلك راجع إلى أمرين: الأول هو أن أبا لهب هو عم الرسول ﷺ، فهو من عشيرته الأقربين، فلا يتعصب في الانتصار أليه أحد. أما الثاني فهو أنه كان هو البادىء بإيذاء الرسول ﷺ، وكان عداؤه صريحًا من غير مواربة، وأن امرأته كانت تعلن إيذاءها للرسول ﷺ بأقوالها وأفعالها، فكان من المناسب أن يأتي الرد من الله ﷻ رادعًا لكل من يفكر في الاستخفاف بالرسول ﷺ وبعشيرته[833]. أو لعل هذا التباين الفني الذي يتمثل في قصر حجم القصة يتناسب من جهة أخرى مع دلالة تشير إلى قصر المدة التي لقي فيها أبو لهب وامرأته مصيرهما وسرعة انقضائها[834].

اعتمد السرد القرآني أسلوب التباين في الصياغة الفنية لهذه القصة وتقديم عناصرها السردية، وهذا ما نجده في تقديم الشخصيتين، إذ عقدت القصة من خلال تسمية شخصية أبي لهب بكنيته التي اشتهر بها في الجاهلية لحسنه وإشراقة وجهه[835] مفارقات تستند إلى أساس التباين القائم على التضاد بين الجمال

---

[832] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 604/30.

[833] عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، (دمشق: دار القلم، ط1، 200م)، 383/1.

[834] البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، 329/22.

[835] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 605/30.

الخارجي وقبح الذات اللذين اجتمعا في شخصيته، فأثارت القصة بذلك انتباه المتلقي وشكلت لديه استجابة فنية تمثلت بالامتاع الفني[836]، وأحدث ذلك مفارقة تهكمية يقصد منها تهوين تلك الشخصية السلبية وتحقيرها. وبالأسلوب نفسه تعامل السرد القرآني في تقديم الشخصية الثانية في القصة، وذلك من خلال الجمع بين متعلقات متباينة ترتبط بها، وذلك مثل الجمع بين القلادة التي تعبر عن طبيعة المرأة واهتمامها بالتزين، وبين الحبل الذي يُلف به عنق امرأة أبي لهب يوم القيامة، فجاء ذلك على شكل مفارقة أريد بها التهكم منها، فالحبل هو نفسه الذي كانت تستعمله الشخصية في حمل الحطب ووضعه في طريق النبي ﷺ، وهي بعملها هذا كأنها تجمع ذلك الحطب لنار جهنم التي ستصلاها هي وزوجها في جهنم[837]، لنتلمس مع ذلك أشد درجات الخزي التي نالتها هي وزوجها، إذ وضعتهما القصة في أشد حالات العداء، والتي تتجلى في أن تسهم المرأة في تشديد العذاب على زوجها الذي يفترض أن يكون أعز الناس عليها[838]، وبهذا وضعت القصة الشخصيتين في حالتين متباينتين ناتجتين عن التباين في العلاقة التي تربط بينهما بين الدنيا والآخرة، فبعد أن كانت علاقة مبنية على الوئام والتوافق في الدنيا نراها أمست علاقة سلبية تسودها العداوة والبغضاء في الآخرة.

ونتلمس في القصة أسلوب التباين في تقديم عنصر الفضاء السردي أيضًا، إذ قدم السرد القرآني زمن القصة ومكانها على أساس من التباين بين بيئتين متباينتين: تتمثلان في الدنيا التي يلقى فيها أبو لهب هلاكه، والآخرة حيث المصير الذي ينتظر الزوجين من نار ذات لهب وحبل من مسد[839].

---

(836) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 2/518-519.

(837) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 2/519-521.

(838) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 30/605.

(839) قطب، **في ظلال القرآن**، 6/4000.

واللافت للانتباه هو التباين في استعمال حرف الاستقبال (س) الدال على القرب مع الفعل (يصلى) المتعلق بعذاب أبي لهب بعد موته، فاستعمل في الموضع الذي عادة ما يستعمل فيه السرد القرآني (سوف) مع جميع الأفعال الدالة على العذاب في نار جهنم يوم الدين، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56) ﴾ [النساء: 56]، أو قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) ﴾ [هود: 93]، ففي ذلك استشعار بتباين نوعية عذابه، حيث إنه سيعذب في حياة البرزخ بنار يجعل الله ﷻ لها خصائص نار جهنم يوم الدين[840].

أسهم التكثيف اللغوي لصياغة القصة في أن تتسم كلماتها بالإيحائية، فتنتج عنها تأويلات متباينة، وهذا الشيء نتلمسه في استخدام القصة للفظة التباب في الجملة الدعائية (تبت)، فمن خلال ما تشتمل عليه اللفظة من معاني مختلفة مثل الهلاك والخسران والخيبة والمغلوبية والخلو من الخير، استطاعت أن تصور القصة أبا لهب في جميع حالاته المتباينة التي سلك فيها كل السبل المادية والمعنوية في محاربة الرسول ﷺ ودعوته. أو لعلنا نجد في تباب اليدين وتوكيده بجملة (تب) دلالة تشير إلى الخسارة المطلقة لأبي لهب في جميع المستويات المتباينة: دنياه وآخرته، أولاه وعقباه، ماله ونفسه[841].

ثانيًا: قصص قصيرة جدًا غير مستقلة:

وهي القصص التي لا تأتي في قوالب نصية مستقلة، وإنما تشارك غيرها في السياق النصي، وذلك بهدف تحقيق غايات فنية ودينية، تتمثل في الإحاطة بالفكرة المركزية التي تساق من أجلها القصص،

---

[840] الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، 383/1.

[841] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 166/32-167.

وتغطيتها من كافة جوانبها، فتتشارك فيما بينها بوحدة عضوية، يتكون من خلالها تناسق تكاملي للفكرة المركزية التي يراد إبرازها، فتأتي متساوقة مع أحد المحاور الرئيسة للسياق الذي وردت فيه، وذلك مثل قصص الإماتة والإحياء التي وردت ضمن سياق سورة البقرة، وفي ثلاث آيات متتالية، مثلت ثلاث قصص قصيرة جدًا: الأولى هي قصة الذي آتاه الله جل جلاله الملك مع إبراهيم عليه السلام، والثانية هي قصة المار على القرية، أما الثالثة فهي قصة إبراهيم عليه السلام ومسالة تقطيع الطيور الأربعة وإحيائها، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) ﴾ [البقرة: 258 – 260]، فالبناء الهندسي للسورة يقوم على مجموعة من المحاور والموضوعات الرئيسة، ومنها محور الإماتة والإحياء الذي نتلمسه فيها منذ قصة البحث عن البقرة وإحياء القتيل إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ولكن الاختلاف بين القصص القصيرة جدًا الثلاث التي نحن بصدد دراستها وبين هاتين القصتين هو أنها جاءت متلاحقة وفي سياق واحد، لتسهم مجتمعة في بلورة تلك الفكرة المركزية، والتعبير عنها بصورة أوضح، بينما القصتان السابقتان عبرتا عن الفكرة في سياق هدف

ثانوي، فضلًا عن أنهما مثلتا تمهيدًا، أو توطئة للفكرة التي تناولتها القصص الثلاث[842]، تلك الفكرة التي تتمثل في أخطر مسألة تتعلق بالإنسان، والتي تتكرر في حياته كل ساعة وكل لحظة، وهي مسألة الإماتة والإحياء[843].

تحمل القصص الثلاث سمات القصة القصيرة جدًا من حيث الإيجاز والتكثيف وعدم الدخول في التفاصيل أو شرح الأسباب والمسببات، مع الحفاظ على متانة البناء السردي للقصص شكلًا ومضمونًا[844]. وبعد القراءة المتفحصة لها نستنتج أنها لم تأت على أساس التباين من حيث الشكل والحجم فحسب، إنما امتد ذلك إلى كيفية تناولها للفكرة المركزية السائدة فيها[845]، وذلك من خلال تجسيدها من كافة جوانبها المتباينة، لينتج عنها ما يمكن أن نسميه بالتباين التكاملي. وعولت القصص الثلاث في ذلك على كيفية استخدامها للأركان والمقومات الفنية للقصة القصيرة جدًا، وهذا ما نتلمسه منذ الوهلة الأولى البدايات التي ابتدأت بها القصص الثلاث، وذلك بحكم ما تمتلكه البداية من دور فعال في بناء مثل هذا النوع من النصوص السردية، إذ هي تستند إلى التكثيف، فاستطاعت البدايات أن تمثل اللبنة الأولى لذلك البناء، والإسهام في جذب المتلقي وشد انتباهه، وذلك من خلال الانتقاء الدقيق لمفردات الجملة الاستهلالية، بحيث أسهمت مع سواها في تشكيل إيقاع القصص عمومًا[846]، فعلى الرغم من التباين الفني للبدايات فإنها اجتمعت في كونها جاءت فجائية لتتناسب مع طبيعة القصة القصيرة جدًا التي تتسم بالفجائية في الابتداء، فنجد في القصة الأولى البداية الاستفهامية، والتي دخلت في سرد الحدث فجأة، وفي القصة الثانية وضعت المتلقي في وسط الحدث مباشرة وبصورة فجائية أيضًا، أما القصة الثالثة

---

(842) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 1/119-120.

(843) قطب، **في ظلال القرآن**، 1/297.

(844) إلياس، **شعرية القصة القصيرة جدًا– دراسة**، 117.

(845) نجم، **فن القصة**، 12.

(846) الحسين، **القصة القصيرة جدًا–مقاربة تحليلية**، 65-66.

فبدأت بـ(إذ) التي تشير إلى شريحة زمنية وقع فيها الحدث[847]، وقد مثّل هذا التباين الأسلوبي في ابتداء القصص الثلاث مؤشرًا أوليًا ساعد في المضي قدمًا لاكتشاف كثير من التباينات التي تتعلق بالمستويات المختلفة لها. ومنها التباين على أساس التفاوت في إبراز العناصر السردية فيها، فنجد أن القصة الأولى ركزت على إبراز الشخصيتين الرئيستين في القصة على حساب العناصر السردية الأخرى، لأن السرد القرآني أراد أن يمثل بهما طرفين متضادين في الصراع: أحدهما يمثل الخير ويعلم أن الله ﷻ هو الذي يحيي ويميت، والآخر يمثل الشر في كونه ينكر ذلك وينظر إلى هذه المسألة بسذاجة وغباء. أما في القصة الثانية فنجد التركيز على إبراز التباين في الزمن المعجز وكيفية تأثيره على المكونات المكانية المتباينة، الأمر الذي أضفى على القصة طابعًا إعجازيًا يتناسب مع ظاهرة الإماتة والإحياء المعجزة، إذ اختزلت القصة مدة مئة عام وكثفتها في المدة التي تخيلها السائل على أنها يوم أو بعض يوم، وذلك بعد أن بعثه الله ﷻ من موتته، ولعله استند في تخيله هذا على تغير موقع الشمس عند استيقاظه، "لأنه تذكر أنه نام في أول النهار، ووجد الوقت الذي أفاق فيه آخر النهار"[848]، ويظهر الإعجاز الزمني في القصة من خلال المتعلقات البيئية الخاصة بالسائل، إذ يتخذ الزمن المعجز بعدين متباينين للزمن في توقيت واحد، فهذا التباين في المصائر في مكان واحد، وتحت مؤثرات حيوية وبيئية مشتركة آية أخرى على قدرة الله ﷻ المطلقة من كل قيد في خلقه[849]، والتي تتمثل في القبض في مسألة الطعام والشراب، والبسط في مسألة الحمار وإن كانت هي أشياء تشترك في وجودها ضمن بيئة واحدة[850]. وأما القصة الثالثة فتباينت مع سابقتيها في أنها ركزت على الحدث، والذي أعطى القصة بعدًا جماليًا يهدف إلى الإمتاع الفني من خلال رسم صورة الحدث ومتعلقاته من تقطيع للطيور الأربعة، ثم توزيع اجزائها المختلطة على جبال متباعدة، ثم التصور لعملية

---

[847] مرامي، **دراسة القصة القرآنية القصيرة جدًا وعناصرها**، 109.

[848] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 36/3.

[849] قطب، **في ظلال القرآن**، 300/1.

[850] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 1135/2.

التحام تلك الأجزاء واجتماعها عظمًا ولحمًا ودمًا على نحو مدهش ومثير، فاجتمع كل ذلك وأسهم في إبراز جمالية الحدث عبر تصعيد لحظات الانبهار والرهبة والتأمل نحو السماء وقدراتها المطلقة[851].

أما على مستوى المكان في القصص الثلاث فكان للتباين فعالية في الإحاطة بفكرة الإماتة والإحياء فيها أيضًا، حيث نجد إبراهيم عليه السلام يتخذ من مشرق الأرض ومغربها حجة يبهت بها الكافر ويدحض أفكاره المريضة، في حين كان للقرية الخاوية والمتعلقات المكانية المتباينة من زاد وشراب ودابة الدور في إظهار حقيقة مسألة الإماتة والإحياء، كما كان الدور نفسه للجبال التي وضعت عليها أجزاء الطيور في القصة الأخيرة وكذلك الإشارة إلى الأرض التي نتلمسها من إتيان الطيور مشيًا.

ونتلمس حضور أسلوب التباين بين القصص الثلاث في عرضها لعنصر الصراع أيضًا، إذ نجده في القصة الأولى خارجيًا يمثله طرفا الخير والشر، ليتصاعد ويصل إلى ذروته، ثم ينتهي بانتصار الخير، أما في القصة الثانية والثالثة، فيظهر الصراع داخليًا ينتهي بالتسليم والاطمئنان لظاهرة الإماتة والإحياء، ويعبر عنه بالحوار الداخلي للشخصيتين[852]. ليفضي بنا ذلك إلى الوقوف عند التباين على مستوى الحوار في القصص أيضًا، إذ جاء في القصة الأولى خارجيًا، أما في الثانية والثالثة فقد جاء خارجيًا وداخليًا، فيبدأ فيهما الحوار داخليًا، ليعبر عن دواخل الشخصيتين، ثم ينتهي خارجيًا ليعبر عن حالة الاقتناع والاطمئنان لديهما.

وهكذا جاءت القصص القصيرة جدًا الثلاث المتباينة متناسقة ومتكاملة من حيث وحدة الفكرة والموضوع، وذلك من خلال تناولها لظاهرة الإماتة والإحياء بجوانبها المتباينة، بحيث تكفلت كل قصة بمعالجة جانب معين من الموضوع، فتكفلت القصة الأولى بمعالجة الجانب الفكري للقضية، وذلك من خلال إبراز

---

(851) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 107/1.

(852) مرامي، **دراسة القصة القرآنية القصيرة جدًا وعناصرها**، 107.

موقفين متضادين، وإن تحدثت عن الظاهرة على نحو من الإجمال[853]، أما القصة الثانية فجاء فيها التعليم عن طريق العلاج بالتجربة الحسية الواقعية التي تتصل بذات الشخصية مباشرة، تتحسسه الحواس، ويشعر به القلب ويطمئن له، دون أي قول أو كلام، إذ تخطت التجربة البراهين العقلية والمنطق والوجدان والواقع العام الذي يراه العيان[854]، وأما القصة الثالثة فجسدت تجربة عملية ملموسة للظاهرة، بعد أن كانت موجودة في مجالها النظري عند إبراهيم عليه السلام من قبل[855]، أي إنها تبرزها عن طريق واقع عملي مادي، يقابل ما لحظناه في موقف إبراهيم عليه السلام مع الطاغية في إبراز الجانب الفكري للظاهرة[856].

إذًا كان للشكل الفني الإسهام الفعال في كيفية تشكيل المعاني والدلالات في القصص الثلاث، والتي أثرت بدورها في تعميق حالات التأمل والتفكر لدى المتلقي، وهذا ما تدعو إليه القصة القصيرة جدًا من خلال التعبير عن أوسع المعاني بأقل الكلمات وأوجزها، وذلك ما أسهم في تضمين القصص لمفاهيم عميقة في مساحات سردية محدودة[857].

يشتمل السرد القرآني على قصص قصيرة جدًا تأتي على شكل إشارات خاطفة، لتمثل شخصيات معينة، فتتسم هذه القصص بطابع قصص الشخصيات، إذ تقدم فيها الشخصيات ثابتة ومكتملة الصفات تعبر عن حالتين متباينتين إحداها تمثل الخير والأخرى تمثل الشر، فتدعو إلى النفور من الثانية، والألفة والانجذاب نحو الأولى[858]، ومثال ذلك نجده في قصص كل من امرأتي نوح ولوط من جهة وامرأة فرعون ومريم في الجهة المقابلة، وذلك ضمن سياق سورة التحريم، إذ قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا

---

[853] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 91/1.

[854] قطب، **في ظلال القرآن**، 300/1.

[855] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 488/1.

[856] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 112/1.

[857] مرامي، **دراسة القصة القرآنية القصيرة جدًا وعناصرها**، 112.

[858] نجم، **فن القصة**، 142.

امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)﴾ [التحريم: 10 – 12]، فهي أربع قصص قصيرة جدًا، ارتبطت فنيًا ودلاليًا بالسياق الذي وردت فيه، ذلك السياق الذي يتحدث عن قضية تتعلق بزوجي الرسول ﷺ، والتي نجدها في بداية السورة الكريمة، فأراد السرد القرآني أن يختم تلك القضية بتقديم قصص اعتبارية تمثلها أربع شخصيات نسوية متباينة، فهناك القصتان الأولى والثانية تمثلهما شخصيتان تتسمان بالكفر والخيانة، وفي المقابل نجد القصتين الثالثة والرابعة تمثلهما شخصيتان أخريان تتسمان يالإيمان والتقوى[859]، فقدمت الشخصيات نماذج شاخصة تمثل طرفي الخير والشر المتباينين، لتجسد أمثلة تتناسب مع السياق الذي ينطوي على التعريض بأمي المؤمنين رضي الله عنهما المشار إليهما في قصة التحريم في بداية السورة، وما بدر منهما من تظاهر على الرسول ﷺ، ففي قصص هذه الشخصيات إشارة لهما بالاتعاظ والاعتبار، وبأن واجبهما هو سلوك طريق الشخصيتين المؤمنتين، ولا تعوّلا على أنهما زوجا الرسول ﷺ، فهذا لا يغني عنهما من الله جل جلاله شيئًا، إلا إذا اقترن ذلك بإخلاصهما وتقواهما[860]. فامتد تباين القصص الأربع من حيث الشكل والحجم إلى ما تحمله من تباين على مستوى مواقف الشخصيات، وعلى مستوى بيئاتها الزمانية والمكانية المتباينة من إسهام في بلورة مفهوم الالتزام بالطاعة والتقوى وتجسيده، دون التعويل على أي شيء آخر كالمركز الاجتماعي، أو أواصر القرابة.

---

[859] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 61/5.

[860] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 1123.

يتميز السرد القرآني بتقديمه لحدث سردي يتمثل في قصة قصيرة جدًا متباينة من حيث الحجم والشكل إلى أبعد الحدود، وذلك لكونها تأتي في أقصى درجات التكثيف والتركيز، ومثال ذلك نجده في قصة الموءودة ضمن سياق سورة التكوير، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) ﴾ [التكوير: 8 – 9]، فهي قصة قصيرة جدًا يجسدها قالب نصي غير مستقل يتمثل في آيتين لا تشغلان سوى مساحة سردية محدودة تتكون من ست كلمات، ومع هذا فهي تمتلك كافة المقومات الفنية التي يقوم عليها هذا الجنس السردي، من سردية وجرأة ووحدة الفكر والموضوع والتكثيف(861). وقد جاء هذا التباين الفني متناسقًا مع التباين الأسلوبي في عرض القصة، إذ أدرجها السرد القرآني ضمن سياق موضوعات عامة ومرتبطة بالظواهر الكونية التي ستحدث في آخر الزمان، فيظهر الحدث المتعلق بالموءودة متباينًا من حيث مجيئها في سياق تلك الأحداث الجسام، فهو يبدو ثانويًا قياسًا إلى ما سيحصل للشمس والنجوم والجبال، وذلك ليتخذ السرد القرآني من هذا التباين وسيلة للفت انتباه المتلقي واستشعاره بمدى خطورة ظاهرة الوأد، والتي كانت واحدة من الأعراف والتقاليد، أو العادات الاجتماعية التي عمل بها العرب في الجاهلية، وتركت آثارًا سلبية على الحياة الاجتماعية والتناسل والتكاثر البشري(862)، أو لعل في ذلك إشارة إلى إمكانية أن تكون قضية الموءودة هي من أولى القضايا التي سيقضى فيها يوم القيامة. وإن الذي أسهم في إنتاج تلك الدلالات هو اعتماد القصة على أسلوب التباين في تصوير العناصر السردية في حالاتها المتباينة، فعلى مستوى الحدث نرى أنه يتسم بامتلاكه لبعدين متباينين: أحدهما غيبي يتعلق بيوم الحساب، والآخر واقعي يتعلق بزمن السرد، فمن خلال تحويل ما هو غيبي إلى شيء محسوس عبرت القصة

---

(861) الحسين، **القصة القصيرة جدًا–مقاربة تحليلية**، 44.

(862) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 291/5.

عما يحس به المتلقي وحولته إلى واقع ملموس يقبض عليه عبر الكلمات، وذلك ما نتلمسه من خلال ما تصوره القصة لمستقبل الحدث وأطرافه يوم الحساب(863).

أما على مستوى الشخصية فيظهر أسلوب التباين في الكيفية التي اعتمدت في تقديم الشخصية، وذلك من خلال تصوير المشهد الذي وضعتنا القصة أمامه مباشرة حيث نقابل فيه الشخصية وهي توصف بـ(أنها موءودة قد سئلت عن سبب قتلها)، إذ نراها في لحظة مصيرية تحولية تجمع بين حالتين متباينتين: الأولى تصورها وهي ضحية لا حول لها ولا قوة، والثانية تصورها مدّعية تمتلك مطلق الحرية في التعبير عما تريد قوله، وكان لتسميتها بالموءودة دور في الجمع بين الحالتين المتباينتين، إذ مثلت حلقة وصل بين ماضيها المؤلم في الدنيا وحاضرها المنصف يوم الحساب. وقد رافق ذلك جمع القصة بين فضاءين متباينين: يتمثل الأول في العصر الجاهلي حيث الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما الجريمة، والثاني يتمثل في الحياة الآخرة حيث الجزاء والحساب والعدالة الإلهية المطلقة.

وتستمر حالة التباين مع القصة حتى تصل بنا إلى مستوى الخاتمة، وذلك من خلال ما أحدثه سؤال الموءودة عن سبب قتلها، إذ تضعنا القصة من خلال التباين في الموقف أمام صورة قائمة على التضاد بين الدور الحقيقي والفطري للآباء في الحرص على حياة أبنائهم وبين فعلهم على أرض الواقع في قتلهم لأطفالهم، ففي الوقت الذي جعلهم الله ﷻ فيه سببًا لإيجاد الأبناء صاروا هم السبب لفنائهم وموتهم، لذلك يعدّ الوأد من أفظع أعمال أهل الشرك وأشنعها(864)، كما أحدث السؤال كذلك حالة من التباين وضعت المتلقي أمام صورتين متباينتين للموءودة، وذلك بالجمع بين كونها ضحية وبين حالها وهي تسأل

(863) الحسين، **القصة القصيرة جدًا–مقاربة تحليلية**، 48.

(864) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 144/30.

عن ذنبها، لتنتج عنها مفارقة لفظية تثير العجب أريد منها تبكيت القاتل[865]، حيث أن الجواب معلوم لدى الجميع، فلسان حالها يقول إن ذنبها الوحيد هو أنها كانت بنتًا فحسب. وهكذا شكل التباين أساسًا بنيت عليه تلك المفارقات التي تشكل سرًا من أسرار الجمال الفني للقصة القصيرة جدًا، وأسهمت في الكشف عن حجم الحدث وحقيقته المأساوية في هذه القصة[866].

يقدم السرد القرآني جانبًا معينًا من حياة نبي من الأنبياء عليهم السلام في شكل قصة قصيرة جدًا، فتتباين قصته مع قصص غيره من الأنبياء عليهم السلام من حيث الشكل والحجم، ومثال ذلك نجده في قصة أيوب عليه السلام التي تسرد حدث استغاثته بالله ﷻ بعد أن مسه الضر لزمن طويل واستجابة الله جل جلاله له وشفائه، ورد أهله إليه[867]، إذ قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) ﴾ [ص: 41 – 44]، فهي قصة مكثفة تتمثل في إشارة سريعة عن نبوة أيوب عليه السلام وابتلائه وتضرعه إلى الله ﷻ، فوضعتنا القصة أمام الحدث مباشرة، وهو في أشد حالات التأزم، وذلك دون الدخول في التفاصيل المتعلقة بالعناصر السردية والمسببات التي تقف وراء الحدث[868]، فهي تفاصيل قد تجاوزتها القصة، وكثفتها واختزلتها في عبودية أيوب عليه السلام وتضرعه إلى الله ﷻ، وعداوته للشيطان، فعبّرت بذلك عن الحدث المتمثل في الاختبار الصعب، ليخرج أيوب عليه السلام في النهاية من محنته لأنه صبر عليها صبرًا لا مثيل له[869]، وقد يتعلق أمر هذا النوع من التباين الفني للقصة بكونها

---

(865) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 1182.

(866) إلياس، **شعرية القصة القصيرة جدًا– دراسة**، 158.

(867) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 167-168.

(868) الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 9/4.

(869) البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 123/4-124.

جاءت متناسبة مع رصدها لحدث محدد يتميز بخصوصية كبيرة، فوردت القصة ضمن سياق مفهوم خاص يشدد السرد القرآني على إبرازه، والغرض منه بيان نعمة الله ﷻ على أنبيائه وأصفيائه[870]. أو لعله انعكاس لما أرادت القصة عرضه من خلال حالتين متباينتين تتمثلان في التقابل الحاصل بين المحنة التي ابتلي بها أيوب عليه السلام وبين المنحة التي كوفىء بها، فأسهم الشكل الفني للقصة في لفت الانتباه إلى المنحة، والتعمد في سرعة تجاوز المحنة.

ومثال آخر لهذا النوع من القصص نجده في قصة يونس عليه السلام ضمن سياق سورة الصافات، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148) ﴾ [الصافات: 139 – 148]، فهي قصة قصيرة جدًا، جاءت مكثفة ومختزلة، خالية من التفاصيل والجزئيات المتعلقة بالشخصيات والأحداث، لتحمل معها أسرارًا فنية ودلالية يمكن أن نتلمسها من خلال ما أحدثه التوظيف الفني للقصة في التناسب بين التباين الفني للقصة من حيث الحجم والشكل وبين التباين الدلالي الذي تتميز به عن قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام الذين جاؤوا من قبله، والتي ركز السرد القرآني فيهن جميعًا على إبراز العاقبة المشتركة لأقوامهم ومجتمعاتهم الكافرة، وهي إبادتهم إلا قليلًا ممن آمنوا مع أنبيائهم ورسلهم عليهم السلام، في حين نجد في قصة يونس عليه السلام ما ينبىء عن حالة متباينة ختم بها السرد القرآني تلك القصص، وهي التي تتمثل في نجاة قوم يونس عليه السلام من العذاب، وتعرضه هو لتجربة الحوت، ثم نجاته عليه السلام بعد أن كان من المسبحين، ولعلنا نجد في ذلك دلالات تشير إلى الربط بين

[870] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 154.

ذلك المجتمع ومجتمع قريش، فمن خلال عملية التذكير هذه يجري تحفيزهم وتشجيعهم على الإيمان، والتعبير عن إمكانية أن تشملهم رحمة الله ﷻ كما شملت قوم يونس عليه السلام من قبل[871].

المطلب الثاني: القصة القصيرة:

القصة القصيرة "جنس أدبي يتميز بالاقتصاد في التعبير وتصوير الحدث، أو اللحظة الزمنية العابرة، بلغة وصفية درامية، ويُكشف في القصة القصيرة عن وجود حدث، أو شخصية ذات دلالة نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو سياسية، تعبر عن موقف خاص، أو رؤية خاصة للعالم"[872]، ومن سمات القصة القصيرة التكثيف لا التوسيع، والتركيز لا التشتيت، ولا تقدم من التفاصيل إلا ما هو ضروري ونافع لمسار القصة المتقدم باتجاه هدف وحيد[873]، لا تسمح بالاستطراد أو التلكؤ في المسارات الجانبية[874].

أما من حيث البناء فهي سرد لأخبار لا تشكل معلومات يزود بها القارىء فحسب، إنما هي متصلة التفاصيل والأجزاء، بشكل يكون لمجموعها أثر كلي أو معنى كلي، ويتطور فيها الحدث السردي تطورًا سرديًا يبدأ ببداية، ثم يصعد إلى الوسط، وبعده يذهب لاكتمال المعنى عند نقطة التنوير في النهاية[875].

وأما بخصوص السرد القرآني واستنادًا إلى عراقة خصيصة الإيجاز والاقتصاد التي تتميز بها قصصه والتي أدركها العلماء قديمًا، فإننا نستطيع تصنيف بعض القصص فيه ضمن القصص القصيرة[876]. وبعد

---

[871] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 3/97.

[872] علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، 55.

[873] شارلز ماي، **التحفيز الاستعاري في القص القصير (في البدء كانت القصة)، ضمن كتاب القصة الرواية المؤلف–دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة**، ت: خيري دومة، (القاهرة: دار الشرقيات للنشر والتوزيع، ط1، 1997م)، 80.

[874] الكردي، **البنية السردية للقصة القصيرة**، 13.

[875] رشاد رشدي، **فن القصة القصيرة**، (القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية للطبع والنشر، ط2، 1964م)، 14-18.

[876] الكردي، **البنية السردية للقصة القصيرة**، 152.

رصد ومتابعة العديد من القصص القصيرة داخل السرد القرآني يمكننا تقسيمها من حيث الشكل والموقع النصي إلى:-

أولًا: قصص قصيرة غير مستقلة:

وهي التي تمثل حلقة خاصة من سلسلة حلقات لقصة طويلة، يقدم فيها السرد القرآني جانبًا معينًا من قصة ما بحيث يتناسب مع السياق الذي ورد فيه، ومثال هذا النوع نجده في قصة خلافة آدم عليه السلام في سورة البقرة بوصفها حلقة خاصة من قصة الخلق، والتي وردت لتتناسب مع السياق، حيث يستعرض موكب الحياة والوجود كله، ثم التحدث عن الأرض في معرض آلاء الله ﷻ على الناس، وكيف خلق لهم كل ما فيها، هنا وفي هذا الجو تأتي قصة استخلاف آدم عليه السلام ومنحه زمام أمور خلافة الأرض، مع ما يحتاجه من علم ومعرفة[877]، فتبدأ القصة من حيث قوله ﷻ (وهو بكل شيء عليم)، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ

[877] قطب، **في ظلال القرآن**، 56/1.

مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39) ﴾ [البقرة: 30-39]. فيتناسب تباين هذه القصة القصيرة من حيث الحجم والشكل مع ما تتميز به في كونها تأتي متباينة مع جميع قصص الأنبياء والرسل عليهم السلام، وذلك من خلال ما يظهر فيها من جملة مميزات تتميز بها، وهي أن أحداثها غيبية وقعت في الملأ الأعلى، وفي بيئة متباينة عن البيئة التي يعيشها الإنسان فوق سطح الأرض، وتمثلها شخصيات هي في غاية من الخصوصية والأهمية، والتي جاءت متباينة هي الأخرى، لتؤدي أدوارًا متباينة تصب في مصلحة إبراز الفكرة ضمن السياق، وكان موضوعها من أهم موضوعات الحياة البشرية، والذي يتمثل في خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ما أعطى القصة تميزًا وخصوصية انعكست آثارهما على البناء الفني لها، بحيث استدعى ذلك تباينًا فنيًا على مستوى الشكل والحجم، فجاءت القصة في قالب قصة قصيرة[878].

ولم يظهر أسلوب التباين على مستوى الشكل الخارجي للقصة فحسب، وإنما استمرت انعكاسات آثاره على الصياغة السردية لها فنيًا ودلاليًا، فمنها التي نتلمسها من خلال كيفية تقديم الشخصيات، بشكل نلحظ أثر سيادتها، من حيث كونها العنصر الأهم من بين العناصر السردية الأخرى في القصة، فهي التي تشكل المحور الذي تدور حوله الأحداث، إذ نرى أن كل ما يقع في القصة من أحداث لا بد أن يمس الشخصيات بشكل من الأشكال، ويؤثر في تلوينها بألوان متباينة، ويلقي أضواء تكشف عن التباين في كيفية تقديمها فنيًا ودلاليًا[879]، فهي تتباين ما بين رئيسة تتمثل في آدم عليه السلام، وأخرى ثانوية تتمثل في إبليس وحواء والملائكة، كما كان للتباين أثر في رسم تلك الشخصيات في ذاتها، بشكل أسهم في تقديمها فاعلة تتسم بالنمو والتحول، تتبنى مواقف متباينة، إذ تظهر عبر مواقف معينة في البداية لينتهي بها

[878] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 33/1.
[879] نجم، **فن القصة**، 18.

الأمر في النهاية بمواقف مختلفة، فجاء تعلّم آدم عليه السلام بعد أن لم يكن يعلم، ثم تحول إلى حالة عصيان قبل أن يتوب بعدها، كما تحول استفسار الملائكة عليهم السلام في البداية إلى امتثال وتسليم لأمر الله ﷻ بأسرع ما يكون، في حين تحول إيمان إبليس إلى تمرد وعصيان تمادى فيهما إلى النهاية، إذًا هي مواقف متباينة تبنتها الشخصيات، لتأتي متناسبة مع طابع الصراع الذي يطغى على الأجواء العامة للقصة، وهذا ما يفسر لنا الأسرار الفنية الكامنة وراء هذه الكيفية في رسم الشخصيات[880]، ولعل في ذلك أيضًا دلالات تتعلق بغايات تعليمية تهدف إلى تعريف الإنسان بتلك الأدوار المتباينة، ليتخذها أساسًا يبني عليه مواقفه في هذه الحياة الدنيا.

واعتمد السرد القرآني في هذه القصة على المقومات الفنية التي تقوم عليها القصة القصيرة، فكانت انتقائية في كل ما عرضته، مع الالتزام بمبدأ الاقتصاد والاختزال وعدم الدخول في التفاصيل والجزئيات المتعلقة بالعناصر السردية، ومن ضمنها مكان الحدث، حيث بيئة الجنة التي قدمت غير محددة التفاصيل باستثناء تحديد الشجرة التي هي من متعلقات المكان، فأعطاها ذلك سمة التباين التي يمكن أن ترمز القصة من خلالها إلى المحظور الذي يضع الإنسان أمام حالة من التباين في الموقف والإرادة ما بين الخير والشر[881]. ثم تنتهي القصة بالاستدلال على تباين مكاني أوسع وأشمل، وذلك من خلال ما نستشعره من لفظة (اهبطوا) من دلالات تشير إلى الانحدار والتقهقر[882] ما بين عالمين متباينين أحدهما علوي تمثله الجنة والآخر سفلي تمثله الأرض التي تتجسد فيها خلافة الإنسان كما أشير إليها في البداية، ليبدأ معها الاختبار

[880] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/30-32.

[881] قطب، **في ظلال القرآن**، 1/58.

[882] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 832.

الذي يضع الإنسان أمام طريقين متباينين إما النجاح وإما الإخفاق، فتتحدد على أساسه المصائر المتباينة لبني آدم في نهاية المطاف[883].

يقدم السرد القرآني شخصية النبي الواحد في سياقات متباينة، وبأساليب متباينة، حسب مرحلة العمر وملابسات الموقف، لتأتي قصته بأسلوب أدبي بارع في حلقات متعددة، وكأنها فنيًا عدة قصص قصيرة، فقد تتباين حلقة أو أكثر مع جميع حلقات القصة الواحدة من حيث خصوصية أحداثها، وذلك لكونها تتعلق بجانب معين من حياة الشخصية لم نجدها ضمن السياقات السردية التي قدمت فيها الحلقات الأخرى للقصة نفسها[884]، ومثال ذلك هو قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ضمن سياق سورة الكهف، والتي جسدت رحلته لطلب العلم، بحيث جاءت على شكل قصة قصيرة متكاملة البناء، تشتمل على العناصر السردية للقصة القصيرة ومقوماتها انفردت بها سورة الكهف، فلا تتصل تفاصيل أحداثها بالحلقات الأخرى التي جسدت قصة حياة موسى عليه السلام الطويلة[885]، إذًا القصة تصور موقفًا معينًا يتسم بالخصوصية، فتبرزه من أجل الوصول إلى المعنى الذي تريده، والذي يتناسب مع الدلالات التي يريد السياق التركيز عليها، وهي نبذ زينة الحياة الدنيا[886]. وهي الحلقة الوحيدة التي تضم أحداثًا تتعلق بشخص موسى عليه السلام وحده، فلا ذكر فيها لفرعون وملئه، أو بني إسرائيل، الذين ترتبط بهم الأحداث في جميع حلقات قصة موسى عليه السلام ما عدا هذه الحلقة، وكأن فيها إشارة خاصة تتعلق باليهود المعاصرين لزمن الرسول ﷺ، والذين لقنوا كفار مكة اسئلة يواجهون بها الرسول ﷺ بقصد الإحراج والشماتة، وتقول لهم أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية، وها هو موسى عليه السلام يتعلم

[883] البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، 33/1.

[884] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 21-22.

[885] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 228.

[886] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 433/1.

ليس من الله ﷻ بل من عبد مثله، ويسير تابعًا له طلبًا للعلم، فاعلموا أن إبطاء الوحي دليل على صدق محمد ﷺ وأمانته، وأنه لا يقول شيئًا من عند نفسه(887)، فجاءت القصة على شكل حلقة خاصة ارتبطت بالإجابة عن الأسئلة التي طرحها الكفار على الرسول ﷺ بتحريض من اليهود.

ويمكن عدّ هذه القصة من قصص الحوادث، إذ تتوالى فيها الحوادث واحدة تلو أخرى، معتمدة على التشويق والإثارة من خلال مرافقة أبطال القصة في تلك الرحلة المليئة بالعجائب، فالشخصيات مسخرة لتوليد الحوادث وتعقيدها(888)، والإسهام في مجيئها على شكل مفاجآت متوالية، ابتداءً من خرق السفينة التي أقلتهم، ومرورًا بقتل الغلام، وانتهاءً ببناء الجدار رغم الموقف السلبي لأهل القرية تجاههم(889)، فيبقى سرّ تلك الأحداث غير معلوم لا للمتلقي ولا لموسى عليه السلام، بحيث يلف الغموض كل شيء في القصة بما في ذلك الشخصية الفاعلة، والتي أضفت بغموضها غموضًا أكثر على الأحداث والوقائع(890). واعتمدت القصة أسلوب التباين في بناء تلك الأحداث، فقدمتها متباينة بين ظاهرها المدرك الذي يدل على الشر من خلال المنظور البشري، وبين باطنها الخير الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، لتتولد عنها مفارقات متتالية تضع الشخصيات في حالة من التباين في المواقف(891)، الحرجة والعواطف المتأججة التي تتلاطم كالأمواج لتحدث في النهاية الأثر المطلوب، وهذا شأن القصة القصيرة في الابتعاد عن تمثيل الفكرة بالطريقة المباشرة(892)، مما أسهم في تحريك الحبكة نحو التأزم إلى النهاية حيث نتعرف على الحلول

(887) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8948/14.

(888) نجم، **فن القصة**، 138-139.

(889) سورة الكهف، [60-82].

(890) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 184.

(891) عبدالحليم، **جماليات المفارقة في القصص القرآني**، 103.

(892) نجم، **فن القصة**، 15.

والتفسيرات لتلك الألغاز التي بنيت على أساس من التباين بين الشكل الخطأ والمضمون الصح(893)، والذي عبّر عن التباين بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، وبين الحكمة الإلهية البعيدة الآجلة(894).

وهذا يعيد بفكر المتلقي وخياله إلى بدايات القصة ليكتشف فيها تباينات على مستويات أخرى مهدت الوصول إلى تلك التباينات على مستوى الأحداث، وتتمثل في التباين على مستوى المكان، والذي نتلمسه من خلال الإشارة إلى مجمع البحرين، فالبحران يشتركان في الماهية، إذ يمثلان شيئًا واحدًا، ولكنهما يتباينان من حيث الاستقلالية والتسمية، ليفضي ذلك إلى التباين على مستوى الشخصيات، والذي نلحظه بين موسى عليه السلام الذي هو نبي مرسل وأعلم أهل زمانه، وبين العبد الصالح الذي أنعم الله ﷻ عليه بعلم من عنده، فهما يمثلان بعدين متباينين لعلم الله ﷻ: علم أرضي يعتمد إدراكه على الحواس، وعلم سماوي غيبي يؤتيه الله ﷻ لمن يريد(895)، وهذا ما أدى إلى إحداث تباين على مستوى الأدوار، فبعد أن كان موسى عليه السلام عالما لا ينافسه في علمه أحد أصبح طالبًا للعلم من شخصية ليست بأعلى منه مرتبة. وكذلك نتلمس من كيفية تقديم شخصية السمكة في حالتين متباينتين دلالة تشير إلى التباين على مستوى الدور الوظيفي الذي أنيط إليها، والذي يرتبط بالتباين بين مفهومي الموت والحياة، فبعد أن كانت السمكة تمثل دور الزاد في موتها نراها أصبحت دليلًا ماديًا لتعيين مكان اللقاء بالعبد الصالح في حياتها.

ثانيًا: قصص قصيرة مستقلة:

يقدم السرد القرآني قصصًا قصيرة مستقلة بعضها عن بعض من حيث بناؤها الفني، ولكن ضمن سياق سردي واحد تتحد فيه في التعبير عن فكرة مركزية أراد السرد القرآني إبرازها في ذلك السياق، وذلك مثل قصص أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وذي القرنين، والتي جاءت ضمن سياق سورة الكهف،

---

(893) ب. إيخنباوم، **حول نظرية النثر ضمن كتاب نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس**، 117.

(894) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 155.

(895) الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 146/21.

فهي قصص قصيرة مستقلة من حيث كيفية اعتمداها على المقومات الفنية، ولكنها تجسد بمجموعها تلك الفكرة المركزية التي تؤكد عليها السورة الكريمة منذ المقدمة، وهو نبذ زينة الحياة الدنيا، وتكريس الجهود وتوجيهها نحو النجاح في الاختبار الإلهي الذي يواجه الإنسان بسببها[896]، فهي –موضوعيًا– قصص ترتبط فيما بينها بوحدة الغرض الذي هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر والقيم بميزان هذه العقيدة[897]. وذلك استنادًا إلى أن القصة في السرد القرآني ليست عملًا فنيًا مستقلًا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه وتقديم عناصره، فتؤدي غرضًا فنيًا بحتًا، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن المتعددة تهدف إلى أغراض دينية قبل أي شيء[898].

وانطلاقًا من هذا المفهوم فقد وظف السرد القرآني طريقة العرض والشكل الفني لهذه القصص توظيفًا فنيًا ودلاليًا يخدم الغرض الرئيس الذي يسعى إلى تمثيله وتجسيد تصور متكامل حوله، فتطلب ذلك أحداثًا متباينة ترتبط بشخصيات متباينة وفي بيئات زمانية ومكانية متباينة عبّر عنها السرد القرآني من خلال هذه القصص التي هي في شكل قصص قصيرة استطاعت أن تسهم معًا في الكشف عن واحد من أمور الحياة كانت حقيقتها غائبة وغير مدركة من قبل، فتلك هي خصيصة من خصائص القصة القصيرة، إذ تكون بمثابة عين فاحصة تسلط الضوء على بقعة صغيرة من الحياة، وتركز عليها لنكتشف معها الأسرار التي تخبئها[899]، إذًا السياق هو الذي فرض الشكل الفني للقصص، فجاءت قصصًا قصيرة متباينة العناصر والمواضيع، بشكل تسهم كل واحدة منها في تجسيد الفكرة والغرض منها من خلال زوايا متباينة.

---

(896) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 337/1.

(897) قطب، **في ظلال القرآن**، 2257/4.

(898) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 143.

(899) الكردي، **البنية السردية للقصة القصيرة**، 157-158.

ركزت القصص الثلاث على إبراز شخصياتها من خلال أوصاف وأفعال وقيم وحوارات محددة، مبتعدة عن الدخول في التفاصيل والجزئيات، فأسهمت في التمكن من تقديم نماذج بشرية متباينة المواقف تجاه زينة الحياة الدنيا سلبًا أو إيجابًا، فكانت الشخصيات هي الزاوية المحددة التي يطل منها السرد في القصص الثلاث(900).

ففي قصة أصحاب الكهف قدمت شخصية أصحاب الكهف على أنهم مجموعة من الفتية المؤمنين هربوا بدينهم، واختاروا العزلة وتركوا حياة الترف والزينة وكل ما يتعلق بها، فجاء التباين المتمثل في إبهام أسماء الشخصيات منسجمًا فنيًا مع إبراز الفكرة الرئيسة؛ لأن ذلك يدل على نكران الذات عندهم، والذي يعبر عن أعلى مستويات نبذ الزينة وكل ما يدل عليها(901)، إذ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) ﴾ [الكهف: 9 – 10]، فمن خلال تلك الأوصاف المكثفة التي تقتضيها طبيعة القصة القصيرة استطعنا أن نتعرف على أبعاد متباينة تساعد في التعرف على ملامح الشخصيات، والتي سكت عنها السرد، فالذي ساعدنا على تخيلهم بأبعادهم الجسدية والجسمانية هو وصف شخصيات القصة بالفتية، والتي تدل على أنهم كانوا في أوج قوتهم وشبابهم، فتتمثل في خيالنا صورة يمكن أن تجسد في أذهاننا هيئاتهم وأشكالهم نسبيًا، كما يمكن أن نستدل من خلال وصفهم بالإيمان وفعل الإيواء إلى الكهف على البعد الاجتماعي وطبيعة علاقة هؤلاء الفتية بالوسط الاجتماعي الذي كانوا يعيشون فيه، إذ تظهر أنها كانت علاقة صراع مع الأكثرية، كما يمكن أن نستدل على البعد النفسي أيضًا، فنتخيل الميول والهواجس والأفكار التي كانت تسيطر على أذهانهم ونفسياتهم في تلك الأثناء التي هربوا فيها

(900) قنديل، **فن كتابة القصة**، 281.

(901) البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 344/1.

بدينهم[902]، أما تسميتهم بأصحاب الكهف الذي يدل على كثرة ملازمة المكان[903]، فتضعنا أمام حالات من التباين النفسي والفكري والعاطفي التي كانوا يعيشونها قبل اتخاذهم القرار الحاسم في اختيارهم لهذا النمط من العيش، حيث العزلة في كهف يفتقر إلى أدنى وسائل الراحة، لنتلمس فيهم حسمية القرار وقطعيته في ترك زينة الحياة الدنيا.

أما صاحب الجنتين وصاحبه فيمثلان أنموذجين متباينين لشخصيتين متقابلتين على أساس السلبية والإيجابية، إذ قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) ﴾ [الكهف: 32]، أحدهما مغتر بزينة الحياة الدنيا، رغم أنه لا يملك منها سوى مزرعتين تمثلان جزءًا بسيطًا من تلك الزينة، والتي يمكن أن يمتلكها الكثير من الناس، إلا أنه اغتر بهما إلى حد الانحراف في عقيدته، أما صاحبه فهو مؤمن، ويعلم أن ما يفتخر به صاحبه هو مجرد زينة زائلة، وما هي إلا اختبار وامتحان، فمثّل بذلك النموذج الذي يجسد موقفًا إيجابيًا من حيث فهمه للحياة وزينتها، في حين مثل صاحب المزرعتين النموذج الذي جسد موقفًا سلبيًا من حيث صلته بالدنيا وفهمه لها. وأسهم التكثيف اللغوي في كيفية تقديم القصة للشخصيتين، بحيث تمكّن المتلقي من المشاركة في تخيل الأبعاد المتباينة لهما، فعندما تصفهما القصة برجلين، فهي تساعدنا على تخيل الأبعاد الجسدية والاجتماعية لهما، وذلك في تصورهما رجلين كاملين، لهما كيان مستقل داخل المجتمع الذي يعيشان فيه، يتباينان من حيث المكانة الاجتماعية والاقتصادية، فأحدهما ذو مال وجاه ونفر، والآخر دون ذلك، وأما أبعادهما النفسية والفكرية فتظهر من خلال كونهما يمتلكان ميولًا وأفكارًا متباينة خلقت بينهما حالة من الصراع الفكري، فالأول كافر ومغتر بماله وجاهه وأولاده، والثاني مؤمن يحاول ردّ الأول إلى طريق الصواب، فأخفق

---

[902] ميرغني، **بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة**، 388.

[903] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 361.

الأول في الاختبار في حين نجح فيه الثاني، فمثلت الشخصيتان بذلك أنموذجين آخرين من فئة أخرى تجسدان تلك الفكرة المركزية التي يريد السرد القرآني التأكيد عليها.

أما في قصة ذي القرنين فإننا نواجه شخصية من نوع آخر متباين، فهي تمثل ملكًا وقائدًا يمتلك قوة ومكانة متميزة، مُكّنت له أسباب الملك والسلطة والقوة جميعها، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) ﴾ [الكهف: 83 – 84]، فهو يمتلك مشارق الأرض ومغاربها، وجاء وصفه بذي القرنين ليدل بذلك على البعد الجسدي الذي يحس معه القارىء بالقوة الجسمانية والهيبة التي يتميز بهما، فهو إذًا يمثل فئة أخرى من البشر، إذ إنه رغم كونه حاكمًا على الأرض وقائدًا عسكريًا لا تقف أمامه أية قوة، إلا أنه لم تبهره زينة الحياة الدنيا، ليضعنا السرد القرآني أمام مفارقة أساسها التباين بين شخصية ذي القرنين وشخصية صاحب المزرعتين، فنستشعر معها مدى غباء هذا الأخير وقصر نظره، وذلك عندما نقارن بين مزرعتيه البسيطتين اللتين اغتر بهما وبين مشارق الأرض ومغاربها التي امتلكها ذو القرنين ولم تفقده صلته بالله ﷻ، إذ قال (هذا رحمة من ربي)[904]. وكذلك عندما نقارن بين شخصية صاحب المزرعتين مع أصحاب الكهف، فإننا نحس بمفارقة أساسها التباين في مواقف كلا الجانبين تجاه زينة الحياة الدنيا، والتي تتمثل في نبذ الفتية لها على الرغم من كونهم الأقرب من الاغترار بها، بوصفهم شبابًا في مقتبل العمر قياسًا بصاحب المزرعتين الذي يظهر أنه رجل كامل لا بد وأن انقضى أغلب عمره، ويفترض به أن لا يتعلق بما لديه من زينة الدنيا بهذا الشكل، ولكن الذي حصل هو العكس!

واستطاع السرد القرآني من خلال الجمع بين القصص الثلاث أن يستشعرنا بأهمية تمثيل هذه الشخصيات في حالة من التباين الحاصل في الأحاسيس المضطرمة والخلجات المتوجسة والمشاعر الإنسانية

[904] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 402/1.

لديها في تجسيد كل حالات النفس وتأثرها بالمواقف المتباينة[905]، بحيث تنتمي كل واحدة من هذه الشخصيات إلى فئة أو طبقة اجتماعية متباينة، يجمع بينها السرد القرآني من أجل أن يجسد لنا من خلالها تصورًا متكاملًا تجاه الغرض الذي يهدف إليه، على أساس التباين في المواقف تجاه مفهوم الحياة الدنيا وزينتها.

ولم يقتصر الدور على الشخصيات وحدها في إبراز الغرض والفكرة الرئيسة من القصص، إنما لعبت العناصر السردية الأخرى الدور نفسه، فكان للمكان الفعالية اللافتة من خلال العلاقة الشديدة التي تربطه بالشخصيات، وتلك الفعالية نجدها في تباين الأدوار التي أنيطت إلى المكان، بشكل أحدث تباينًا على مستوى أحاسيس الشخصيات والمتلقين على حد سواء، وهذا ما نراه في التباين الذي يمثله الكهف عندما يتحول عن أصله بوصفه مكانًا معزولًا وضيقًا يبعث في النفس الوحشة والنفور إلى فضاء أليف يتسم بالرحابة والأنس والطمأنينة، وقابل للإيواء والسكنى عند أصحاب الكهف، وذلك بفضل الرحمة الإلهية التي استنجدوا بها، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) ﴾ [الكهف: 16]، وهذا ما جعل الفتية يختارونه على حساب المدينة التي هربوا منها، ولا يتوقف دور الكهف عند هذا الحد بل يمتد ليسهم في إحداث تباينات أخرى نجدها في إظهار المواقف العقدية المتباينة بين أصحاب الكهف وقومهم، أو تلك التي نجدها في اختلاف القوم فيما بينهم على عددهم، أو على ما يبنونه على مرقدهم ما بين بنيان أو مسجد، أو تلك التباينات التي تتعلق بالرعاية الإلهية لهم، والتي تتجسد في مزاورة الشمس لكهفهم عن اليمين وعن الشمال، وتقليبهم كذلك ذات اليمين وذات الشمال، أو هيئتهم ما بين اليقظة والرقود.

---

[905] قنديل، **فن كتابة القصة**، 210.

أما في قصة صاحب المزرعتين، فنجد التباين عكسيًا، إذ نجد بعد أن بدأت القصة بتقديم المكان أليفًا ومؤنسًا، متمثلًا في جنتين محاطتين بالنخيل والأعناب، ونهر يجري خلاهما، إذ قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) ﴾ [الكهف: 32 – 33]، نجده يتحول إلى مكان موحش ومعاد، ليمثل بذلك عقابًا مكانيًا للرجل الذي اغتر بزينة المكان الزائلة، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) ﴾ [الكهف: 42].

بينما المكان في قصة ذي القرنين امتد إلى أبعد الحدود الجغرافية، فكان تقديم المكان على أساس التباين بين مشارق الأرض ومغاربها دليلًا على سعة ملك ذي القرنين وشمولية نفوذ سلطته[906]، لنستدل من خلاله على قوة إيمان ذي القرنين الذي لم يتزعزع لوهلة واحدة بما آتاه الله ﷻ من ملك، بل ازداد قوة ومتانة، وجعله يتواضع لله ﷻ. فكان للمكان الفعالية في الإيحاء بدلالات تشير إلى وظيفته التعليمية، وذلك من خلال ظهوره بأبعاده المتباينة كأداة لذلك الاختبار الإلهي الذي نجح فيه أصحاب الكهف بنبذهم لكل ما يتعلق بالمكان من زينة، واختيارهم الإيواء إلى الكهف، كما نجح ذو القرنين في تذليل كل معالم الزينة المتعلقة بالمكان تحت سيطرته وتحكمه، وفي خدمة إرضاء الله ﷻ، بينما أخفق صاحب المزرعتين في الاختبار وانخدع بالقليل مما يتعلق بالمكان من زينة[907]. وقدمت القصص الثلاث المكان في غاية من الإبداع والإمتاع الفنيين[908]، وذلك لأنها تجاوزت به الجغرافية الحسية نحو اتخاذه وسيلة للكشف عن

---

[906] سورة الكهف، [86-93].

[907] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 405/1.

[908] قطب، **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**، 89.

الأبعاد النفسية والاجتماعية المتباينة للشخصيات(909)، وذلك عندما يقدم لنا المكان من خلال ما تحس به الشخصية تجاهه، ونرى ذلك في مشهد غروب الشمس في قصة ذي القرنين، إذ قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) ﴾ [الكهف: 86]، فنجد أن الوصف يأتي من خلال رؤية ذي القرنين، أو كما يتراءى أمام ناظريه، إذ ظن أن اليابسة قد انتهت عند تلك النقطة التي وصل إليها، وهي على شاطىء المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، فرأى الشمس تغرب فيه(910)، وما أسهم في ذلك هو حدوث التباين على مستوى التبئيرات، إذ بعد أن كان السرد ينقل الأحداث من خلال التبئير في درجة الصفر، نراه يتحول إلى التبئير الداخلي بطريقة فنية غاية في الجمال، لينقل لنا الصورة التي تكونت في ذهن الشخصية في تلك اللحظة التي وصل فيها إلى المكان(911). أو ما نجده في قصة صاحب المزرعتين من سرعة الانتقال إلى مشهد زوال المزرعتين، فما أن توقع له صاحبه أن يعاقبه الله ﷻ على كفره، حتى انتقل بنا السرد إلى مشهد يظهر فيه صاحب المزرعتين في حالة حسرة وندم يقلب كفيه على الخسارة التي لحقت به، وهي دمار المزرعتين بالكامل، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) ﴾ [الكهف: 42]، فهذا الانتقال السريع ساعدنا في أن يتجسد أمامنا مشهدان متباينان: أولهما يمثل النماء والازدهار والآخر يمثل الدمار والبوار، لتتباين معهما صورة الشخصية من هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار(912).

---

(909) ميرغني، **بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة**، 198.

(910) قطب، **في ظلال القرآن**، 2291/4.

(911) جينيت، **خطاب الحكاية**، 198.

(912) قطب، **في ظلال القرآن**، 2271/4.

وامتدت آثار أسلوب التباين في القصص الثلاث إلى أبعد الحدود، لتصل إلى الظهور عند مستوى الأسلوب المعتمد في البناء السردي لها، والذي تراوح ما بين السرد والحوار، ولكن بشكل تباينا فيه على أساس نسبة الحضور بينهما، بحيث رجحت كفة الحوار على حساب السرد، وجاءت الحوارات ضرورية وعفوية وفي توقيتات مناسبة، تعبر عن الشخصيات وميولها النفسية والاجتماعية والفكرية المتباينة[913].

ويذهب الحوار أحيانًا إلى أبعد من ذلك، فهو يضفي على القصة الحيوية والنشاط، ويغمرها بالدفء الذي نستشعره من خلال الإثارة التي يحدثها فنيًا[914]، ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح في المشهد الحواري بين الفتية بعدما استيقظوا من نومهم، إذ جاءت صياغته في أمتع أنواع الحوار، وأشدها إثارة وتشويقًا، كان أساسها التباين في الآراء بخصوص مدة لبثهم داخل الكهف، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) ﴾ [الكهف: 19]، فجاء التعبير عن المدة الزمنية التي لبث فيها الفتية غامضًا، بحيث أوقع المتلقي في حالة من التباين في تصورها وفهمها، فبداية الحوار لا توحي بقصر تلك المدة أو طولها، فلم يتمكن المتلقي من تصورها، ثم جاء الرد موحيًا بأن المدة كانت قصيرة جدًا لا تتجاوز اليوم الواحد، ثم عمق هذه القناعة لدى المتلقي حين استدرك بالقول (أو بعض يوم)، ولكن جاء الحوار وأوقع المتلقي مرة أخرى في لبس وغموض بخصوص تلك المدة، إذ جاء فيه (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم)، وترك حالة التباين في الإحساس والقناعة التي يعيشها المتلقي تجاه الحدث تستمر أكثر، فيكبر معها الشوق لمعرفة المدة الحقيقية، فكان ذلك من دواعي خلق المتعة الفنية[915].

---

[913] قنديل، **فن كتابة القصة**، 359.

[914] قنديل، **فن كتابة القصة**، 351.

[915] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 1/362-363.

المطلب الثالث: القصة الطويلة:

وهي القصة التي تقوم على بنيان واسع، بحيث تتمتع بالحرية في الاتساع من كافة الجوانب والأطراف، فيتيح لها تناول الموضوع من نقطة البداية، والإلمام بجميع ملابساته وجزئياته وهي لا تقتصر على عدد معين من الشخصيات والأحداث، ولا تقف عند حادثة خارجية أو داخلية، وهذا ما يعطي القصة الطويلة المجال الأوسع للتعبير الكامل عن التجربة الشعورية التي تختارها، بغض النظر عن طبيعتها ولونها ومجالها في الزمن أو في الشعور[916]، إذًا يرتبط هذا الاتساع بموضوع القصة ونموها الذي يتطلب امتدادًا أكثر في طولها، فهي تقف عند التفاصيل الدقيقة في الوصف، وتعرض الأحداث المتوازية، لتتشابك فيما بينها، وتتاشبك معها العلاقات المرتبطة بالعناصر السردية، وتسبر فيها نفسيات الشخصيات وعقولها، وينتقل السرد فيها بين الأزمنة والأمكنة المختلفة والمتباعدة[917]، وذلك لأنها تعالج موضوعًا كاملًا زاخرًا بحياة تامة، وتمكن المتلقي من الإلمام بحياة أبطال القصة والحوادث المرتبطة بهم في مراحلها المختلفة[918].

تتباين القصة الطويلة في السرد القرآني ما بين المغلقة التي تأتي متحدة الحلقات في قالب نصي واحد، وضمن سياق سردي واحد، وبين المفتوحة التي تأتي مجزأة الحلقات في قوالب نصية متفرقة، وضمن سياقات سردية مختلفة.

أولًا: القصة الطويلة المغلقة:

وهي القصة القرآنية الطويلة التي تعرض في سياق سردي مستقل متمثل في سورة قرآنية واحدة مستقلة، ومثال هذا النوع من القصص الطويلة هو قصة يوسف عليه السلام، التي اتسمت بالاتساع

---

[916] قطب، **النقد الأدبي وأصوله ومناهجه**، 87.

[917] مكي، **القصة القصيرة دراسة ومختارات**، 107-108.

[918] شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، 213.

والامتداد لتأتي مكتملة داخل إطار سورة واحدة حملت اسم الشخصية الرئيسة في القصة، بحيث اشتملت على المراحل والأطوار المتباينة في حياتها، بدءًا بحادثة الرؤيا التي تنبأت ليوسف عليه السلام بما سيحدث له، ومرورًا بواقعة إلقائه في الجب من قبل إخوته، ثم التقاطه من قبل السيارة الذين باعوه لعزيز مصر الذي اتخذ منه ولدًا، ثم تقع حادثة المراودة التي تسببت في إدخاله السجن ظلمًا، وانتهاءً بخروجه منه وقيامه على شؤون الحكم، واجتماعه بذويه، فالقصة اشتملت على بنية سردية واحدة مكتملة[919].

فأعطت هذه الخصوصية التي تتميز بها قصة يوسف عليه السلام حالة من التباين الفني من حيث الحجم والشكل مع جميع قصص القرآن الكريم. ولعل السبب يعود إلى حكمة إلهية تتجلى في بعض المعاني والتعليلات التي أوردها سيد قطب، وهو عندما ربط ذلك بالأجواء النفسية التي تزامن معها نزول هذه السورة الكريمة في وحدة نصية واحدة، فهي تتميز بطابعها المكي الذي نتلمسه واضحًا في موضوعها، وفي جوها، وظلالها، وإيحاءاتها، بل إنها تتميز بطابع تلك الفترة الحرجة الموحشة التي كان الرسول ﷺ يعاني فيها آلام الوحشة والغربة والانقطاع منذ عام الحزن، وكان المسلمون يعانون الاضطهاد بشتى أصنافه، ففي تلك الأوقات العصيبة نزلت هذه السورة الكريمة التي تحتوي على قصة يوسف عليه السلام، لتصور ما عاناه هذا النبي الكريم عليه السلام من محن وابتلاءات واجهها بسلاح الصبر الذي أنجاه منها، وبذلك يكون توقيت نزول السورة وما احتوته يتناسب مع أغراضها في تسلية الرسول ﷺ وتسرية قلبه وتطمينه، وتثبيت المسلمين المضطهدين المعذبين في تلك الظروف الصعبة، وذلك من خلال ما تحمل معها من إشارة يستدلون بها على اقتراب بوادر إخراجهم من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين، كما حدث ليوسف عليه السلام، ويتضح ذلك في التعقيب الذي أعقبه السرد القرآني في نهاية القصة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

[919] عشراتي، **الخطاب القرآني**، 71، 79.

قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) ﴾ [يوسف: 109 – 111]، فإنه إيحاء بمجرى سنة الله ﷻ عندما يستيئس الرسل عليهم السلام كما استيأس يوسف عليه السلام في محنته الطويلة، والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب. كما إن احتواء السورة على القصة كاملة أكسبها طابعًا متفردًا يتناسب مع طبيعة القصة في أدائها الفني، والتي تبدأ برؤيا يوسف عليه السلام، وتنتهي بتأويلها، فكل هذه الأسباب جعلت من القصة أن تندرج تحت صنف القصص التي لا يناسبها تفريق حلقاتها وتجزئتها في سياقات متعددة ومختلفة، ليتناسب هذا الطابع الفني المتفرد مع ما أرادت القصة في أدائها من أغراض فنية ودلالية[920].

وقد أكد الدكتور سليمان الطراونة على السر الذي يكمن وراء هذا التباين الفني الذي تتميز به قصة يوسف عليه السلام، إذ ربط ذلك بأسباب فنية متعلقة بمجموعة من الخصوصيات الأسلوبية التي تمتلكها القصة من دون غيرها من قصص السرد القرآني منها: أن القصة جاءت متكاملة، فيها تفصيلات سردية ووصفية وحوارية لا نجدها في غيرها، كما أنها قصة دائرية، فهي تبدأ برؤيا وتنتهي بتحقيقها، فالبداية هي النهاية، وهي أساسًا قصة رؤيوية؛ لأن للرؤى الدور الكبير في تحريك الأحداث، وهناك خصوصية أخرى تتميز بها القصة، وهي تلك الإشارات الاستباقية في سردها، مثل الإشارة إلى إمكانية أن يأكل الذئب يوسف عليه السلام، فكان في ذلك تمهيد فني فيه خاصية التنبؤ، إذ جاءت دعوى الإخوة بحادثة الذئب الملفقة فيما بعد غير مفاجئة، وكذلك الإشارة إلى السيارة الذين سيلتقطون يوسف عليه السلام فيما

[920] قطب، **في ظلال القرآن**، 4/1950-1951.

بعد، فهي جاءت كإشارة استباقية، حصل مضمونها بالفعل، أما الخصوصية الأخيرة فتتمثل في كون القصة مليئة بالمشاعر الإنسانية المتباينة من حب وحسد وحقد وغيرة[921].

في حين يؤكد الدكتور فضل عباس على سر هذا التباين الفني الذي تمتاز به القصة من حيث الحجم والشكل من خلال ربط الموضوع بأسباب إعجازية ونفسية واجتماعية، فيقول إن تباينها الفني هذا دليل على إعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله ﷻ لو يشاء أن يفرد لكل نبي قصة على حدة وفي سورة مستقلة كما هي قصة يوسف عليه السلام لَفعل، فضلًا عن أن القصة هي من القصص التي ليست ذات صلة مباشرة بالدعوة التي كانت بين الأنبياء عليهم السلام وبين أقوامهم، فلم تفرق أحداثها بين سور متعددة. أما الأسباب النفسية والاجتماعية فيراها متمثلة في تلك المواقف التي تتعلق بامرأة العزيز وحادثة المراودة، فيرى أن المنهج القرآني في السرد ليس من شأنه تكرار سرد تلك الحادثة في أكثر من موضع سردي واحد[922]. فالقصة تميزت باحتوائها الكبير على مواقف مثيرة للغاية، تتعلق بالدوافع النفسية لدى الإنسان، وتأثيرها في تكوين العلاقات الإجتماعية وشكلها، مثل دافع الجنس، ودافع الحسد والغيرة، ودافع السيطرة والتفوق، فكل ذلك قدمه السرد القرآني في شكل قصصي مستقل حافل بأنواع الإثارة الفنية[923].

أما من حيث البناء السردي فجاء متناسبًا مع تباين شخصياتها، وأحداثها، وحواراتها، والتي توزعت فيها توزيعًا يتناسب مع حجم القصة وشكلها، بحيث تتباين في الظهور والاختفاء حسب تباين الظروف الطبيعية، والأحداث المرتبطة بالشخصيات[924]، ليأتي البناء فيها محكمًا، ومستندًا إلى وحدة

---

[921] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 271-272.

[922] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 396.

[923] بان حميد فرحان، **جمالية القصة القرآنية-قصة سيدنا يوسف أنموذجًا**، (مجلة كلية الآداب، عدد: 101، 2012م)، 337.

[924] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 351-352.

الموضوع، وإحكام التصميم، وتساوق المعاني، بشكل تزاوج فيها الفن والإحساس، فجاءت ثرية بألوانها، وسماتها، اجتمعت فيها عناصر القصة المكتملة كلها[925].

تميزت القصة بأحداثها المتباينة، والناتجة عن الاختلاف في الدوافع والمقاصد الكامنة وراءها، أو التباعد بين الأزمان والأماكن، ولكن هذا لم يمنع من بقاء الأحداث متماسكة، بشكل يثير الشعور بالعناية الإلهية التي تمسك بخيطها من البداية إلى النهاية. كما جاءت أحداث القصة طبيعية وغير مفتعلة، تعبر عن صراع حقيقي قائم على أساس التباين بين ثنائيات تتمثل في الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، صوت الحق ومغريات الهوى، بحيث تضع الإنسان أمام مسؤولية الاختيار، لتصحب معها حالات شعورية متباينة تتمثل في يقظة العقل، وإحساس الميل، ومراقبة الضمير، فيتحدد مصيره بموجبها، بشكل يتناسب مع حرية الإرادة التي يتمتع بها[926]. ونرى كل ذلك في أسلوب حركي بديع، بحيث لم تكن الصياغة السردية مجرد تشكيل للأحداث، بل كانت بمثابة المحرك الذي يحركها، وكان لأسلوب التباين حضور لافت في ذلك، سواء على مستوى ترتيب الأحداث ما بين التقديم والتأخير، أو كيفية عرضها ما بين الإجمال والتفصيل، مع مراعاة مبدأ الإقناع والاقتناع ما بين القصة والقارىء[927].

أما الشخصيات فقدمت على أساس من التباين أيضًا، إذ جاءت فنيًا ما بين رئيسة وثانوية، أما الرئيسة فتمثلت في يوسف عليه السلام، وهي الشخصية الرئيسة والوحيدة التي اعتمدت عليها القصة، فارتبط اسمها الأكثر ذكرًا في القصة من دون الشخصيات الأخرى بجميع أحداث القصة منذ البداية وحتى النهاية. وأما الثانوية فتمثلت في الشخصيات الأخرى جميعًا، والتي عرضت متباينة على مستويات عدة، منها: الفردية والجماعية، فهناك شخصيات فردية مثل يعقوب عليه السلام، وعزيز مصر وامرأته، والشاهد،

---

[925] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 509.

[926] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 510.

[927] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 142-143.

والملك، والساقي، وهناك شخصيات جماعية يمثلها الإخوة، والسيارة، والنسوة في المدينة. أو على مستوى الظهور والاختفاء، فشخصية الإخوة تظهر في البداية لتختفي بعد ذلك إلى أن نجدهم في مصر وهم يدخلون على يوسف عليه السلام طلبًا للميرة، وشخصية العزيز تظهر في بداية مرحلة حياة يوسف عليه السلام في مصر، ثم تختفي تمامًا بعد دخول يوسف عليه السلام السجن، أما شخصية الملك فتظهر مع حدث الرؤيا التي رآها، ثم تختفي تمامًا بعد أن تولى يوسف عليه السلام أمر إدارة خزائن الدولة. أو على مستوى الأدوار التي تمثلها من اجتماعية ودينية وثقافية وطبقية وسياسية، بشكل نراها متفاعلة فيما بينها[928]. أو على مستوى الوظائف التي تؤديها الشخصيات في القصة، مابين المعيقة للشخصية الرئيسة، والتي تمثلها شخصيات الإخوة وامرأة العزيز والعزيز ونسوة المدينة، وبين المساعدة لها، وهي التي يمثلها كل من يعقوب عليه السلام، والساقي، والملك. أو على مستوى التسمية، فمن بين جميع الشخصيات نرى شخصيتين اثنتين فقط عينهما السرد باسميهما وهما يوسف ويعقوب عليهما السلام، وقد ذكر اسم يوسف عليه السلام خمسًا وعشرين مرة، أما يعقوب عليه السلام فذكر اسمه مرتين اثنتين، وأما الشخصيات الأخرى فجاءت تسمياتها من خلال الإشارة إليهم دون أسمائهم، مثل إخوة يوسف، السيارة، واردهم، الذي اشتراه من مصر، امرأة العزيز، نسوة في المدينة، فتيان، صاحبي السجن، الرسول، الذي نجا منهما، والبشير[929]. وهكذا رسمت الشخصيات رسمًا محكمًا يعرب عن حقيقتها تمامًا، ويعبر عن حيويتها وحركيتها وتطورها، فتأتي مواقفها المتباينة متأثرة بما يقع من أحداث ترتبط بها، فتجعلها موضع العبرة والعظة[930].

---

[928] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 358.

[929] محمد الأحمد، **البنية الفنية في قصة يوسف عليه السلام**، (مجلة كلية الإلهيات بجامعة كوموش خانة، العدد: 8، 2019م)، 158-161.

[930] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 126-131.

مثّل الحوار الأداة الأبرز مقارنة مع السرد في رسم ملامح الشخصيات سواء الداخلية منها أم الخارجية، وخصوصًا الشخصية الرئيسة، إذ ارتبطت بها أكثر المشاهد الحوارية بأشكالها المتباينة، بين ما هو خارجي يدور بين شخصيات القصة، وآخر داخلي يعبر عن دواخل الشخصية نفسها عبر حديث النفس والمناجاة، فمن خلال العبارات الحوارية فقط نعرف أن يوسف عليه السلام كان غلامًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ... (19) ﴾ [يوسف: 19]، أو نتعرف على جماله الخارجي من خلال وصف نسوة المدينة له، إذ قال تعالى: ﴿ ... وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) ﴾ [يوسف: 31]، فكانت لردة الفعل القولية هذه دور في إفساح المجال أمام خيال المتلقي في إمكانية تخيل الملامح الخارجية الدالة على حسن يوسف عليه السلام وجماله، من دون أن يشير السرد إلى ذلك في أي موضع سردي من القصة، ثم هناك عبارات حوارية تطلقها الشخصيات تشير إلى بعض الملامح الداخلية لشخصية يوسف عليه السلام، كما جاء في وصف صاحبي السجن، أو في وصف الإخوة وهم لا يعرفونه: ﴿ ... إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ... ﴾ [يوسف: 36، 78]، ووصف الساقي له عندما جاءه طلبًا في تأويل رؤيا الملك: ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ... (46) ﴾ [يوسف: 46]، أو قول امرأة العزيز والنسوة بعد أن حصحص الحق: ﴿ ... قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ﴾ [يوسف: 51].

أما الزمن السردي فنرى أحداث القصة تتحرك وفق حركته، إذ ينمو الحدث ويتطور بصورة طبيعية مع مضي الأيام والليالي مثل الكائن الحي، فيعبر بنا المراحل الزمنية المتعاقبة، لنتلمس آثاره المتباينة في ملامح الشخصيات، فنرى الصغير يكبر، والكبير يشيخ ويهرم، والعواطف الشابة الحارة الثائرة تبرد وتهدأ، وهكذا

يظهر تأثير الزمن على وجوه الناس وعقولهم وعواطفهم ومواقفهم، كلما تقدم بهم الزمن نحو الأمام(931). وتأتي علاقة التأثير والتأثر بين الزمن والشخصيات متباينة، وذلك على أساس تباين شدة ارتباط الزمن بالشخصيات، إذ يرتبط الزمن في القصة بالشخصية الرئيسة ارتباطًا وثيقًا، بحيث نرى آثار حركته أكثر بروزًا على يوسف عليه السلام مقارنة بالشخصيات الأخرى، فمن خلال خشية يعقوب عليه السلام أن يأكله الذئب، ثم ادعاء إخوته بأن أكله الذئب بعد أن ألقوه في الجب، ووصف الوارد له بالغلام ﴿ ... قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ...(19) ﴾ [يوسف: 19]، نعلم أن أحداث القصة تبدأ مع يوسف عليه السلام وهو غلام صغير وضعيف، ثم نحس بمرور السنوات من خلال ما يطرأ عليه من تغيرات جسمية، في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ... (22) ﴾ [يوسف: 22]، وبعدها من خلال الإشارة إلى بضع سنين التي قضاها في السجن، ثم سنوات الخطة الاقتصادية التي وضعها لمواجهة القحط بعد خروجه من السجن. وهناك تباين على مستوى تحديد الزمن وإبهامه، أو تحديد جزئية زمنية دون أخرى(932)، أو ما يتعلق بالتباينات الزمنية التي تحدث على أساس التباين بين زمني الحكاية والسرد(933).

وتتميز القصة بتباين الأماكن والانتقالات بينها، فتتراوح الأحداث ما بين أرض فلسطين حيث يعيش يوسف مع أبيه يعقوب عليهما السلام والأهل، والتي كانت مسرحًا لأول الأحداث المتمثلة في رؤيا يوسف عليه السلام، ثم إلقائه في الجب من قبل إخوته، وبين أرض مصر التي اشتملت بدورها على أماكن متباينة ارتبطت بها الأحداث المفصلية في القصة، مثل بيت العزيز الذي وقعت فيه حادثة المراودة، والتي ذهب يوسف عليه السلام بعدها إلى السجن طوعًا، ومنه إلى قصر الحكم وبيت المال(934). وقدمت

(931) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 398.

(932) يراجع المبحث الثاني من الفصل الأول من البحث.

(933) يراجع الفصل الثاني من البحث.

(934) خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 358.

القصة هذه الأماكن على أساس التباين في الذكر والتحديد دون غيرها، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة التي تربطها بالأحداث المفصلية التي كان لها التأثير في تغيير مجرى السرد، وما تحمل معها من آثار وشواهد، وهكذا فقد كان لهذه الأماكن التأثير القوي في وقوع الأحداث وإبراز معالمها، وذلك بسبب طبيعتها الخاصة التي جعلت الأحداث تتأثر بها دون الأماكن الأخرى(935).

ثانيًا: القصة الطويلة المفتوحة:

وهي القصة القرآنية الطويلة التي يرد السرد فيها مجزءًا ضمن سياقات متعددة، تتوزع في أكثر من سورة قرآنية. وتتسم القصة الطويلة المفتوحة بالتنوع السردي والإخباري المتجدد نسبيًا مع اختلاف السياقات سواء كان على مستوى الإفادة الفنية أو الدلالية، ومن القصص التي تمثل هذا النوع خير تمثيل هي قصة موسى عليه السلام، وذلك لكونها أكثر القصص القرآنية ورودًا بأجزائها المتفرقة ضمن سياقات سردية مختلفة وفي سور متعددة(936).

وانطلاقًا من المتتاليات الحدثية في هذه القصة وتتبعًا لسيرها بحسب ترتيب النزول للسور نجد أمامنا قصة فنية متكاملة حسب معايير الفن القصصي ومقاييسه(937)، فوردت القصة في حوالي ثلاثين موضعًا من القرآن الكريم، وهي موزعة على شكل حلقات، بشكل يتناسب اختيار كل حلقة وكيفية عرضها مع السياق الذي ترد فيه، مع الحفاظ على الطابع الفني للقصة، والذي يتبع فيه السرد القرآني نظامًا مقررًا في عرض تلك الحلقات، فتبدأ على شكل إشارات مقتضبة، لتطول بعدها شيئًا فشيئًا، حتى يأتي الدور على

---

(935) الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 94.

(936) عشراتي، **الخطاب القرآني**، 72، 80.

(937) عزالدين هبيرة، **تشكيل الزمن السردي في القصص القرآني–قصة موسى أنموذجًا**، (مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد: 15، يونيو، 2015م)، 55.

عرض الحلقات الكبيرة، ليمثل مجموعها القصة مكتملة الأجزاء[938]. وعندما نجمع تلك الحلقات إلى بعضها البعض تتجسد لدينا قصة طويلة تتكون من أربع مراحل متتابعة: الأولى تتعلق بحياة موسى عليه السلام تبدأ من حدث الميلاد والظروف المحيطة به إلى نشأته في مصر وعلاقته بالقصر الفرعوني، ثم خروجه إلى مدين وبقائه هناك عشر سنوات، ثم عودته وبعثته عند جبل الطور. أما المرحلة الثانية فهي تتعلق بالدعوة التي نهض بها مع أخيه هارون عليهما السلام ومواجهتهما لفرعون وما رافق ذلك من محاورات وتحديات منها المبارزة مع السحرة، وإرادة فرعون لقتل موسى عليه السلام، ودفاع مؤمن آل فرعون عنه، ورافقت هذه المرحلة عدة ابتلاءات امتحن بها الله ﷻ آل فرعون، إذ أرسل عليهم أنواع العذاب، فما زادهم ذلك إلا الإصرار على الكفر، لتنتهي هذه المرحلة مع انتهاء مهمة موسى عليه السلام في دعوة فرعون وملئه، بعد أن رفضوا الإيمان، أو السماح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى عليه السلام، والاستمرار في ممارسة الظلم والاضطهاد ضدهم، إذ زادوا في تعذيبهم وقتلهم لأولادهم. وتتبعها المرحلة الثالثة من القصة وهي التي تتمثل في خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده، والأحداث المرافقة من انفلاق البحر وإعلان فرعون إسلامه في اللحظة التي أدركه فيها الغرق، وكيف أنجاه الله ﷻ ببدنه ليكون آية لمن خلفه. ثم تأتي المرحلة الرابعة والأخيرة من القصة، وهي التي تشتمل على الأحداث المتعلقة بحياة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في سيناء، ثم تختم هذه المرحلة بمشهد نرى فيه بني إسرائيل تائهين في صحراء سيناء، بعد أن تخاذلوا عن القتال، فكان عقابهم التيه والتشرد في تلك الصحراء لأربعين سنة[939].

ولعل هناك أسبابًا تكمن وراء تبني السرد القرآني لهذا الشكل الفني للقصة، مثل التي تتعلق بنبوة موسى عليه السلام ورسالته، فهو من أولي العزم، وصاحب شريعة مستقلة، والكتاب الذي يذكر قبل

---

[938] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 156-162.

[939] الخالدي، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، 2/274-276.

القرآن الكريم هو كتاب موسى عليه السلام؛ لأنه يشبهه من حيث الأصل والاستقلال. أو الأسباب التي تتعلق بكون موسى عليه السلام قد أرسل إلى فئتين تتميزان بالعناد والقسوة والكفر: فئة شيمتها التكبر والطغيان، وهي التي يمثلها فرعون وملؤه، وأخرى اعتادت على الذل والتبعية والاستضعاف، يملؤها الشك ونكران النعم، أما الأولى فقد بقيت آثارهم الدالة على قوتهم وبطشهم، وأما الأخرى فهم بنو إسرائيل الذين لهم شؤون مع المسلمين أصحاب القرآن منذ فجر الرسالة المحمدية ﷺ إلى يومنا الحاضر، فهم أول من واجهوا الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة والجزيرة العربية، فكان لا بد من كشف حقيقتهم للمسلمين، ليتعرفوا على هذا العدو من جميع جوانبه، فيتسلحوا بالمعلومات الضرورية التي تساعدهم في إفشال مخططاتهم العدائية، فضلًا عن التجارب المختلفة التي تملأ حياة بني إسرائيل، والتي قد تمثل نماذج لدروس تاريخية يجد فيها المسلمون العلاجات المناسبة لأمراض قد تصيب عقيدتهم وإيمانهم وسلوكهم بمرور الزمن[940]. ولهذا السبب تباينت طبيعة سرد القصة على هذا النحو من حيث الحجم والشكل، حيث لم تسرد أحداثها من زاوية واحدة، كما هو الحال في قصص أكثر الأنبياء عليهم السلام، بل من خلال زوايا وجوانب متباينة، توزعت بين السور المكية والمدنية[941]، ليتبع ذلك تباين في طريقة عرض أحداث القصة وزوايا النظر فيها[942]، فكان أسلوب التباين أحد الأساليب الفنية التي اعتمدها السرد القرآني في الصياغة السردية للقصة وتقديم عناصرها السردية.

يعرض السرد القرآني أحداث القصة على أساس التباين في الانتقاء، إذ يعمل على إبراز الأحداث التي تمثل منعطفات سردية يتحول عندها السرد تحولًا كبيرًا يتميز بالكثير من التوتر والإثارة، بحيث يكون له تأثيره المباشر على الأحداث اللاحقة، وذلك مثل حدث قتل القبطي المفاجىء الذي انتقل إليه السرد

---

[940] قطب، **في ظلال القرآن**، 867/2-868.

[941] عباس، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، 224-225.

[942] قطب، **في ظلال القرآن**، 66/1.

انتقالة سريعة طوى بها جميع الأحداث المتعلقة بنشأة موسى عليه السلام في قصر فرعون منذ الطفولة وإلى بدايات مرحلة الشباب. أو إبراز تلك الأحداث التي تمثل الخوارق الخارجة عن الطبيعي والمألوف، والتي نرى من خلالها تدخل القوة الإلهية الغيبية الصريحة، تأييدًا لنبيه كلما احتاج الموقف إلى ذلك(943)، مثل تحول العصا إلى ثعبان، وانفلاق البحر، وانفجار الماء من الصخر.

أما الشخصيات فتزخر القصة بعدد كبير منها، وهي تأتي متباينة بين رئيسة يمثلها كل من موسى عليه السلام وفرعون، وأخرى ثانوية تمثلها شخصيات كثيرة تقارب العشرين شخصية، بحيث أخذت كل واحدة منها الدور في استمرار الأحداث وتتابعها، وتأدية أغراض فنية ودلالية، مثل معالجة موضوع ما، أو إعطاء العبرة، أو إلقاء الضوء على ظاهرة ما، أو لعب دور في تكميل مجريات الأحداث وديمومتها(944).

قدم السرد القرآني الشخصيتين الرئيستين في حالة من التباين تقوم على أساس التقابل في السمات والمواقف، لتربط بينهما علاقة مبنية على التضاد، مما خلق حالة من التوتر والصراع. وجاءت الشخصيتان متوازيتين من حيث النمو باطراد عبر حركتين جوهريتين متباينتين اعتمد عليهما السرد القرآني في التعامل معهما: إحداهما مرئية تظهر في النمو الملحوظ لهما من خلال الأحداث، والأخرى مخفية نتلمسها من خلال ما يحيط بتلك الأحداث من ظروف(945). وهما الشخصيتان اللتان شغلتا المساحة السردية الأكبر بالمقارنة مع الشخصيات الأخرى، وعمل السرد على إبراز ملامحهما، من خلال مواقفهما المتباينة، فرسم لنا شخصية موسى عليه السلام بوصفه نموذجًا إيجابيًا للزعيم القوي المندفع بحدة الطبع والمزاج وسرعة الانفعال

(943) نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 352-353.

(944) رائد مصباح الداية، **البناءات الجمالية في النص القرآني**، رسالة ماجستير، (غزة: الجامعة الإسلامية-كلية الآداب، 2011م)، 250.

(945) مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية**، 34.

وحساسية الوجدان[946]، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) ﴾ [الأعراف: 104 –105]. أما فرعون فقد مثل به السرد الشخصية السلبية، وبرزت ملامحه من خلال المواقف المعبرة عن طغيانه وتكبره وغروره ومكابرته، تجاه موسى عليه السلام وبني إسرائيل، إذ قال تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) ﴾ [طه: 43]، واستند السرد القرآني في ذلك إلى أسلوب التباين في إبراز ما تتميز به الشخصيتان من عواطف سائدة تسيطر عليهما، فهي في موسى عليه السلام كما في سائر الأنبياء عليهم السلام تتجلى في حب الله ﷻ، والتي أكسبته السلوك الإيجابي المتمثل في الإخلاص له في السر والعلانية، والتفاني في تبليغ رسالته، أما في فرعون فهي تنحصر في حب الذات، والتي أوصلته إلى أن يسيطر فيه الغرور والطغيان والكبر على سلوكه وتوجيهه نحو السلبية، وهذا ما دفع به إلى نبذ الآخر، وعدم الاعتراف بالحق رغم ظهوره، والعناد الأعمى الذي يؤدي به إلى الهلاك رغم علمه بذلك[947].

أما الشخصيات الثانوية فقد كانت لها أدوار تكميلية[948]، أسهمت في إبراز جوانب متباينة من شخصية موسى عليه السلام، وهذا ما نجده في شخصيتي الرجلين اللذين كانا يقتتلان، إذ أسهما في إبراز الجوانب النفسية والبدنية لدى موسى عليه السلام، أما شخصيات هامان والجنود فكان لها الدور في إبراز قوة التحدي عند موسى عليه السلام، وأما شخصية ابنة الشيخ فأسهمت في إظهار اجتماع القوة والأمانة لديه، في حين أسهمت شخصية العبد الصالح الذي رافقه موسى عليه السلام في رحلته التعلمية في إبراز جوانب الرغبة في التعلم مع عدم الاستطاعة على الصبر[949].

---

[946] قطب، **التصوير الفني في القرآن**، 200-203.

[947] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 366-372.

[948] مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية**، 32.

[949] باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، 130-131.

يشكل الحوار عنصرًا مهمًا وبارزًا في قصة موسى عليه السلام، وذلك لتعدد شخصياتها التي تحمل وجهات نظر متباينة[950]، فكان لذلك الإسهام في أن يتجلى الحوار في القصة على مستويات متباينة: منها الحوار المباشر بين الله ﷻ وموسى عليه السلام، والذي يمثل الأشد تباينًا من بين جميع الحوارات، وذلك نظرًا لخصوصيته المنبثقة من كونه حوارًا فريدًا من نوعه. وهناك الحوار بين الشخصيات المتآلفة، والحوار بين الشخصيات المتضادة، وأخيرًا الحوار الداخلي الذي يتمثل في المناجاة[951].

تعتمد القصة على عنصر الزمن وهو يسير على الوجه الطبيعي، إذ يتحرك إلى الأمام غالبًا[952]، وهو ممتد فيها ليشتمل على مراحل متباينة تمثل بداية حياة موسى عليه السلام منذ الولادة وما قبلها وإلى الفترة التي عاش فيها مع قومه في سيناء بعد خروجهم، ثم ليمتد إلى أبعد من ذلك، فيعبر به السرد الزمان الكوكبي، ليصل إلى يوم القيامة، إذ نرى حال فرعون وقومه وهم في النار[953]، إذ قال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) ﴾ [هود: 98]. ومن الجدير بالذكر أننا لانجد في قصة موسى عليه السلام تحديدًا لتاريخ الحوادث أو مدتها، إلا إذا كان لذلك التحديد أبعاد دلالية تتعلق بالحادثة[954]، وذلك مثل الدلالات التي نستشعرها مع ذكر بعض التحديدات الزمنية، مثل تحديد يوم الزينة وضحاه كموعد محدد لمبارزة السحرة، أو الأربعين ليلة التي غاب فيها موسى عليه السلام، أو الأربعين سنة التي فرض الله ﷻ فيها التيه على بني إسرائيل كعقاب زمني[955]، فهي أمثلة تدل على أهمية الزمن

---

[950] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، 336.

[951] الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 77.

[952] الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 235.

[953] مطاوع، **الإعجاز القصصي في القرآن**، 75.

[954] نفرة، **سيكولوجية القصة في القرآن**، 97.

[955] للوقوف عند دلالات هذه التحديدات الزمنية يمكن مراجعة الصفحات 72، 81 من هذا البحث.

وخصوصيته في هذه القصة، بحيث أسهم في الكشف عن الأبعاد الدلالية للحدث، والتي توحي بما يشير إلى شواهد الموعظة والاعتبار التي يهدف إليها السرد القرآني.

وامتدادًا للحديث عن الزمن وكيفية بنائه فقد اعتمدت القصة على البناء الزمني المتباين، والذي يقوم على أساس الاختلاف بين زمني الحكاية والسرد، وذلك من خلال استخدام التقنيات الزمنية المختلفة، فمنها ما يتعلق بالترتيب الزمني وما ينتج عنه من مفارقات زمنية مثل الاستباقات والاسترجاعات الزمنية، ومنها ما يتعلق بالديمومة السردية وما ينتج عنها من سرعات سردية تتباين بين التسريع والإبطاء، ومنها ما يتعلق بالتواتر السردي الذي يأتي على أشكال مختلفة، تستند إلى التباين في عدد مرات وقوع الحدث بين الحكاية والسرد، وقد جاء التحليل لبعض من التباينات الزمنية المتعلقة بقصة موسى عليه السلام في الفصل الثاني من هذا البحث[956].

وعندما يتعلق الحديث بالمكان السردي فإننا نجده يتميز بالأهمية والخصوصية في هذه القصة، فهو لم يكن مجرد مسرح للأحداث تتحرك فيه الشخصيات، وإنما كان فضاءً مترامي الأطراف محملًا بالقيم الدلالية التي تؤثر في بناء السرد من حيث وقوع الأحداث ومواقف الشخصيات، فاكتسبت الأماكن فيها وضعًا خاصًا، إذ جاءت مؤثرة في سير الأحداث وإبراز ملامحها، وإقامة شواهد العبرة والعظة منها[957].

اعتمد السرد القرآني أسلوب التباين في كيفية تقديم المكان في هذه القصة كما هو الحال في التعامل مع الأماكن السردية في جميع القصص القرآنية، وجاء التباين على أساس الاختلاف بين تعيين الأماكن وإبهامها، وما يحمل معه ذلك من دلالات[958]. ولكن اللافت للانتباه هو أننا نجد في هذه القصة تباينًا على مستوى آخر في كيفية تقديم الأماكن، والذي هو على أساس التباين في الإفراد والتكرار

---

[956] يراجع الفصل الثاني من البحث.

[957] الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، 92.

[958] يراجع المبحث الثالث من الفصل الأول من البحث.

في الذكر، فهناك أماكن كرر السرد القرآني ذكرها في القصة مثل مصر ومدين وجبل طور، وصحراء سيناء، هذا في الوقت الذي استثنى فيه مكانًا واحدًا بأن لم يذكره إلا مرة واحدة، سواء على مستوى القصة وحدها أو على مستوى القرآن كله، وهذا المكان هو الأرض المقدسة، والتي ذكرتها القصة ضمن سياق سورة المائدة المدنية، إذ قال تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) ﴾ [المائدة: 21]، فقد يشير السرد القرآني من خلال الدلالات التي يحملها ذكر المكان بهذه الكيفية إلى تفويت بني إسرائيل لتلك الفرصة الفريدة التي أتاحها الله ﷻ لهم في إمكانية إسكانهم في الأرض المقدسة بمجرد دخولها، فهي كانت هبة وهبها الله ﷻ إياهم لم يحسنوا التعامل معها، ليحرم عليهم الأرض المقدسة نتيجة لتخاذلهم وتمردهم وعصيانهم؛ وذلك لأن الوعد كان مشروطًا بقيد الطاعة، الذي لم يلتزموا به[959]، فجاء إفراد ذكر الأرض المقدسة هنا مناسبًا مع فرادة الفرصة التي منحت إليهم للنصر، وكأن في ذلك تذكيرًا لبني إسرائيل وعن طريقهم للمسلمين بعدم إمكانية تكرار فرص مثل هذه، فلم يفهم بنو إسرائيل تلك الإشارة الإلهية، فكان نصيبهم التيه في الصحراء أربعين سنة عقابًا لهم، حتى انتهى ذلك الجيل المتخاذل منهم، أما المسلمون ففهموها ووعوها جيدًا، فعند أول شدة واجهوها وهم قلة أمام نفير المشركين، قالوا لرسول الله ﷺ: إذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون[960].

وبعد دراسة القصتين والوقوف عند تلك المستويات من التباين في كل منهما فإننا وجدنا أن هذه المستويات لم تنحصر داخل النطاق الضيق للقصة الواحدة، بل تخطته إلى حدود أبعد ومديات أوسع، ليفسح المجال معها أمام المضي في توسيع ذلك النطاق فيشتمل على مستويات أكبر من التباين تظهر تجلياتها عند المقارنة بين القصتين في كيفية تقديمهما للعناصر السردية، هذا فضلًا عما أشرنا إليه من التباين

---

[959] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 202/11.

[960] قطب، **في ظلال القرآن**، 871/2.

على مستوى شكل القصتين على أساس الانغلاق والانفتاح. ويمكن عرض هذه المستويات من التباين بين القصتين كما يأتي:-

1- التباين على مستوى الأحداث.

تشترك القصتان في حادثة الإلقاء للشخصتين الرئيستين، فهناك نجد إلقاء يوسف عليه السلام في الجب من قبل إخوته، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) ﴾ [يوسف: 10]، أما هنا فكان إلقاء موسى عليه السلام في اليم من قبل أمه، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) ﴾ [القصص: 7]، ولكن مع التباين على مستوى الدوافع وراء الحادثتين، فهناك وقعت الحادثة بدافع الحقد والحسد والغيرة، ومن أجل التخلص من يوسف عليه السلام، فهي كانت من تدبير البشر وبغواية الشيطان، أما هنا فوقعت الحادثة بدافع الحب والحنان والشفقة، ومن أجل الحفاظ على حياة موسى عليه السلام، وهي كانت بوحي من الله ﷻ. فضلًا عن أن حادثة الإلقاء أبعدت يوسف عليه السلام عن أبيه وأهله لسنوات طويلة، أما هنا فانتهت الحادثة برجوع موسى عليه السلام إلى أمه بسرعة. وهناك حدث آخر تشترك فيه القصتان وهو حدث رؤيا الحاكم، ولكن مع التباين فيما تسببت فيه الرؤيا في كل منهما، فهناك في قصة يوسف عليه السلام كانت الرؤيا سببًا لبعث الحياة ونجاة الناس من المجاعة وخصوصًا بني إسرائيل الذين لجأوا إلى مصر بسببها، أما هنا فكانت سببًا في احتكار الحياة على المواليد الذكور لبني إسرائيل واضطهادهم.

2- التباين على مستوى الشخصيات.

تتباين الشخصيات السردية بين القصتين في أدوارها ووظائفها، فهناك في قصة يوسف عليه السلام نرى حرص الأب على ولده دون الأم التي لا نجد لها ذكرًا، أما هنا في قصة موسى عليه السلام فنجد غيابًا مطلقًا لشخصية الأب مقابل الحضور القوي لشخصية الأم. وهناك نجد الإخوة يمثلون الشخصية الجماعية السلبية، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴾ [يوسف: 15]، أما هنا فيمثل كل من هارون عليه السلام والأخت شخصيتين إيجابيتين تسهمان بدورهما في مساندة موسى عليه السلام في دعوته، أو حفظه ورعايته، فهما اللذان جاء فيهما قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) ﴾ [القصص: 35]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) ﴾ [القصص: 11]. وهناك في قصة يوسف عليه السلام نجد الشخصيات النسوية الممثلة في امرأة العزيز ونسوة المدينة يمثلن شخصيات سلبية معيقة للشخصية الرئيسة، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) ﴾ [يوسف: 33]، أما هنا فنجد الشخصيات النسوية الممثلة في أم موسى عليه السلام وأخته، وامرأة فرعون، وابنتي شيخ مدين يمثلن جميعهن شخصيات إيجابية أسهمن في بناء الشخصية الرئيسة ونموها. وهناك نجد السلطة الحاكمة الممثلة في شخصية الملك وأعوانه يمثلون شخصيات إيجابية متعاونة مع الشخصية الرئيسة، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) ﴾ [يوسف: 54]، أما هنا فنجد السلطة الحاكمة المتمثلة في شخصية فرعون وهامان وقارون والملأ والجنود يمثلون شخصيات سلبية مضادة للشخصية الرئيسة، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ(26)﴾ [غافر: 26]. كما نجد أن الحاكم في قصة يوسف عليه السلام يلقب بالملك، أما في قصة

موسى عليه السلام فيلقب بفرعون، لنجد في ذلك دلالة تاريخية تشير إلى تلك الحقبة التي فقد فيها الفراعنة حكم مصر لملوك الهكسوس.

3- التباين على مستوى الزمن.

بدأت قصة يوسف عليه السلام بحذف زمني شمل المرحلة الأولى من حياة يوسف عليه السلام منذ الولادة إلى حين صباه، فقدمت القصة يوسف عليه السلام في مرحلة متأخرة من طفولته، إذ نراه فيها صبيًا يقص على أبيه رؤياه، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) ﴾ [يوسف: 4]، أما قصة موسى عليه السلام فبدأت بمراحل زمنية سابقة تعود حتى إلى ما قبل ولادة موسى عليه السلام، لتربطها بلحظة ولادته، إذ قال تعالى: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) ﴾ [القصص: 3 – 7]. لا نجد في قصة يوسف عليه السلام تحديدًا للفترة الزمنية التي عاش فيها بعيدًا عن أبيه وأهله، ولكننا نجد في قصة موسى عليه السلام تحديدًا للفترة الزمنية التي عاش فيها بمدين بعيدًا عن أمه وأهله، خوفًا من بطش فرعون وملئه، وهي عشر سنوات.

4- التباين على مستوى المكان.

بدأت قصة يوسف عليه السلام في بادية أرض فلسطين، أما قصة موسى عليه السلام فبدأت بمصر، إذًا البيئتان متباينتان، فهناك ولد يوسف عليه السلام في بيئة بدوية، أما هنا فولد موسى عليه

السلام في بيئة حضرية. وهناك تباين بين مكاني إلقاء الشخصيتين، فهناك ألقي يوسف عليه السلام في الجب، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... (15) ﴾ [يوسف: 15]، أما هنا فألقي موسى عليه السلام في اليم، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... (7) ﴾ [القصص: 7]. ذلك الإلقاء الذي أوصل يوسف عليه السلام إلى قصر عزيز مصر، أما موسى عليه السلام فأوصله الإلقاء إلى قصر فرعون. كما إن إبعاد يوسف عليه السلام عن القصر والمجتمع كان بدخوله السجن، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) ﴾ [يوسف: 35]، أما إبعاد موسى عن القصر ومصر عمومًا كان بهروبه إلى مدين[961]، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) ﴾ [القصص: 22]. وتشترك القصتان في مسرح الأحداث الذي تمثله مصر، ولكن مع التباين فيما يؤديه المكان من أدوار، ففي قصة يوسف عليه السلام تمثل مصر مكانًا أليفًا، بحيث لجأ إليها بنو إسرائيل من أجل أن يبدأوا فيها حياة جديدة، وانتهت القصة بالدخول الجماعي لبني إسرائيل إليها طوعًا، إذ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) ﴾ [يوسف: 99]، أما في قصة موسى عليه السلام فمثّلت مصر مكانًا معاديًا ذاق فيها بنو إسرائيل شتى أصناف الظلم والاضطهاد على يد فرعون وجنوده، جعلت منهم أن يهربوا منها مكرهين، فانتهت القصة بالخروج الجماعي لبني إسرائيل منها، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) ﴾ [الدخان: 23 – 30].

---

[961] أحمد مخلف عبد، **أوجه الاختلاف بين قصتي يوسف وموسى عليهما السلام –دراسة موضوعية مقارنة–** (مجلة الباحث للعلوم الإسلامية، المجلد: 2، العدد: 1، 2021م)، 302-334.

المبحث الثاني: التباين في مستويات السرد:

للسرد القرآني منهجه الخاص، وأسلوبه الذي ينفرد به في عرض القصص، والذي يتسم بخصائص يتعلق البعض منها بالأدوات اللغوية والعناصر الأسلوبية(962)، والتي تسهم في إجراء تحولات أسلوبية اختيارية، تهدف إلى تحقيق أغراض فنية ودلالية: أما الفنية فتتمثل في إمتاع المتلقي وجذب انتباهه من خلال تباينات أسلوبية تكون مخالفة لتوقعاته. وأما الدلالية فتتمثل فيما تخلقه هذه التباينات من إيحاءات ودلالات ضمن سياقاتها، وذلك بالاعتماد على الإمكانات الفائقة التي تمتلكها لغة النص القرآني في التعبير، بشكل تُبرز معها وجوهًا من الإعجاز الفني والدلالي وقف عندها المفسرون والبلاغيون القدامى طويلًا، وحصروها في نطاق ظاهرة بلاغية سموها بالالتفات، ليعبروا من خلالها عن التباينات الحاصلة في مستويات الضمائر والأفعال(963)، وذلك من خلال خرق التقعيدات النحوية ومثالية اللغة في مستواها العادي والمألوف إلى مستواها الفني والإبداعي(964). واليوم نجد أن هذا المصطلح القديم تتقاطع دوائره بشكل كبير مع دوائر مصطلح جديد يسمى بمستويات السرد(965)، والتي يمثل الانتقال بينها تباينًا بين أساليب الكلام في مستويات عدة، تشمل الضمائر والأفعال والمشاهد السردية، ليندرج ذلك ضمن المظاهر الأسلوبية التي ترتبط بالتعبير اللغوي للسرد القرآني، والذي استطاع من خلال الاختيار الدقيق للكلمة الجمع بين الفائدة الدينية والمتعة الفنية والجمالية(966). ومن هنا جاء اتخاذ التباين في مستويات السرد عنوانًا لهذا المبحث، بحيث يتناسب مع ما يهدف إليه البحث من اتساع في دائرة التباين لتشمل جميع المستويات

---

(962) تمام حسان، **البيان في روائع القرآن –دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني–** (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1993م)، 559.

(963) حسن طبل، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1998م)، 23-34.

(964) محمد عبدالمطلب، **البلاغة والأسلوبية**، (القاهرة: دار نوبار للطباعة، ط1، 1994م)، 268.

(965) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 118.

(966) نجم، **فن القصة**، 111-112.

التي تتعلق بالتحولات السردية، سواء على مستوى الضمائر السردية، أو الأفعال السردية، أو على مستوى مسرح الأحداث والانتقال بين الأماكن السردية.

المطلب الأول: التباين في مستويات الضمائر السردية:

ويقصد به تلك التباينات التي يخلقها التحول إلى ضمير يتباين مع الضمير الأصلي في الحضور والغياب(967)، ويمثل وساطة لانتقال السرد بين جزئيات القصة الواحدة بصورة مباشرة ومن دون تمهيد، والتي تكون بمثابة تباينات في المنظور السردي(968). وبهذا يكسر التباين في مستويات الضمائر السردية أفق التوقع لدى المتلقي، ويحدث لديه خلخلة في مرجعية الضمير على مستوى البنية السطحية، فيتنبه لذلك ويقوم بإعادة الاستقرار للضمير في مستوى البنية العميقة*، وفي حالة عدم تنبه المتلقي إلى هذا التباين فإنه يحدث لديه خلل في مرجعية الضمير ويفقد تواصله مع النص، مما يؤدي إلى قلة انفعاله به، وضعف إدراكه

---

(967) الشاذلي الهيشري، **الالتفات في القرآن**، (جامعة تونس: حوليات الجامعة التونسية، العدد: 32، 1991م)، 169.

(968) الطراونة، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، 119.

* نجد للمصطلحين جذورًا في التراث النحوي العربي تتمثل في مؤلفات سيبويه وابن جني وعبدالقاهر والزمخشري وغيرهم من العلماء العربية، فالبنية السطحية هي هيكل الشيء ووحدته المادية الظاهرة. والبنية العميقة هي كامنة في صميم الشيء، وهي التي تمنح الظاهرة هويتها وتضفي عليها خصوصيتها. والبنية العميقة عند النحاة متمثلة في قولهم: والتقدير، وتقدير الكلام، وأصل الكلام، والمعنى...إلخ. وهذا ما يقولونه عند دراستهم للبنية السطحية. وكل موضوعات الحذف والزيادة في الكلام العربي وتقديرها عند النحاة وغيرهم، تدخل تحت البنية العميقة والبنية السطحية؛ فالبنية السطحية غير مفيدة فائدة صحيحة؛ لذلك يقدرون الكلام بالحذف أو الزيادة ليصح الكلام، يقول ابن السراج (ت316هـ):" ومن شأن العرب إذا أزالوا الكلام عن أصله إلى شيء آخر غيّرُوا لفظه، وحذفوا منه شيئا، وألزموه موضعا واحدًا إذا لم يأتوا بحرف يدل على ذلك المعنى ولم يصرفوه، وجعلوه كالمثل؛ ليكون ذلك دليلا لهم على أنّهم خالفُوا به أصل الكلام" أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، **الأصول في النحو**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1996م)، 181/2. ويقول:"فمن ذلك: ليس زيد بقائم، أصل الكلام: ليس زيد قائما، ودخلت الباء لتؤكد النفي، وخص النفي بها دون الإيجاب" البغدادي، **الأصول في النحو**، 259/2. واعتمد نعوم تشومسكي على المصطلحين في نظريته اللسانية التوليدية التحويلية، والبنية العميقة هي المعنى الموجود في نفس المتكلم، وهي تتعلق بالكفاءة التي تكشف عن المعرفة اللغوية الباطنية لديه، أما البنية السطحية فهي ما يلفظه المتكلم، أي ما يتعلق بالأداء اللغوي الفعلي لديه، وأصبح المصطلحان يشكلان لدى تشومسكي جانبي المعادلة التي تفهم على أساسها اللغات الإنسانية. ومنها دخل المصطلحان النظرية السيميائية للأدب، والتي تأخذ باعتبار المبدأ القاضي بانتاج البنيات المعقدة العميقة انطلاقًا من البنى السطحية، ومن مبدأ تعدد المعاني، فمثلت البنية العميقة فيها نموذجًا يختزن كل إمكانات السرد، والبنية السطحية صورة من هذه الإمكانات محققة في نص سردي. نعوم تشومسكي، **آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل**، ت: عدنان حسين، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2009م)، 45-51. عبده الراجحي، **النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج**، (بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر، 1979م), 115.علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، 55. لطيف زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، 38.

لدلالاته وجمالياته، هذا فضلًا عما يضفيه هذا الأسلوب من حيوية على السرد من خلال التباين الذي يحدثه في زوايا الرؤية[969]. واستنادًا إلى ما سبق فيمكن أن تظهر صور التباين في مستويات الضمائر السردية داخل السرد القرآني على ثلاثة أشكال هي كالآتي:-

أولًا: التباين بين الخطاب والغياب:

نجد مثل هذا المستوى من التباين عندما يريد السرد القرآني أن يناسب بينه وبين ما يحمله الحدث من تباين في مستويات أخرى تتعلق بالعناصر السردية، وهذا ما نجده في ذكر أصحاب الفلك الذين تتراوح حالهم بين الأمن والخوف في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) ﴾ [يونس: 22]، إذ يبدأ السرد بالتوجه إلى الحضور من خلال ضمائر الخطاب في الأفعال (يسيركم، كنتم)، ثم يتحول فجأة إلى الغياب من خلال ضمائر الغياب التي نجدها في (بهم، فرحوا، جاءهم، ظنوا، أنهم، بهم، دعوا)، ليحدث هناك تباين في مستوى الضميرين، فيتناسب ذلك مع التباين في مستويات عدة تتمثل في الزمان والمكان والشخصيات ومواقفها، أما الزمان والمكان فهما يتباينان ما بين زمن الركوب ومكانه عند الساحل حيث همّوا بالإبحار وبين زمن ومكان جريان الفلك وسط البحر بعدما جرت الرياح حسبما اشتهت أنفسهم، فأمِنوا الهلاك، ليتحول حضورهم عنده إلى غياب، وهذا دأب الإنسان أنه إذا أمِن غاب، فعندما تباين موقفهم بأن غابوا بعدما كانوا حاضرين قلبًا وقالبًا في البداية غيبهم الله ﷻ عبر ضمير الغياب[970]. كما يمكن أن نجد في هذا التباين في مستوى الضمائر دلالة تشير إلى التعجب من تباين حال القوم في أمرهم، إذ انقسموا إلى فئتين

---

[969] أحمد غالب الخرشة، **أسلوبية الانزياح في النص القرآني**، (عمان: الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1، 2014م)، 136.

[970] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 318/3.

متباينتين بين مؤمنين ومشركين، فناسب السرد القرآني ذلك بالتباين في توجيه الخطاب، فلما كان بصدد ذكر النعمة جاء بضمائر الخطاب التي تناسب جميع المخاطبين، ولكن عند الانتقال إلى ذكر الضراء انتقل السرد إلى ضمير الغياب للدلالة على أن القصد هنا هو الإفضاء إلى ما يخص المشركين لوحدهم، فقال (وجرين بهم)، واستمرت القصة بالسرد بضمير الغياب الذي يجمع بين الفريقين إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... (23) ﴾ [يونس: 23]، فأعطانا بذلك الدليل على أنه أراد التباين بين الفريقين، وأن ضمير الغيبة هذا يخص المشركين وحدهم، لأن هذا ليس من شيم المؤمنين، فأخرجهم من الخبر، لأنهم لا ينتمون إلى الذين يبغون في الأرض بغير الحق[971]. وكان للتباين في مستوى الضمائر دلالة تشير إلى تباين المشهد داخل السفينة قبل الإبحار وما بعده، نستشعر معه بالتباين في مواقف الركاب وأحاسيسهم مابين الإيمان والكفر، وما بين الأمن والخوف، وما بين الفرح والغم، وما بين الاستقرار والاضطراب.

يتعلق مستوى التباين بين الخطاب والغياب بمشاهد الآخرة، وما ينتج عنها من تباينات تتعلق بحال الأقوام في الآخرة، ومثال ذلك نجده في ذكر حدث دخول المؤمنين إلى الجنة، إذ قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) ﴾ [الزخرف: 70 – 71]، إذ نجد التباين بين حالين يتعلقان بزمنين متباينين: زمن ماقبل دخول المؤمنين وأزواجهم الجنة إذ هم على أبوابها، حيث يتلقون الأمر بالدخول، وزمن ما بعد الدخول حيث نراهم يتنعمون بنعيم الجنة بعد أن دخلوها واستقروا فيها، فلعل من الدلالات التي يشير إليها السرد القرآني من خلال هذا التباين في مستوى الضمائر هي التي تتعلق بتشريف

---

[971] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 135/11.

المخاطبين وتكريمهم عبر توجيه الخطاب إليهم مباشرة[972]، وفيه بيان لهم ولغيرهم أن دخولهم الجنة كان بإذن الله جل جلاله وعظيم كرمه وفضله، وعندما ينتقل إلى ضمير الغياب ففيه دلالات تشير إلى عظيم الجزاء والثواب الذي تلقاه المؤمنون في الجنة، وإلى الإشعار بتلبسهم بالنعيم وتقلبهم فيه، والتعامل مع حالهم على أساس تأكيد الحصول، وأنه مجرد إخبار عنه، ولو أن السرد استمر بضمير الخطاب لفُهم من ذلك أنهم وعدوا وبشروا بالنعيم لحظة الخطاب ولكنهم لما يتلبسوا به بعد. كما يمكن أن يكشف لنا هذا التباين في مستوى الضميرين دلالة التعظيم التي نستشعر معها أن الله ﷻ يذكر حالهم لغيرهم من ملائكته وسائر خلقه، مبينًا ما هم فيه من النعيم على سبيل التفخيم والتعظيم متضمنًا ذلك الدعوة إلى التأسي بهم[973]. ثم رجع السرد إلى صيغة الخطاب مرة ثانية في قوله تعالى: (أنتم فيها خالدون) إتمامًا من الله ﷻ للنعمة وزيادة في مسرتهم، ولأن هذا ما يقرره الرحمن وحده لا غيره[974].

وفي مشهد متباين لما سبق من مشاهد الآخرة نجد مثل هذا النوع من التباين في مستوى الضمائر، وذلك عند ذكر حدث دخول الكفار إلى جهنم، إذ قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴾ [يس: 63 – 65]، فبدأ السرد القرآني بضمير الخطاب ليحمل معه معاني التبكيت والتقريع للكفار وهم على حافة النار، ثم ينتقل إلى الإخبار عنهم عبر ضمائر الغياب في (أفواههم، وأيدهم وأرجلهم ويكسبون)، فهي تعود إلى الكفار الذين خوطبوا في بداية الآية بضمير الخطاب، لينتقل إلى مواجهتهم بخبرهم عبر ضمير الغياب، فيحمل معه دلالات تشير إلى التأكيد على تيئيسهم بأنه لا ينفعهم

---

[972] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 108/6.

[973] عبدالله علي عبدالله الهتاري، **العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (جامعة اليرموك، 2004م)، 94.

[974] فاضل صالح السامرائي، **مراعاة المقام في التعبير القرآني**، (بيروت: دار ابن كثير، ط2، 2019م)، 76.

الإنكار، وأن أمر دخولهم إلى جهنم بات حتميًا[975]، فجاء التباين في مستوى الضميرين ليعبر عن التباين بين حال الكافرين قبل تلك اللحظة الرهيبة وبعدها، فنستشعر مع ذلك حالة التباين العجيبة التي حصلت عندهم، وهي ختم الأفواه وإخراسها، وتحول وظيفة النطق من مصدرها الأصلي الفم إلى الأيدي والأرجل، فيخلق لدى المتلقي صورًا ذهنية تتشكل على أساس من التباين في الوظائف والحالات تدعو إلى الخوف والفزع والعجب.

ويمكن أن يحدث التباين في مستوى الضميرين للجمع بين أصناف متباينة من الخلق، وفي أحوال وظروف زمانية ومكانية متباينة، ومثال ذلك نجده من خلال الانتقال من الغياب إلى الخطاب في قصة إبليس عند محاورته مع الله ﷻ ضمن سياق سورة الإسراء، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) ﴾ [الإسراء: 63]، فنرى أن السرد قد انتقل من الغياب في (فمن تبعك) إلى الخطاب في (جزاؤكم)، فجمع السرد القرآني بين ضميرين متباينين في سياق واحد، وذلك للدلالة على شمولية الجزاء الذي طال إبليس ومن تبعه، فيكون ذلك أكثر تناسبًا مع حالة التباين الحاصلة في مواقف إبليس وتابعيه، والمتمثلة في التحول من الإيمان إلى الكفر، هذا فضلًا عما يوحي به الخطاب من تعميم الأمر الإلهي، فيشمل ذلك إبليس وتابعيه إلى يوم القيامة؛ لأن إبليس هو الأصل في المعاصي، فجمع السرد بين الحضور والغياب في توجيه الخطاب للدلالة على الجمع بينه وبين تابعيه[976]، ونستدل بذلك على معاني تعبر عن بلوغ الغاية في التهديد، وبأن لا مراء ولا تفويت[977]، والقصد هنا تخويف ذرية آدم عليه السلام من الاشتراك في المصير مع إبليس عن طريق اتباعه.

---

[975] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 50/23.

[976] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 6/21.

[977] الإمام القشيري، **لطائف الإشارات–التفسير الصوفي الكامل للقرآن الكريم**، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 200م)، 357/2.

قد يراد من التباين في مستوى ضميري الخطاب والغياب إظهار شدة التناقض بين أمرين اثنين بقصد التهويل, وهو ما نجده في تصوير المجرمين الذي افتروا على الله ﷻ الكذب ضمن سياق سورة مريم، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) ﴾ [مريم: 88 – 89]، فقد تحول السرد من الإخبار عن المجرمين بضمير الغياب في (قالوا) إلى توجيه الخطاب إليهم مباشرة بضمير الخطاب في (جئتم)، ليتناسب ذلك مع فعلهم الذي يدل على التباين الشديد بين الحقيقة والافتراء، ثم ليجمع الخطاب المباشر بين فئات متباينة ينسب إليها ذلك الافتراء العظيم، وهم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ﷻ، وأهل الكتاب من اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ﷻ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ﷻ[978]، فكان من معاني هذا التباين "تهويل الأمر، والتعبير عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة"[979].

يستخدم السرد القرآني هذا النوع من التباين بين ضميري الخطاب والغياب تناسبًا مع حالات التباين التي تحصل على أساس مراعاة اختلاف المقامات والأحوال التي تتعلق بالمخاطب، ومثال ذلك نجده في قصة الأعمى مع رسول الله ﷺ ضمن سياق سورة (عبس)، إذ قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ (8) وَهُوَ يَخْشَىٰ (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (10) ﴾ [عبس: 1 – 10]، فبدأ السرد القرآني بضمير الغياب تعبيرًا عن معاتبة ولطف في وصف عبوس النبي ﷺ وتوليه، فلم يرد الله ﷻ مواجهته بهذا الوصف عبر الخطاب، وإنما جاء على شكل إخبار فحسب، ثم تحول إلى ضمير الخطاب بقصد المصارحة اللطيفة واللوم الخفيف والعتاب الرقيق[980]، فنجد لهذا التباين

---

[978] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 139/16.

[979] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 282/5.

[980] الخرشة، **أسلوبية الانزياح في النص القرآني**، 157.

بين الضميرين دلالة تشير إلى التباين في مستويات العتاب التي واجه الله ﷻ بها رسوله ﷺ، فلم يرد الله ﷻ أن يفاتح الرسول ﷺ بما يفهم أنه هو المقصود بالكلام، فجاءت مخاطبته بأسلوب الغياب، ليكون أول ما يسمعه الرسول ﷺ يدعوه إلى الترقب لمعرفة المعني من ضمير الغائب، فلا يفاجئه بالعتاب، وبذلك يتلقى الرسول ﷺ العتاب بصورة تدريجية على أساس التباين في الوتيرة، ليكون أهون وقعًا[981].

وقد ناسب التباين بين الضميرين تباينات أخرى تتعلق بالشخصيات والمواقف والأهداف، إذ جمع السرد القرآني بين شخصيتين متباينتين تتمثلان في الأعمى الذي يمثل فئة المؤمنين الذين كل همهم استزادة الهداية والإيمان، تقابلها شخصية الذي استغنى، لتمثل فئة الكافرين الذين يستغنون عن التزكية والهداية. كما يمكن أن يعبر السرد القرآني من خلال ذلك عن التباين الذي نتج عن تحول النبي ﷺ من حال إلى حال لحظة إقبال الأعمى، والذي تمثل في عبوسه وتوليه اللذين عبر من خلالهما عن حالتين إحداهما شعورية تمثلت بالغضب والعبوس، والأخرى جسدية تمثلت بالجفاء والإعراض، فأسهم ذلك في خلق مفارقة مبنية على أساس التباين في المواقف، إذ قوبل سعي وإقبال الأعمى بالعبوس والتولي، في حين قوبل استغناء المستغني وإدباره بالتصدي.

ولعل في مستويات التباين هذه التي نتجت من خلال التحول بين الضميرين حكمة أراد الله ﷻ من خلالها الزيادة في علم النبي ﷺ، وذلك بالإشارة إلى ما تنطوي عليه الأحوال جميعًا من تباين في نواحي الصلاح بين الخفاء والظهور، أو القوة والضعف، فيكون التعامل معها على أساس التباين في النظر إليها، ومعالجتها، إذ لا بد أن يتباين العلاج بتباين الأشخاص، فكان في بيان حال الشخصيتين درسًا أراد الله ﷻ أن يلقن نبيه ﷺ إياه، وكان أساسه إظهار التباين بين ظاهر الحال وباطنه عند الشخصيتين، فظاهر حالهما يدعو إلى الاهتمام بالذي تصدى له دون الذي تولى عنه رغبة وشوقًا في هداية الأول، إذ رأى ذلك

---

[981] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 105/30.

هو الأهم والأرجح، غير أن وراء ذلك الظاهر أمرًا آخر يكمن سره وراء ما لا يعلمه إلا الله ﷻ الذي يعلم السر وما يخفى, وهو أمر مؤمن يريد الازدياد في الخير، يقابله أمر كافر مستغن عن الهداية، ومصر على كفره، ولا يفيد معه البرهان والحجة، وبعد التعمق في التفكير في كلا الأمرين يكتشف النبي ﷺ وبعون من الله ﷻ رجحان أمر المؤمن على الكافر, بعد أن اجتهد الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر وفق قاعدة إعمال أرجح المصلحتين بحسب الظاهر[982].

ولعلنا نتلمس تجانسًا فنيًا للتباين بين الضميرين مع البنية السردية للقصة، والتي جاءت ثنائية على أساس التباين بين اتجاهين سلكهما السرد في البناء: أحدهما يخص الأعمى، والآخر يخص الذي استغنى، ليتنامى السرد من خلالهما وفق خاصية المد والجزر، فكأن الرسول ﷺ يواجه العتاب من زوايا متباينة، تتمثل في عبوسه في وجه الأعمى وتوليه أولًا، ثم في توجهه نحو الذي استغنى والاهتمام به ثانيًا، ثم العودة مجددًا إلى العتاب على تلهيه عن الأعمى والانشغال عنه ثالثًا, وبذلك تولدت وجهتان متباينتان من حيث الكم: الأولى كانت نتيجة موقف الرسول ﷺ تجاه الأعمى الفرد وهي جاءت مضاعفة ثلاث مرات، والثانية كانت نتيجة موقفه ﷺ من وجهاء قريش الجماعة، وجاءت مرة واحدة، وما بين تكثيف العتاب وتقليله يفسر لنا السرد القرآني عرفًا اجتماعيًا, ذلك أن الغني مهما قوبل بالمواجهة والإكبار فإنه لا يتأثر؛ لأنه يرى نفسه دائمًا في موقع قوة من حيث المال والنفوذ، أما الفقير فيزداد تأثرًا وتحطمًا إذا قوبل بالصد والإعراض، وخصوصًا إذا كان لديه نقص خَلقي، فجاء التباين بين الاتجاهين وسيلة يؤكد السرد القرآني من خلالها رجحان كفة الأعمى على حساب الذي استغنى في الأحقية بالعناية والاهتمام، حيث التقى الاتجاهان أربع مرات، ثلاثًا منها تتعلق بالدفاع عن الأعمى، والرابعة تتعلق بحالة عدم الجدوى من المحاولة

---

[982] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 30/109-110.

مع الذي استغنى. وكأننا أمام مشهد فني يجسد فيه السرد القرآني صورة فنية نرى فيها تشبيهًا بين السير في الاتجاهين وبين إقبال ذلك الضرير الذي تتباين ضربات عصاه على الأرض ما بين اليمين والشمال(983).

ثانيًا: التباين بين التكلم والغياب:

مثال هذا النوع من التباين نجده في ذكر الأحداث التي تتعلق بخلق الآيات الكونية من السماء والأرض والكواكب والليل والنهار، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) ﴾ [الأنبياء: 31 – 33]، فبدأ السرد القرآني في الآيتين الأولى والثانية بضمير التكلم المتمثل في الفعل (جعلنا) ثلاث مرات، ثم تحول إلى ضمير الغياب في الآية الثالثة (وهو الذي خلق)، وقد استثمر السرد القرآني التباين بين الضميرين من أجل الانتقال إلى إبراز التباين المعجمي بين الفعلين (جعل وخلق) من حيث الدلالة، إذ يستعمل (خلق) للتعبير عن إبداع الشيء من غير أصل واحتذاء، في حين يستعمل (جعل) للتعبير عن إيجاد شيء من شيء، وتكوينه منه، أو تصيير الشيء على حالة دون حالة(984)، فعبّر التباين بين الفعلين عن التباين في كيفية إيجاد الأشياء وتكوينها، فكان الفعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، بينما يكون الفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها(985)، وهذا ينسجم مع التباين في مستويات إدراك الإنسان للموجودات بين ما هو غيبي نستدل عليه من خلال الفعل (خلق)، وبين ما هو حسي نستدل عليه من خلال الفعل (جعل).

---

(983) مزاري، **مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية**، 183-185.

(984) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 122، 197.

(985) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 127/7.

وبهذا نستطيع القول إن التباين المعجمي بين الفعلين (جعل وخلق) جاء متناسبًا مع التباين بين لفت الانتباه إلى المحسوسات في الآيتين الأوليين، وبين لفته إلى ما يكمن خلفها من حكم وأسرار نجدها في الآية الثالثة، وبذلك يكون التباين بين ضمير التكلم في (جعلنا) وبين ضمير الغياب في (خلق) متناسبًا مع التباين بين الحضور والمشاهدة لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، وبين التواري والخفاء لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة، فجاء التباين بين الضميرين ضمن هذا السياق ليؤدي دورًا في لفت الأبصار واستنارة البصائر والعقول إلى تأمل تلكم المشاهد الكونية الدالة على قدرة الله ﷻ، وهو تعبير عن ظاهر ما يتعلق بعلوم الموجودات وباطنه، والمحسوس منها والغيبي[986]. هذا فضلًا عن مناسبة التباين بين الضميرين والفعلين مع التباين بين الشمس والقمر, من حيث أدوارهما ووظائفهما ما بين الإضاءة والإنارة، وكذلك من حيث الاختفاء والظهور الذي تنتج عنه آيتا الليل والنهار.

وقد يأتي مثل هذا النوع من التباين بما يناسب نمط الأفعال السردية، وهو ما نراه في الأحداث المتعلقة بقصة الخلق، حيث يتحول السرد من الغياب إلى التكلم، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) ﴾ [فصلت: 9 – 12]، فنجد تباينًا في مستوى الضمائر من خلال تحول السرد من الغياب في (خلق، وجعل، واستوى، فقال، فقضاهن، وأوحى) إلى ضمير التكلم في (زينا)، ليناسب ذلك مع التباين بين الأفعال التي تأتي من حيث النمط على نوعين: "أحدهما وجه الإخبار عنه بوقوعه في الأيام المذكورة، وهو خلق الأرض في يومين،

---

[986] طبل، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، 111.

وجعل الرواسي من فوقها، وإلقاء البركة فيها، وتقدير الأقوات في تمام أربعة أيام، ثم الإخبار بأنه استوى إلى السماء, وأنه أتمها وأكملها سبعًا في يومين؛ فأتى في هذا النوع بضمير الغائب. والثاني قصد به الإخبار مطلقًا من غير قصد مدة خلقه، وهو تزيين سماء الدنيا بمصابيح، وجعلها حفظًا؛ فإنه لم يقصد بيان مدة ذلك، بخلاف ما قبله؛ فإن النوع الأول يتضمن إيجادًا لهذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة اليسيرة، وذلك من أعظم آثار قدرته. وأما تزيين السماء الدنيا بالمصابيح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم، فتحول من الغيبة إلى التكلم"[987]. هذا فضلًا عن أن التباين الذي أحدثه التحول على مستوى الضميرين جاء متناسبًا مع حالة التباين التي نستدل عليها من خلال التمييز بين ما هو غيبي وما هو حسي، فالأفعال (خلق، جعل، بارك، قدر، استوى، قال، أوحى) تدل على أحداث غيبية وقعت منذ الأزل لا يعلمها الإنسان إلا من خلال إخبار الله ﷻ عنها، فناسب السرد القرآني بين غيبيتها وضمير الغياب الدال عليها، أما فعل التزيين فآثاره محسوسة ماثلة للعيان وحاضرة للمشاهدة، لذا جاء ضمير المتكلم الدال على الحضور مناسبًا مع حسية حدث التزيين. فكان لهذا التباين بين الضميرين دور في لفت الانتباه إلى تأمل آثار خلق الله ﷻ والتعبير عن عجائب صنعه ﷻ، بغية الوصول إلى الاقتناع والاطمئنان[988].

وقد نجد مثل هذا المستوى من التباين بين الضمائر السردية فيما يتعلق بالخصوصيات المميزة للشخصيات السردية وإظهار التباين بينها، ومثال ذلك نجده في ذكر التصنيف الإلهي للرسل عليهم السلام والتفاضل بينهم من حيث درجات التكريم، إذ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... (253) ﴾ [البقرة: 253]، فنجد التباين في مستوى الضمائر من خلال تحول السرد من ضمير التكلم في (فضلنا) إلى

---

(987) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 3/321-322.

(988) طبل، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، 112.

الغياب في ذكر اسم الجلالة، وذلك إشارة إلى التباين بين التفضيل الممثل بالتكليم والرفع وبين تفضيل الرسل عليهم السلام بعضهم على بعض، فالأول هو الأعظم[989]، إذًا كان في التباين بين التكلم والغياب هنا والتحول إلى اسم الجلالة دلالة تشير إلى التباين بين التكليم والرفع، وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما لحق من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس[990].

والشيء نفسه نجده في التباين الذي يحدثه السرد القرآني بين عموم الرسل عليهم السلام وبين موسى عليه السلام، من خلال التباين في مستوى الضمائر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) ﴾ [النساء: 163 – 164]، فنرى هناك تباينًا في مستوى الضمائر من خلال التحول من التكلم في (أوحينا وقصصنا) إلى الغياب في (كلم الله موسى تكليما)، وذلك للإشارة إلى التباين ما بين التكليم الذي حظي به موسى عليه السلام من الله جل جلاله وبين الإيحاء الذي فعله جل جلاله مع عموم الرسل والنبيين عليهم السلام[991].

يستخدم السرد القرآني هذا المستوى من التباين للتعبير عن حدث يتميز بالخصوصية في الحاجة إلى بيان وقوعه والوقوف عند تفاصيله، ومثال ذلك نجده في قصة أصحاب الكهف التي تباينت الروايات في سردها بين الناس، فنزل فيها القول الحق من عند الله ﷻ، إذ قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾ [الكهف: 13]، فبدأ السرد القرآني بضمير التكلم في (نحن نقص)، وذلك لإظهار التباين بين ما ذكره الناس من هذه القصة من قبل بغير الحق وبين ما هو القصص

---

[989] السامرائي، **مراعاة المقام في التعبير القرآني**، 62.

[990] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 2/3.

[991] السامرائي، **مراعاة المقام في التعبير القرآني**، 76.

الحق الذي هو من عند الله جل جلاله[992]، فناسب ضمير المتكلمين الدال على العظمة مع القصص الحق بتفاصيله وجزئياته التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، ثم تحول السرد إلى ضمير الغياب في (آمنوا بربهم) لنلحظ هنا تباينًا في مستوى الضمائر بين التكلم والغياب، وذلك للدلالة على أن الإيمان بالله ﷻ هو إيمان بالغيب، فناسب معه التحول إلى ضمير الغياب، وكذلك "للإشعار بعلية وصف الربوبية وإيمانهم"[993]. ثم تحول السرد مرة أخرى إلى ضمير المتكلمين الدال على العظمة، وذلك ليستشعرنا معه بالرعاية الإلهية التي أحاطت بهؤلاء الفتية من كل جانب، فلما اتخذوا قرارهم وآمنوا جاءهم الرد الإلهي بأن تولاهم ونور بصائرهم وزادهم هدى وربط على قلوبهم[994]، وكأن التباين بين الضميرين يعبر عن تلك العلاقة الوثيقة بين العبد وربه، والتي تتشكل على أساس التباين بين العطاء والعطاء المتبادل، فكلما بادر العبد بالعطاء والتضحية من أجل إيمانه بربه أجابه الرب بعطاء أفضل.

يستخدم السرد القرآني التباين في مستوى الضمائر بين التكلم والغياب تعبيرًا عن التناسب مع التمييز بين مصائر الشخصيات على أساس الكفر والإيمان، ومثال ذلك نجده في خاتمة قصة عيسى عليه السلام، وذلك عندما أحس من قومه الكفر ودعا أنصاره إلى الله ﷻ، واستجاب له الحواريون، فجاء أمر الله ﷻ بتوفي عيسى عليه السلام ورفعه إليه ﷻ، وهناك يبشره الله ﷻ بجعل المؤمنين فوق الكافرين إلى يوم القيامة، حيث يحكم الله ﷻ بينهم، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ﴾ [آل عمران: 56 – 57]، فقد ناسب هذا التباين بين الضميرين مع التباين بين مقامي العذاب والثواب، وذلك لما لضمير المتكلم الدال على الذات الإلهية من دلالات تشير إلى شدة

---

(992) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8852/14.

(993) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 217/15.

(994) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 8853/14.

التخويف والتهديد للكافرين والتفرغ لهم إمعانًا في التنكيل بهم، ولكن عندما تحول السرد إلى الحديث عن المؤمنين وجزائهم في الآخرة عبر عن ذلك بضمير الغياب، إذ أراد من ذلك الانسجام والتوافق مع إبراز التباين بين الجماعتين ومصائرهما[995]، إذ يتباين تحديدها من حيث الوصف والمكان والزمان، فجاء وصف مصير الكافرين بالعذاب الشديد محددًا مكانه وزمانه المتمثلين في الدنيا والآخرة، وهذا يتناسب مع الحضور الذي يدل عليه ضمير التكلم، أما مصير المؤمنين فلم يحدد جزاءهم بوصف معين، ولم يقيده بمكان وزمان معينين، ليترك المجال للخيال واسعًا أمام الكيفية التي يتصور بها إياه، فجاء بضمير الغياب ليناسب به حالة عدم التحديد هذه.

يمكن أن يعبر التباين في مستوى ضميري التكلم والغياب عن دلالات فنية تتعلق بالتباين في مستوى التبئيرات المختلفة[996]، ونجد مثال ذلك في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وتحديدًا عند نسيان السمكة، إذ قال تعالى: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾ [الكهف: 64]، فتحول الضمير من المتكلم في (ما كنا نبغ) إلى ضمير الغياب في (فارتدا)، وعندما نتأمل الآية الكريمة يتبين لنا أننا نقف أمام مشهد سردي مليء بالحركة تأتينا تفاصيله السردية عبر تبئيرين سرديين متباينين: أحدهما داخلي ينقل لنا تصور موسى عليه السلام للحدث بعدما أبلغه فتاه بأنه نسي الحوت عند الصخرة، حيث اتخذ سبيله في البحر سربًا، وهذا يجعلنا وكأننا نسمع كلامه في لحظة الحضور، فناسب ذلك بضمير المتكلم الدال عليه. أما الثاني فهو تبئير في درجة الصفر، حيث ينقل لنا السرد ردة فعلهما

---

[995] أحمد سعيد محمد، **التوجيه البلاغي في القراءات القرآنية**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط2، 1997م)، 357.
[996] جينيت، **خطاب الحكاية**، 201.

السريعة المتمثلة في ارتدادهما السريع ورجوعهما، وانقلابهما عنا ليصبحا في حالة غياب بالنسبة لنا، فكان التعبير عنهما بضمير الغياب مناسبًا لحالهما عند ذلك الموقف[997].

ثالثًا: التباين بين التكلم والخطاب:

لا يأتي هذا النوع من التباين إلا في مواضع محدودة في السرد القرآني، وذلك لما يتميز به موقفا الخطاب والتكلم من تباين تام، فمن الصعب أن نتصور الشخص الواحد متكلمًا ومخاطبًا في الموقف والسياق نفسه، أي أن يكون مرسلًا ومستقبلًا في آن واحد[998], والمثال الأبرز لهذا النوع من التباين نجده في سورة (يس) وتحديدًا في قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) ﴾ [يس: 21 – 22]، فبدأ السرد بضمير الخطاب في (اتبعوا)، ثم تحول إلى ضمير المتكلم في (مالي لا أعبد الذي فطرني)، ليتحول منه إلى ضمير الخطاب مرة أخرى في (ترجعون)، فنجد هناك تباينًا في مستوى الضميرين، ولعل في ذلك دلالة تشير إلى أن السرد القرآني أراد أن يعبر من خلال هذا التباين في مستوى الضميرين عن شتى السبل المتباينة التي سلكها الرجل الساعي لدعوة قومه، فهو عندما يتحول من الخطاب إلى المتكلم إنما يريد استمالة قلوب أبناء قومه من خلال إظهاره للتلطف بهم، حيث أدخل نفسه في التناصح من أجل المصلحة العامة التي تهمه وإياهم، وذلك في محاولة منه عدم استثارة غضبهم، لعل ذلك يساعد في تقبلهم لما يقوله، وذلك عندما يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريده لنفسه[999]. وعندما يتحول السرد إلى ضمير الخطاب مرة أخرى، فإنه يريد الإشارة إلى أن الرجل يريد مساعدة قومه من خلال التحذير المباشر، فينبههم إلى

---

[997] علي علوش، **الالتفات وأثره في اتساق القصص القرآني– سورة الكهف أنموذجًا**، (مجلة الموروث، المجلد التاسع، العدد الثاني، كانون الأول/2021م)، 240.

[998] طبل، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، 116.

[999] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 368/22.

المصير الحتمي، وهو الرجوع إلى الله ﷻ، وذلك أملًا منه بأن تنفع معهم هذه الطريقة في استيقاظهم وإفاقتهم من غفلتهم. ولعلنا نتلمس تباينًا آخر يريد السرد القرآني الإشارة إليه من خلال التباين بين الضميرين هنا، وهو ما يتعلق بالتباين بين الشخصيات، وذلك على أساس التباين بين الإيمان والكفر، فعندما يتوجه الرجل إلى قومه بالخطاب المباشر ثم يتحول منه إلى التكلم، إنما يريد الجمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه، وأنه قد آمن من قبل، ذلك الإيمان المبني على أساس إظهار مطلق عبوديته لله ﷻ في كل الأحوال[1000]. وقد يكون هذا هو السبب في عدم إدخال نفسه في الرجوع معهم، لأنه يرى نفسه راجعًا إلى الله ﷻ منذ اللحظة التي اهتدى فيها للإيمان، أو قد يكون أحس من قومه الغدر ونيتهم في قتله فحسب نفسه في غير هذا المكان والزمان اللذين يتحدث فيهما إليهم، وإنما ينتسب إلى الآخرة حيث المثول بين يدي الله ﷻ. وكان لأسلوب الرجل في التحول المتكرر من الخطاب إلى التكلم دلالة فكرية وعقدية تتمثل في وضع المتلقي أمام تباين يتقابل فيه منهجان متضادان: أحدهما مبني على الفطرة السليمة الداعية إلى الهداية، والآخر مبني على الانحراف الداعي إلى الضلال، فكان الرجل الساعي أنموذجًا حيًا لتمثيل ذلك التباين الحاصل بين الهداية والضلال[1001].

وقد تآلف مع هذا التباين على مستوى الضميرين تباين من نوع آخر يتعلق بالاستخدام المعجمي في تسمية مكان الحدث ما بين القرية والمدينة، فبعد أن سمى السرد المكان في البداية بالقرية في قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) ﴾ [يس: 13]، نجد أنه يسمي ذات القرية بالمدينة، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) ﴾ [يس: 20]، لنجد أن ذلك يتعلق بالتباين في الدلالة المعجمية للتسميتين، ففي الوقت الذي تدل فيه

(1000) الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 55/26-56.

(1001) قطب، **في ظلال القرآن**، 2964/5.

القرية على مجتمع أهلها فيها، نجد أن المدينة تدل على المكان والحيز لذاته كظرف[1002]، فناسب ذكر المدينة في هذا السياق بدلالتها على البعد بين أطرافها [1003] مع التركيز على حرص الرجل وإخلاصه في بذل الجهد من أجل نصرة الرسل ودين الحق[1004].

وأسهم التباين بين ضميري الخطاب والتكلم ضمن هذا السياق في إبراز التباين الذي يتسم به موقف الرجل الساعي مقارنة مع المواقف السابقة لمناصري دعوة الحق في القبول والدفاع عنها، وذلك ضمن نطاقين متباينين: الأول ضيق يشمل تباين موقفه الإيجابي مع موقف قومه السلبي داخل الحيز المكاني والزماني الذي يعيش فيه معهم، أما الثاني فهو أوسع، إذ يشمل تباين موقفه المتفرد من بين جميع المستجيبين لدعوة الرسل عليهم السلام من قبل إلى يومه، فلم يكتف كسابقيه بالإيمان الصامت، وإنما حاول الدفاع عنه قولًا وفعلًا، والنتيجة أنه ضحى بحياته من أجله[1005].

يستخدم السرد القرآني هذا النوع من التباين في مستوى الضميرين بين التكلم والخطاب بالتناسب مع إبراز المنطلقات الفكرية التي يتخذها المتحدث في إقناع المخاطبين، وهذا ما نجده في قصة صالح عليه السلام عندما توجه إلى قومه بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) ﴾ [هود: 61]، وفي قصة شعيب عليه السلام عندما توجه إلى قومه بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) ﴾ [هود: 90]، فحدث هناك تباين في مستوى الضميرين، إذ تحول السرد من ضمير الخطاب في (اعبدوا، فاستغفروه، توبوا) في الآية الأولى، وفي

(1002) محمد حسن حسن جبل, **المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة، مكتبة الآداب، ط1, 2010م), 1757، 2048.

(1003) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، 252/6.

(1004) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 212.

(1005) يراجع المطلب الثالث من المبحث الأول من الفصل الأول من البحث.

(استغفروا، توبوا) في الآية الثانية إلى ضمير المتكلم في (إن ربي قريب مجيب) التي أطلقها صالح عليه السلام، وفي (إن ربي رحيم ودود) التي أطلقها شعيب عليه السلام، فكان لهذا التباين بين الضميرين دلالات تشير إلى التركيز على التباين بين عبادة الله الواحد الأحد ﷻ وبين ما يعبدونه من آلهة، وإظهار عظمته ورحمته وقربه من عباده المؤمنين وسرعة إجابته لدعائهم، فهو يسهم في دفع التوهم في انصراف تلك الصفات إلى آلهتهم في حال إذا جاء القول إن ربكم قريب مجيب أو رحيم ودود(1006). كما يدل ذلك على الإحساس المتباين بين الرسولين من جهة وبين قوميهما من جهة ثانية تجاه تلك الصفات الإلهية، فهما عليهما السلام وحدهما العالمان بها من دون قوميهما.

المطلب الثاني: التباين في مستوى زمن الأفعال السردية:

يتعامل السرد القرآني مع الأفعال السردية تعاملًا مميزًا، إذ يخرجها من زمنها الصرفي واستعمالاتها الفلسفية التي تستدعي تخصيص كل فعل للدلالة على زمن معين ما بين الماضي والحاضر والمستقبل, ويتجاوز بها إلى التباين في دلالاتها، وذلك بالاعتماد على السياق والقرائن اللفظية التي من شأنها تعيين الدلالة الزمنية وترشيحها لزمن معين(1007)، فنجد فيه تباينًا في مستوى الأفعال السردية ضمن السياق الواحد، مثل التباين بين الماضي والمضارع، أو بين الماضي والأمر، أو بين المضارع والأمر، وهذا من شأنه أن يلفت انتباه المتلقي ويثير فكره وخياله باتجاه التفاعل مع النص، ومحاولته إعادة التشاكل بين صيغ الأفعال

(1006) بسيوني عبدالفتاح فيود, **علم المعاني-دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني**، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع, ط4, 2015م), 258-259.

(1007) فاضل مصطفى الساقي، **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، (القاهرة: مكتبة الخانجي, دط، 1977م)، 229.

المتباينة وأزمنتها[1008]. ويمكن تمثيل مستويات التباين بين الأفعال السردية ضمن شبكة العلاقات التي يؤسسها السرد القرآني للربط بينها داخل نسيجه السردي وهي كالآتي:-

أولًا: التباين بين الماضي والمضارع:

يستخدم السرد القرآني التباين في مستوى الأفعال السردية بين الماضي والمضارع بالتناسب مع إظهار التباين في المعاني والدلالات المتعلقة بالأحداث والشخصيات، وذلك ما نجده في قصة بني إسرائيل حين يوجه إليهم الخطاب في قوله تعالى: ﴿ ... وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) ﴾ [البقرة: 87]، فنجد التباين في مستوى الزمنين من خلال التحول من الماضي في (كذبتم) إلى المضارع في (تقتلون)، وذلك لما يمتلكه الفعل المضارع من قوة الاستحضار والاستمرارية في تصوير حالهم الشنيعة التي تتمثل في قتلهم الأنبياء والرسل عليهم السلام[1009]. أو لعل في ذلك إشارة أيضًا إلى إظهار التشابه بين أجيالهم المتعاقبة عبر الزمن في طبيعتهم المتقلبة والعدوانية تجاه الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأن مرور الأزمان والعصور لم يغير من طبيعتهم هذه من شيء، فيوصل السرد القرآني حاضرهم بماضيهم، ويشير إلى انتقال هذه النزعة العدوانية القاتلة انتقالًا غير منقطع من الأجداد إلى الأبناء والأحفاد. وقد يحمل هذا التباين في مستوى الأفعال دلالة تتعلق بالأحداث المعاصرة لزمن السرد، فتشير إلى أنهم مستمرون في محاولاتهم لقتل الأنبياء، إذ إنهم كانوا يحومون حول قتل النبي ﷺ لولا أن عصمه الله ﷻ منهم[1010]. أو قد يعبر ذلك عن التباين في مواقفهم المعادية تجاه الرسول ﷺ ودعوته ما بين التكذيب والقتل، فمجيء (كذبتم) بصيغة الماضي دليل على شعورهم بعدم الجدوى في

(1008) الخرشة، **أسلوبية الانزياح في النص القرآني**، 136.

(1009) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 598/1.

(1010) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 85.

المضي بهذا الاتجاه إلى درجة وصلوا فيها إلى اليأس، وذلك لدلائل من كتبهم التي تنبئهم بصدق رسالته التي استتب أمرها وبدأت بالانتشار، فلم يبق في أيديهم إلا التوجه نحو القتل الذي طالما حاولوا تنفيذه مرارًا وتكرارًا، ولكن باءت محاولاتهم كلها بالفشل والخذلان بفضل الله ﷻ وحفظه، ولهذا جاء بالفعل (تقتلون) متناسبًا مع دلالات الحضور والاستمرارية.

ونجد هذا النوع من التباين أيضًا في قصة النشور، إذ قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (9) ﴾ [فاطر: 9]، فهناك تباين في مستوى الأفعال من خلال التحول من صيغة الماضي في (أرسل) إلى صيغة المضارع في (تثير)، ثم العودة إلى الماضي مرة أخرى في (فسقناه، فأحيينا)، إذ جاء الفعل (تثير) متباينًا عما يسبقها أو يليها من الأفعال، ويأتي ذلك في انسجام مع ما يمتلكه الفعل (تثير) من فعالية في الاستدلال على تصوير الحال التي تقع فيها إثارة الرياح للسحاب، وما له من قوة استحضار للحدث بتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، بشكل أثار السرد القرآني من خلال ذلك ذهن المتلقي للانتباه إلى تلك الحال، حيث أكسبها خصوصية استدعته إلى التفكر والتأمل(1011) في قصة النشور، واستشعرته بالتباين الحاصل بين حالتي الموت والحياة، واللتين يرجع شأنهما إلى القدرة المطلقة لله ﷻ. وجاء التباين في مستوى الأفعال للدلالة على التحول والصيرورة بين المتباينات، المحسوسة والغيبية من الظواهر، فإرسال الرياح حدث غيبي من الله ﷻ عبّر عنه السرد القرآني بصيغة الماضي، ولكن عندما تتجسد آثاره في إثارة السحاب يتحول السرد إلى صيغة المضارع الدالة على الاستحضار والتمثيل الحي، وعندما يأتي الحديث عن وجهة السوق وفعل الإحياء اللذين هما

(1011) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 882.

من اختصاص القدرة الغيبية لله ﷻ يعود السرد إلى صيغة الماضي مرة أخرى، وكأنه يصور لنا عبر تباين الأفعال مسألة الموت والحياة، فيمثل بذلك دليلًا حيًا وماثلًا عن حقيقة البعث[1012].

يسهم التباين في مستويات الأفعال السردية في تصوير المشاهد السردية بأبعادها المتباينة، بشكل يضفي على أحداثها الحيوية والحركية، مما يساعد في جذب انتباه المتلقي وإثارة خياله نحو التأمل في تفاعلات الأحداث وانعكاس آثارها على الشخصيات السردية، ومثال ذلك نجده في تصوير مشهد المجرمين يوم القيامة ضمن سورة الكهف، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) ﴾ [الكهف: 47 – 49]، فبدأ السرد المشهد بالفعل المضارع (نسير، ترى) للدلالة على استحضار المشهد وما يثيره من رهبة في النفوس، ثم ينتقل إلى المستقبل عبر الإخبار عنه بصيغة الفعل الماضي (حشرناهم، جئتمونا) الدال على المستقبل، وذلك تأكيدًا على حتمية وقوع الحدث وتحقيقه، لأن ذلك يدخل ضمن القدرة المطلقة للخالق المقتدر، تلك القدرة التي لا تحدها الأزمنة ولا الأمكنة[1013]، ثم ينتقل السرد إلى الماضي عبر استرجاع زمني يدل عليه الفعل (زعمتم) لتذكيرهم باعتقادهم الخاطىء الذي أوصلهم إلى ما هم فيه، وإدخال الحسرة في قلوبهم، ثم ينتقل إلى المستقبل مرة أخرى ومن خلال الفعل الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع، ثم التحول إلى الأفعال المضارعة المتتالية التي تسهم بدورها في تصوير المشهد تصويرًا حيًا يعبر عن حالة التباين النفسي والشعوري التي يعيشها المجرمون ويحسون بها في تلك اللحظات الفظيعة، وذلك

[1012] سامح القليني، **الجلال والجمال في أسلوب الالتفات في القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة الوهبة، دط، دت)، 170.

[1013] أسامة محمد البحيري، **تحولات البنية في البلاغة العربية**، (القاهرة: دار النابغة للنشر والتوزيع، ط1، 2014م)،36.

مثلما نجده في دلالة الفعل المضارع (يقولون) التي تشير إلى حالة الفزع والخوف المسيطرة عليهم، والتي تضطرب معها نفسياتهم بحيث تجعلهم يكررون القول نفسه ويعيدونه مرات ومرات في حالة لا إرادية خارجة عن سيطرتهم[1014]. ثم يأتي الفعل المضارع المنفي (لا يغادر) للتعبير عن التعجب، وبشكل يكون متلائمًا مع حالة الجمع بين المتباينات من صغائر الأفعال وكبائرها، والخفية منها والجلية، والحقيرة منها والعظيمة، ثم يتحول إلى صيغة الماضي من خلال الفعل (أحصاها) للإشارة إلى الدقة التي تنسجم مع ما يحمله الفعل الماضي هنا من دلالة على التحقيق والإثبات والتأكيد، ليجتمع كل ذلك ويسهم في إحداث الأثر الكبير في إدخال مشاعر الحسرة والخوف واليأس في قلوب المجرمين[1015]، ثم يستمر السرد بعد ذلك في سرد الأحداث بصيغة الماضي (ووجدوا ماعملوا حاضرًا) التي تفيد في إحداث المفاجأة عند مواجهتهم بالأدلة القاطعة عن إجرامهم، ثم يعود السرد إلى التحول إلى صيغة المضارع في (ولا يظلم ربك أحدًا) ليختم به المشهد ويعبر من خلاله عن عدالة الله ﷻ المطلقة في خلقه، فكان للتباين في مستوى الأفعال بين الماضي والمضارع دور في تصوير المشهد تصويرًا كاملًا بأبعاده وجوانبه المتباينة.

يستخدم السرد القرآني التباين على مستوى تحول الزمن من المضارع إلى الماضي للدلالة على هول الأمر وعظمته، وهو كثيرًا ما نراه في سرد أحداث الآخرة تعبيرًا عن التباين الناتج عما يحدث من تحولات هائلة على مستويات الزمان والمكان وأحوال الناس ومواقفهم, ومثال ذلك نجده في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) ﴾ [النمل: 87]، إذ تحول السرد من صيغة المضارع في (ينفخ) إلى صيغة الماضي في (ففزع)، فنتج عن ذلك تباين في مستوى الفعلين تشكلت منه دلالة تشير إلى التقرير والتحقيق بوقوع الحدث في المستقبل من

(1014) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 338/15.

(1015) قطب، **في ظلال القرآن**، 2274/4.

خلال الإيهام بوقوعه في الماضي والفراغ منه[1016]. كما نتلمس في ذلك انسجامًا مع ذلك التباين الناتج عن التحولات المرعبة في جميع المخلوقات، والبيئات بين السموات والأرض، وخصوصًا مع حالة التباين الناتجة عند صدور الأمر الإلهي بإحياء الأموات، وما يظهر عليهم من تباين نفسي يتمثل في اختلاف المشاعر والأحاسيس بالمقارنة بين الحياتين الأولى والثانية، فبعد أن كانوا في الأولى في أمن واطمئنان أصبحوا في الثانية في فزع ورعب.

يأتي التباين على مستوى فعلي الماضي والمضارع محملًا بدلالات تشير إلى التفاضل بين شخصيات عدة وما يتعلق بها من مميزات وخصائص، ومثال ذلك نجده موقف شهادة الرسل عليهم السلام على أممهم يوم القيامة، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) ﴾ [النحل: 89]، فهناك تباين في مستوى زمن الأفعال حدث من خلال التحول من صيغة المضارع في (نبعث) إلى صيغة الماضي في (جئنا)، وذلك تعبيرًا عن التباين في أفضلية مقام الرسول ﷺ مقارنة مع سائر الرسل عليهم السلام, ومن ثم إظهار التباين بين شهادته ﷺ مع شهاداتهم عليهم السلام يوم القيامة، فتباين المجيء به ﷺ شاهدًا مع بعث الرسل عليهم السلام شهداء على أممهم، وذلك لأنه لا يشهد على أمته فحسب، وإنما يشهد على الأمم الأخرى وشهدائهم[1017]، وما يؤكد ذلك هو التباين المعجمي الذي نراه بين البعث والمجيء، فالتحول إلى المجيء يعطي الفعل ميزة التباين من حيث المعاني والدلالات، فهو فعل أعم، ويدل على الحصول، وفيه معنى القصد لمكان أو عمل أو زمان[1018]، فكان في التباين بين البعث

[1016] سليمان بن عبد القوي بن عبدالكريم الصرصري البغدادي، **الإكسير في علم التفسير**، ت: عبدالقادر حسين,(بيروت: دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1989م), 182.

[1017] الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 217/15. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 135/5.

[1018] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 212.

والمجيء دلالة تشير إلى إيثار اللفظ الثاني على الأول في هذا السياق، وذلك للتعبير عن كمال العناية الإلهية بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم[1019]. وقد يحمل هذا التباين بين الفعلين دلالة تتعلق بالتباين بين زمني الشهادتين، ففي الوقت الذي تكون فيه شهادة الرسل عليهم السلام مقيدة بزمن محدد وهو يوم القيامة، نجد أن شهادة الرسول ﷺ مقترنة بزمن الحال والاستقبال، فاختيار لفظ الماضي (جئنا) فيه إشارة إلى أنه مجيء قد حصل منذ يوم بعثته[1020].

وتباينًا مع ما سبق نجد مثالًا آخر لهذا النوع من التباين في قصة فرعون وملئه في سياق مشهد سردي يصور مصيرهم يوم القيامة، إذ قال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) ﴾ [هود: 98]، فنرى تباينًا في مستوى الأفعال من خلال التحول الزمني من المضارع (يقدم) إلى الماضي (فأوردهم)، ليسهم ذلك في إضفاء الحيوية والحركية على المشهد وهو يجسد حال فرعون وملئه في صورة حسية[1021]، ويتزامن معه الاتساع في دائرة التباين لتشمل الزمن السردي، فالفعلان يدلان على حدث يقع في المستقبل، أما المضارع (يقدم) ففيه معنى الاستحضار للمشهد وتمثيله للعيان، فضلًا عما يحمله الفعل من إيحاء بالتباين الذي يمكن أن يتخيله المتلقي لحال فرعون وهيئته بين تقدمه لقومه في الدنيا وبين تقدمه لهم في الآخرة، فكان في الأولى تقدم يلازمه الشعور بالكبر والطغيان والتأله، أما في الآخرة فلا بد أن يلازمه الشعور بالخزي والذل والهوان. ولكن عندما انتقل السرد إلى الفعل الماضي (أوردهم) إنما أراد بذلك إفادة المبالغة في الثبوت وتحقق الحصول[1022].

(1019) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 135/5.

(1020) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 251/14.

(1021) قطب، **في ظلال القرآن**، 1924/4.

(1022) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، 134/12. الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 55/18.

وما يلفت الانتباه في هذا الموضع هو الانسجام الفني الذي حصل بين التباين في مستوى صيغة الفعل وبين التباين الدلالي الذي نتلمسه في استخدام السرد القرآني للفعل (أوردهم) الدال على قصد الماء في الأصل[1023] للدلالة على ذهاب فرعون بقومه إلى النار، فكان ذلك سببًا في إحداث مفارقة نصية أساسها التباين بين الاستخدامين المعجمي والدلالي للفعل، وذلك بقصد التهكم والتحقير؛ لأن الإيراد في الأصل يكون لأجل الانتفاع بالسقي، ولكن تقدم فرعون بقومه إلى النار جاء متباينًا مع تلك الدلالة، بل ضدًا لها[1024].

يتأثر تشكيل صيغة الأفعال أحيانًا بموجب السياق السردي الذي ترد فيه، فيكون سببًا في إحداث التباين في مستوياتها، فيأتي الفعل نفسه متباينًا من حيث الصيغة لتحقيق الانسجام والتناسب مع السياق، ليوافق الكلام مقتضى الحال, ومثال ذلك نجده في قصة الناقمين على المؤمنين في كل من سورتي البروج والمائدة، إذ قال تعالى: ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) ﴾ [البروج: 8]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) ﴾ [المائدة: 59]، فنرى تباينًا في مستوى الأفعال في التحول من الفعل الماضي (نقموا) إلى الفعل المضارع (يؤمنوا) في آية البروج، في حين نرى العكس في آية المائدة، إذ يظهر التباين في التحول من الفعل المضارع (تنقمون) إلى الفعل الماضي (آمنا)، لنجد أن مقتضى السياق هو الذي حكم في حصول هذا التباين، فمجيء الفعل (نقموا) فيه دلالة تشير إلى مضي هلاك المؤمنين وانتهائه، فلا وجود للتجدد والاستمرارية، والفعل (يؤمنوا) يدل على استمرارهم في التمسك بإيمانهم إلى آخر لحظة من حياتهم، حين ألقي بهم في الأخدود، وفي ذلك إظهار للتباين الشديد

[1023] الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، 673.

[1024] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 156/12.

في المواقف، وهذا ما نتلمسه من التناسب الطردي الحاصل بين ازدياد نقمة الأعداء وبين ازدياد الإيمان لدى المؤمنين. في حين نجد العكس في آية المائدة، فإن السياق الذي يضم الفعل (تنقمون) يدل على أن نقمة أهل الكتاب متجددة ومستمرة ضد المسلمين وغير منقطعة بأي حال، وأن الفعل الماضي (آمنا) يدل على أن إيمان المسلمين قد أصبح في حكم الماضي في الثبوت والتحقق[1025]. وعندما ننظر إلى هذا التباين في مستوى الفعلين من زاوية أخرى فربما نكتشف دلالات أخرى قد يشير السرد القرآني من خلالها إلى الازدواجية التي تعاني منها عقيدة أهل الكتاب، والتي يفضحها التباين في موقفهم من الإيمان بالرسل عليهم السلام، إذ يضعنا السرد القرآني من خلال الاستفهام عن نقمتهم أمام مقابلة تظهر التباين بينهم وبين المسلمين على أساس التضاد بين الفسق والأيمان[1026].

ثانيًا: التباين بين الماضي والأمر:

يأتي هذا المستوى من التباين عندما يعرض السرد أحداثًا وقعت في الزمن الماضي، فيتحول السياق عنها فجأة إلى صيغة الأمر، ليهدف من خلال ذلك إلى غايات فنية ودلالية تتمثل في إحداث المفاجأة وجلب الانتباه وسرعة التحقق[1027]، وبيان الموقف وحسم الأمر، ومثال ذلك نجده في قصة أصحاب السبت، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66) ﴾ [البقرة: 65 – 66]، فحدث تباين في مستوى زمن الأفعال عندما تحول السرد من صيغة الماضي (علمتم، اعتدوا، فقلنا) إلى صيغة الأمر (كونوا)، فأسهم ذلك في لفت انتباه المتلقي إلى ذلك الحدث الفريد من نوعه، والذي يتمثل في تلك

(1025) عبدالله علي الهتاري، **تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي**، (مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد:22، حزيران–كانون الأول/2006م), 16.

(1026) الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 37/12.

(1027) الهتاري، **العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم**، 94.

العقوبة التي تتميز بتباينها مع أية عقوبة أخرى، وهي تحول القوم إلى قردة، فجاء التباين في مستوى الأفعال معبرًا عن التباين في مستوى العقاب ونوعه وسرعته، والذي ناسب جريمة القوم الذين أرادوا التحايل على شرع الله ﷻ[1028]. كما جاء هذا التباين متزامنًا مع تباين آخر يتعلق بالمستوى الأسلوبي في سرد القصة، إذ لم يبدأ السرد فيها بـ(إذ) الدالة على زمن القصة والمشعر بتحقيق وقوع أحداثها في الماضي كما هو الحال في القصص التي سبقت هذه القصة في السياق نفسه، وذلك لتباين هذه القصة من حيث إنها ليست من القصص التي تضمنتها كتب التوراة، فهي قصة وقعت أحداثها في زمن داود عليه السلام، ولكنها غير مسطورة في الأسفار القديمة، بل هي معروفة عند علماء اليهود وأحبارهم[1029]، إذًا السياق هنا سياق تباين، فرافق التباينَ في أشكال القوم وذواتهم تباينٌ في أسلوب التعبير عن ذلك الحدث وسرده، إذ جاء التباين في المبنى مناسبًا مع التباين في المعنى[1030].

ونجد هذا المستوى من التباين بين الفعلين في قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243) ﴾ [البقرة: 243]، فجاء سرد الحدث ضمن سياق الزمن الماضي، لذا كان يقتضي التعبير عنه بصيغة الماضي (فأماتهم)، ولكن الذي حدث هو أن السرد قد تحول إلى صيغة الأمر، ليحدث هناك تباين في مستوى زمن الأفعال، والذي يحمل معه دلالات قد تشير إلى التناسب بين ذلك التباين وبين حالة التباين القائمة على أساس التحول الجماعي من الحياة إلى الموت ثم العودة إلى الحياة مرة أخرى، أو إلى الانسجام مع حالة التباين بين الإقدام والتأخر الناجمة عن الخوف من الموت، فكيفية الموت متباينة عما اعتدنا عليه من حيث السرعة المتناهية والجماعية،

[1028] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 110/1.

[1029] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 543/1.

[1030] الهتاري، **العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم**، 73.

إذ كان موتًا جماعيًا وفي لحظة واحدة، وكأنهم أمروا بالموت فامتثلوه على الفور[1031]. ولعلنا نستطيع أن نستدل من هذا التباين بين الفعلين على مفارقة مبنية على أساس التباين بين غريزة الحرص على الحياة لدى الإنسان وبين حتمية الموت الذي لا مناص منه، إذ خرج القوم من ديارهم خوفًا من الموت، فإذا بهم يلقونه من حيث ظنوا أنهم نجوا منه، فأريد بذلك تصحيح التصور الخاطىء عن الموت والحياة، وذلك على أساس فهم التباين بين أسبابهما الظاهرة وحقيقتهما المضمرة، والاطمئنان إلى أنهما يندرجان ضمن قدرة الله ﷻ ومشيئته في خلقه[1032]. وفضلًا عن هذا وذاك فإن السياق هنا هو سياق تباين بين الموت والحياة، إذ تحول القوم من الحياة إلى الموت ثم إلى الحياة مرة أخرى، فناسب السرد ذلك بالتعبير عنه من خلال التباين في مستوى الأفعال والتحول من الماضي إلى الأمر ثم إلى الماضي. واللافت للانتباه هو استخدام صيغة الأمر للتعبير عن الموت مقابل استخدام صيغة الماضي للتعبير عن الحياة، لنستدل بذلك على أن الحياة هي حالة ثابتة وأنها هي الأصل في الوجود، وأن الموت الذي يتوسط بين الحياتين هو حالة طارئة وأنه جزء من الوجود.

يستخدم السرد القرآني هذا المستوى من التباين بين الفعلين عندما يريد التوجه المباشر إلى المتلقي مخاطبًا إياه بصيغة الأوامر المباشرة، وذلك من أجل إشراكه في العملية السردية، وجلب انتباهه تجاه أمر ما يراد الإشارة إلى أهميته وخصوصيته من خلال إبرازه متميزًا ومتباينًا عما حوله، ومثال ذلك نجده في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبنائهما للكعبة، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) ﴾ [البقرة: 125]، فنجد اعتماد سرد القصة على صيغ الأفعال الماضية التي تدل على

[1031] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 141.

[1032] قطب، **في ظلال القرآن**، 364/1.

أن تلك الأحداث قد وقعت في الزمن الماضي، مثل (جعلنا، عهدنا)، ولكن تباينًا مع هذا الاتجاه الزمني نجد أن السرد يتحول إلى صيغة فعل الأمر الموجه إلى المتلقي الجماعي في (اتخذوا)، فيحدث هناك تباين بين الأزمنة ما بين الماضي من جهة والحاضر والمستقبل من جهة أخرى، ليحمل معه دلالات تتعلق بالمكان وما يربط المسلمين به من علاقة عقدية، فهو مكان متباين بالنسبة إليهم من حيث أهميته وفضله على سائر الأماكن[1033]، ويأتي ذلك بالتزامن مع الانتقال إلى المتلقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لإعطائهم الخصوصية التي تكسبهم التباين مع سائر الأمم في أحقية اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) ﴾ [آل عمران: 68]، فجاء تخصيص توجيه الخطاب إليهم مباشرة مناسبًا مع تلك الخصوصية. واستطاع السرد القرآني من خلال هذا التباين خلق علاقة ترابطية بين المتلقين والمكان، الهدف منها هو توثيق الصلة بينهما، وذلك لما يتصف به المكان من فاعلية في استشعار المتلقين وتذكيرهم بأمور تهمهم وتتصل بهم لا بد من الحرص على إحيائها، لتكون مسيرتهم موصولة بما كان عليه أبوهم إبراهيم عليه السلام، ويأتي هذا بعد أن بينت الآيتان السابقتان لهذه الآية انتفاء صلة اليهودية والنصرانية بإبراهيم عليه السلام، بعد أن ترك اليهود والنصارى القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة، فجاء التأكيد على الأفضلية والشرف للأمة المسلمة[1034]. وقد يحمل هذا التباين دلالة تشير إلى إبراز ما في شخصية إبراهيم عليه السلام من تباين يتعلق بعشقه الكبير للتكاليف الإلهية، فهو لا يؤديها شكلًا فحسب، وإنما يؤديها بحب وشوق، فيبحث عن شتى السبل ليزيد تطوعًا على ما فرضه الله ﷻ عليه من واجبات، فكان مقام إبراهيم عليه السلام دليلًا على أنه لم يكتف بإقامة قواعد البيت على قدر طول قامته، وإنما أتى بالحجر ليزيد فيها بمقدار ارتفاع ذلك الحجر[1035].

(1033) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 95.

(1034) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 575/1.

(1035) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 580/1.

ثالثًا: التباين بين المضارع والأمر:

يأتي هذا النوع من التباين في مستوى الأفعال السردية للتمايز بين الحدث الذي يشير إليه الفعلان، وإبعاد اللبس الذي قد يحيط به في حالة مجيئهما بصيغة مشتركة، ومثال ذلك نجده في قصة هود عليه السلام عند مواجهته لقومه بعدما يئس من إيمانهم، فتبرأ مما كانوا يشركون، إذ قال تعالى: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) ﴾ [هود: 54]، فحدث هناك تباين في مستوى الأفعال، إذ تحول السرد من الفعل المضارع (أشهد الله) إلى فعل الأمر (اشهدوا) موجهًا الأمر إلى قومه. ولعله جاء تعبيرًا عن التباين الكبير بين الإشهادين، فإشهاد هود عليه السلام لله ﷻ على براءته من الشرك إشهاد صحيح وثابت عن اعتقاد ويقين، أما إشهاده إياهم فليس إشهادًا حقيقيًا، وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتهاون بدينهم وقلة المبالاة بهم[1036]. وبهذا يكون التباين في مستوى الفعلين قد أسهم في إبراز التباين في مواقف الطرفين، لأن صيغة المضارع تدل على تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته، أما صيغة الأمر فتدل على حقارة شأن الطرف الثاني، وبطلان موقفهم الذليل[1037].

ونجد لهذا التباين في مستوى الفعلين مثالًا في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، وذلك في الكيفية التي قابل بها هذا الأخير دعوة إبراهيم عليه السلام، وما صدر عنه من شدة وعنف، إذ قال تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) ﴾ [مريم: 46]، فنجد هناك تباينًا في مستوى الفعلين من خلال التحول من صيغة المضارع (لأرجمنك) إلى صيغة الأمر (واهجرني)، ليتناسب ذلك مع تباين السبل والطرق المختلفة التي سلكها آزر من أجل إيصال رسالته

[1036] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 95.

[1037] البحيري، **تحولات البنية في البلاغة العربية**، 370.

السلبية تجاه دعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد. كما يمكن أن يتناسب ذلك مع معنى التباين الذي تحمله لفظة الهجر، والمتمثل في التباعد والتفارق من حيث الزمان والمكان[1038]. أو لعله يعبر عن مفارقة مبنية على اساس شدة التباين في سلوك شخصية الأب وموقفه من ابنه في الهجر، بحيث يتناقض مع ما يجب أن يكون عليه الآباء تجاه أبنائهم، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بأهم قضية في حياة الإنسان وهي الإيمان والعقيدة. كما يحمل هذا التباين في مستوى الفعلين دلالة تشير إلى التباين بين العلاقات الاجتماعية والدينية التي يمكن أن تربط بين أفراد المجتمعات، دون الأخذ بعين الاعتبار لعوامل العرق والقرابة بينهم، فانسجم التباين بين الفعلين مع التباين الفكري والعقدي الذي حال بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، فنتج عنه التباين الاجتماعي والعاطفي. ويوحي هذا التباين –عمومًا– بالتباين بين موقفين متضادين يتمثل بالتباين بين الكفر والأيمان، وبين الاعوجاج والاستقامة، وبين منطق التعنت ومنطق الحكمة.

المطلب الثالث: التباين في مستوى مسرح الأحداث:

يندرج المكان السردي بوصفه مسرحًا للأحداث السردية وفاعلًا سرديًا ضمن الخصوصيات التي يتميز بها أسلوب السرد القرآني من حيث التناول والتقديم، وذلك لما لهذا العنصر من ارتباط وثيق بجميع عناصر الصياغة السردية، والغاية من ذلك هي تحقيق أهداف فنية ودلالية. وانطلاقًا من امتلاك المكان في السرد القرآني لأبعاد دلالية ورمزية متباينة تتجاوز المفاهيم الضيقة للحيز الجغرافي[1039] يتجه البحث إلى إبراز أشهر التباينات في مستوى مسرح الأحداث وأهمها، وهي التي تتمثل في انتقال السرد بين الدنيا والآخرة.

[1038] الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، 37/12.

[1039] بن يوسف، **أدبية السرد القرآني**، 141.

التباين بين الدنيا والآخرة:

تتأسس دلالة المكان السردي على مجموعة من التقاطبات المكانية التي تقوم على شكل ثنائيات متباينة تجمع بين قوى أو عناصر متباينة، بحيث تعبر عن العلاقات والتوترات التي تحدث من خلال علاقة الشخصيات بأماكن الأحداث(1040). وانطلاقًا من هذا الترابط الموجود بين المكان والشخصيات وما بينهما من علاقة تكاملية، يظهر لنا أن التباين في مستوى مسرح الأحداث بين الدنيا والآخرة يتبعه التباين بين الشخصيات ومواقفها، وذلك في كثير من مشاهد الآخرة التي صورها السرد القرآني(1041)، ومن أمثلة ذلك ما نجده في المشهد الحواري الذي يجمع بين فئتين كانتا متباينتين في الدنيا هما: فئة المستكبرين وفئة المستضعفين، إذ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33) ﴾ [سبأ: 31 – 33]، لينسجم ذلك مع التباين في طبيعة الخصائص التي تتميز بها الأمور المتعلقة بالشخصيات على مستوى المكانين، فبينما تكون حقائق المواقف غامضة وخفية في الدنيا، نجدها واضحة ومكشوفة في الآخرة، فنتج عن ذلك تباين في الأدوار والوظائف التي تتعلق بالشخصيات بين الدنيا والآخرة، فالضعف والقوة والاستكبار والتبعية أدوار دنيوية، أما في الآخرة وفي ساحة المحشر

(1040) بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، 33.

(1041) الشهرزوري، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، 162.

تتساوى الرؤوس ولا يعلو أحد على غيره من الناس[1042]، مما دفع إلى التباين في موقف المستضعفين نحو الاستفاقة من غفلتهم واكتساب الجرأة بعد أن كانوا مسلوبي الإرادة في الدنيا.

وقد يحمل المشهد بجميع متبايناته دلالات تشير إلى حالة التباين النفسي والأخلاقي التي كانت تعيشها قريش آنذاك في اتخاذ موقف محدد ينطلقون منه لمحاربة الرسول ﷺ ودعوته، فقد كانوا متذبذبين بين الطرق والوسائل المتاحة لديهم، فاضطربت أقوالهم وتباينت توجهاتهم بين إنكار أن ينزل الله ﷻ على بشر من شيء، إذ قال تعالى على لسانهم: ﴿ ... إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ... (91) ﴾ [الأنعام: 91]، أو بين ما يملي عليهم أهل الكتاب من أقوال يستخدمونها في التمويه على الناس والتشكيك في صحة الرسالة المحمدية صلى الله عليه وسلم، فمرة يقولون: ﴿ ... قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ... (48) ﴾ [القصص: 48], ومرة يقولون: ﴿ ... وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ... (93) ﴾ [الإسراء: 93]، ولم يكن ذلك اعتقادًا منهم بصحة رسالة موسى عليه السلام، فلما يئسوا من محاولاتهم في المقارنة بين حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع حال الرسل الأولين عليهم السلام أظهروا شركهم الصريح بكل بجاحة، ولجأوا إلى إنكار الرسالات الإلهية كلها، حتى لا تنهض عليهم الحجة بمساواة الرسالة المحمدية صلى الله عليه وسلم مع رسالات الرسل عليهم السلام، فاستقروا على الكفر بقولهم: ﴿ ... لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... (31) ﴾ [سبأ: 31][1043].

وانسجامًا مع هذا التباين في مستوى مسرح الأحداث نجد تباينًا آخر يتمثل في إثارة خيال هؤلاء الظالمين لتصور شتى أنواع العذاب الذي يمكن أن ينتظرهم في مثل هذا الموقف في الآخرة، وجاء ذلك من خلال التباين الأسلوبي الذي يدل عليه حذف جواب أداة الشرط (لو)، مما يزيد من تهويل الأمر عليهم

(1042) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 12338/20.

(1043) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 201/22-205.

وتفظيعه وتشنيعه، فيذهب بهم مذاهب متباينة يتصورون فيها ألوانًا مختلفة من العذاب والذلة التي تنتظرهم في هذا الموقف وبين يدي الله ﷻ[1044].

والشيء نفسه نجده في انتقال السرد من الدنيا إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ضمن سياق سورة البقرة، ليظهر معه تباين في مستوى مسرح الأحداث بين المكانين، والذي يعبر من خلاله عن التباين بين مواقف التابعين والمتبوعين بين الدنيا والآخرة، وكيف يتخلى بعضهم عن بعض إلى حد الانقلاب، فيتحول تواددهم وتقاربهم في الدنيا إلى تباغض وتباعد في الآخرة، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167) ﴾ [البقرة: 165 – 167]، فيتحدث السياق السردي بداية عن الناس، ويشرح حال ضلالهم الفظيع في الدنيا، حيث اتخذوا من دون الله ﷻ أندادًا على الرغم من اطلاعهم على أدلة قاطعة ترشدهم إلى معرفة وحدانية الله ﷻ، فكان من المناسب الانتقال من هذا الموقف الدنيوي إلى موقف متباين ينتمي إلى مكان متباين يتمثل في الآخرة بوصفها مسرحًا للأحداث نرى فيه عاقبتهم الوخيمة وحالهم الفظيعة هناك[1045]، ليتبع ذلك تباين في مستوى أدوار الشخصيات ومواقفها بين التابعين والمتبوعين، إذ يحدث هناك التبرؤ الذي يحمل معاني التباين والتباعد بين الفريقين، فالمتبوعون اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعون إليه تابعيهم في الدنيا من فنون الكفر والضلال، وكانت النتيجة التبرؤ والاعتزال والتباعد في الآخرة، وفي المقابل نجد التابعين قد غمرتهم مشاعر الحسرة والندم بعد ما رأوا

[1044] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 12335/20.

[1045] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، 93/2.

ذلك من متبوعيهم[1046]، فمن خلال عرض هاتين الصورتين المتباينتين يحذر السرد القرآني من مغبة الانجرار الأعمى لمن يدعون إلى الشرك والضلالة. ثم يرجع السياق السردي إلى الحديث عن الدنيا مرة أخرى، إذ يدعو إلى اتباع منهج متزن في هذه الحياة الدنيا، وذلك على أساس التباين بين التمتع بطيباتها والابتعاد عن خبائثها[1047].

وفي مشهد متباين لما سبق نجد تباينًا في مستوى مسرح الأحداث عند الحديث عن مصير المسلمين ضمن سياق سورة (فاطر)، إذ قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37) ﴾ [فاطر: 33 – 37]، فالحديث في البداية هو عن فئات المسلمين الثلاث وأعمالهم في الدنيا، ثم ينتقل السرد القرآني بعدها إلى الآخرة، فيرينا فيها مشهدًا يتجسد فيه ذلك الفضل الذي وعد الله ﷻ هؤلاء المسلمين بفئاتهم المتباينة فيما بينهم، وذلك بناءً على أساس التباين بين الحسنات والسيئات، فجاء بالذي يمثل الفريق الأول (ظالم لنفسه)؛ لأنه الأكثر عددًا، وقد رجحت كفة سيئاته على حسناته، ثم الذي يمثل الفريق الثاني (مقتصد)، وهو الذي تعادلت عنده السيئات والحسنات، وفي الأخير جاء بالذي يمثل الفريق الثالث (سابق بالخيرات)، والذي رجحت كفة حسناته على حساب سيئاته، ليشملهم فضل الله ﷻ جميعًا، على الرغم من تباين درجاتهم في الدنيا.

[1046] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، 186/1.

[1047] قطب، **في ظلال القرآن**، 2945/5.

وتآلفًا مع ذلك نجد تباينًا بين المتعلقات المكانية والنفسية التي ترتبط بالنعيم الذي تجزى به الشخصيات المسلمة، وذلك بين ما هو نعيم مادي ملموس يتمثل في المتاع المادي من ذهب ولؤلؤ وحرير، وما يتزامن معه من نعيم نفسي غير محسوس يتمثل في الرضا والأمن والاطمئنان. هذا على نطاق ما يشمل المسلمين فيما بينهم، ثم يتسع نطاق التباين ليعبر عن التقابل بين هؤلاء الذين يمثلون الفئات المؤمنة وبين الذين كفروا، لنتلمس معه حالات من التباين تتعلق بالجنة والنار، وكذلك الحالة النفسية والجسدية بين المؤمنين والكافرين، فوضعنا السرد القرآني أمام صورتين متباينتين انبثقتا إثر هذا التباين في مستوى مسرح الأحداث، حيث الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، هما صورة الأمن والراحة التي تقابلها صورة القلق والاضطراب, ونغمة الشكر والدعاء التي تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء، ومظهر العناية والتكريم الذي يقابله مظهر الإهمال والتأنيب، والجرس اللين والإيقاع الرتيب اللذان يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف[1048].

يسهم التباين في مسرح الأحداث بين الدنيا والآخرة في إثبات حقائق عقدية وتاريخية أحيطت بحالة من اللبس والتشويه في الحياة الدنيا، ومثال ذلك نجده في موقف عيسى عليه السلام وأمه في إثبات حقيقة عبوديتهما، تلك الحقيقة التي انحرف عنها أتباعه وضلوا من بعده، وذلك في سياق قصة المائدة، إذ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

[1048] قطب، **في ظلال القرآن**، 2945/5.

اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) ﴾ [المائدة: 112 – 117]، فالسياق السردي يتحدث عن طلب الحواريين من عيسى عليه السلام في إنزال مائدة من السماء، وهذا حدث يتعلق بما ميز به الله ﷻ رسوله عيسى عليه السلام من خوارق المعجزات الإلهية في حياته الدنيا، ومعلوم أنه "أكثر الرسل افتراءً على شخصه النبوي الكريم، إذ ادعوا فيه الألوهية، وكان نداؤه بذكر (عيسى ابن مريم) للإشارة إلى الولادة الطبيعية التي تنفي أن يكون إلهًا أو ابن إله، أو فيه عنصر الألوهية بأي وضع من الأوضاع؛ لأن الألوهية والبشرية أمران متباينان لا يجتمعان"[1049]، فجاء التباين في مسرح الأحداث بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة لإبراز حقيقة الأمر وزيف هذا الادعاء في مشهد حي شاخص يتبرأ فيه عيسى عليه السلام مما قالوا وادعوا، وقد عبر عن ذلك بإظهار التباين بين علم الله ﷻ المطلق من كل قيد زماني ومكاني وبين علمه المحدود المرتبط بزمان ومكان محددين في الدنيا، فكان ذلك متناسبًا مع إقرار التباين بين حقيقة بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته وبين ما يدعون.

وعندما ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى نستطيع الاستدلال على أن هذا التباين في مستوى مسرح الأحداث الذي حدث من خلال عطف جملة (وإذ قال الله يا عيسى) على جملة (وإذ قال الحواريون) يتعلق بالتباين الموجود في درجة إيمان الحواريين، والذي ظهر في حديثهم إلى عيسى عليه السلام، إذ بعد أن أكدوا له بأنهم أنصار الله ﷻ وأشهدوه على إسلامهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

[1049] أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، 2405/4.

(52) ﴾ [آل عمران: 52]، جاؤوا وسألوا عيسى عليه السلام عن استطاعة الله ﷻ على إنزال مائدة من السماء، وهذا طلب لا ينسجم مع مبادىء الإيمان الخالص غير المشروط، فقول (هل يستطيع ربك) تعبير متباين عن تعابير المؤمنين المعظمين لربهم، فجاء التباين بين الدنيا والآخرة متناسبًا مع إظهار التباين بين ادعائهم الذي حكاه القرآن عنهم وبين ما كانت تكنه صدورهم من شك، ولذلك حين يأمرهم عيسى عليه السلام بالتقوى إنما يعني بقوله أن اتقوا الله ﷻ ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته، ولا تقترحوا عليه، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فيصيبكم الهلاك إن عصيتموه بعدها[1050]. فجاء التباين في مستوى مسرح الأحداث تعبيرًا عن التباين بين الشك الذي موطنه الدنيا وبين اليقين الذي موطنه الآخرة، وإظهار التباين بين الادعاء والحقيقة.

يستخدم السرد القرآني التباين في مسرح الأحداث بين الدنيا والآخرة منسجمًا مع عرض حدث مميز يتصف بالتباين من حيث النوع، وذلك مثل المشهد الذي يتجسد فيه عذاب من نوع فريد، وهو ما يتمثل في حالة عدم الموت وعدم الحياة التي نجدها ضمن سياق سورة الأعلى، إذ قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19) ﴾ [الأعلى: 1 – 19]، فبعد أن جاء الأمر بالتذكير إلى الرسول ﷺ حيث يتعلق حدوثه بالحياة الدنيا، وبيان أن الناس سينقسمون إلى فئتين متباينتين على أساس الخشية والشقاوة، نجد السرد ينتقل من

[1050] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، 315.

هنا إلى الآخرة، ليُحدث بذلك تباينًا في مستوى مسرح الأحداث يريد السرد القرآني من خلاله الإشارة إلى التباين الذي يتميز به العذاب من حيث النوع، فتلك هي حالة متباينة عن الموت والحياة اللذين عهدهما الإنسان في حياته الدنيا. وبالتزامن مع ذلك تنبثق صورتان متباينتان: إحداهما محسوسة تتمثل في النار الكبرى في الآخرة، والتي تتميز عن النار الصغرى في الدنيا، إذ يكون المعذبون فيها بين انعدام الموت وانعدام الحياة، والأخرى غير محسوسة تتمثل في الحالة النفسية للمعذب بين أن يموت فيستريح، وبين أن يحيا فيستمتع، ويبقى بين الحالين إلى أمد غير معلوم[1051].

يعمد السرد القرآني إلى التباين في مسرح الأحداث والانتقال من الدنيا إلى الآخرة بدافع الوقوف عند منزلة المدافعين عن الحق من الشهداء، من أجل التحفيز على الاقتداء بهم، ومثال ذلك نجده في قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لمناصرة الرسل عليهم السلام ودين الحق ضمن سياق سورة (يس)، إذ قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) ﴾ [يس: 20 – 29]، فنرى أن أحداث القصة تبدأ في الدنيا حين هبّ الرجل الساعي ليقوم بواجبه في الدفاع عن الرسل عليهم السلام، ودعوة قومه إلى دين الحق مستندًا إلى دلائل عقلية مختلفة، فقابلوه بالتكذيب والتعنيف، ليلقي عندها كلمة الإيمان الأخيرة بكل ثقة واطمئنان، ثم يوحي السياق بعد ذلك أنهم قتلوه على الفور، ليسدل السرد الستار على هذا المشهد الذي

[1051] سيد قطب، **مشاهد القيامة في القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الشروق، ط14، 2002م), 70.

كان مسرح أحداثه هو الدنيا، وينتقل إلى مشهد الآخرة حيث نرى فيه هذا الشهيد وقد أكرمه الله ﷻ بذلك المقام الذي يليق بالمؤمن الشجاع المخلص الشهيد، فيعبر بذلك عن التباين بين الحياة الدنيا السريعة الزوال وبين الحياة الأخروية الأبدية، والتباين بين عالم الفناء وعالم البقاء، وبين ضيق الأرض وسعة الجنة، وبين تطاول الباطل وطمأنينة الحق، وبين تهديد البغي وسلام النعيم، وبين ظلمات الجاهلية ونور اليقين. كما يفيد ذلك للإشارة إلى التباين بين موقفين أحدهما مناقض للآخر، ففي الوقت الذي نرى فيه أن القوم قد قابلوا دعوة الرجل الساعي بالقتل والتنكيل، نجد أن هذا الرجل المؤمن المغدور من قبل قومه لازال يحمل في قلبه الحب والخير لهم، إذ يذكرهم وهو طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يرونه كيف أكرمه الله ﷻ بنعيم الجنة لعلهم يعرفون الحق ويهتدون إليه[1052]. هذا فضلًا عما يحمل ذلك التباين الناتج عن الانتقال من الدنيا إلى الآخرة من دلالة تشير إلى رحمة الله ﷻ القريبة من عباده المؤمنين المجاهدين، والمتمثلة بالمكافأة العاجلة لهم. وفيه كذلك ملمح فني يتعلق بأسلوب السرد القرآني الذي يراعي المشاعر الإنسانية في تجاوز الخوض في التفاصيل المتعلقة بالكيفية التي قتل بها الرجل الساعي، وإنما فضل الإشارة إليها فحسب، وذلك بالانتقال المباشر إلى الآخرة حيث الجزاء المتمثل بالجنة[1053].

والشيء نفسه نجده في قصة الرجل المؤمن من آل فرعون ضمن سياق سور (غافر)، إذ قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) ﴾ [غافر: 45 – 48]، فهو انتقال من الدنيا إلى الآخرة بعد أن ألقى

(1052) قطب، **في ظلال القرآن**، 2964/5.

(1053) الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، 190.

الرجل المؤمن كلمته الأخيرة من خطابه الطويل الذي واجه به آل فرعون معززًا بالأدلة والبراهين المتباينة, وبعد أن أقام عليهم الحجة، نرى السياق يوحي إلى أنهم قد دبروا مكيدة لقتله، فتأتي الاستجابة الإلهية بأن وقاه من شرهم ومكرهم، ثم يسدل السرد الستار على الدنيا وينتقل إلى البرزخ حيث يعرض فيه آل فرعون على النار غدوًا وعشيًا، ومنه إلى الآخرة مباشرة حيث نرى فيها آل فرعون وقد أصدر الأمر بإدخالهم أشد العذاب، لنتلمس من خلال هذا التباين في مستوى مسرح الأحداث دلالة تشير إلى إبراز علاقة التباين القائمة بين سلوك آل فرعون في الدنيا وانعكاسه على موقفهم في الآخرة، والذي اتسم بالتباين والانقسام بين الضعفاء والمستكبرين منهم، ليؤكد بذلك كلام الرجل المؤمن حين قال لهم بأنهم سيتذكرون في الآخرة ما يقوله لهم في الدنيا[1054]. كما جاء ذلك إثباتًا لما أقره الرجل المؤمن في خطابه من تباين بين الحياة الدنيا التي ما هي إلا متاع زائل، وبين الآخرة التي هي دار القرار، وأنها هي الأصل وإليها النظر والاعتبار[1055].

ويأتي التباين في مسرح الأحداث عكسيًا أيضًا، حيث الانتقال من الآخرة إلى الدنيا، ومثال ذلك نجده في قصة تحكي حال قوم في الآخرة تكشف عن التباين الحاصل عندهم بين تمني السجود وعدم الاستطاعة، إذ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) ﴾ [القلم: 42 – 43]، فبعد هذا العرض الذي قدمه السرد القرآني من خلال المشهد الذي نرى فيه موقفًا لأناس في الآخرة، ينتقل ويتوجه بالحديث إلى الرسول ﷺ حيث كان يلقى العنت من المكذبين آنذاك، فيقول تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) ﴾ [القلم: 45]، وذلك تطمينًا وتأنيسًا له بأن الذي يرى فيه هؤلاء المكذبين من نعيم الدنيا ليس هو إلا

[1054] البستاني، **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، 356/1-363.
[1055] قطب، **في ظلال القرآن**، 3082/5.

مصيدة توقع بهم في مثل هذا الموقف الذي استحضرت لك صورته من الآخرة قبل حين، إذ يواجهون التبكيت والتوبيخ اللذين يتجسدان في التباين بين فعل كانوا يأبون القيام به في الدنيا على الرغم من استطاعتهم إياه، وبين ما لايستطيعون القيام به في الآخرة على الرغم من أنهم يتمنون أن يقوموا به، فجاء التباين في مسرح الأحداث مناسبًا لإظهار ما ينتظر هؤلاء من جزاء في الآخرة يوافق ما كانوا يصنعونه في الدنيا، فأسهم في لفت الانتباه وتحريك الأحاسيس والمشاعر وتهيئتها للاتعاظ والاعتبار[1056].

ونجد مثل هذا التباين في الانتقال العكسي من الآخرة إلى الدنيا ضمن سياق سورة التكوير، إذ قال تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) ﴾ [التكوير: 1 – 29]، فيبدأ السرد بعرض الأحداث المتعلقة بالآخرة، لنرى انسجامًا فنيًا ودلاليًا بين ذلك التباين في مسرح الأحداث وبين تلك التباينات الكونية التي طالت جميع الموجودات من الأجرام السماوية والأرضية والوحوش النافرة والدواجن الأليفة ونفوس البشر وأوضاع الأمور، وكشف كل مستور واتضاح كل مجهول، لتحدث بدورها تباينًا في مشاعر المتلقي وأحاسيسه، فينقلب لديه السكون والهدوء إلى

[1056] قطب، **مشاهد القيامة في القرآن الكريم**، 58-59.

حركة وصخب، ويتحول الأمن والطمأنينة إلى خوف وهلع، فيصل به إلى الموقف المفصلي المتمثل بالإيفاء بالجزاء على أساس التباين بين الخير والشر[1057]، فجاء ذلك على شكل تهيئة نفسية وعقلية ووجدانية لمن ينكرون على الرسول الرسالة الإلهية ويصفونه بالجنون، فيرجع من هناك إلى الظواهر الكونية نفسها وهي في حالتها الطبيعية وحيويتها المعهودة، ليضعهم أمام صورتين متباينتين يوحي من خلالهما بأن هذا القرآن حق صادر من الله ﷻ، فالذي أبدع هذه الأشياء هو ذاته ﷻ الذي نزل الحق على رسوله الكريم ﷺ، ليتناسب ذلك مع إعطائهم حرية الاختيار على أساس التباين بين الهداية والضلال[1058].

[1057] قطب، **مشاهد القيامة في القرآن الكريم**، 67.

[1058] قطب، **في ظلال القرآن**، 3843/6.

الخاتمة والنتائج

وفي الختام فقد توصلت الأطروحة إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:-

- تناسبًا مع طبيعة الخطاب القرآني الذي يراعي حاجة الفرد والمجتمعات منذ نزوله وإلى يوم الدين، كان السرد القرآني وسيلة فعالة في مخاطبة عقول المتلقين والتأثير في مشاعرهم على اختلاف عصورهم وأماكنهم، وذلك من أجل مساعدتهم على الفهم والاستيعاب وإبقائهم على التواصل بشتى السبل، فجاء هذا السرد متفردًا في أساليبه الخلّاقة وطرائقه الإبداعية.

- أسهم أسلوب التباين في فتح الآفاق الفكرية أمام المتلقين، وإشراكهم في العملية السردية، وذلك من خلال عقد مقارنات تقابلية، تساعدهم في إدراك العناصر السردية إدراكًا تامًّا بما يتلاءم مع الأهداف الدينية والتربوية التي يتوخاها الخطاب القرآني عمومًا والسرد القرآني خصوصًا.

- إستخدم السرد القرآني أسلوب التباين وسيلة لتقديم الشخصيات السردية من حيث تسمياتها وأدوارها ووظائفها، ليحقق من خلالها غايات مختلفة، منها فنية تتعلق بكيفية التقديم وأسلوب العرض، وأخرى دلالية تتعلق بالأهداف الدينية والتعليمية الكامنة وراءها، والمتمثلة بالحقائق العقدية والتاريخية.

- مثلت التسمية وصيغ تشكيلها إحدى الأدوات المتاحة لإظهار التباين بين الشخصيات السردية، لتحمل معها دلالات رمزية تتولد عنها معاني مختلفة تجعل بناء الشخصية السردية عملية تواصلية مشتركة بين النص والمتلقي.

- يحتفي السرد القرآني بالشخصيات الإيجابية ويتخذ من أسلوب التباين وسيلة فعالة لإبرازها وجعلها نماذج يحتذي بها المتلقي، وذلك من خلال إعطائها مساحات سردية أكبر بالمقارنة مع الشخصيات

السلبية، أو من خلال التركيز على تباينها المادي مع محيطها الذي لا تنتمي إليه إلا من حيث الإيجابية، أو من خلال تباينها المعنوي مع محيطها المتميز بالسلبية الشديدة، أو من خلال التركيز على تبنيها لموقف متباين غير مسبوق من قبل، فيظهر السرد بذلك قوة الإيجابية لدى الشخصية المتباينة.

- يتخذ السرد القرآني أسلوب التباين في كيفيات تقديم الزمن وسيلة تحمل معها دلالات رمزية يتعرف من خلالها المتلقي على ما لدى الشخصيات من عقائد ومنطلقات فكرية وفلسفية، وتسهم في تفسير ما يصدر عنها من سلوكيات، وتعبر عما في دواخلها من أفكار ومشاعر وأحاسيس.

- يستخدم السرد القرآني أسلوب التباين في تحديد الزمن الغيبي المجرد وتمثيله بالحاضر الحسي، وذلك من أجل تسهيل إيصال الرسالة المقصودة إلى المتلقي، فيقوم بتقريب المفاهيم المجردة إلى ذهنه من خلال تصويرها.

- يستخدم السرد القرآني أسلوب التباين في ربط ذكر المكان بالحدث، وذلك عندما يكون لهذا المكان دور حيوي يتعلق بمضمون الحدث نفسه، مثل الأماكن التاريخية أو التي تشكل منعطفات سردية يتحول عندها مسار السرد, أو تلك التي تسهم في إلقاء الضوء على الخلفيات الفكرية والعقائدية والنفسية والثقافية للشخصيات، في حين يُقدم السرد القرآني المكان مبهمًا إذا أراد الإشارة إلى أن دلالات الحدث شمولية وغير مرتبطة بمكان محدد.

- يتفرد السرد القرآني في توظيفه لعنصر الزمن، بشكل يميزه عن أي سرد آخر، ويتجلى هذا في استخدامه لأسلوب التباين في صياغة البناء الزمني بما يتناسب مع ما يهدف إليه من تحقيق التواصل مع المتلقي بأساليب حيوية تجمع بين الأغراض الفنية والدلالية، معتمدًا في ذلك على التقنيات الزمنية

المختلفة مثل المفارقات الزمنية المتمثلة في حالات الاسترجاع والاستباق، وكذلك السرعات السردية التي تتراوح ما بين التسريع والإبطاء، وكذلك التواترات السردية المختلفة.

- يستخدم السرد القرآني أسلوب التباين في تحقيق مبدأ المواكبة مع متطلبات الإنسان الحياتية، وذلك من خلال خلق تنوع فني يميزه عن السرود البشرية، ويتمثل ذلك في مظهرين: يكون الأول على أساس الاختلاف في السمات الشكلية التي تتعلق بأحجام القصص وأشكالها، والثاني على أساس التنوع في الخصائص الأسلوبية التي تتعلق بالإمكانات الفائقة التي تمتلكها لغة النص القرآني عمومًا ولغة السرد القرآني خصوصًا.

- اتخذ السرد القرآني أشكالًا فنية متباينة عرض من خلالها القصص، وذلك تناسبًا مع السياقات التي ترد فيها، فكان لهذا الشيء الإسهام الفعّال في كيفية تشكيل المعاني والدلالات، وتجسيد الأفكار والأغراض التي أراد السرد القرآني إيصالها من خلالها، والتي كان لها الدور والتأثير في تعميق حالات التأمل والتفكر لدى المتلقي، وهذا ما مكّن السرد القرآني من التعبير عن أوسع المعاني بأنسب الأساليب وأبلغها.

- يتخذ السرد القرآني من التحولات السردية وسائل فنية يعبر من خلالها عن أغراضه الفنية والدلالية، لينتج عن هذه التحولات السردية تباينات في مستويات السرد، وهي التي يتعلق بعضها بمستويات الضمائر السردية، وبعضها الآخر بمستويات الأفعال السردية، كما يتعلق بعضها بمستويات مسرح الأحداث والانتقال بين الأماكن السردية.

- لا ينحصر أسلوب التباين في السرد القرآني عند هذه الحدود والأشكال، بل يتعدى إلى مظاهر أخرى يمكن الوقوف عندها والبحث فيها في المستقبل، وذلك مثل التباين في الأنساق السردية ما بين

التتابعي والتضميني والدائري، وأنواع التبئيرات السردية ما بين الصفري والداخلي والخارجي، وأنواع الحدث السردي ما بين الطبيعي والإعجازي، وأنواع الحوار السردي ما بين المباشر وغير المباشر، وأنواع الشخصيات السردية ما بين الرئيسة والثانوية أو المضادة والمساعدة، وكذلك أنواع المكان السردي ما بين المفتوح والمغلق أو الأليف والمعادي، وما يتعلق بمستويات سردية أخرى، مثل التباين على مستوى الجمل السردية ما بين الفعلية والأسمية، وأساليب صياغة الجملة ما بين الإنشائية والخبرية، أو أشباه الجمل وما يتعلق بها من تباين على مستوى استخدام الحروف والأدوات.

المصادر والمراجع

أولًا: الكتب:

- إبراهيم، عبدالله. **المتخيل السردي مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م).
- إبراهيم، عبدالله. **موسوعة السرد العربي**، (دبي: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، -الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2016م).
- الإبراهيم، ميساء سليمان. **البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة**، (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2011م).
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م).
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبدالسلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1979م).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين. **لسان العرب**، (القاهرة: دار الحديث ، 2003م).
- أبو خليل، شوقي. **أطلس القرآن (أماكن-أقوام-أعلام)**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، 2003م).

- أبو زهرة، محمد. **المعجزة الكبرى القرآن**، (القاهرة: دار الفكر العربي، دط، دت).
- أبو زهرة، محمد. **زهرة التفاسير**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1987م).
- أحمد، مرشد. **البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005م).
- الأحمر، فيصل. **معجم السيميائيات**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، 2010م).
- إسماعيل، عزالدين. **الأدب وفنونه**، (القاهرة: دار الفكر العربي، 2013م).
- الآلوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، ت).
- إلياس، جاسم خلف. **شعرية القصة القصيرة جدًا– دراسة**، (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دط، 2010م).
- آيزر، فوفغانغ. **فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب**، ت: حميد لحمداني والجلالي الكدية، (فاس: مكتبة المناهل، 1987م).
- باحاذق، عمر محمد عمر. **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط1، 1993م).
- بارت، رولان. **مدخل إلى التحليل البنيوي للقصة**، ت: منذر عياشي، (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1993م).

- باشلار، غاستون. **جماليات المكان**، ت: غالب هلسا، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، ط2، 1984م).
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. **إعجاز القرآن**، ت: السيد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف، ط2، 1954م).
- بحراوي، حسن. **بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م).
- البحيري، أسامة محمد. **تحولات البنية في البلاغة العربية**، (القاهرة: دار النابغة للنشر والتوزيع، ط1, 2014م).
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم. **صحيح البخاري**، (دمشق: دار بن كثير، ط1، 2002م).
- بدوي، عبدالرحمن. **موسوعة الفلسفة**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1984م).
- برادي، مالكوم. **الرواية اليوم**، ت: أحمد عمر شاهين، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م).
- برنس، جيرالد. **المصطلح السردي-معجم مصطلحات-**، ت: عابد خزندار، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2003م)، 157.
- برنس، جيرالد. **قاموس السرديات**، ت: السيد إمام، (القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ط1، 2003م).

- البستاني، محمود. **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، (مشهد: مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، 1422هـ).
- البستاني، محمود. **دراسات فنية في صور القرآن**، (مشهد: مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، ط1، 1421هـ).
- البستاني، محمود. **قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا**، (إيران، مؤسسة السبطين العالمية، ط1، 1425هـ).
- البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي. **الأصول في النحو**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1996م).
- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، دط، دت).
- بن مالك، رشيد. **مقدمة في السيميائية السردية**، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2000م).
- بورنوف، رولان وريال أوئيلية. **عالم الرواية**، ت: نهاد التكريتي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1991م).
- بوعزة، محمد. **طرائق تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الكبير**، ت: د. بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1996).

- تشومسكي، نعوم. آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ت: عدنان حسين، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2009م).
- تودوروف، تزفيطان. مقولات السرد الأدبي، ضمن كتاب **طرائق تحليل السرد الأدبي**، ت: الحسين سحبان وفؤاد صفا، (الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1، 1992م).
- توماشفسكي، بوريس. **نظرية الأغراض، ضمن نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس**، ت: إبراهيم خطيب، (بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1982م).
- جبل، محمد حسن. **المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة، مكتبة الآداب، ط1, 2010م).
- الجرجاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد. **أسرار البلاغة**، ت:محمود محمد شاكر، (جدة: دار المدني، دت).
- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف. **معجم التعريفات**، تح: محمد صديق المنشاوي، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، دط، دت).
- الجنداري، إبراهيم. **الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا**، (دمشق: دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2013م).
- الجوزية، محمد إبن القيم. **التفسير القيم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1948م).
- جوف، فانسون. **شعرية الرواية**، ت: لحسن أحمامة، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، 2012م).

- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. **صحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ت: محمد محمد تامر، (القاهرة: دار الحديث، 2009م).
- جينيت، جيرار. **خطاب الحكاية – بحث في المنهج**، ت: محمد معتصم و عبدالجليل الأزدي و عمر حلي، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط2، 1997م).
- جينيت، جيرالد. بوث، واين. أوسبنسكي، بوريس. فرانسواز، ف. غيون، روسوم. كريستيان، أنجليت. هيرمان، يان. **السرديات، ضمن كتاب نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير**، ت: ناجي مصطفى، (اللاذقية: منشوارت الحوار، ط1، 1989م).
- حجازي، سمير سعيد. **قاموس مصطلحات النقد الأدب المعاصر**، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ط1، 2001م).
- الحجازي، محمد محمود. **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، (الزقايق: دار التفسير للطبع والنشر، ط2، 2004م).
- حسام الدين، كريم زكي. **الزمن الدلالي**، (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2002م).
- حسان، تمام. **البيان في روائع القرآن –دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني–** (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1993م).
- حسنين، أحمد طاهر ومجموعة مؤلفين. **ظرف المكان في النحو العربي وطرق توظيفه في الشعر ضمن كتاب جماليات المكان**، (الدار البيضاء: دار قرطبة، ط2، 1988م).

- الحسين، أحمد جاسم. **القصة القصيرة جدًا–مقاربة تحليلية**، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دط، 2010م).
- الحلو، حكمت درو. زريمق خليفة العكروتي، **مدخل إلى علم النفس**، (القاهرة: المكتب المصري، 2004م).
- حمودة، عبد العزيز. **المرايا المحدبة– من البنوية إلى التفكيك**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م).
- الخالدي، صلاح. **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، (دمشق: دار القلم، ط1، 1998م).
- الخرشة، أحمد غالب. **أسلوبية الانزياح في النص القرآني**، (عمان: الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط1، 2014م).
- الخطيب، عبدالكريم. **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، (بيروت: دار المعرفة، ط2، 1975م).
- خلف الله، محمد أحمد. **الفن القصصي في القرآن الكريم**، (بيروت: الجامعة الأمريكية، ط1، 1951م).
- خليل، إبراهيم. **بنية النص الروائي**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م).
- خليل، عمادالدين. **التفسير الإسلامي للتاريخ**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط3، 1981م).
- خورشيد، فاروق. **في الرواية العربية عصر التجميع**، (بيروت: دار الشروق، ط3، 1982م).

- الدجاني، زاهية راغب. **يوسف في القرآن الكريم والتوراة–دراسة مقارنة للمشاهد والعبر،** (بيروت:دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 1994م).
- ديكرو، أوزو الد وجان ماري سشايفر. ت: منذر عياشي، **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان،** (بيروت–الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 2007م).
- الراجحي، عبده. **النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج،** (بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر، 1979م).
- الرازي، فخرالدين. **تفسير مفاتيح الغيب،** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **مفردات ألفاظ القرآن،** ت: صفوان عدنان داودي, (دمشق: دار القلم، بيروت: دار الشامية، ط4، 2009م).
- رشدي، رشاد. **فن القصة القصيرة،** (القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية للطبع والنشر، ط2، 1964م).
- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار،** (القاهرة: دار المنار، ط2، 1947م).
- الرويلي، ميجان وسعد البازغي. **دليل الناقد الأدبي،** (الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2002م).
- ريكور، بول. **الزمان والسرد،** ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2006م).

- ريكور، بول. **الوجود الزمان السرد**، ت: سعيد الغانمي، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ، ط1، 1999م).
- زيتوني، لطيف. **معجم مصطلحات نقد الرواية**، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، ط1، 2002م).
- الساقي، فاضل مصطفى. **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، (القاهرة: مكتبة الخانجي, دط، 1977م).
- السامرائي، فاضل صالح. **التعبير القرآني**، (عمان: دار عمار، ط4، 2006م).
- السامرائي، فاضل صالح. **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، (القاهرة: العاتك لصناعة الكتاب، ط2، 2006م).
- السامرائي، فاضل صالح. **مراعاة المقام في التعبير القرآني**، (بيروت: دار بن كثير، ط2، 2019م).
- سعيد، خالدة. **حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1986م).
- سلفرمان، ج. هيو. **نصيات بين الهرمنوطيقا والتفكيكية**، ت: حسن ناظم وحاكم علي صالح، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 2002م).
- السيد علي صدرالدين بن معصوم المدني، **أنوار الربيع في أنواع البديع**، (النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ط1، 1969م).

- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبو بكر. **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1988م).
- الشايب، أحمد. **أصول النقد الأدبي**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط10، 1994م).
- الشربيني، لطفي. **موسوعة شرح المصطلحات النفسية**، (بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 2001م).
- الشرقاوي، أحمد محمد. **المرأة في القصص القرآني**، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2001م).
- الشعراوي، محمد متولي. **قصص الأنبياء**، (القاهر دار القدس للنشر والتوزيع، ط1، 2006م).
- الشعراوي، محمد متولي. **معجزة القرآن**، (القاهرة: أخبار اليوم، 1981م).
- الشهرزوري، **يادطار** لطيف. **السرديات المعاصرة من قبل الحداثة إلى مابعد الحداثة ثورة الخيال السردي**، (دمشق: دار الزمان، ط1، 2019م).
- الشهرزوري، **يادطار** لطيف. **جماليات التلقي في السرد القرآني**، (دمشق: دار الزمان، ط1، 2010م).
- شيخ أمين، بكري. **التعبير الفني في القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ط1، 1973م).
- الصالح، صبحي. **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط10، 1977م).
- صحراوي، إبراهيم. **السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ،ط1، 2008م).

- الصرصري، سليمان بن عبد القوي بن عبدالكريم. **الإكسير في علم التفسير**، ت: عبدالقادر حسين,(بيروت: دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1989م).
- صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982م).
- طاليس، أرسطو. **فن الشعر**، ت:د. إبراهيم حمادة، (مصر: مكتبة الانجلو مصرية، دط، دت).
- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. **مجمع البيان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م).
- طبل، حسن. **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 1998م).
- الطراونة، سليمان. **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، (الجزائر: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط1، 1992م).
- الظواهري، كاظم. **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991م).
- عباس، فضل حسن. **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، (عمان: دار الفرقان، ط1، 1987م).
- عباس، فضل حسن. **قصص القرآن الكريم**، (الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط3، 2010م).
- العبد، محمد. **المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة**، (القاهرة: دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1994م).
- عبدالحليم، رنا أحمد. **جماليات المفارقة في القصص القرآني**، (عمان: وزارة الثقافة، 2014م).

- عبدالعظيم، سعيد. **قصص القرآن عظات وعبر**، (الاسكندرية: دار العقيدة للتراث، ط1، 2001م).
- عبدالمطلب، محمد. **البلاغة والأسلوبية**، (القاهرة: دار نوبار للطباعة، ط1، 1994م).
- عبدالمطلب، محمد. **بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي**، (مصر: دار المعارف، ط3، 1995م).
- عزام، محمد. **شعرية الخطاب السردي**، (دمشق: منشورات أتحاد الكتاب العرب، 2005م).
- عشراتي، سليمان. **الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي**، (دمشق: دار العرب، 2012م).
- علوش، سعيد. **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء، سوشبريس، ط1، 1985م).
- العمادي، أبو السعود محمد بن محمد. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت).
- العيد، يمنى. **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، (بيروت: دار الفارابي، ط3، 2010م).
- الغذامي، عبدالله محمد. **المشاكلة والاختلاف**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1994م).
- فتحي، إبراهيم. **معجم المصطلحات الأدبية**، (تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1986م).

- فريحات، عادل. **مرايا الرواية دراسة تطبيقية في الفن الروائي**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م).
- فضل الله، محمد حسين. **الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته**، (بيروت: دار الملاك، ط5، 1996م).
- فورستر، إ.م. **أركان الرواية**، ت: موسى عاصي، (طرابلس-لبنان: جروس برس، ، ط1، 1994م).
- الفيروزآبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، (القاهرة: دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، 2008م).
- الفيصل، سمر روحي. **الرواية العربية بناء ورؤيا** (مقاربات نقدية)، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2003م).
- فيود، بسيوني عبدالفتاح. **علم المعاني-دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني**، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع, ط4, 2015م).
- قاسم، سيزا. **بناء الرواية-دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ**، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1985م).
- القاضي، محمد وآخرون. **معجم السرديات**، (تونس: دار محمد علي للنشر، ط1، 2010م).
- القشيري، الإمام القشيري، **لطائف الإشارات-التفسير الصوفي الكامل للقرآن الكريم**، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 200م).
- القطان، مناع خليل. **مباحث في علوم القرآن**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط7، 1995م).

- قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ، ط17، 2004م).
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ط32، 2003م).
- قطب، **سيد. مشاهد القيامة في القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الشروق، ط14، 2002م).
- قطب، محمد. **منهج الفن الاسلامي**، (بيروت: دار الشروق، ، ط6، 1983م).
- القليني، سامح. **الجلال والجمال في أسلوب الالتفات في القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة الوهبة، دط، دت).
- قنسبي، حامد صادق. **المشاهد في القرآن الكريم –دراسة تحليلية وصفية**، (الزرقاء: مكتبة المنار، ط1، 1984م).
- الكردي، عبدالرحيم. **البنية السردية للقصة القصيرة**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط3، 2005م).
- الكردي، عبدالرحيم. **الراوي والنص القصصي**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 2006م).
- كنعان، شلوميت ريمون. **التخييل القصصي– الشعرية المعاصرة**، ت: لحسن حمامة، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1995م).
- لحمداني، حميد. **بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي**، (الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2000م).
- اللوح، عبدالسلام حمدان. **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، (غزة: آفاق للطبع والنشر والتوزيع، ط2، 2002م).

- مارتن، والاس. **نظريات السرد الحديثة**، ت: حياة جاسم محمد، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998م).
- مانفريد، يان. **علم السرد مدخل إلى نظرية السرد**، ت: أماني أبو رحمة، (دمشق: دار نينوى، 2011م).
- ماي، شارلز. **التحفيز الاستعاري في القص القصير** (**في البدء كانت القصة**)، **ضمن كتاب القصة الرواية المؤلف–دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة**، ت: خيري دومة، (القاهرة: دار الشرقيات للنشر والتوزيع، ط1، 1997م).
- المبارك، محمد. **فقه اللغة دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية**، (دمشق: مطبعة جامعة دمشق، 1960م).
- مبروك، مراد عبدالرحمن. **آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة_الرواية النوبية نموذجًا**، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2000م).
- مبروك، مراد عبدالرحمن. **بناء الزمن في الرواية المعاصرة**، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1988م).
- محمد، أحمد سعيد. **التوجيه البلاغي في القراءات القرآنية**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط2, 1997م).
- مرتاض، عبد الملك. **التحليل السيميائي للخطاب الشعري**، (دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، ، 2005م).

- مرتاض، عبد الملك. **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998م).
- مرتاض، عبد الملك. **مقامات السيوطي**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996م).
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد. **كتاب الأزمنة والأماكن**، (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف، ط1، 1332هـ).
- المرزوقي، سمير وجميل شاكر. **مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا**، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م).
- مزاري، شارف. **مستويات السرد الإعجازي في القرآن الكريم**، (دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، 2001م).
- مطاوع، سعيد عطية. **الإعجاز القصصي في القرآن**، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ، ط1، 2006م).
- مفتاح، محمد. **تحليل الخطاب الشعري– استراتيجية التناص**،(الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م).
- مفتاح، محمد. **دينامية النص –تنظير وإيجاز–** (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط3، 2006م).
- المناصرة، حسين. **القصة القصيرة جدًا رؤى وجماليات**، (إربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 2015م).

- الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة. **معارج التفكر ودقائق التدبر**، (دمشق: دار القلم، ط1، 200م).
- ميرغني، هاشم. **بنية الخطاب السردي في القصة القصيرة**، (الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ط1، 2008م).
- ناصيف، مصطفى. **مسؤولية التأويل**، (مصر: دار السلام، ط1، 1999م).
- نايف، بشار إبراهيم. **البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2011م).
- نجم، محمد يوسف. **فن القصة**، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1955م).
- النصير، ياسين. **الرواية والمكان**، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1986م).
- نفرة، التهامي. **سيكولوجية القصة في القرآن**، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1974م).
- الهاشمي، السيد أحمد. **جواهر البلاغة**، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، 2008م).
- هامون، **فيليب**. **سيمولوجية الشخصيات الروائية**، ت: سعيد بنكراد، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2013م).
- هوثورن، جيريمي. **مدخل لدراسة الرواية**، ت: غازي درويش عطية. (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1996م).
- يقطين، سعيد. **السرد العربي مفاهيم وتجليات**،(القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ، ط1، 2006م).

- يقطين، سعيد. **الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، - المغرب، ط1، 1997م).
- يقطين، سعيد. **قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية**، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1997م).
- يوسف، آمنة. **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 1997م).

ثانيًا: الرسائل والأطاريح:

- برحمون، فاطمة زهرة. **دلالة المتشابه اللفظي في السياقات القرآنية، أطروحة دكتوراه**، (الجزائر: جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، 2016-2017م).
- بن عمر، مريم. **التشاكل والتباين في ديوان "النبية تتجلى في وضح الليل"** لربيعة جلطي، رسالة ماجستير، (سكرة: جامعة محمد خيضر، 2015-2016م).
- بن يوسف، رياض. **أدبية السرد القرآني مقاربة من منظور علم السرد**، أطروحة دكتوراه، (الجزائر: جامعة منتوري-قسنطينة، 2009-2010م).
- حسيب، شيخ شاهد. **أسلوب القصة في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (إسلام آباد: الجامعة الوطنية للغات العصرية، 2008م).
- خضر، محمد مشرف. **بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (مصر: جامعة طنطا: دت).

- الداية، رائد مصباح. **البناءات الجمالية في النص القرآني**، رسالة ماجستير، (غزة: الجامعة الإسلامية- كلية الآداب، 2011م).
- دبور، محمد عبدالإله عبده. **أسس بناء القصة في القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية**، أطروحة دكتورا، (مصر: جامعة الأزهر، 1996م).
- الشتوي، فهد بن شتوي بن عبدالمعين. **دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام**، رسالة ماجستير، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، 2005م).
- طول، محمد. **أسلوب السرد القصصي في القرآن**، رسالة ماجستير، (تلمسان: جامعة بوبكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، 1988م).
- العناتي، وليد أحمد محمود. **التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية**، أطروحة دكتورا، (الأردن: الجامعة الأردنية، 2000م).
- لطروش، بن ذهيبة. **إشكالية الزمن في القصص القرآني**، أطروحة دكتورا، (الجزائر: جامعة جيلالي إإليابس- سيدي بلعباس 2016-2017).
- لقمة، محمد محمد محمد. **الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية**، أطروحة دكتوراه، (مصر: جامعة الأزهر: 1968م).
- مكي، مريم. **بنية الخطاب الشعري الجزائري المعاصر-دراسة تحليلية-**، رسالة ماجستير، (الجزائر، جامعة وهران، 2013-2014م).

- الهتاري، عبدالله علي عبدالله. **العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم**، أطروحة دكتوراه، (جامعة اليرموك، 2004م).
- يحيى، عماد عبد. **البنى والدلالات في لغة القصص القرآني دراسة فنية**، أطروحة دكتوراه، (العراق: جامعة الموصل-كلية الآداب، 1992م).

ثالثًا: المجلات والدوريات:

- الأحمد، محمد. **البنية الفنية في قصة يوسف عليه السلام**، (مجلة كلية الإلهيات بجامعة كوموش خانة، العدد: 8، 2019م).
- بو طيب، عبدالعالي. **إشكالية الزمن في النص السردي**، (مجلة فصول، دراسة الرواية، العدد/2، المجلد/12، 1993م).
- دبيح، محمد. **ثنائية التشاكل والتباين في النقد المغاربي**، (مجلة المخبر، العدد العاشر، 2014م).
- عبد, أحمد مخلف. **أوجه الاختلاف بين قصتي يوسف وموسى عليهما السلام -دراسة موضوعية مقارنة-** (مجلة الباحث للعلوم الإسلامية، المجلد: 2، العدد: 1، 2021م).
- علوش، علي. **الالتفات وأثره في اتساق القصص القرآني- سورة الكهف أنموذجًا**، (مجلة الموروث، المجلد التاسع، العدد الثاني، كانون الأول/2021م).
- فرحان، بان حميد. **جمالية القصة القرآنية-قصة سيدنا يوسف أنموذجًا**، (مجلة كلية الآداب، العدد: 101، 2012م).
- كالو، محمد محمود. **القصة القصيرة جدًا في القرآن الكريم**، (مجلة التدوين، العدد الثاني عشر، 2019م).

- مرامي، جلال. **دراسة القصة القرآنية القصيرة جدًا وعناصرها**، (طهران: إضاءات نقدية، السنة السادسة/العدد الثاني والعشرون، 2016م).
- هبيرة، عزالدين. **تشكيل الزمن السردي في القصص القرآني–قصة موسى أنموذجًا**، (مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد: 15، يونيو، 2015م).
- الهتاري، عبدالله علي عبدالله. **تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي**، (مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد:22، حزيران–كانون الأول/2006م).
- الهيشري، الشاذلي. **الالتفات في القرآن**، (جامعة تونس: حوليات الجامعة التونسية، العدد: 32، 1991م).

رابعًا: المواقع الإلكترونية:

- عدّاي، عبدالرسول. **المكان الشعري في قصة الخلق–النص القرآني**، (مجلة علامات، العدد/814، 2000م) المتاحة عبر موقع سعيد بنكراد الإلكتروني.

السيرة الذاتية

- تخرج الباحث من جامعة صلاح الدين – أربيل /كلية الآداب / قسم اللغة العربية سنة 1993م، وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها، وكان من العشرة الأوائل ضمن دفعته.
- حصل الطالب على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها وبتقدير امتياز عن رسالته الموسومة بـ(التبئير السردي في روايات تحسين كرمياني) في قسم اللغة العربية –كلية اللغات – جامعة صلاح الدين – أربيل سنة 2015م.
- نشر الباحث كتاب (التبئير السردي في روايات تحسين كرمياني) الذي أصدرته دار تموز في سوريا سنة 2015م.
- نشر الباحث بحثًا مشتركًا بعنوان (دلالة أسماء المكان في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري) في مجلة (البلاغ للدراسات الإسلامية والإنسانية) العدد/2/ تشرين الثاني 2022م.
- يعمل الباحث منذ 30 عامًا، في مجال التدريس لمادتي اللغة العربية والتربية الإسلامية في إعداديات التمريض والقبالة التابعة لوزارة الصحة.

KUR'AN ANLATIMINDA KONTRAST ÜSLUBU

2023
DOKTORA TEZİ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ

Bikhtiyar Kheder AHMEDARSH

Tez Danışmanı
Doç. Dr. Aladdin GÜLTEKİN